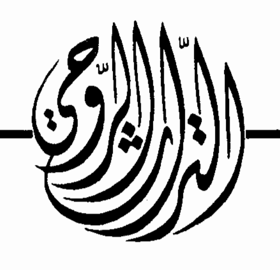
اعترافات
القديس اغوسطينوس

طُبع بإذن الرؤساء

 طبعة رابعة ١٩٩١
دار المشرق ش.م.م – ص.ب. ٩٤٦ – بيروت

ISBN 2-7214-4637-1

التوزيع :
المكتبة الشرقية ، ص.ب. ١٩٨٦
بيروت ، لبنان



اعترافات القديس اغوسطينوس

نقلها الى العربية

الخوري يوحنا الحلو

الطبعة الرابعة





مقدمة

هنالك في تاغسطا ، المعروفـــة اليوم بسوق أخرس بالجزائر ، ابصر اغوسطينوس النور ، في بيت شريف ، من أب وثني وأم مسيحية في ١٣ تشرين الثاني سنة ٣٥٤. توسّم فيه والداه الخير فأخذا يعدّانه لمستقبل باهر. وهل اضمن للنجاح ، في مجتمع روماني ، من العلم والثقافة العالية ؟ دخل المدرسة الابتدائية ، صغيراً ، حتى اذا ما اكمل الثانية عشرة من عمره انتقل الى معهد شهير في مادورا .

واخذ الفتى الطري العود ، الحاد الذكاء ، ينهل العلم عن اساتـــذة تضلّعوا من اصوله وتمرّسوا به طويلاً ؛ ويتودد الى اترابٍ له في المدرسة ، جرُّوه وراءهم على طريق الشر والفساد في سنٍّ مبكرة ؛ ولم يخالفهم رأياً ؛ وأبى ان يتخلّف عنهم في مداعبة الاثم والارتماء في احضانه؛حتى كانت السنة السادسة عشرة من سنه قاسية جداً عليه ، سوف يذكرها ، طوال حياته ، بكثير من المرارة والألم .

وعجز والداه عن تأمين سفره الى قرطاجا لمتابعة دروسه فانفتح امامه باب اللهو واسعاً ؛ ولها بأقدس المحرمات ؛ وتعرّف الى امرأة ، ساكنها واستولدها طفلاً سمّاه اديودات . ولم يأبه لنصائح امه وتوجيهاتها الحكيمة ؛ فتسلّحت بتقوى الله والصلاة للتغلب عليه في محنته .

وحين توفرت له اسباب الرجوع الى المدرسة عاد واكبّ على الدرس

والتحصيل الجامعي فجلّى بين زملائه في فن الخطابة ؛ ودرس المحاماة دون ان تحلو له ممارستها واعتبرها مهنة يكثر فيهـــا التدجيل ؛ ولمّا سئل رأيه فيها ، لم يتورّع من ان يجيب : « نجاح المرء في فن المحاماة رهين بكذبه ونفاقه » .

وطلب اغوسطينوس الحقيقة ، في شهوات الجسد ، فأخفق ؛ بيد انه لم يكفر بها ولا انقطع عنها.وطلبها في كتاب هورتنسيوس لشيشرون فلم يشبع جوعه ! واستهواه المانويون فمال الى خزعبلاتهم وجلس على موائدهم ،وتناول من زادهم ، فلم يجد لديهم ريًّا لعطشه ، وراحة لنفسه القلقة ، المضطربة ، مع انه رضي ، لمدة وجيزة ، بتعاليمهم عن اصل الكون ونهاية المخلوقات ووجود الخير والشر .

ولما انهى دروسه وعاد الى مسقط رأسه ، استقبلته امه ، بكثير من الخوف والحذر ، لاعتناقه المانوية وانحرافه عن جادة الحق والصواب ؛ وهي التي كانت تقدّمه ، كل يوم ، بدموعها الى مذبح الرب ، على امل ان تراه ، بين ساعة وساعة ، وقبل ان تغادر هذه الحياة ، مسيحياً مؤمناً ، يفتح قلبه وعقله على نور الانجيل وخلاصه .

وانقضت ، على هذه الحال ، ايـــام وشهور : مونيكا الأم تصلي ؛ واغوسطينوس الابن مُغرقٌ في ضلاله ، متغافلٌ عن رغبتها ، متباطىءٌ في اقتبال العماد . ألم يتسرّب اليأس الى قلب الأم ؟ الم تتوقّع الهلاك الأبدي لهذا الابن الذي يوغل في الشر ويعب من ينبوعه بلا وزن ولا كيل؟ كلا ؛ ان ثقتها بالله أقوى من ان تتحطم على صخرة تجربةٍ كالتي مرّت بها !

وسافر من جديد الى قرطاجة ، حيث اسس بمساعدة احد اثريـــاء المدينة معهداً لتدريس الخطابة ، فاقبل عليه الطلاّب من كل حدبٍ

وصوب . واخذ يلقّنهم ، وجلهم من عمره ، فن الكلام . ولم يتقيد بمنهج رسمي ؛ بل كان يتحيّن الفرص وينضم الى صفوفهم ، خارج اوقات الدرس ، ليقضي معهم زمناً ، يتناقشون في خلاله مختلف المواضيع .وسرعان ما اكتسب ثقتهم وتقديرهم وحبّبوا اليه السفر الى روما للتدريس ؛ لأن قرطاجة ، في نطاقها الضيق ، اعجز من ان توفّيه حقه في هذا المضمار . وراقه هذا الاقتراح فانتقل الى روما وتألّب حوله الطلاّب ينهلون عنه العلم ويبخلون عليه بالزهيد، الزهيد من المال الضروري لمعيشته . ولم يمكث فيها طويلاً بل راح الى ميلانو يعلّم الخطابة سنة ٣٨٤ .

وكأن العناية الالهية اقتادته الى تلك المدينة حين لم يكن يحلم بها ؛ وآتته ظروفاً لم يكن يتوقعها ، لتحقّق بواسطته الخير الذي تريده ! أوليست هي التي تسحق كبرياء المتكبرين وتسيّر الناس ، وهم لا يدرون ، الى ما قد يجنون منه الخلاص والخير لنفوسهم وللعالم ؟

في ميلانو ، غمره لفيفٌ من اصدقائه الافريقيين بعطفهم ومحبتهم . وعلمت والدته بسفره فلحقت به واخذت تلحُّ عليه ليقطع علاقاته الاثيمة بتلك التي ولدت له « ابن الزنى » المعروف . ولم يخيّب اغوسطينوس، هذه المرة، رجاءها ؛ وأبعد أم ولده عنه الى افريقيا ، مستبقياً لديه ابنه اديودات. بيدَ ان هجر تلك المسكينة ، على هذا النحو ، لم يكن مشرّفاً له ولأمه ؛ اذ كان من الأفضل ان يتزوجها بموجب الشرع . بيد انهما ارتضيا ذلك الحلَّ ، مسايرة لتقاليد المجتمع الروماني البالية .

ولدى قدومه الى ميلانو تعرف اغوسطينوس الى امبروسيوس اسقف المدينة وتردد عليه فتعلّقه ؛ واستمع الى مواعظه فاعجبته بلاغتها ؛ وعايش الكاثوليك فصادق اكثر من واحد كما حظي بصداقة سمبلشيانوس، الكاهن

الشيخ ، المعروف في المدينة بتقواه وفضيلته ؛ فكفر بماضيه واقتنع بضرورة العماد ثم ما لبث ان عدل عنه حتى نهاية السنة الدراسية لأنه اعتبره نعمة عظمى لا توازيها نعمة اذا مـــا قبلها المرء وجب عليه الترفع عن كل عيب .

الامَ نعزو هذا التردد امام العماد ؟ ألى ضعفٍ في ايمانه بالله ؟ أم الى رغبةٍ في التمتع بما استوقفه طويلاً من شؤون هذه الحياة وشجونها؟من الأكيد ان لا شيء عاد يستهويه من هذا القبيل ؛ انما خوفه من ضعف شخصي قد يجره الى خيانة ربه الذي لم يبرحه البتة في اشد لياليه حلكة واحرج ظروفه ، هو الذي استمهله حتى ذاك الحين وأخره عن قبول سر الخلاص ! ألم تكن يد الله الخفية تعمل من وراء هذا الستار الذي لا تخترقه عينانا الحسيتان ؟

انهى اشغاله المدرسية وراح يستعرض في عزلة تامة ، في كسيسياكوم ، ماضيه المرير المؤلم ؛ وهنالك ، بعيداً عن العالم ، بالصلاة والصوم والتأمل اعاد النظر في حياته كلها واعتمد؛ فكان اهتداؤه الى الكثلكة حدثاً صاعقاً في ميلانو . ثم قرر ان يعود مع ابنه وامه واخيه الى مسقط رأسه في افريقيا ولكنّ وفاة امه في ارض غربة احزنته كثيراً وأخرت سفره فانتقل الى روما يحذّر الناس من شرّ المانويين وفساد تعليمهم .

وكأن الله اراد ان يعجم عود اغوسطينوس ويقيس مدى حبه له فابتلاه بالمصائب . وهل اعظم من المصيبة محكاً ؟ ماتت امه ؛ ومات وحيده في الثامنة عشرة من عمره ، وكان حزنه عليهما كبيراً ...

وتعرضت الكنيسة الكاثوليكية لصدمات عـــدة من مختلف البدع المسيحية ؛ فاستعان به كاثوليك هيبون لصد هجمات الدوناتيين الكلامية ؛ وقدموه الى اسقفهم فرقّاه الى الدرجة الكهنوتية واتخذه مساعداً له في ادارة الأبرشية .

ان نفساً رقيقة الشعور ، مرهفة الحس ، كنفس اغوسطينوس ، تلمُّ بدقائق الأمور وتستشعر حاجات الناس لأنها تعيش الحقيقة ، صافية ، مجردة عن كل لبس وإبهام ، تعالج امور الحياة بحكمة وروية وتغرف من بحر اختبارها الواسع لتعطي كل من ضل السبيل السويّ. خدم اغوسطينوس ، قريبه ، كاهناً ، كما خدم كنيسته ؛ خدم قريبه في مواعظه وكتاباته كما اشترك عام ٣٩٣ اشتراكاً فعلياً في مجمع هيپون وحمل بشدة على ما ساء من عادات الوثنية المتسربة الى صفوف المسيحيين الذين كانوا يجعلون كنائسهم ومعابدهم ، في اعيادها التذكارية ، مسارح للأكل والشرب والقصف .

وحين توفي مطرانه سيم اسقفاً خلفاً له فساس الابرشية طوال اربع وثلاثين سنة كان في خلالها المرجع الوحيد للجميع ؛ ولم يكف عن التأليف والكتابة برغم كثرة اشغاله الادارية والروحية .

وكتب اعترافاته في ثلاثة عشر كتاباً . وهي ليست صك اتهام ضد نفسه بقدر ما هي شهادة حية تنطق بجود الله وصلاحه ومحبته وتعترف بفضله . اي انسانٍ بلغ من الصدق في الاقرار بذنبه ما بلغه اغوسطينوس؟ واي انسانٍ لم يُخْفِ في اقراره بالواقع المرير عيباً خجل منه ؟ اما اغوسطينوس فقد حطم قيود الحياء البشري وسحق الكبرياء وقضى في ذاته على الانانية التي تستعبد معظم الناس ! انه لم يكن خاطئاً ، اقرب الى الناس ، منه ، تائباً . كلا ؛ اغوسطينوس نفسه ، العطشان الى الحقيقة ، قبل عماده ، يعبُّ من سرابها الوهمي ، راح اليوم ينهل ، بعد عماده ، بنفس الشغف والشوق من ينبوعها الصافي .

وسنة ٤١٠ هاجم الغوط روما بقيادة ألاريك واستولوا عليها اياماً ثلاثة عاثوا في خلالها سلباً ونهباً وتقتيلاً فخاف الرومان على مدينتهم وايمانهم ،

فقام اغوسطينوس يهدئ الافكار ويوطد الايمان الذي تزعزع فألّف كتابه الشهير : مدينة الله . وقارن فيه بين مدينة الله والمدينة الأرضية حتى كان افضل ما قيل في الايمان ؛ ولقد علم اغوسطينوس بالفائـــدة التي سوف تجنيها منه الكنيسة اليوم وغداً .

وقبل ان تخمد جذوة الحياة في ذلك الرجل العظيم في الثلاثين من آب سنة ٤٣٠ شهد بكثير من الحزن والالم دخول الڤانـــدال الى مدينة هيپون وفتكهم الذريع بابنائه ؛ وكأني به راح يردد في ساعاته الأخيرة امام مشهد الخراب والدمار « ان ما يحرسه المسيح لن ينتزعه الغوط » .

صيدا في العاشر من حزيران ١٩٦٢

الكتابُ
الأولُ

الحداثة

صلاة

عظيم انت يا رب وجدير انت بكل تسبيح . عظيمة هي قدرتك وحكمتك لا حدَّ لها . ان الانسان ، وهو الجزء الحقير من مخلوقاتك ، يتوق الى تسبيحك . انه ينطوي على جرثومة موته ، ويتلبَّس بما يشهد على خطيئته وعلى انك تسحق المتكبرين . ومع ذلك يتوق الى تسبيحك ، هو الجزء الحقير من مخلوقاتك ! انت تحثه على ان يبحث عن غبطته في تسبيحك ؛ لأنك ، خلقتنا لأجلك ، ولن يهدأ قلبٌ لنا حتى يستقرَّ فيك .

هب لي يا رب ان اعرف كيف ابدأ وادرك ؛ أأدعوك اولاً ثم اسبحك ؟ ام اعرفك فأدعوك ؟ وانَّى لي ان ادعوك قبل ان اعرفك؟ وقد يدعو ، من لا يعرف ،واحداً، بدلاً من آخر . وهل ادعوك اولاً ، ثم اعرفك ؟ وانّى لي ان ادعو ، وانا غير مؤمن ؟ ام كيف أومن وليس هنالك من يبشرني ؟

الباحث عن الرب يسبحه وطالب الرب يجده . ومن يجد الرب يسبحه حقاً ! هل لي ، يا رب ، ان اطلبك داعياً ؟ وان ادعوك ، وانا مؤمن بك ، وقد حملت الينا بشارتك ؟

اللهمَّ ، اني ادعوك بايماني الذي وهبتنيه ، واوحاه اليَّ ابنك في ناسوته ؛ ثم بشرني به خادمك[١] .

ولكن ، كيف ادعو الهي ، الهي وربي ؟ ادعوه واسأله ان يأتي الي ! وايُّ موضعٍ فيَّ يتسع له ؟ ايُّ موضع يتَّسع لله خالق السماوات والارض ؟ ربي والهي ، ألديَّ موضع يتسع لك ؟ هل تتسع لك السماوات ام تتسع لك الارض التي خلقتها واوجدتني عليها ؟ ألأن كل موجودٍ ، عدمٌ ، دونك ، يتسع لك ؟ اذاً ، ولِمَ انا الموجود ، ولا كيان لي بدونك ، اسألك ان تأتي الي ؟ انا لم اصل الى الجحيم ؛ اما انت فموجود فيهـــا . ولو قُدِّر لي ان اهبط الى الجحيم لوجدتك هناك[٢] .

اذاً ، لا كيان لي ، يا الهي ، الا فيك ! او بالأحرى لا وجود لي لو لم اكن فيك ، يا من بك وفيك ومنك كل موجود !

اجل ، اجل ، يا رب ، اين ادعوك وانا فيك ؟ ومن اين تأتي اليَّ ؟ الى اين اذهب، بعيداً عن السماء والأرض فيأتي الي الهي القائل : ألستُ اسع بذاتي السماء والأرض؟ وهل تتسع لك السماوات والارض لأنك تسعها؟ ام انك تسع ما يزيد عنها لأنها تتسع لك ؟ واين تلقي بتلك البقية بعد ان تمتلىء منك السماوات والأرض ؟ إلاَّ اذا كنت ، اللهمَّ ، بغنى عن مكانٍ يتسع لك انت يا من تسع الكل ! انت تملأ الكائنات باتساعك لها ! ولا تستمد كيانك ممَّا يتسع لك لأنك لا تفيض اذا تحطم وحين تفيض ذاتك علينا ، لا تفيض علينا بل ترفعنا اليك ! انت لا تندثر هنا وهناك بل تجمعنا اليك ، نحن المبدَّدين ! وتلك التي تسعها ، أبكليتك تسعها ؟ وبما انها لا تتسع لك بكليتك ؛ اكلُّها يتسع لجزءٍ منك ؟ ام كل شيء يتسع لجزء

(١) قد يكون الخادم المبشر القديس امبروسيوس صاحب اليد الطولى في هدايـــة اغوسطينوس .

(٢) مزمور ١٣٨

مناسب؟ للكبير جزء كبير ، وللصغير صغير؟ انجد فيك جزءًا اكبر وآخر اصغر ؟ ام انك في كل مكان ، ولا شيء يتسع لك ؟

من انت اذاً يا الهي؟ من انت ؟ اسألك، من انت ؟ ان لم تكن الرب الاله ؟ ومن هو ربٌّ إلآك ؟ ومن هو الهٌ الا الهنا ؟

ايها الرفيع ، الكريم ، القدير ، الجبّار ، الرحيم ، العادل ، الخفي ، الحاضر ، الجميل ، القوي ، الفائق الادراك ، يا من لا يتغير ويغير كل شيء ؛ يا من لا يتجدد ولا يشيخ ؛ يا من هو ابداً جديد ؛ ويعطي كلاً جدته ! ايها المسيّر المتكبرين الى الهرم على غفلةٍ منهم ! يا دائم العمل والراحة ومكدّس الغلال على غير حاجةٍ اليها ! ايهـــا الحامل ، المالئ ، الحافظ ، الخالق ، المغذي ، المكمّل ، الباحث من دون عوز .

تحب ولا تلتهم ، تغار ولا تهتم ، تندم ولا تتوجَّع ، تغضب ولا تثور ، تبدّل اعمالك ولا تغير مقاصدك، تسترجع حين تجد ولا تخسر ابداً.انت، لم تعرف الفاقة ، ومع ذلك فانك تغتبط بالكسب ! انت لم تعرف الجشع ومع ذلك فانك تطالب بالرَبَاء .

تأخذ اكثر ممَّا لك لتصبح مديناً : ومن ذا يملك شيئاً ليس لك ؟

تدفع ما عليك دون ان تكون مديوناً لأحد .

تترك مالك ولا تخسر شيئاً .

اصحيح ما اقول، يا الهي ، ويا حياتي وحلاوتي المقدسة ؟ وما هو الواقع الذي نعبّر عنه حـــين نتكلم عنك ؟ ولكن ، الويل ، ثم الويل ، لمن يحتفظون بالصمت تجاهك ؛ لانهم ثرثارون وهم يخرسون ! من يهبني راحة فيك ؟ ومن لي بمن يدفعك الى قلبي لتُسْكِرَهُ فانسى آلامي واعانقك يا خيري الاوحد ؟ من انت لي ؟ ارحمني فأتكلم . ومن انـــا في عينيك حتى تأمرني بأن احبك ؟ إن أبَيْتُ ، غضبتَ ؛ وهددتني بشرّ الاهوال !

اصحيح ان بغضي لك ، شرٌ كبير ؟ واحسرتاه ! قل لي ، بحق مراحمك ، قل لي ، من انت ايهـا الرب الهي ؟ من انت لي ؟ قل لنفسي : « انا خلاصك» وقل لي حتى اسمع كلمتك فقلبي منصتٌ ؛ افتحه وقل لنفسي : « انا خلاصك » سأعدو في اثر كلمتك ؛ فلا تحجب وجهك عني . آه ! اني افضل ان اموت كي اراكِ ، وافضل ان اعتصم بك ، لئلاّ اموت !

منزلُ نفسي يضيق جداً عن استقبالك ؛ فوسعه : انـه خرِبٌ ، فاصلحه ؛ وفيه ما يجرح ناظريك ؛ اني لعالمٌ به ، ولهذا اعترف لك . فمن ذا يطهّره ؟ إلى من سواك اهتف صارخاً : « من عيوبي الخفية طهرني يا رب ؛ وجنّبْ عبدك الخطايا التي تتسبَّب له من الآخرين . ولهذا ايضاً اتكلم . اني مؤمن وانت عالم يا رب بأنني شكوت ذاتي انـا الخاطي اليك فمحوت الرجسَ من قلبي . اني لا اريد ان ادخل في القضاء معك ، ايها الحق ؛ ولا اريد ان اخدع نفسي لئلاّ يخدع ، ذاته ، رجسي . لا ادخل ، اذاً في القضاء معك . لأنك ، لو رصدت ارجاسنا يـا رب فمن يقف امامك ؟

ومع ذلك ، دعني ، يا رب ، وانا التراب والرماد ، اتحدث الى رأفتك ! دعني اتكلم ؛ لأني ، الى رأفتك ، اتحدث ؛ لا الى انسانٍ يسخر مني . اما انت فقد تسخر مني ، ولكنك ، تعود فترحمني .

سني حداثته الاولى

وما الذي اقوله يا رب؟اني اجهل كيف اتيت الى هذا العالم ! أأقول ، الى هذه الحياة الميتة ؟ او الى هذا الموت الحي ؟ لقد تلقَّتني ، في هـذا العالم ، رحماتك ، حاملةً الي التعازي ، كما اخبرني والدا جسدي اللذان منهما وفيهما كونتني عندما شئت انت ؛ امَّا انا فلستُ اذكر ذلك .

لقد كان الحليب البشري عزائي الاول . فلا امي ملأت ثدييهـا ولا

مرضعاتي كن يملأن اثداءهن ؛ انما انت كنت تستخدمهن لتعطيني ، بواسطتهن ، غذاء الطفولة ، وفقاً لما رسمتَ ؛ فأخذ اصغرُ مخلوقاتك نصيبه وكفاني مـــا اعطيتني وجعلتَ المرضعاتِ يعطينني هباتك . والحق ، انهن يرغبنَ ، بفضل عاطفة طبيعية في ان يعطينني ، ما توفَّر فيهن من لدنك ؛ وكن يعتبرنَ خيراً لهنَّ ما يمنحنني ؛ لقد كن لهذا الخير ينبوعاً ، لا مبدأ ولا علة. لأنك إللهم، وحدك مصدر كل خير. ومنك وحدك يأتيني الخلاص. وهذا ما تحققته اخيراً يوم اعلنته لي بفضل هباتك الباطنية والخارجية .

كنت اجيد الرضاعة واجيد الصمت والبكاء ، وفقاً لمـــا اشعر به في جسمي من راحة وانزعاج ، لا اكثر ولا اقلَّ . واخذت بعدئذٍ ابتسمُ في نومي اولاً ، ثم في يقظتي. ذاك ما قيل لي عن نفسي ، فصدقته ؛ استناداً الى ما اري لدى سواي من الاطفـــال . لأنني لا اذكر شيئاً عن تلك الدقائق.واخذت علماً، تدريجياً، بمكاني ؛وكنت اتمنّى لو ادلي برغباتي الى من يحققها لي. ولكنها ، تمنٍّ ، ظل طي الكتمان؛ ولم اقوَ على الافصاح عنه لأنـــه داخلي والناس خارجون عني ؛ ولم يتخذوا ادنى واسطة للبلوغ الى نفسي .وكنت ارسل صيحات واقوم بحركات تتفق ووسائلي المحدودة؛ وعليها تنعكس رغباتي ، لا على الحقائق الراهنة . وان رضخوا للأمر ، فذلك عن جهل للحقيقة، او خوفاً من الحاق الضرر بي. كان يزعجني التمرد والعصيان ولو كان صادراً عن الاحرار الكبار. فأثأر لنفسي بالبكاء. تلك كانت حالتي ولم تختلف، على ما اظن ، عن حالة اطفالٍ عرفتهم ومنهم استوحيت، على غير علمٍ منهم ، معرفة ما كنت عليه آنذاك في سنهم . وانه لأمرٌ عجز عن كشفه لي اولئك الذين غذوني صغيراً ، مع ما لهم من خبرة . تلك كانت طفولتي الميتة من زمن . وهاءنذا اليومَ احيا ! اما انت ايها السيد الحي الدائم فلا يعرف الموت اليك سبيلاً لأنك لست سابقاً للاجيال وحسب ؛

بل انت قبل كل شيء يمكن ان يسمَّى قبلاً لأنك الاله رب كل مخلوق. فيك علة كل زائل ؛ وفيك المبادئ الثابتة للكائنات الزائلة ، وفيك العلل الازلية للكائنات الخاضعة دون علة لسُنَّة الزمن !

قل ، اللهم ، لهذا المتوسل اليك .

قل ، يا رحيم ، لهذا المسكين الحقير الذي لك ! هل سبق طفولتي حقبة من حياة شخصية انتهت بالموت ؟ أهو الوقت الذي قضيته في حشى امي ؟ لقد قيل لي عنه الشيء الكثير ؛ ولقد شاهدت انـا بذاتي نساءً حاملات . ولكن ، يا الهي ويا حلاوتي ، اين كنت قبل ذاك الوقت ؟ افي محلٍ ما ، لم ينبئني به احد ؟ لا ابي ولا امي ولا سواهما من ذوي الخبرة حتى ولا ذاكرتي عينها ! اجل لم ينبئني به احد . اتهزأ بي حين ابحث عنه وتأمرني بان اسبحك واجدك ؟

لمجدك ، يا رب السماء والأرض ، دون سواه ، اعترف بكل ما اعلم واعرف عن بداية طفولتي التي لا اذكرهـا . اعطيت الانسان ان يتكهن عنها ، استناداً الى اقوال الناس ؛ ثم اعطيته ثقة كبيرة بكلام نساءٍ ساذجات ، ان اراد التفاصيل الكثيرة عنه .

منذئذٍ كنت ، وحياً كنت ! ثم اخذت في نهاية طفولتي ابحث عن علاماتٍ اعبّر بها لسواي عن تأثراتي. ان لم تكن انت مصدر هذا الكائن الحي ، فمن ، اذاً ، يا رب ؟

من يقوم تجاه ذاتـه بدور الخالق والمخلوق ؟ وهل خرجنا من اصل غريب اعطانا الكينونة والحياة افضل ممَّا لو كنت صنعتنا انت يا رب يا من يجمع بين الكينونة والحياة وبين الكائن الأسمى والحياة الفضلى ؟

انت هو الكائن الاسمى لأنك لا تتغير ؛ لا أثر البتة فيك لليوم الذي ينقضي مع انه فيك ينقضي ؛ لأن كل هذه الاشياء فيك فهي لا تعرف

سبيلاً تسلكه لو لم تسعها انت . وكما ان « سنيك لا تنتهي » فسنوك نهارٌ ازلي . وكم من الايام حتى الآن ، ايامنا وايام ذوينا انقضت في « نهارك » فاكتملتْ فيه ، ومنه عرفت الوجود . وكم مثيلٍ لها يمضي كما وُجد ! اما انت ، انت ذاتك ، فلا تتغير . وكل ما في الغد القريب او البعيد تعمله اليوم كما انك ، اليوم ، عملت ما للماضي القريب او البعيد . ما همني ان لم يكن من يفهم هذه الحقيقة ! اجل ، ليغتبط وليقل : ما هذا السر؟ وله ايضاً ان يغتبط ، في حاله تلك ، وليفضل ان يجد وهو لا يجد على ان لا يجدك وهو يجد .

اللهمَّ ، سمعاً ؛ الويل لخطايا البشر ! كلام نطق به الانسان فرحمته لأنك صنعته ولم تصنع الخطيئة فيه . ومن يذكّرني بخطيئـــة صباي ؟ لا احد يخلو من الخطيئة امام عينيك ؛ ولا ابن يومٍ واحد ! من يذكّرني بخطيئة صباي ؟

ولِمَ لا يكون ذلك الولد ، الذي ارى لديه اليوم ، ما نسيته عن ذاتي؟ اية خطيئة ارتكبت آنذاك ؟ الأني كنت التمس الثدي ، باكياً نهماً ؟ ان قمت بالعمل عينه اليوم ولم التمس الثديَ ، بل الطعام الملائم لسني ، سَخر الناس مني ولاموني ! لقد كنت، اذاً ، آتي ما يستحقُّ اللوم؛ واذ كنت اجهلُ قيمة اللوم فما قضت العادة ولا قبل المنطق بتوجيه اللوم اليَّ . لا ريب في اننا نستأصل، كباراً ، هذه الاشياء وننبذها عنا . لم ارَ في حياتي انساناً يدرك الخير خيراً وينبذه رغبةً منه في استئصال الشر. أخيرٌ للانسان في تلك السن ان يطلب بالبكاء ما قد يؤذيه ؟ ام ان يثور بشدة ضد الناس الأحرار وضد من لا يرضخون لارادته ثم يحاول ايقاع الأذى ضرباً ، مــا امكن الضرب ، وذلك لعدم الانصياع لمشيئته التي قد تؤدي به الى ما لا تحمد عقباه ؟

أتقوم برارة الولد على ضعْفِ اعضائه ام على نياتـــه ؟ لقد لاحظت حادثة حسدٍ لدى طفل لم يكن يعرف النطق فاذا به ينظر شاحب اللون ، الى رضيع ، ممتعضاً. من ذا يجهل هذه الامور؟ تدعي الامهات والمرضعات ان لديهن علاجات مختلفة يداوين بها تلك الاحقاد ؛ ما لم تكن البرارة ، اللهم ، قائمة على ان المحتاج الى الكثير من المساعدة والمغتذي بذلك الطعام الفريد يرفض رفضاً باتاً ان يشاركه احد في طعامه بينا الحليب يجري بغزارة من معينه ! قد يجوز القيام بمثل تلك الأعمال . لا ، لأن عاقبتها طفيفة او معدومة بل لأن السن تضع لها حداً ، بدليل ان مشاهدتها في شخص اكبر سناً من الرضيع تدعو الى التأفف والامتعاض .

انت ، ايها الرب الهي ، اعطيت الأطفال جسداً وروحاً ؛ اعطيتهم جسداً كاملاً وقلّدتهم حواساً بها يشعرون كما جعلتَ لهم اعضاء قويـــة وجمّلت ظاهرهم ووضعت فيهم عنصراً باطنياً ليكون مبدأ كل حياة وبقاء. وها انك تأمرني بأن ارفع لك المجد عن كل مـــا ابدعت ؛ واعترف لعظمتك وانشد ، ايها المتعالي ، مزموراً لاسمك . إن اقتصر عملك على ما سبق ذكره وحسبُ فانت القدير ، الكريم ولا أحد إلاّك يصنع ما صنعت ، ايها الأحد ، مبدأ كل قياس ، ويا ايها الجميل مبدأ كل جمال يـــا من انت ، بناموسك ، مبدأ كل نظام .

اختصُّ بنفسي تلك الحقبة من الزمن ، استناداً الى اقوال الناس وتقديراتي الشخصية ، المبنية على اساس متين وعلى ما ارى لدى سواي من الأطفال . وان لم اكن لها واعياً ؛ فاني استصعب ضمّها الى سني حياتي على هذه الارض. وبما اني لا اذكرها فهي كالظلمات التي عشتها في حشى امي . ان كنت ، انا الذي حبل بي بالاثم ، قد نشأت على الخطايا فاين ، يا الهي ، ومتى كنت طاهراً انا خادمك ؟ ولكني اضرب صفحاً عن تلك

الحقبة ، اذ لا صلة واقعية بيني وبين ما لم يبقَ له منها اثر في ذاكرتي .

وفي مسيري وصلتُ الى ما انا عليه الآن ، منذ حداثتي الى عهد الشباب . او بالأحرى ، ان عهد الشباب قد وصل الي وخلّف عهد الحداثة الذي ، قبل ان ينقضي ، (وكيف ينقضي ؟) لم يبق له ذكر . أجل ، لم اعدْ ولداً بالمعنى الحصري ؛ لم اعد ولداً يجهل كيف يتكلم كلاماً واضحاً ، واصبحت ولداً يتكلم وانساناً صغيراً يتكلم : ذاك ما حفظته في ذاكرتي ومنذئذٍ عرفت كيف تعلمت النطق . ما علّمني قطُّ كبيرٌ وفقاً لمنهجٍ معروفٍ كما علموني اللغة فيما بعد بل استخدمت ذكائي الذي اعطيتنيه يا الهي . وان اضطررت الى اقناع الآخرين برغبتي – دون ان افصح عمّا اريد او اصل الى بغيتي – عبّرتُ عن شواعري الباطنية بزفرات وصيحات وحركات مختلفة . ولذا كنت احضّر الاصوات في ذاكرتي . وان سمّوا شيئاً باسمه ومال الجسم الى ذاك المسمّى رأيتُ وحفظتُ ان ذلك الشيء يسمّى بتلك الحركة او بتلك اللفظة ؛ وهذه الحركة من الجسم تنمُّ عن تلك الارادة : وكأنها لغةٌ طبيعية شاملة تتركّب من سماء الشخص ونظره وحركته ونبرة صوته وتبرهن عن استعدادات النفس بالنسبة الى الاشياء التي يجب طلبها والحصول عليها او نبذها وتجنُّبها .

ورحت اجمع الالفاظ بمدلولاتها الصحيحة وارتبها كلاً في محلها ، جملاً مختلفة : وقد تكون مقولة للمرة الثانية ؛ ثم اعبّر بواسطتها عن رغباتي بلسانٍ تعوّدها . واشتركت مع جيراني بتلك العلامات التي تفصح عن مكنونات صدري وولَجْتُ المعترك البشري الصاخب معتمداً سلطة والديَّ والتنبيهات التي اعطانيها كبارُ الناس .

اللهم ، يا الهي ، ايَّ شقاءٍ لم احتمل آنــذاك ؟ كم تلاعبوا بي يومَ اقترحوا عليَّ ، قاعدةً لسلوكي في الحياة ، انا الحدث الطري العود ، ان اطيع معلمي كي أَلمع بين الناس وأَبرع في الفنون الكثيرة الكلام التي تضمن لي مجداً بشرياً وثروات زائفة. وضعوني في المدرسة ، طلباً للعلم ؛ وكنت غبيّاً فلم اجد لها نفعاً . وفضلاً عن ذلك ، ان تكاسلتُ ضربوني . وكان كبار القوم يعدون اسلوب الضرب في التربية اسلوباً ممتازاً . وكم ، ممَّن سبقونا ، نهجوا لنا نهجاً وفرضوه علينا فوفَّروا لبني آدم تعباً كثيراً والماً اكثر .

ومع ذلك فقد وجدنا ، يا رب ، اناساً يُصَلُّون فادركنا منهم ، قدر ما سمحت لنا معرفتنا بك ، ان في الكون شخصاً ، وان خرج عن نطاق حواسنا ، قديراً بان ينصت الينا ويساعدنا . وعندئذٍ ، اخذتُ ، صغيراً ، اصلي لك يا ملجإي وحماي فحطمتَ قيود لساني واليك توسلت وابتهلتُ انا الصغير ، الحقير ، بحرارة كلية كي ترفع عني الضرب مذ الآن في المدرسة. واذ كنت تصمُّ اذنيك عن استغاثتي برغم توسلاتي ، كان اقاربي الذين لا يرضون عن ادنى مكروه يصيبني ، يضحكون لضرباتٍ توجعني كثيراً وتؤلمني .

هل من قلب ، ايها الرب ، قد اتحد بك بفعل محبة خارقة ؟ اجل ، هل من قلب كهذا القلب – الحماقة تؤدي غالبــاً بصاحبها الى النتيجة عينها – بلغت به المحبة الخارقة ، لكونه ملتصقاً بك ، حداً جعله يزدري مركبات التنكيل والاظافر الحديدية وما سواها من آلات العذاب المرعبة التي استخرجت من جميع الصدور في كل انحاء المعمور اصوات الاستغاثة بك كي تنجيهم منها؟؟ وانه ليضحك ممَّن يخشونها الى هذا الحد الفظيع كما كان يضحك آباؤنا من تأديبات معلمينا يوم كنا صغاراً . آوَّاه ! لم يكن

خوفنا منها وتوسلاتنا اليك كي تخلصنا منها اقل من خوف اولئك وتوسلاتهم. لكننا خطئنا باهمالنا الكتابة والقراءة والفروض ولم يكن الاهمال ناتجاً عن ضعف ذاكرة او عن قلة ذكاء (لقد جدتَ علينا في تلك السن بقسطٍ وافرٍ منهما) . لقد مرحنا ولهونا وعاقبَتَنا على لهونا ، من كانوا حقاً يعملون مثلنا ؛ بيد ان توافه الكبار هامة في نظرهم واعمالَ الصغار توافه تستوجب العقاب. ولم يكن من يشفق على هذه الفئة او تلك من الكبار او الصغار. وقد يستحسنُ حَكَمٌ فَطِنٌ ضربي ، لأني لعبت ، صغيراً ، بالكرة الطائرة وتأخرت عن تلقن العلوم التي قد تدفعني ، كبيراً ، الى ما هو اقبح من تلك الالعاب الصبيانية ! واذا ما غُلب مهذبي على امره ، في مناقشةٍ جرت بينه وبين زميلٍ له ، فلا تسَلْ عن ثورة غضبه وعن ألمه ؛ انها لأشد من ثورتي النفسية بعد فشلي في الكرة الطائرة مع زميلي .

ومع ذلك فقد كنت اخطأ ايها الرب الهي يا مبدع الاشياء الطبيعية ومنظمها ، ما عدا الخطيئة ، طبعاً ؛ فأنتَ لها ضابط لا مبدع ! ايها الرب الهي ، خطئت بمخالفة اوامر والدي ومعلمي يوم كان بمقدوري ان استعمل العلوم التي احب والدي ان يعلمانيها حينذاك استعمالاً صالحاً اياً كانت نيتهما . ولكني عصيت لها امراً ، لا طمعاً بالأفضل ، بل انقياداً وراء اللهو واحببت نشوة النصر والاساطير المدغدغة لأذني بينا كان ناظراي يتوقان بمثل ذلك الشوق الى رؤية المشاهد المسرحية ، متعة الكبار . ان القائم بتلك الاعمال يكتسب درجة من الاحترام سامية يتمنّاها معظم المتفرجين ، لصغارهم ؛ ويعاقبونهم اذا صدَّتهم تلك المشاهد عن متابعة دروسهم التي ، تؤهلهم الى القيام بمثلها في المستقبل .

انظر يا رب الى تلك الامور بعين الرأفة ونجّنا نحن الذين ندعوك الآن؛ ونجِّ ايضاً من لم يدعوك . نجّهم ، اللهم ، ليدعوك فتخلصهم !

حين سمعتهم يتكلمون عن الحياة الأبدية التي وعدنا بها الهنا، المتواضع، المتنازل الينا نحن المتكبرين، كنت حدثاً صغيراً، موسوماً باشارة الصليب، ومُصلَّحاً بملحه منذ خروجي من حشى امي الواضعة فيك كل رجائها. لقد رأيتَ، يا رب، ساعة فاجأتني الحمى، عقب انزعاج هضمي، واوشكت ان اموت انا الطري العود! لقد رأيت — الم تكن حارساً لي آنذاك — بأيّ حماسٍ وايمان، طلبتُ من تقوى والدتي، وكنيستك، امنا جميعاً، عمادَ مسيحك، ربي والهي.

واضطربت والدتي بالجسد وقد كان قلبها الطاهر يسهم بمزيدٍ من الحب في ولادتي للخلاص الابدي، بالايمان بك، اهتمت كثيراً لتعرّفني بسر الخلاص الذي استعددتُ للاغتسال به، معترفاً بك ايها الرب يسوع، لمغفرة آثامي. واذا بي استريحُ فوراً فيرجأ تطهيري؛ كأنه حتَّمَ علي، بعد ولادتي لهذه الحياة الجديدة، ان اسقط من جديد في الخطيئة. لا ريب في ان سقوطي في حمأة الخطيئة بعد اغتسالي بمياه المعمودية خطرٌ علي يزيدني مسؤوليةً.

وصرت بعدئذ مع امي وجميع سكان البيت مؤمناً، خلا والدي. وبرغم موقفه المعروف فلم انتقص من حقوق والدتي علي ولم امتنع عن الايمـــان بيسوع المسيح، اكراماً لوالدي، غير المؤمن. وتمنَّت امي، لو تراك، أباً لي، تقوم مقام والدي فشددتَ ازرها لتتغلَّب على زوجها في هذا المضمار ومع انها كانت تفوقه خلقاً فقد خضعت له؛ اذ بخضوعها له، تخضع لك يا من فرضتَ على الزوجات الطاعة لأزواجهن.

الهي، احبُّ ان اعرف الغاية المنشودة من تأخير عمادي. قل لي (ان انت اردت ذلك التأخير) أخدمةٌ لي تُرِك العنان للخطيئة تسرح فيَّ وتمرح؟ أم لا؟ ما هو مصدر الكلمات التي ترن اليوم في اذني بشأن فلان او فلان،

قائلة : « دعوه يعمل على هواه ولمّا يعمّد ! » بينا لا نسمع احداً يتكلم عن صحة جسد فلان او فلان قائـــلاً : « دعوه يزدْ في جراح نفسه ولمّا يشفَ ! » أواه كم كنت افضّل الشفاء السريع . ليتني تداركت الأمر مع اهلي واسرعت بنفسي التي اخذت خلاصها منك فوضعتها في حماك الأمين !

اجل ، ذلك ، كان احبَّ اليَّ وافضل. بيد ان امواج التجارب المخيفة طغت عليَّ بعد طفولتي ؛ وقد توقّعتْ امي حدوثها ، ففضّلتْ ان تواجهها بالطين الذي كوّنتْ منه ؛ ليتخذ بعدئذ شكله ، وابت ان تواجههـــا بالصورة المقدسة ، المجددة فيَّ .

ما احببتُ العلم في حداثتي التي كانت اخفَّ وطأة عليَّ من صباي . كرهت الدرس والاسلوب المتّبعَ إرغاماً لي عليه . ومع اني نفرتُ منه ، فقد اكرهوني عليه ، وكان خيراً ؛ بيد اني اسأت التصرف. حقاً ، لو لم يكرهوني لما تعلّمت حرفاً ؛ مع العلم انه لا يُـكرَه احدٌ على عمل ، وان جيـــداً في جوهره ، فيتقنه . أساءَ التصرف من اكرهني على الدرس ؛ لكن الخير الذي جنيتـُه منه ، هبةٌ منك يا الهي . لقد ابتغوا من جرّاء عملهم اشباع نهم اميالهم وعطشها الى الشرف المشين والشقاء الوافر . لمصلحتي استخدمتَ يا الهي ضلال من اكرهوني على الدرس ؛ ولتأديبي استخدمتَ ضلالي الذي بسببه رفضتُ الدرس ؛ فاستحققت هذا التأديب ، صغير السن ، كثير الخطايا .

وهكذا فقد هيّـأتَ لي خيراً ممن اساؤوا التصرف ؛ ومني ، انا الخاطئ ، اعددت لي اجراً مستحقاً ، لأنك قد امرت بان تكون ، كل نفس تعيش في فوضى داخلية ، وبالاً على ذاتها . لقد امرتَ ولا مردَّ لأوامرك .

لماذا نفرتُ من اللغة اليونانية وقد باشرت درسها صغيراً ؟ لم يبقَ لي ،

اليوم عنها، فكرةٌ واضحة. على يد اساتذة الادب ، تذوقتُ اللغة اللاتينية؛ لا على ايدي المدرسين الابتدائيين ؛ لأن مبادئها الاولى كالقراءة والخط والحساب اخفُّ وطأة عليَّ من اليونانية . إن لم تكن الخطيئةُ قد بغضتني باليونانية ، فاي شيء اذاً ؟ اهو الفراغ الذي اشعر بـه في حياتي ، وانا الجسدُ وحفنةُ الريح التي تمرُّ ولا تعود ؟ ومع ذلك فالدروس الابتدائية التي مكّنتني من قراءة كتابٍ يقع نظري عليه، افضلُ؛ اذ هي اقرب الى واقع الحال مما يُفرَضُ عليَّ استظهاره . لقد فرضوا عليَّ ، مثلاً ، ان احفظ غزوات اينياس ؛ انا الذي نسيت ما ارتكبت من مغالط ؛ وما ادراك من هو اينياس ؟ وفرضوا علي ان ابكي عـلى ديدون المائتة ، المنتحرة تحت تأثير الحب. حين كنت انا اشقى الناس اموت بعيداً عنك بسبب تلك الخرافات ؛ ولم اذرف دمعة واحدة ، يا حياتي ، يا الله .

ومن هو احقُّ بالشفقة من بائسٍ ، نسيَ شقاءه ، ليبكي على ديدون التي قتلتها حبُها لاينياس ؛ وأبى ان يبكي على نفسه الميتة التي لا تحبك ، اللهم ، يا نور قلبي وخبز فم نفسي الداخلي ، ويا قوةً تخصب عقلي وضميري ؟ لقد زنيتُ بعيداً عنك لأني لم احبك . وفي فحشائي سمعت اصواتاً صاخبة حولي تقول : « نعمـًا ، احسنت ! » صداقـة الناس ، بدونك ، زنى وفحشاء . واذا بالصوت يردد من جديد : « نعمـًا ، احسنت » ليوقظ الحياء البشري لدى من يأبى ان يلقي بنفسه فيها . لم ابك على زلاّتي ؛ بل على ديدون التي انتحرت والسكين بيدها ؛ عليها بكيت . لقد بحثت عن احقر مخلوقاتك وتركتك ، وانا ، التراب ، الصائر الى تراب . لو منعوني من مطالعة تلك الاشياء ، لأسفت لحرماني من مطالعة ما قد يسبّب لي حزناً. قد يعتبر الناس هذا الشذوذ الذي ذكرت ، اشرف واكثر انتاجاً ، من ثقافةٍ علمتني القراءة والكتابة .

آه! ليهتف الآن الهي، في باطني، قائلاً لي في حقيقته: «خطأ، خطأ! » التعليم الابتدائي افضل تعليم. ها اني مستعد لأن اتناسى مغامرات اينياس واشباهها واتفرغ للكتابة والقراءة. على مداخل مدارس الأدب ستائر معلقة ترمز الى ضلالٍ ، يجب ان يظل مكتوماً ؛ لا الى سرٍّ يجب ان يُنشر. اسكتي يا ايتها الاصوات المتشدقة علي؛ لأني لم اعد اخشاك إذ اعترف لك ايها العظيم، يا الهي، بمكنونات صدري. ها اني، حباً بصلاح طرقك اطمئن الى لوم سبلي الشريرة. اسكتي عني يا اصوات المتشدقين علي يا تجار الأدب وسماسرته لانني لو طرحت عليك السؤال التـالي: «اصحيح قول الشاعر ان اينياس قدم الى قرطاجة؟» لأجابني قليلو العلم: «لا نعلم». اما الراسخون فيه فيجيبون: «كلا، كلا،» ولو سألتهم ان يهجّئوا اسم اينياس لأجابني بالصواب الخبير بالأبجدية، طبقاً لمبادئ البشر ومناهجهم التي اقروا بموجبها تلك العلامات. اما ان سألت انساناً عما يعتبره في سريرته اشد ضرورة للحياة البشرية، وخيّرته مثلاً بين اهمال الكتابة والقراءة وجهله تلفيقات الشعراء، فمن منّا يجهل جواب الأمين، المخلص، لروحه وجوهره؟

لقد خطئت كثيراً في حداثتي يومَ فضّلت هذه الترّهات على تلك المؤلفات الصحيحة النافعة. أو بالاحرى يومَ كرهت هذه وتعلقت تلك. من الثابت الأكيد ان واحداً وواحداً يجمعان دائماً اثنين؛ وان اثنين واثنين يجمعان دوماً اربعة. انني كرهت هذه الامثولة لكثرة ما ردّدوها على مسمعي وتذوّقت المناظر التافهة كحريق طروادة او كالخيول الخشبية المحمّلة جنوداً مدججين بالسلاح وما اليها من التخيُّلات الكاذبة.

ولمَ كرهتُ آنذاك الآداب اليونانية المتضمنة حكايـات كالتي ذكرناها؟ مع ان هوميروس قد نسج خرافات مماثلةً لها وبرغم ظرافته، عابثاً، فقد وجَدَتْه حداثتي مرّ المذاق. تلك كانت حال اليونان الصغار

مع فرجيليوس يوم ارغموهم على درسه كما ارغمت على درس هوميروس . ان الصعوبة في درس لغة اجنبية والتعمق فيها يدسّان مرارتهما في ظرافة الخرافات اليونانية . لم اكن اعرف كلمةً يونانية واحدة لكنهم دفعوني قسراً الى درسها تخلُّصاً من العقاب القاسي . لقد كنت اجهل ، صغيراً ، الكثير من الالفاظ اللاتينية ؛ لكنني تعلمتها بلا خوف وألم ، عن شفاه المربّيات ومن احاديث الذين يلاعبوني ويداعبوني في جوٍّ من المرح واللهو.

وكان قلبي وحده يحثني آنذاك على الكشف عن مخبآته. ولولا حفظي ، لعدد من الالفاظ ، عن المتكلمين بها امامي ، خارجاً عن المدرسة ، ذات النهج المعروف ، لما تمكنت من تلبية نداء قلبي . وعليه رغبةً في استمالتهم اليَّ كنت هكذا افصح عن رغباتي .

ويُستنتج ممَّا ذكر ان طريق الفضول الصريح لدرس الألفاظ افضل من طريق التخويف والضغط بيد ان التهديد بشرائعك يحدُّ من ذلك الطيش . اجل ، ان شرائعك التي وضعتها سواءٌ في تخويف اساتذة المدارس او في مناقع عذابات الشهداء تعرف كيف تمزج مرارتها الخلاصية بملذاتها الحيوانية السامّة التي ابعدتنا عنك لتردنا اليك يا الهي .

اللهم ، استجب صلاتي ولا تدعني اسقط متى أدَّبتني او أهن في شكرك ايها العظيم الرحيم ، يا من انتشلتني من سبلي الكريهة ؛ واعطني ان اذوق فيك لذةً اعذب من تلك المغريات التي سعيتُ في اثرها . هب لي ان احبك بكل قواي وان الثم يدك من كل قلبي فتخرجني سالماً من كل تجربة حتى آخر حياتي. انت ، يا رب ، ملكي والهي ؛ على خدمتك ، اقف كل نافعٍ تعلمته صغيراً ؛ وعلى خدمتك اقف قراءَتي وكتابتي وحسابي ونطقي ؛ لأنك ادبتني يوم كنت اتعلم تلك الاشياء الباطلة وغفرت لي ما جنيت منها . لا شك اني حفظت الفاظاً باطلة ؛ ولقد كنت استطيع ان

احفظها دون تلك التوافه . ذاك هو النهج المتبع لتدريب الاحداث .

الويل لك ايتها العادة البشرية الجارفة ! من يقوى على مجابهتك ؟ ومتى تقفين ؟ حتى مَ تجرّين ، في طياتك ، بني آدم الى الخضم الواسع المخيف الذي لا يكاد يقوى على عبوره من بين المسافرين سوى المتمسكين بعود الصليب؟ ألم اطالعْ يوم كنت اماشيك، حكاية جوپيتر اله الرعد والفسق؟ قد يستحيل عليه القيام بالمهمتين، في آن واحد، أليس كذلك؟لكنهم اختلقوا له تلك الحكاية ليظهروه كمن له السلطان في ارتكاب الفسق الحقيقي الذي يحضُّه الرعد الكاذب . وهل نجدُ بين ارباب الفصاحة من يَسمعُ ، دون ان يشمئز ، رجلاً ، من جبلتهم ، يهتف قائلاً : « انها لخرافات من وحي هوميروس الذي ينسبُ الى الآلهة قباحات البشر . وكم كنت اود ان يعزو الينا نحن البشر امجاد الآلهة وعظائمهم .. أحرِ به ان يقول : « لقد اختلق هوميروس تلك الاساطير معطياً ذوي الخلاعة والمجون صفات الآلهة لئلاّ تظهر قباحاتهم مخجلةً ؛ حتى اذا ما جاراهم انسانٌ واحدٌ في ركوب الاثم ، لا يتشبـَّه ، في فجوره ، بالناس ، بل بآلهة السماء .

يا لله من هذا النهر الجهنمي ! ان النـــاس يلقون فيك بابنائهم لقاء اجورٍ يدفعونها الى من يعلمهم تلك الاشياء ؛ ويعتبرون التمثيل العلني في الساحة العامة، بحضرة القانون، حدثاً عظيماً. فضلاً عن ان القانون يفرض، عدا الاجور الخاصة، راتباً رسمياً مقطوعاً. اراك تلطم ضفـَّتيك الصخريتين يا نهرُ وكاني بك تقول في هديرك الصاخب : هنا ، هنا ، يتعلم الانسانُ النطقَ ويتلقـَّن الفصاحة والبلاغة والبيان ... او لم يضع الشاعر المؤلف امام اعين الجميع الفتى العاهر يتشبـَّه بجوپيتر في دعارته وهو ينظر الى صورة على الحائط تمثله — كما جاء في الاسطورة — وينزل مطراً ذهبياً في حضن دانايه Danaé مغازلاً لها لما فهمنا معنى «مطر ذهبي» «وحضن» «ومخاتلة»

« وقبة سماوية » وما اليها من التعابير التي تضمنها النص المذكور . وكأني به يتلقّى درساً من السماء ويحض نفسه على الفسق ! واحسرتاه ! من هو هذا الاله الذي يزعزع قبة السماء ؟ ألا استطيع ، وانا الانسان الحقير ، ان احذو حذوه ؟ بلى ، بلى سأقوم ، بكل ما صنع ، مختاراً ! »

كلاّ ! انه لخطأ فظيعٌ الاعتقاد ان سلوك هذا السبيل ، سبيل الفسق والدعارة اضمنُ لتعلُّم تلك الالفاظ ، وهي تدعو الى ارتكاب الاثم الوقح ! اني لست ألوم الالفاظ ، وهي آنية ثمينة مختارة لكني اتّهم خمر الدعارة الذي سكبه لنا فيها اساتذة سكارى ؛ اذا ابينا ان نشربه ، ضربونا ومنعونا من رفع شكوانا الى مرجعٍ اقوى . لقد شربتُ ، انا ، من تلك السموم يا الهي بملء حريتي واختياري ؛ وامامك اعترف بما وجدت فيه لذتي . لذلك سمّوني فتى الآمال .

دعني ، يا الهي ، اتحدث عن مواهب عقلية حبوتني بها وعن ترّهاتٍ ضيّعت فيها مواهبي .حين كانوايسألوني القيام بعملٍ كنت اشعر بانزعاج شديد واتأرجح بين التهانئ لنجاح احرزه والخوف من العــار والقصاص الذي يعقب الفشل . لقد كان الامتحان يقوم مثلاً باستعادة خطاب « جونون » Iunon الثائرة ، المشتعلة غيظاً ، لعجزها عن صد ملك الطرواد عن ايطاليا . ومع علمي التام بان جونون ما تلفظت قط بمثل تلك الاقوال الوهمية فقد ارغمونا على ان نعدو في اثر تلك الخرافات الشعرية ونسرد نثراً ما نظمه الشاعر شعراً . وكل من اجاد في التمثيل والافصاح عن عواطف الشخص وغضبه وألمه في جمل بيانية ، لائقة ، حظي بالكثير من التهانئ ونال استحسان الجمهور . اما انا فقد كان احب شيءٍ اليّ الاستئثار ، دون سواي ،من اقراني ،في سنّي ، بتصفيق الجماهير . اي شيءٍ جنيت من هذا كله وهو ريحٌ ودخان ؟ ألم يكن لديهم موضوع آخر يشحذون بــه

اذهاننا ويصقلون السنتنا ؟ حقاً، ان تسابيحك في الكتاب المقدس اعذبُ على املود قلبي الطري من تلك الترّهات ؛ وما كان قلبي انقاد لها فريسةً نتنةً كالتي لكواسر الجو . ان للتضحية امام الملائكة الاشرار سبلاً عديدة .

اي غرابة في انقيادي وراء تلك الاباطيل التي ابعدتني عنك وحرمتني منك ؟ لقد حثني ، على اعتناقِ مبدأ معروفٍ ، معلّمون ، يخجلون تارةً من تأنيب النــاس لهم لأنهم يلحنون او يرطنون في التحدث عن مآثرهم ، وطوراً يتباهون بتقريظ الناس لهم حين يجيدون في التحدث عن فسقهم وفجورهم باسلوب فصيح منمّق .

انك عالمٌ بهذا كله يا رب بيدَ انك لا تنبس بكلمة ايها الطويل الاناة والكثير الرحمة والحق. حتى مَ تظل صامتاً ؟ وها انك تُخرِجُ الآن من تلك الوهدة السحيقة ، التي لا اعمق منها ولا ارحب ، النفس الباحثة عنك ، الظمأى الى اطايبك ، القائلة لك في حبها : « بحثت عن وجهك يا رب وعنه سأظل ابحث » . واي فرق بين الضلال والابتعاد عن وجهك ؟ ان من يبتعد عنك ثم يعود اليك لا يقطع ادنى مسافة . وهل اتخــذ « الابن الشاطر » في سفره خيولاً ومركبات وسفناً ؟ ام طار بسرعة وراح ماشياً يبذّر في البعيد عطاياك ، يا كريم ، يا من افضت مواهبك عليه لدى رجوعه اليك محتاجاً ؟ حياة الانسان في الفجور كحياته في الضلال ، بعيدةٌ عن وجهك يا رب .

انظر ، يا رب، بأناةٍ ، كعادتك ، الى ابنائك هؤلاء الذين يدقّقون في رعاية مبادىء لغوية تختص بالأحرف والمقاطع ، اخذوها عن السلف ؛ ويهملون شرائعك الازلية التي وضعتها لخلاصهم الابـــدي ؛ حتى ان من عَلم او علّم قواعد اللفظ القديمة ولم يُطل اللفظ في المقطع الاول من كلمة

رجلٍ « Hominem » مثلاً كان يزعج السامعين ويخالف قواعد الصرف والنحو . اجل لقد كان ينزعج منه السامعون اكثر ممَّا لو كانوا ازاءَ انسانٍ يبغض اخاً له . لقد ظن هؤلاء ان كل بغض او ضغينة يغذونها في قلوبهم ضد عدوٍّ لدود اخف وطأة عليهم من هذا العدو ؛ وان ملاحقتهم له اشدُّ وطأة عليه من حقدٍ يغذونه في باطنهم ضده ؛ بيد ان الضمير الذي يأمرنا بألاَّ نصنع للناس ما لا نريد ان يصنعه الناس بنا هو، في طبيعتنا البشرية، اثبت من كل قاعدة علمية . آه ! ما اعمق سرك ، يا من انت وحدك ، اله" عظيم ؛ تسكن في الاعالي صامتاً وتقتص بحسب شريعتك التي لا تلين ممَّن يأتون المنكرات فتعمي عقولهم وبصائرهم !

قد يصبو انسانٌ الى انتزاع شهرة الفصاحة ، محاولاً ، بكل ما اوتي من ضراوة، ان يحطَّ من قيمة خصمه ، امام حَكَمٍ ومتفرجين؛ ويحترس بشدة لئلاَّ يلحن في عبارة « Inter homines » «بين الناس» مثلاً، بيد انه لا يحترس البتة، حين يثور غاضباً، فيخرج من مصافِّ الناس، أخاً له في البشرية .

تأثير سيىء لتلك التربية في نفس اغوسطينوس

تلك هي المدرسة الاخلاقية التي انطرحت، انا الشقي، على بابها . فيها تدرَّبت على الرياضة البدنية قبل الدخول في المصارعة ؛ وفيها خفتُ من رطانة لفظية اكثر من حسدٍ باطني تأجج في صدري ضد من لم يجارني في ارتكاب الهفوات . لك اقول تلك الاشياء ولعظمتك اعترف بها يا الهي ! لقد اكسبتني ثناءَ من كنت احسب رضاهم عليَّ آنذاك عربوناً لسعادتي في الحياة . تبًّا لي ؛ لم أُبصرْ لجة القبائح المشينة التي ألقوني فيها بعيداً عن ناظريك .

أواه! ما كان اقبحني امام ناظريك يوم كنت اسيءُ التصرف واولئك الاشخاص انفسهم، اساتذتي ومعلمي ووالدي، فأخدعهم مراراً لأشبع نهمي الى اللعب واروي ظمإي من المشاهد المسرحية المتهتكة المجونية وميلي الارعن للنسج على منوالها! فضلاً عمَّا سرقت من البيت وعن المائدة؛ اما عن شرهٍ او رغبة في صداقة صبيان كانوا يبيعوني شرف ملاعبتهم؛ مع ان سرورهم في ملاعبتي كسروري واكثر. وكم ساومت في اللعب وخدعتهم طمعاً بالنصر واشباعاً لنهمي الجنوني في السيطرة عليهم. وانه لنهجٌ كنت اتبعه حين آخذ عليهم مأخذاً لا ارضى عنه او اقبض عليهم بالجرم المشهود. انما كنت اتحرَّق غيظاً ولا اذعن لرأيهم حين اقع في الخطأ عينه.

أتلك هي البرارة الصبيانية؟ واحسرتاه! كلا، ايها الرب الهي. واسمح لي ان اقول: يظهر فساد الطبيعة في العاب الاحداث بالكلل والجوز كما يظهر في المعاملات المالية والعقاريـــة وفي التصرف بالعبيد وفي مختلف الأحوال؛ فيشمل طبقات المجتمع من اسياد واساتذة مدارس وقضاةٍ وملوك؛ ولا فرق بين عقاب يحل بهذا الجيل ام بذلك لأنه مع السنّ يزداد؛ ولا بدَّ من ملاحقة الجميع عمَّا يفعلون. انك يا مليكنا اشرت الى التواضع المتمثل في قامة الاطفال واثنيت عليه يوم قلت: «لمثل هؤلاء ملكوت السماوات».

ومع ذلك فاننا نشكرك، اللهم، يا خالق الكون وسيده، الكلي الصلاح والسموّ؛ وان كنتَ لم تأذنْ لي بأن اخرج من طور الصبا. آنذاك وهبتني الحياة وقوامها؛ والشعورَ وما يلزم للحفاظ على سلامـــة كياني ووحدته، صورة تلك الوحدة الصمدانية العجيبة التي اخرجتني من الوجود الى العدم؛ واحتفظت بسلامة شعوري بفضل حسي الباطني؛ وبفضل ما يكوّنه عقلي من افكار محدودة عن صغار الاشياء اغتبطتُ؛ وابيتُ ان يخدعني انسان؛

لأنك وهبتني ذاكرة قوية ونطقاً سليماً . في الصداقة وجدت غبطتي ومن الألم والجهل ومن كل سافلٍ ودنيء هربتُ . ألا تستحق الاعجاب والثناء هذه كلها ؟ هي منةٌ منك يا الهي وهبة ؛ كلها كريمةٌ وسنيَّة ، لانَّ خالقي كريمٌ جوَّاد . انه خيري فاحمده على حسناتـــه بوافرٍ من الغبطة والحبور الذي منه كوَّنتني طفلاً . ان كان قد بدا فيَّ ، زللٌ ، صغيراً ، فلأني سعيتُ وراء الملذات والعظمة والحقائق خارجاً عنك — في نفسي وفي سواي من المخلوقات — وفي الاوجاع والعار والغرور القيتُ نفسي .

شكراً لك ، اللهم ، يا سعادتي ، ومجدي ، ورجائي ! شكراً لك على ما اوليتني من نعم ! ارجوك ، اللهم ، ان تبقيها لي وتحفظني . اذ ذاك تنمو فيَّ نعمك وتبلغ ذروة الكمال فأكون معك لأنك انت اوجدتني .

الكتاب
الثاني

الفتى المراهق[7]

الفتى المراهق

اريد ان اتذكر الآن ادناس ماضيَّ ونتانة نفسي اللحمية، لا حباً بها بل حباً بك يا الهي ؛ وشغفاً بك، ايها الحب، اعود بقلبٍ مرير، الى تذكُّر سبلي الاثيمة وتذوُّقِ حلاوتك ايها العذوبة الكاملة الهنيئة التي لا يشوبها رياء، يا من تجمع شتات قلبي المندثر، المبعثر، الذي تفككَّك في شتى الأباطيل والترَّهات يومَ أشاح بوجهه عنك ايها الكائن الأحد. حرَّقني العطش الى الملذات الجهنمية ودفعتني وقاحتي الى الاستمتاع بشتى انواعها فتشوَّه جمالي واصبحت قذارةً امام ناظريك إذ اكتفيتُ بها وفتشت عن حظوةٍ في اعين الناس.

كل ما كان يحلو لي آنذاك هو أن أَعشَق وأُعشَقَ ؛ لكني لم اتقيَّد بما للصداقة من سبلٍ نيِّرة تجمع بين قلبين. لهذا، لمَّا بلغت اشدي، تصاعَدَتْ من اتون شهوتي الجسدية ابخرةٌ غمرت قلبي وضغطت عليه فما عدت اقوى على التمييز بين الحبِّ السنيِّ الطاهر والدنس الحالك السواد اللذين اختلطا فيَّ فاختمرا واقتادا سني الواهية الضعيفة في اثرِ المغريات وغمساني في لجة الرذائل فتفاقم غضبك عليَّ

وانا له متجاهل . واذا بصليل الأغلال التي ربطتني الى الموت يُصِمُّني ؛ فكأني اكفِّر عن كبريائي ؛ وابتعدت عنك ولم تزجرني ؛ وملت مع تيّار فحشي واليه استسلمت ؛ وفيه بذّرت قواي الناشطة ولم تقل لي كلمة ، يا غبطةً تذوّقتها في آخر المطاف . وفي اثناء سكوتك العميق عني ازددت انا بعداً عنك واسرفتُ في زرع ذلك البذار العقيم الذي لا ينبت لي سوى الآلام وتِهتُ كِبْراً في دناءتي وأَجْهَدْتُ نفسي ولم أنل شيئاً !

من وضع حداً لشقاوتي وعلّمني ان استخدم الجهالات التي تفرُّ دوماً من وجهي ؟ ومن وضع تخوماً للملذات التي توفرها لنا تلك الجهالات؟ فتكسرت امواج شبابي الطامية على شاطئ الزواج اذ لم يكن إلاّه مهدِّئاً لها ؛ واهتدت الى غايتها الطبيعية في التناسل طبقاً لِمَا رسمت يا ربُّ ، يا من خلقت جنسنا الضعيف السائر الى الموت ؛ ايها القادر ان تلاشي بيدك اللطيفة اشواكاً لا وجود لها في جنتك !

ان نحن هجرناك ايها الكلي القدرة فانت لا تهجرنا ؛ ولو اني اصخت بانتباهٍ كلي الى قصف رعودك في الكتاب المقدس : «سيلقون ضنكاً في اجسادهم». وايضاً : « الأفضل للرجل ان لا يقترب من امرأة » ، « لأن من لا زوجة له يهتم بما للرب كيف يرضي ربّه ومن له زوجة يهتم بما للعالم كيف يرضي زوجته ». أوّاه! لِمَ سدَدْتُ اذنيَّ عن ذاك الكلام ؟ آه! لو اني ارتضيت بأن اكون خصيّاً حباً بملكوت السماء لكنت اوفر سعادةً بانتظاري قبلاتك يا رب !

لكن ، واحسرتاه ! تغلّب عليَّ التيّار وجرفني فتجاوزت نواميسك ولم انجُ من تأديباتك — وهل ينجو منها بشر ؟ — انت ما ابتعدت قط عني ايها الرحيم في قسوتك بل تداركت جميع ملذاتي المحرّمة بسأمٍ مرير ودفعتني الى البحث عن طيّباتٍ لا يعرف طالبها سأماً ؛ وأنّى لي بها في

سِوَاك ايها الرب يا من توفِّق بين الألم والشريعة ، فتضرب لتشفي ؛ وتقتلنا لتجنّبنا الموت خارجاً عنك ! الى اين اقتادوني اسيراً وحَرَموني أَطايبَ بيتك حتى هذه السنة السادسة عشرة من عمري ؟ سطت عليَّ شهوة جامحة فسرتُ في ركابها عبداً مقيَّداً ؛ انها لشهوة يرضى عنها السفهاء وتحرِّمها شريعتك ! اما والدايَ فلم يفكرا في ان يفتحا امام نزَقي باب الزواج اذ لم يكن لهما سوى همٍّ واحد وهو ان يعطياني ثقافة كاملة في الخطابة والبيان.

عطلة عن الدرس

لقد توقفت في تلك السنة عن متابعة دروسي لأنهما استقدماني من مادورا (احدى مدن نوميديا تبعد ٢٤ كيلومتراً تقريباً عن تاغسطا Thagaste المعروفة اليوم بسوق اخرس) وهي مدينة قريبة منا كنت قد اقمت فيها في بدء الأمر لدرس اللغة والخطابة . وكانا يستعدان لسفر اطول الى قرطاجة رغم مكانة ابي الوضيعة بين سكان تاغسطا ؛ وقد كان يعتمد على طموحه اكثر منه على موارده .

ولمن اسرد هذه الاخبار ؟ لا لك يا الهي ، لا لك اسردها ؛ بل لبني جلدتي ، لتلك القلة الضئيلة من ابناء البشر التي قد تطلع على ما اكتبه الآن ! وما هي غايتي ؟ اجل ، ان ادرك انا ويدرك كل من يطالعني ، باي انسحاقٍ باطني يجب علينا ان نصرخ اليك يا رب ! وهل اقرب الى اذنيك من شهادة القلب ، وحياةٍ انبثقت من الايمان ؟

لم يبقَ احدٌ إلاّ واثنى على والدي لأنه تحمَّل ، في سبيل ولده ، فوق طاقته ، نفقات الدراسة والاسفار والمعيشة . وايم الحق ، كثيرون ممَّن يفوقونه غنًى ما ضحوا قط مثله في سبيل اولادهم ؛ وبرغم تضحياته الجمَّة فانه لم يغتمَّ حين ادرك ، ما انا عليه في ناظريك ، وما انا عليه من الطهر ،

شرط ان اكون بليغاً وفصيحاً – او بالأحرى ، قفراً خالياً لحلوي منك ايها الاله ، السيد الصالح والحقيقي لحقلك ، قلبي .

وفي السادسة عشرة من عمري عجز والداي عن سدّ النفقات المترتبة عليّ فاضطررت الى مغادرة المدرسة ؛ وما إنْ لزمتُ بيتي حتى تعالت اشواك الشهوات فوق رأسي وما مِنْ يدٍ لتقتلعها ! وفضلاً عن ذلك ، بينا انا في الحمّامات ، لاحظ والدي فيَّ ما يشير الى اني قد وطئت عتبة الشباب ولبست ثوبه الواهي الضعيف فراح يرقص طرباً وخفَّ ينقل البشرى الى والدتي كَمنْ حقَّ له ان يستبشر بقدوم احفادٍ له . وما فرحه ذاك سوى نشوة السكر الذي غرق فيه عالمنا الحاضر فنسيَك انتَ خالقه وتعلّق المخلوقات بدلاً منك ؛ وهذا السكر هو عاقبة الخمر الذي لا يُرى ، خمر ارادته الشريرة والدنيئة . ورجعتَ انت تبني في صدر امي هيكلاً لك ومقدساً ؛ وحين لم يكن ابي سوى موعوظٍ حديث العهد راحت امي مذعورةً تخشى عليّ ، وانا غير المؤمن ، اتباعَ السبل المعوجّة ، سبل الهاربين من وجهك ، غير المقبلين اليك !

نصائح والدته

واحسرتاه ! اني اجرؤ على القول انك لزمت جانب الصمت تجاهي يا الهي وتركتني اروح بعيداً عنك ؛ ولكن ، ان كنت حقاً صامتاً فممّن اتتني تلك الكلمات على لسان والدتي ، امتك الأمينة ، الا منك يا من رددتها غالباً في اذني ، دون ان تلج واحدة منها الى قلبي فتدفعني اليك ؟ لقد تمنّت والدتي – وما كان اشد اهتمامها للأمر وكم حرّضتني سرّاً – على ان لا ارتكب الاثم ولا سيما الزنى مع امرأة قريبي ! أمّا نصائحها هذه فلم تكن في نظري سوى خزعبلات نساءٍ اخجل منها واخجل من العمل بموجبها ؛ بيد انها منك انت وانا لا اعلم . كنت اظنك معتصماً بالصمت ؛

وهي وحدها تحدثني فيما كنت تحدثني بلسانها ! احتقرتها فاحتقرتك فيها ، انا ابنها ، « ابن امتك وخادمك » ! تجاهلت قيمة عملي وهمتُ في عماي خَجِلاً من ان اظهر بين اترابي اقلّ سفهاً منهم وقد سمعتهم يتباهون باعمالهم الدنيئة ويزدادون فخراً كلما ازدادوا فحشاً واثماً . ولمّا اقتفيت آثارهم في هذا المضمار وجدت لذةً خاصة في تهانئ الآخرين لي. واي شيء يستحق اللوم اكثر من الاثم ؟ أمّا انا فقد كنت اقترف الاثم خوفاً من اللوم ؛ وحيث لا آثام ارتكبها لتزج بي بين اشد الرفـــاق فساداً ، كنت اتظاهر باتيانِ ما لم آته اصلاً خشية ان تكسوَني برارتي وطهارتي ثوباً احطّ في نظرهم واحقر ممّا يلبسون !

تجولت واولئك الرفاق في أزقة « بابل » وتمرّغت في اوحالها كأني في جوٍّ عابق بالعطور الزكية الرائحة والناردين ؛ فكان العدو الخفي يرفسني برجليه ويغريني لكي اظل ملتصقاً بتلك الاوحال ؛ وما اسهل اغرائي ! اما امي التي ولدتني بالجسد فقد كانت تتجول في ضواحي بابل المذكورة رغم نجاتها من وسطها وتدعوني الى حياةٍ اعف واطهر ؛ ولم تكترث لكلام زوجها وذلك لأن جرثومة الشر التي ظهرت فيّ تشكل عليّ خطراً في المستقبل ، ولم تفكر بان تجعلها ضمن حدود الزواج الذي يعجز وحده ان يصدني تماماً عن اتيان المنكر . أجل لم تكترث لذلك الامر ، خشية ان يكون الزواجُ عائقاً في سبيل تحقيق الأمـــل الذي علّقاه علي : لا في سبيل الخلاص الأبدي الذي رَجَتْهُ منك امي ؛ بل في سبيل العلم الذي كان والداي كلاهما يرغّباني في تحصيله . فوالدي ، الذي ما خطرْتَ على باله وقتئذٍ ، كان يبغي من تثقيفي هدفاً زمنياً ؛ اما والدتي فما خافت عليّ البتة من تلك الثقافة بل بالاحرى كانت ترى لي فيها خيرَ عونٍ للبلوغ اليك ! تلك كانت تصرفاتهما تجاهي كشفتُ عنها الآن كما لا تزال عالقةً في ذهني !

وحين تركا لي الحرية واطلقا لي العنان غير مكترثين لصرامةٍ لازمة في تربية الأولاد توغـّلت في اثر الف شهوةٍ وشهوة ، تصاعد منها ضباب كثيف فحجب عن ناظريَّ سَنَى حقك يا الهي ؛ ولهذا يمكنني ان اقول : « مني انبثقت معاصيَّ » .

اللذة التي يجنيها من الحاق الضرر بالغير

ان شريعتك يا رب المحفورة على صفحات القلوب ، تحرِّم السرقة ؛ ولن تقوى شرور الناس على محوهـا من قلوبهم : اي سارقٍ يرضى عمَّن يسرقه؟ واي غني يرضى عن بائسٍ دفعه شقاؤه الى سرقته ؟ اني قد عزمت على السرقة وحققت رغبتي ولا حاجة لي اليها ! انما دفعني اليها فراغ قلبي من العدل وسأمه منه بسبب طغيان معاصيَّ علي ؛ سرقت ما كنت املك افضل منه واوفر ؛ لا طمعاً بالمسروق عينه بل حباً بالسرقة والاثم !

الى جانب كرمنا شجرة اجاص مثقلة بثمارٍ لا شكل لها ولا طعم؛ قصدتها تحت جنح الظلام الحالك في زمرة من الفتيان الجهال ، بعـد ان لهونا في الأزقة ، طبقاً لعادتنا الكريهة ، حتى بلغ الليل اشده . ثم قضينا منها وطراً وعدنا باحمال ثقيلة لا لنتلذذ بها ، بل لنرميها للخنازير . وان ذقنا منها ثمرة فذلك عن غبطةٍ باتيان المنكـَر ، وحسْبُ .

اليك قلبي يـا الهي ؛ اليك ذاك القلب الذي ترأفت عليه في سحيق الهاوية ! هاكـَه يعترف لك اليومَ بما كان يفعل هناك حين اتخذ له الشر ثوباً لبسه مجاناً ؛ كان هدفه الوحيد ان يغذي خبثه ورداءته بالشر . لقد كان كريهاً ، فاحببته ! اجل ، احببتُ موتي وسقوطي بيدَ اني لم اهوَ ما جرَّني الى السقوط ؛ بل سقوطي ذاته احببته ! سقطتِ ايتها النفس في العار وتخلـَّيتِ عن سندك الأمين فهلكتِ وارتضيتِ بالفحش حباً بالفحش .

للأجسام الجميلة محاسنها وللذهب والفضة زخرفها ولكل جميلٍ فتنة ؛ امَّا لذة اللحم ففي اللمس وهكذا كل حسٍّ يلقى في الجسد ما يوافق طبعه! لمجد العالم رونقه وللقيادة والسلطة مفاتنهما ؛ لكنها كلهـا تولِّد ذلك الميل الأرعن الى الانتقام ! اما من طلب تلك الخيور فيقدر ان يحصل عليها دون ان يبتعد عنك ايها الرب او ان يحيد عن شريعتك . لحياتنا على هذه الأرض لذة خاصة اذا ما عرفنا ان نحفظ توازناً رتيباً ، رضيًّا بيننا وبين ما في العالم من جمالات ! ولصداقة الناس حلاوة خاصة اذا مـا عرفوا ان يوحِّدوا بين القلوب ! تحملنا ، هذه الخيور وتلك ، على الخطيئة حين نطلب بلا اتزانٍ ما هو دنيءٌ فيها وسافل ونعبث بمـا هو اسمى وافضل ؛ فننساك انت ايها الرب الهنا وننسى حقيقتك وشريعتك ! ورغم ما للخيور الدنيوية من بهاء فانت اجمل منها يا الهي لأنك خالقها ؛ والبار يجد غبطته فيك وحدك يا سعادة القلوب المستقيمة !

قلَّما يجد الباحث، عن علة اثمٍ، ضالَّته، إلاّ في ذلك الميل الجنوني الى تلك الخيور الحقيرة او في الخوف من ضياع احدها ، وان كانت عدماً بالنسبة الى الخير الأسمى ، اصل سعادتنا ، فلها جمالهـا وزخرفها ! لِمَ اقترف هذا الرجل جريمة قتل ؟ لأنه هام بحب زوجة قريبه او اشتهى مقتناه فقتله ؛ او لأنه سرق ليعيش او خشي شيئاً مماثلاً من قبل قريبه او ثار غيظاً فانتقم لذاته . من منَّا يصدق ان الانسان يقتل اخاه الانسان حباً بالقتل ؟ اعرف رجلاً ، كثيراً ما تحدث الناس عن قسوته وجنونه ؛ لقد كان يجد لذة خاصة في التمرس بالشر بطريقة وحشية . لكن المؤرخ يشير في كتابه الى مـا كان يدفع صاحبنا الى هذه الحال من التوحش فيقول : « كان يخشى جموداً في عقله وشللاً في يده بسبب العطل عن عمل الشر ». وكيف ذلك ؟ وما وهو الداعي اليه؟ كان يتوق، من خلال تمرّسه

الدائم بالاثم الى السيطرة على رومة ليحظى بالامجـــاد والثروات والسلطان ويتحرّر من رهبة القوانين والصعوبات التي تعترضه بسبب فقره والمامه التام بجميع جرائمه . كاتيلينا نفسه ، ما أحبَّ قط الجرائم كجرائم بل كوسائل يرقى عليها الى غايته المنشودة !

أوّاه ! وانا ، ماذا احببت فيكِ يا سرقتي ، يا اثماً ارتكبته ليلاً في السادسة عشرة من عمري ؟ انت سرقة ، واي جمال فيكِ ؟ هل فيك شيءٌ من الواقع الملموس فاحدثك؟ جميلةٌ كانت الثمار التي سرقناها ، لأنها صنع يديك يا جمالاً لا مثيل له ؛ ايها الخالق لكل شيء والرب الصالح ، ايها الخير الاسمى ويا خيري الوحيد ! اجل ، جميلةٌ كانت تلك الثمار ؛ وما اشتهاها قط قلبي المسكين؛ اذ كان لديَّ من جنسها ما يفوقها عدًّا ونوعاً ! انا ما قطفتها إلاّ حباً بالسرقة وما إنْ قطفتها حتى القيتها من يدي ومـــا تذوّقْتُ سوى اثمي ولا وجدت غبطةً ولذة سِوى فيه . والثمرة التي ذقتها ما شعرت منها إلاّ بطعم الخطيئة !

والآن اني ابحث ايها الرب الهي عمّا استهواني فاقترفت تلك السرقة ولا جمال لها : اجل ، ليس فيها جمال العدل والفطنة ولا جمال العقل البشري والذاكرة والحواس ولا جمال الحياة الحيوانية ولا جمال الكواكب في افلاكها الفتّانة ولا جمال البحر واليبس بما فيهما من الكائنات الحيـــة التي تتوارث الأرض جيلاً بعد جيل ، حتى ولا ذاك الجمال الوهمي الأفّاك الذي تتحلّى به الرذائل لتخدعنا ! وسببه الكبرياء تلك العظمة الزائفة الكاذبة التي تحاول ان تتمثل بلك ايها العظيم الاله المتعالي وحدك فوق الجميع ! والطمع ؟ الى مَ يتوق ؟ يصبو الى الامجاد والعظائم بينا انت وحـــدك تستحق كل مجد وعظمة ايها الازلي! واستبداد الحكام الغاشم يرمي الى القاء الرهبة في قلوب الرعية بينا لا يجوز لنا ان نخشى سواك يا الله ، يا من لا يقوى أحدٌ على

اغتصاب شيءٍ منك ايها السلطان القدير ! إنَّ الفجَّار يلاطفون ويداعبون اكتساباً لصداقة الآخرين ومحبتهم ، متجاهلين أنْ لا ألطف من محبتك ولا أسلمَ للانسان من ان يحبَ حقيقتك التي لا اجمل منها ولا أبهى ! وهذا الفضول يتظاهر بالغيرة على العلم بينا انت العالم بالاشياء كلهـا علماً لا اسمى منه ! الجهل والحماقة يكنّيان بالسذاجة والبرارة ولكن من هو أبسط منك وأبرُّ ؟ الأذى يكمن للاشرار في اعمالهم ! الكسل يتظاهر بالبحث عن الراحة وحسبُ ولكن اية راحةٍ مضمونةٍ بمعزلٍ عن الرب ؟ الترف يتشوّق الى البحبوحة والاستكفاء ؛ ولكن هل من كمالٍ وبحبوحة في الحياة، خارجاً عنك ، لا يشوبهما فساد ؟ والتبذير يتزيّا بزيّ السخاء والجود ولكن هل يجود احدٌ إلاّ من خيراتك العميمة ؟ البخل يبغي امتلاك الكثير ولكن ، من يملك سواك ؟ الحسدُ يجاهد في سبيل المقام الاول ولكن من هو اعلى منك ؟ الغضب نهمٌ شديد الى الانتقام ، ولكن ، من هو اعدل منك في أخذ الثأر ؟ الخوف يرعى بحذرٍ حبيبه ويضطرب لـدى كل خطرٍ غير مألوف يفاجئه ويهدّد راحته ، ولكن اي شيءٍ يفاجئك انت ومن يفصلك عن حبيبك؟ وهل لنا ان نستقر إلاّ بقربك ؟ تحرّق الحزن أسفاً على فقدان الخيور التي تفعم جشعه غبطة وهو يتمنى ان يحوز كل شيءٍ مثلما حزت كل شيءٍ وكما لا يمكن ان يُنتزَع منك شيءٌ يا الله ! هكذا تزني في النفس حين تبتعد عنك وتبحث بمعزلٍ عنك عمّا لا تجده نقياً صافياً إلاّ اذا عادت اليك . يحاول ان يتمثل بك اولئك المبتعدون عنك ، انمـا بالعكس ، ينتصبون ضدك ويُظهرون حتى في موقفهم المعادي لك انك للكون خالقٌ ؛ ولذا لا يستطيع احدٌ ان يتخلّى عنك تماماً !

وماذا احببت اذاً في تلك السرقة ؟ وكيف اقتفيت آثار سيدي زوراً وبهتاناً ؟ هل وجدت لذةً في نقض شريعتك خلسةً لأني عجزت عنهـا

عنوةً ؟ وها قد تجاهلت، وانا العبد، حريتي المنقوصة، فاتيت ما لا يحق لي في مؤامرةٍ سافرة ضدك ايها الكلي القدرة ! هاكَ الخادم الذي يتهرَّب من كنف سيّده ويبحث عن ظلٍ ليعيش فيه ! أوّاه من الفساد ومن حياةٍ انقلبت رأساً على عقب وواأسفاه للموت الذي ابتلعني في لجته! وهل طاب لي فعل الحرام لأنه حرامٌ ؟

يقينه بان الله غفر له إثمه

وماذا اصنع للرب حتى أفكـّر بلا خوف بتلك الأمور؟ اودُّ ايها السيد ان احبك واشكرك واعظّم اسمك لانك محوت لي برحمتك ونعمتك آثاماً لا احطً منها ولا افظع وذوَّبت خطاياي كما يذوب الجليد؛ وبفضل نعمتك امتنعت كذلك عمَّا لم ارتكبه من شرور ! ولكن ، اي شرٍّ قدرت عليه وتوقفت عنه طال ما اني احببت الاثم الذي لا فائدة منه ؟

لك اعترف بأنك غفرت لي ذنوبي كلها : ما عملت منها برضى تام وما لم اعمل ، بفضل نعمتك ! من ذا يتأمـــل في ضعفه فيجرؤ ان يعزو الى قواه الذاتية ما هو عليه من الطهر والصلاح ثم ينتقص من حبه لك كأنه لم يكن بحاجةٍ كلية الى رحمتك التي تغفر الخطايا للتائبين اليك ؟ كل من دعوتَه فتبعك وتحاشى المغالط التي يقرأها عني في كتاب اعترافي هذا لا يجوز له ان يسخر مني وقد شفاني من دائي الطبيبُ نفسه الذي وقاه من المرض، او بالأحرى، الطبيب الذي لم يدعه يمرض نظيري ؛ ومن ثمَّ يجب عليه ان يحبك كما أُحبك واكثر ؛ لأن مخلصي من جميع آثامي المميتة قد وقاه خطر السقوط فيها .

آه ! ماذا جنيت في نهاية الأمر من شروري التي اخجل من ذكرها؟ ولا سيَّما السرقة التي ما احببت فيها سوى قباحتها ورغم انها عدمٌ واني ما

عملتهاوحدي فقد زادتني شقاءً – تلك كانت استعداداتي في ذلك الحين – وايم الحق ، لم ارتكب تلك السرقة وحدي بل احببت مرافقة من شاركتهم فيها . وبالتالي فلا يجوز ان يقال : ما احب اغوسطين سوى السرقـــة ولو كان ذاك القول صحيحاً لأنه باطلٌ ايضاً . اين هي الحقيقة ؟ ومن يدلني عليها عدا ذاك الذي ينير قلبي ويخترق ظلماته ؟ ومـــا يحدو بي الى تلك الابحاث والمناقشات والمناظرات ؟ لو كان لي ادنى رغبة في تلك الثمار التي سرقتها او طمعت بلذةٍ اجنيها منها لكنت قمت بذلك العمل السافل ، وحدي ، سعياً وراء اللذة المنشودة ، ولما لجأت الى اثارة شهوتي الأكول بالتواطؤ مع زملائي في الاثم ؛ لكن لذتي الوحيدة في الخطيئة التي اشتركنا بها ، لا في تذوُّق الاجاصات المسروقة .

وكيف كانت حالتي النفسية آنذاك ؟ كانت ولا شك مخجلةً لأنها سطت عليَّ ! ولكن ، كيف كانت ؟ ومن يقوى على ادراك آثامه ؟ ضحكنا كأن المهزلة التي مثلناها بحق اناسٍ غافلين ، ولا يريدونها البتة ، لا تزال تدغدغ قلبي ! ولِمَ كنت اجد لذة خاصة باشراك الآخرين معي؟ أَلأن الانسان لا يضحك ملياً حـــين يكون وحده ؟ ام لأن الضحكة لا تطاوعه آنذاك ؟ انما المعروف عن الضحك انه ينفجر احياناً من صدر انسانٍ منعزلٍ ، منفرد عن الناس اذا ما طرأ على عقله وحواسّه ما يستوجب الضحك ! أمّا انا فما كنت قدرت ان اقترف وحدي السرقة المعهودة !

هاك ذكرياتي حية يا الهي ! لو كنت وحدي لما سرقت لأن لذتي منها تقوم على فعل السرقة بالذات لا على ما هو مسروق. لو قُدِّر لي ان اكون وحدي لما وجدت فيها ادنى لذة وبالتالي لما اقترفتها ! اوّاه من صداقـــةٍ تخاصمني واغراءٍ فكري لا يُسبَر له غور ! أوّاه منك ايها النهم الى الشر المتخذ لك سبل اللهو والمرح ! والويل لك ايتها الشهوة التي تريدين الحاق

الأذى بالآخرين لا سعياً وراء نفعٍ شخصي ولا أخـــذاً لثأر ! ! ولكن ، حَسْبُنا منك صوتٌ يقول : « هيّا ! الى الأمام ! »

من يقوى على حل تلك المشاكل المتشابكة التي بلغت هذا الحد من التعقُّد ؟ اكره ان افكر بعاري واكره ان انظر اليه ؛ ولكني اريدك انت ايها العدل والصلاح المنير والصافي يا من تدَّخر مسراتٍ لا يُشبع منهـــا ! الراحة فيك واسعة والحياة لا تعرف القلق ؛ وكل من يدخل حماك « يدخل فرح سيده » ولن يفزع ابداً بل يفيض خيراً وصلاحاً لوجوده في الخير الأسمى ! انزلقتُ بعيداً عنك وتهتُ في صباى يا الهي وهِمتُ على وجهي فكفرتُ بك يا سندي وغدوتُ لنفسي « ارض جدبٍ وشقاء » .

الكتاب
الثالث

في قرطاجة

في قرطاجة

وصلت الى قرطاجة فراحت مراجل الهوى الأثيم تهدر حولي ؛ ولم أكن عاشقاً ؛ بيـد اني كنت اصبو الى الحب واكره ان اكون متأخراً في هذا المضمار؛ وبحثت، وانا المتيّم، عمّن احب واهوى ؛ كرهت ان اسير بأمانٍ على طريق تخلو من فخاخ لأني كنت جائعاً الى طعامٍ باطني ؛ اجل كنت جائعاً اليك يا الهي ! ولم ازدد جوعاً ، بل فقدت كل شهيةٍ للاطعمة التي لا تعرف الفساد؛لا، لأني أُصبتُ منها بتخمةٍ بل لأن حرماني منها زادني نفوراً وتقززاً ! أُصيبت نفسي بضنْكٍ شديد وتغطّت بالقروح فطار صوابها وراحت بكل شواعرها تتلمّس، بنهمٍ، المحسوسات التي لو لم يكن لها روحٌ لما كنا نهواها !

كان طعم الهوى العذب يتعاظم عليّ حين استمتع بجسد حبيبي فادنّس معين الصداقة باقذار الشهوة البهيمية واحجب سناها بسُحبٍ من الفحش جهنمية ؛ برغم شناعتي وسفهي فقد كنت اتوق ، اشباعاً لأنانيتي ، الى ان اتظارف على مثال سكان المدن !

وعثرتُ في سبل الهوى التي تمنَّيتُها لنفسي ! فيا الهي ورحمتي وصلاحي ، ما هو مقدار المرارة التي مزجتها بتلك الحلاوة حتى وقعت في فخاخ الحب وبلغت قيود اللذة مسروراً فشقيتُ ؛ وذقت الواناً من العذاب ، عذاب الجسد والشبهات والخوف والخصومات والغضب ! ؟

لقد امتلك المسرح علي حواسّي لمـا فيه من صورٍ لشقاوتي ومن وقودٍ لناري ! فما لقلبك ايها الانسان لا يَرِقُّ لمرأى مغامراتٍ محزنةٍ ، مؤسفةٍ يأبى ان يختبرها بذاته بيدَ انه يتوق وهو بين المتفرِّجين الى ان يتألم مـع الممثّلين ؟ وألَمُه هذا ، هو لذته ! انه ، حقاً ، لضربٌ من الجنون ! يزداد توجُّعنا بنسبة استسلامنا الى تلك الشهوات ! انه عذابٌ لنفوسنا ؛ وللآخرين ، اشفاق عليهم ورثاءٌ لحالهم . ولكن ، هل تستوجب الشفقة اسطورةٌ تُقدَّم على المسرح ولا تبعث في قلوب النظّارة عاطفةً لمساعدة الغير بل تحرِّكها لمشاطرة الآخرين آلامهم؟وبقدر ما تهيِّج تلك الخرافات قلوب المتفرِّجين يتعاظم تقديرهم لمؤلفها او يتضاءل حتى اذا تركت تلك الويلات والمصائب الوهمية المتفرجَ بارداً ، خرج يلعن ويسب ؛ واذا أثرت فيه وآلمته ، فيحضرها بغبطةٍ وانتباهٍ كلي !

انَّا نهوى الدموع والآلام ! أكيدٌ هو حب الانسان للفرح وثابتةٌ هي كراهيته للحزن ؛ انما نرضى بالترثي لحال الغير ولكل ما يعقبه الألم حتماً ؛ وعلى هذا النحو فقط إنَّا نحب الألم !

ذاك هو معين الصداقـة ؛ ولكن ، كيف يجري ؟ والى اين ؟ ولِمَ يتدفق في نهر من الزفت الغالي وفي لجة سحيقة تلتهب في احشائها الشهوات السود ويتحوَّل بملء اختياره عن مجراه الخاص ويفقد نقاءه السماوي ؟ هل ينبغي للانسان ان ينبذ من قلبه كل شفقةٍ على الآخرين ؟ كلاّ ! اذاً ، لا بدَّ، وان تحب نفسه الألم! حذارِ يا نفسي ، حذارِ من الدنس ! إيَّاك

والدنس طالما تعيشين تحت كنف الهي ، اله آبائنا الذي يحق لـــه مدى الاجيال كل مجد واكرام !

الى الآن لم اغلق قلبي عن الرحمة بل شاطرتُ العشاق ملذاتهم في المسرح – تمثيلاً وتخيُّلاً – فبادلتهم عواطف المرح الاثيمة وشاطرتهم حزنهم ، يوم تفرَّقوا ، رأفةً بهم ؛ وفي كلا الحالين وجدتُ لذة .

واليومَ أُشفق على من يغتبط بعاره ولا اشفق على من يظن نفسه شقياً لفقده لذةً خبيثة وسعادةً وهمية ؛ بيد ان الشفقة على هذا احق منها على ذاك ؛ انما لا طعمَ فيها للألم! وبالتالي فكل من يتحنّن على مسكين يقوم بواجب المحبة تجاهه؛ بينا يتمنَّى ، اذا كانت عاطفته مخلصة ، الاّ يصاب قريبه بما يدعو الى الاشفاق عليه. ولو جمعت عاطفةٌ بين الحب والبغض ، وهذا امرٌ غير ممكن ، لوجدنا انساناً يتمنَّى وجود بؤساء ومساكين على الأرض ، ليمارس تجاههم الشفقة والرحمة ؛ وعليه نرى ان الألم مستحسَنٌ احياناً انما غيرُ مستحبٍ البتة ! انت ، يا الهي وحدك ، قادر ان تمنح النفوس رأفةً بالمساكين اعفَّ وابعدَ عن الفساد ممَّا نحن عليه ، لأن الألم ، اياً كان ، لا يؤثّر فيك! « ومن يقوى من بني البشر على هذا العمل؟... »

وانا الشقيُّ ، احببتُ الألمَ ؛ وبحثتُ عنه ؛ وما إن رأيت شقاء الآخرين الزائف المصطنع ، حتى اغتبطتُ في حركاته واحببتها بمقدار ما ذرفت في سبيلها من دموع ! واي غرابةٍ في موقفي هذا ؟ وانا النعجة التي لم تستقر تحت نظر راعيها فضلَّت وشردت عن قطيعه !... أَلم اكن مصاباً بجَرَبٍ مشين ؟ وهـــذا الجَرب هو الذي جعلني احب الآلام التي لا تلج الى اعماق نفسي (ما احببت قط ان اتحمَّلها بل ان اشاهدها) بل تظل سطحية تدغدغ ظاهر جلدي حتى يعقبها تورُّم فقيْحٌ فصديدٌ كريه !
تلك كانت حياتي يا الهي ؛ ويا لها من حياة !

اما رحمتك التي ما غابت عني قط ، فقد كانت ترفُّني من بعيد . اين بدَّدت قواي؟ وفي ايَّة بؤرة من الفساد؟ اي فضولٍ اثيم دفعني الى التخلي عنك فساقني الى لجة الشرّ واستعبدني الشياطين الخبثاء وقدَّمت علـى هيا كلهم افكاري الشريرة ؟ وانت ، انت يا الهي تجلدني بسوطك ! ألم تبلغ بي القحة خلال احدى الحفلات الموقوفة على اسمك فاشتهيت في صحن كنيستك ثمار الموت وتأملت في الوسيلة التي تمكنّني منها ؟ لقد زادت يدك عليَّ ثقلاً من جرَّاء خطيئتي ، يا الهي ، انت ، يا رحمتي ، التي لا حدَّ لها ويا ملجأي ضد الاخطار المرعبة التي وقعتُ فيها ادعاءً مني وكِبْراً ، ونفوراً منك ؛ ورحتُ في سبلي لا في سبلك وتعلّقتُ حرّية العبد الآبق !

اعتاد الناس أن يسمّوا القضاء والمحاماة مهناً شريفة فسعيتُ جهدي الى ان اتفوق في علومٍ يُقاس نجاحُ اصحابها بنسبة كذبهم ونفاقهم . اوّاه من عمى البشر التام الذي اصبح أصحابه به يفاخرون ! لقد فقت اقراني في فن الخطابة فتِهتُ كبراً وخيلاءً وبقيت ارفعَ منهم ادباً وتهذيباً ، كما تعلم يا الهي : لم أُجارِهم في اعمال الهزء والسخرية والتخريب التي تجعل من القائم بها أخاً للابالسة ؛ واحتفظت لنفسي بقسطٍ من الحياء البشري مع ما كنت عليه من القحة ؛ وبرغم معايشتهم ، واللذة التي اجنيها من معاشرتهم فقد كنت اشمئز من شرورهم الجنونية التي كانوا يستقبلون بها الطلاب الجدد المتردِّدين ؛ فيسبونهم مجاناً ويحقّرونهم ليجنوا من الشر غبطة ! واي شيءٍ أَشبه باعمال الابالسة من قبائحهم تلك ؟ واي لقبٍ اكثر ملاءمةً لهم من لقب مخرِّبين ، هدَّامين ؟! هلكت نفوسهم بفساد الارواح الخبيثـة التي كانت تسخر منهم خلسةً وتسقطهم في فخاخٍ ومهالكَ كانوا هم انفسهم يفرحون بسَوْقِ الآخرين اليها !

وانا الفتى ، الطري العود ، فقد كنت ادرس الفصاحة في ذلك المحيط

واتوق الى النجاح والتفوق على اقراني تحقيقاً لرغبة شريرة حمقاء: ان يمجدني الناس . واذ تبعت منهج التعليم المألوف وصلت الى كتاب « هورتنسيوس » لشيشرون قد اكتسب اعجاب الناس بفصاحته ، لا بمعانيه؛ وهو يتضمّن مقالةً يحث فيها الناس على درس الفلسفة ؛ فأثر على نفسيتي وحوّل اليك ايها الرب ، صلواتي ؛ وقلب رأساً على عقب جميع تمنياتي وامانيَّ ، حتى اصبح لديَّ كلُّ املٍ باطلٍ ، صَغاراً وحقارةً في عينيَّ ؛ وبقوةٍ غريبة اشتهيت الحكمة الأزلية واخذت انهض واعود اليك ! أجل ، ان هـذا الكتاب الذي ابتعته بمال امي (ابي قد مات منذ سنتين) تهذيباً للغتي ، لم يحقّق رغبتي ولا اعطاني درساً في اللغة بل في الأفكار !

وكم كنت مشتاقاً لأن اتخلّص من هذه الامور الدنيوية واطير اليك؛ وما ادركت قيمة صنيعك نحوي. « فيك الحكمة » لكن محبّة الحكمة تدعى في اللغة اليونانية فلسفة ، ومطالعة ذاك الكتاب اشعلت فيَّ حب الحكمة ؛ يستخدم بعض الناس الفلسفة للخداع ويخفون تحت لوائها اضاليلهم ويكاد المؤلف يجمع عـلى صفحات كتابه المعاصرين والاقدمين ممّن يدعون الفلسفة فينقدهم علناً ويلتقي على صعيد واحد هو وقديسك الخادم الأمين الناطق بهذا الخلاص الذي اوحاه اليه روحك القدُّوس : « واحذروا ان يسلبكم احدٌ بالفلسفة والغرور الباطل حسب سنّة الناس ، على مقتضى اركان العالم لا على مقتضى المسيح ؛ فانه فيـه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً » (كولوسي ٢ : ٨ – ٩) .

ولما كنت اجهل ، كما تعلم يا نور قلبي ، نصَّ الرسول فقد دفعني الى البحث عنه تحريض المؤلف الشديد على ان احبَّ واسأل وارجو واعتنق بكل اخلاص ، لا هذا المذهب الفلسفي ، ولا ذاك ؛ بل الحكمة عينهـا مجرّدة ! لكنَّ حماسي خفَّ، لأمرٍ واحد ، وهو ان اسم المسيح غائب عن

ذلك الكتاب ؛ وهذا الاسم ، ايها السيد، اسم ابنك، مخلصي ، قد رضعته مع لبن امي بفضل رأفتك عليَّ ، واحتفظ به قلبي في سرِّه ؛ ومن ثمَّ ، فكل كتابٍ يخلو من اسم يسوع لا يحلو لي كثيراً ايًّا كان ادبه وظرفه ونسقه وفلسفته .

وعزمت على مطالعة الكتب المقدسة ؛ وهاك ما وجدت فيها : وجدت ما لا يقوى الكبار على اكتناهه ولا الصغار على كشف غوامضه ؛ وجدت باباً ضيقاً ووطيئاً ينفتح على مرتفعاتٍ عـدة وقد أُسدل عليه ستارٌ من الأسرار ولم اقوَ على الدخول منه ولا على احناء رأسي لاجتيازه . وايم الحق ان الكلمات التي اتلفَّظ بها، الساعة، لا تعبر بوجهٍ من الوجوه عمَّا شعرت به لدى قيامي بذاك الدرس الأول فبدت لي تلك الكتب دون كتب شيشرون فخامةً واحتقرتها لركاكتها وقصَّرت عن اكتناه معانيها ؛ بيدَ انها وُجِدَتْ لتشارك الصغار في نموِّهم . ولكني خجلت من ان اكون صغيراً واستعضْت عن العظمة الحقيقية بالزهوّ الباطل .

واستسلمت الى زمرةٍ من الشبان المتكبرين الجهّال ، المهاذير الباحثين عن الشهوات البهيمية ؛ لقد نصبوا فخاخ الشيطان على السنتهم ووضعوا على شفاههم دبقاً جمعوا فيه مقاطعَ اتخذوها من اسمك واسم سيدنا يسوع المسيح وروحك القدس البارقليط المعزّي ! ولم تفارق هذه الاسماء شفاههم وظلت عليها صوتاً يُسمع ونبرةً صوتية ينطقون بها ؛ امَّا قلوبهم فكانت خالية من الحقيقة ؛ وكانوا دوماً يرددون « الحقيقة ! الحقيقة ! » ويحدّثوني عنها ، وما كان ابعدهم عنها ! فكم كانوا يتكلَّمون زوراً عنك، ايها الحقيقة التي لا تقبل ريباً ، وبخاصة عن عناصر هذا العالم الذي خلقته . ولم اكترث، في هذا المضمار ، لأقوال الفلاسفة الصحيحة عنها ، حباً بالوصول اليك يا ابي الكلي الصلاح ويا جمال كل جمال !

ومنذئذٍ تاقت اليك نفسي من عمق اعماقها ايها الحقيقة ولا سيَّما حين كانوا يرددون اسمك على مسمعي وقد كان نبرةً صوتية على شفاههم ولفظةً في شتَّى كتبهم الضخمة . وما هي انواع الاطعمة التي قدموها لي آنذاك لأشبع بها جوعي ؟ قدَّموا الي الشمس والقمر ! اجل ، قدَّموا لي مخلوقاتك وحسب . ولم يقدموا اكثرها جمالاً لأن هذه الاجرام النيّرة ، وان سماوية ، هي دون مخلوقاتك الروحانية ... ولم اشعر بعطش ولا بجوع اليها ؛ بل ، اليك وحدك جعت وعطشت ايها الحق الذي لا يخبو له نور ولا يتغيَّر ! لم يقدموا لي سوى سرابٍ واوهام ؛ وكم كنت اوثر شمسك ، وهي اقرب الى ناظرينا منها الى فكرنا ، على خزعبلاتهم التي تخدع العقل بواسطة حاسة النظر ! وعلى كل حالٍ فقد تناولت بلا شهية من طعامهم المتنوع ظاناً انك فيه لاني ما ذقت طعم حقيقتك في حلقي . وما كان ابعد تلك الاوهام عنك ؛ وما غذَّت عقلي بل استنزفتْ قواي . مـــا اشبه ولائم الحلم بولائم اليقظة ومع ذلك فالنائم لا يفيد منها لأنه نائم . وليس من وجهٍ للشبه بينك ايها الحقيقة وبين تلك الاطعمة التي وصفتها لنا. انها لأجسام وهمية وسرابٌ بسراب ولا شركة بينها وبين ما هو حقيقي ، سماوي وارضي ، وتلك التي نراها بعين الجسد . نحن نشاهدها كما تشاهدها الحيوانات والطيور ولهذا تبدو اقرب الى الواقع المحسوس ممَّا لو كنا نتصورهـــا في مخيَّلتنا . ولو اكتفينا بصورة خياليَّة عنها فاننا نظل اقرب الى الواقع الملموس ممَّا لو كنَّا نتصوَّر بواسطتها اجراماً اكبر واوسع قد لا تكون سوى عدمٍ مطلق ! ! وحاولوا ان يغذوني منها دون ان افيد شيئاً !

امَّا انت يا حبي ، يـــا من تهالكت عليك في ضعفي لأستمد منك القوة ، فلستَ ما يُرى من هاتيك الأجرام السماوية ولست ما لا يُرى من المخلوقات التي صنعتها كما لا يصحُّ ان نحصيك بين اسمى مخلوقاتك ! فما

اقصاك اذاً عن الاوهام التي ذكرت ، خزعبلات الاجساد والعدم المطلق ! فصورة الموجودات الحقة اقرب الى الواقع من تلك الأوهـــام ؛ واقرب ايضاً منها الى الواقع صور الأجسام التي تختلف كل الاختلاف عنك ! لست الروح التي تحيي الجسد – وحياة الجسد افضل وابقى من الأجساد ذاتها – بل انت حياة الأرواح وحياة كل حي ! تحيا بذاتك ولا تتغيَّر ابداً يا حياة نفسي !

فأين تركتني وابتعدت عني ؟ أوّاه ! شردت عن حمـــاك فضللت ولم أتمكَّن من مقاسمة الخنازير البلوطَ الذي كنت اقدمه لها ! حكايات اساتذة اللغة وشعرائها أفضل من خزعبلاتٍ ذكرناها ! فالشعر وموسيقاه و « طيَرَان مادِه » Médée انفع لي من العناصر الخمسة واباطيلها المتصلة بالخمسة الكهوف المظلمة لأنها عدمٌ واي عدمٍ ! يهلك كل من يؤمن به !... استطيع ان اجني من الشعرِ غذاءً لا بأس به ؛ (كسب القوت) وفضلاً عن ذلك فطال ما تمرَّنت على القاء قصيدة « طيَران مادِه » دون ان اضمن صحة روايتها حين القيها ؛ ولا ضمنتها ساعة ألقوها عليَّ ... تلك امورٌ صدقتها واحسرتاه ! وما هي السبل التي انحدرت عليها الى الجحيم ! ظمئت الى الحقيقة فرحت ابحث عنك يا الهي ، ثم جعت ؛ اليك اعترف بهذه الاشياء يـــا من ترأفت عليَّ حين كنت لك منكراً وتجنَّبتُ البحث عنك ، على نور عقلي الذي به شئت فميَّزتنا عن البهائم . بل طبقاً للشعور اللحمي بحثت عنك يـــا الهي ، نكنتَ اقرب الي من سرّي واقدس من اسمى عضوٍ فيَّ . لقد التقيت تلك المرأة الجَسُور الحمقاء التي يصوّرها سليمان جالسةً على كرسي امام بيتها تقول : « كلوا مريئاً من هذا الخبز الخفي واشربوا هنيئاً من هذه المياه العذبة التي لا تدوم » . فاستهوتني لاني كنت مقيماً خارجاً ، تحت كنف جسدي ، اجترُّ في سرّي ما التهمته

بناظريَّ ،جاهلاً كنه الوجود وضغط عليَّ كابوس شبيه بجهاز حادّ فعملتُ برأي اولئك الحمقى ، في الشر ... حتى اذا سألوني : هل لله جسمٌ وشعر واظافر ؟ وهل يمكن تبرير من تزوّج عدة نساءٍ معاً او سفك دماً بشرياً او قرَّب ذبائح من حيوانات؟ كنت اضطرب امامهم جاهلاً واهرب من الحقيقة ظاناً اني اسير نحوها وما علمت ان الشر حرمانٌ من الخير عاقبتُه العدم ... وهل كنت اقوى على فهم تلك الحقيقة ، وانا الذي اكتفى نظري بما هو مادي ، وعقلي بما هو وهم وسراب ...

وما ادركت ان الله روح لا جِسم له ؛ وليس له اعضاء تقاس طولاً وعرضاً ؛ وما ادركت ان لا حجمَ له لأن الحجم اذا اتخذناه في اجزائه فهو اصغر من كلّه ؛ واللامحدود منه هو اصغر من الكل في جزئه الذي يحده موضعٌ معيَّن . ولا يكون الحجم كاملاً ، في كل مكان ، على مثال الروح والله ... امَّا في ما يختص بجوهرنا ، وبما يقول الكتاب المقدس عنه ، اي اننا خلقنا على صورة الله ، فما كان لديَّ ادنى فكرة عنه !

ولا عرفت البرارة النفسية التي تقضي بموجب سُنَّة الله الكلي القدرة لا بموجب العادة . وانها لعادلة تلك السنة اذ تعطي اخلاق الشعوب ما يلائمها طبقاً للازمنة التي يعيشون فيها دون ان تتبدل وتتغيَّر مع الزمان والمكان . وبموجبها تبرَّر ابرهيم واسحق ويعقوب وموسى وداود وجميع من مجَّدهم الله بكلمته ؛ لكنهم اشرار بنظر اولئك الجهال الذين يقاضون كبشر ويقيسون سلوك الجنس البشري العام بمقياسهم الضيق . فكانوا كرجل ، لا خبرةَ له في فن السلاح واستعماله ، غطّى رأسه بحديد الحقوين ، وغطّى الحقوين بخوذة الرأس ثم اخذ يشكو من عدم ملاءمة هذه القطع له ؛ او كآخر احتدم غيظاً لمنعه عن فتح متجره بعد الظهر بمناسبة عيدٍ فيما كان مسموحاً له به قبل الظهر ! وكمن يغضب ويحقد لأن الصلاحيات لم توزع

بالمساواة في عائلة واحدة وتحت سقف واحد وذلك لأنه يرى في بيت واحد خادماً يستعمل آنية يحرِّم استعمالها على رفيق له في البيت عينه ؛ او كمن يثور لأنّ ما يسمح به خارج الاسطبل يحرَّم في غرفة الطعام .

تلك حال من يشكك ؛ لأن ما كان بالأمس مسموحاً به للصالحين اصبح اليوم محرَّماً ؛ ولأن الله يفرض شيئاً على أولاء وآخر على اولئك طبقاً للاعصر ؛ بينا نرى كلا منهما خاضعاً للعدالة نفسها !... ألا يرون ان ما يلائم انساناً في هذا البيت وفي هذا الوقت لا يلائم آخر في الظروف عينها؟ ألا يرون ان ما كان مقبولاً بالأمس يُرفض اليوم ؟ وان ما كان مقبولاً هنا او هناك اصبح حراماً على قيد خطوة من هذا الموضع او ذاك ؟ هل يتغيَّر العدل ام يتطوَّر ؟ كلاّ ؛ لا هذا ولا ذاك ، انما الأزمنة لا تسير على وتيرةٍ واحدة لأنها ازمنة . فالانسان القصير العمر لا يستطيع ان يجمع في عقله بين مقتضيات ما فات من الاعصر وبين ما غرُب عنه من الامصار ، وعدَّته الوحيدة للقيام بهذا العمل اختباره الشخصي ؛ لكنـــه يستطيع ان يرى بسهولة ما يلائم هذا العضو من ذاك الجسم في يوم معين وفي بيت معين ثم في هذه الساعة من ذاك اليوم وفي هذا الموضع من ذاك البيت وفي جسم ذاك الشخص . وبالتالي فان ما يرضى عنه في هذا الحادث يفرض عليه الخضوع في حادثٍ آخر .

كنت اجهل تلك الأمور ولا اكترث لها ؛ هي تحيط بي وانا لا أراها؛ وكنت انشد القصائد ؛ وما حُقَّ لي ان اتوقف فيها ، عـــلى هواي ، لأن تفاعيل الشعر تختلف في تقطيعها من بيت الى بيت والقاعدة التي اتبعتها في انشاد الشعر قائمة على مجموعة من الاصول ؛ وما ادركت ان العدالة التي يخضع لها اهل الفضل والقداسة هي ايضاً مجموعة من القواعـــد ثابتة ولا تطبق في مجموعها بل نجدها موزعة، وفاقاً للزمان والمكان ؛ وكم كنت ألوم

آباءنا الأقدمين الذين استخدموا حاضرهم طبقـــاً لروح الله وتنبأوا عن مستقبلهم طبقاً لما كشفه الله لهم .

هل من مكان او زمان لا يجوز للانسان فيهما ان يحب الله من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل عقله وان يحب قريبه كنفسه ؟ اذاً ، فالآثام المخجلة المضادة للطبيعة هي منبوذة دومـــاً وتجر من يرتكبها الى العقاب كسكان صادوم . وان حدث ان اقترفتها شعوب الأرض قاطبةً ، فلا بدَّ ، وان تقتصَّ منهم شريعة الله الذي لم يخلق البشر لهذه الغاية . وايم الحق ان هذا الاثم يحطم الربط الاجتماعية بيننا وبين الله اذا ما استعملت الطبيعة البشرية التي خلقها الله استعمالاً فاسداً وفاسقاً .

ويلزم تجنب المخالفة منها للتقاليد البشريـــة مراعاةً للاصطلاحات المعروفة ؛ فلا يجوز مثلاً لمواطن ، ولا لغريب ، ان يخالف تقاليد بلدٍ او قوانين مدنية ولا يحق للعضو ان يخالف المجموع الذي انبثق منه ؛ وإلاّ نبذه المجموع . أمّا ان يصدر الله امره ضد عادة موروثة او ميثاق مقرَّر فيجب والحالة هذه قبوله ، والعمل على تنفيذه حيث لم ينفذ ابداً واقرارُه حيث ظل مجهولاً وتجديد صورته ان لزم الأمر . ويجوز للملك في مملكته ان يسن قانوناً لم يسبق له ولا لسواه من الملوك ان اشترع مثله ؛ ولا يتنافى الانصياع لهذا القانون مع نظام البلد الاجتماعي ؛ بل يُعتبر رفْضُه خروجاً على النظام المرعي لأن اساس النظام البشري الاجتماعي مرتكز على الطاعة للملوك ؛ فأحرِ اذاً بهذا الحق لله سيد العالم والخلائق التي يجب عليهـــا ان تخضع له بلا فحص ولا تدقيق . وكما ان للسلطات البشرية نظاماً تسير بموجبه كذلك فان لله سلطاناً مطلقاً على الجميع .

وتلك هي حال الانسان الذي يسير في ركاب الاثم سعياً وراء الشر ايذاءً للغير بكلام ومسبّاتٍ واعمال عنف ؛ فينتقم كالعدوِ من عدوه ؛

او ينهب قريبه ما له كقاطع سبيل ؛ ويتجنّب شراً كمن يخشى على نفسه منه ؛ ويحسد ، إمّا ان يكون رجلاً بائساً يغار ممّن هو اوفر سعادة منه، او ان يحالفه التوفيق في عمله فيخشى او يتألم ان يرى قريبه يحرز نجاحاً مماثلاً له . وهناك ايضاً من يجد لذة خاصة في ان يرى الآخرين يتألمون كالمتفرج على صراع السيافين أو كالساخر من الآخرين والمتهكم عليهم: مصادر الشر تقوم على الشهوات الثلاث او على اثنتين او على واحدة منها وهي شهوة السلطة وشهوة العين وشهوة الحس . ومن يعش في ذلك الجو من الآثام يخطأ ضد الثلاث والسبع من وصاياك العشر ايها العلي الكلي العذوبة يا الله! ولكن ، ايّ عارٍ يلحق بك ؟ وجلالك لا يمسّه من الاثم ولا من شره شيءٌ ؟ انت تثأر من الشر الذي يلحقه الانسان بذاته لأن من خطىء بحقك كانت خطيئته حتماً ضد نفسه : الشر يخدع ذاته حين يفسد او يشوّه ما اقرّ الله في الطبيعة التي خلقها ونظمها . وحين يبالغ الانسان في الحلال والحرام ويستعمل الطبيعة استعمالاً منافياً لها ويخطأ ضدك بالفكر والقول «حين يرفس مهمازك» ويحطّم بوقاحته حواجز المجتمع البشري ويجد لذته في تأليف الجمعيات السرية والأحزاب الملائمة لأهوائه وميوله، اجل، حينذاك يتخلى الانسان عنك يا ينبوع الحياة ، يا خالق العالم الأصيل ومدبره الوحيد ؛ ويميلُ بكبرِه وصلفه الى عبادة جزءٍ فاسد من الكل .

ونعود اليك مدفوعين بعامل التقوى والتواضع فتشفينا من عادتنا الشريرة، يا من تُشفق على جميع المعترفين لك بخطاياهم وتستجيب لزفرات الأسرى المكبّلين بالاصفاد وتخلصنا منها شرط ان لا نرفع عليك قرون حريةٍ كاذبة اشباعاً لطمع لا يشبع ، قد يؤدي بنا الى فقدان كل شيء اذا ما احببنا خيرنا الشخصي اكثر منك ايها الخير الأسمى .

اننا لنجد بين الآثام والمحاولات الاجرامية المختلفة والشرور الكثيرة

خطايا السائرين في طريق التقدم فيتعرَّضون لسهام اللوم التي يرشقهم بها ذوو الرأي المستقيم وذلك باسم سنَّة الكمال ، ثم يُثنون عليهم ويعلقون عليهم الآمال الكبيرة . من امثالهم تنتظر الثمار اليانعة كسنبلة القمح من الساق .

وهناك اعمال شبيهة بالقبائح والآثام دون ان تكون هذه وتلك ؛ لأنها لا تتضمَّن خطأ ضدك ايها الرب الهنا وضد النظام الاجتماعي. واليك مثلاً عليها : يسعى رجلٌ في ظروف مناسبة وراء رزقه دون ان يدرك انسان واحد الدافع الصحيح الذي يسيِّره؛ اهو الطمع ام لا ؟ ورجل آخر ذو سلطان يقتص من المجرمين ليصلح المجتمع من الفساد ولا يدرك احدٌ الدافع الذي يهيب به الى هذا العمل ؛ احبًّا بضرر الآخرين ام لا ؟

من الاعمال ما يبدو شجبه ضرورياً في اعين الناس بينا نراه يحظى قبولاً في ناظريك ؛ ومنها ما يستوجب ثناء الناس بينا نراه منبوذاً لديك ؛ وهذا يعود الى مظاهر العمل التي تختلف باختلاف استعدادات القائم به الباطنية؛ وان ظروفه لتخفى علينا. امَّا اذا امرت بما هو غيرُ مألوفٍ وغير منتظر من لدنك حتى ولو اخفيت الى زمنٍ ما حدا بك الى اصدارَ هذا الأمر او كان مناقضاً لنظام اجتماعي خاص فمن ذا يتردَّدُ في تنفيذه ؟ وذلك لأن الغاية من النظام البشري الاجتماعي هي خدمتك ! وما اسعد الرجل الذي يدرك انك مصدر الأمر وان اعمال خدامك ضرورة حاضرة تحمل في ثنياتها بشرى للمستقبل .

وانا الذي تعاميت عن تلك المبادئ فسخرت من قديسيك وانبيائك ، دفعتك الى الاستهزاء بي ولا سيمَّا حين اخذت بتلك الجهالات القائلة ان التينة المقطوفة عن امها الشجرة تذرف معها دموعاً ، حليباً ! واذا كان آكل التينة قديساً ـ وهو رأي ماني ـ ولم يلطخ نفسه بقطفها عن امها

وهو خطيئة—فانها تختلط في معدته بالملائكة وباجزاء من الاله، صغيرة، ثم يصعّدها زفراتٍ وصلاة وصراخاً ، اجزاءً من الله السامي ؛ ولو لم تَفْرِج عنها معدة ولي الله القديس واسنانه لكان أُغلق عليها الى الأبد في تلك الثمرة !

ما اشقاني وانا الذي اعتقدت انه لأفضل للانسان ان يشفق على ثمار الأرض من ان يشفق على الناس انفسهم الذين لأجلهم وجدت تلك الثمار ولو ان شخصاً لا يدين بالمانوية طلب ان يسكّن جوعه ، لاعتبرتُ إهداءه لقمةً واحدةً ، اثماً ، يستوجب الموت !

وبسطتَ يدك من علُ وانتشلت نفسي من لجة هذه الظلمات وكانت امي ، خادمتك الأمينة، منتصبة امامك ترثي لحالي بدموعٍ قلَّ ان تذرف مثلها الأمهاتُ على امواتهن لأنها رأتني بفضل ايمانها بك ميتاً ! وانت ، يا رب، استجبتها ؛ استجبتها ولم تحتقر دموعها التي كانت الأرض ترتوي منها حين تقوم للصلاة ! اجل ، لقـــد استجبتها ؛ وإلاّ فمن اين جاءها الحلم الذي ذاقت فيه طعم تعزيتك فرضيتْ ان تعود الى العيشة معي تحت سقف واحد . لقد رفضت العيشة معي كرهـــاً للمسبات والتجاديف التي كنت اتفوه بها في ضلالي وفسادي ! وجدت نفسها في الحلم واقفة على خشبةٍ ، كئيبةً ، رازحة تحت ثقل احزانها وعلى مقربة منها فتًى يطفح وجهه بشراً وسروراً فيبتسم لها ويسألها عن غمّها وعن الدموع التي تذرفها يومياً — وهو يبغي ان يعلّمها لا ان يتعلم منها — وحين اجابته بأنها تبكي عليَّ طمأن خاطرها ونبّهها مشيراً الى اننا مقيمان معاً وما افترقنا قط ؛ وللحال نظرت فرأتني حقاً على مقربة منها واقفاً على تلك الخشبة !

إن لم تكن انت الموحي اليها بهذا الحلم فمن ذا يا رب ؟ وضعتَ اذنك على قلبها ايها الصالح الكلي القدرة يا من ترعى بعنايتك كل واحدٍ منا كأن

ليس لك سواه وتُعنى بالجميع كانهم واحد ! ومن اين لهـا ان تنطق بالمستقبلات ان لم تكن انت الموحي اليها بها ؟ ولمـا اخبرتني عن رؤياها حاولت ان اعكس معانيها لأضع في قلبها الأمل فتصبح يوماً حيث كنت انا ، ارتدَّت نحوي وقالت بلا تردد : « كلاَّ ، ما قيل لي قط ستصبحين انت حيث هو بل سينتقل هو الى ما انتِ فيه الآن ! ... »

اعترف لعظمتك ايها الرب بمـا علق في ذاكرتي من الحوادث والأخبار ... فاني لا إزال اذكر تأثير جوابك عليَّ بلسان امي اليقظى وهدوءها التام لقاء شرحي الحرفي الخاطئ وسرعتها في ادراك ما عييتُ عنه ... وهذه البشرى ، هي تعزية لتقواها في الاحزان الحاضرة . لقد قضيت منذئذ تسع سنوات تقريباً اتمرَّغ في اللجة واوحالها وفي الضلال وظلماتـه ؛ وكمَّ حاولت ، عبثاً ، ان اتخلص منها فازددتُ فيها غرقاً ؛ اما الأرملة الطاهرة التقية ، الوقور ، وقد احببت فيها هذه الفضائل ، فلم تكفَّ ، بعد ان انعشها الأمل دون ان يخفف من دموعها وزفراتها ، عن الترثي لحالي بحضرتك ، كلما قامت للصلاة ؛ وحظيت صلواتها منك انما كنتَ تدعني اخبط في تلك الليلة الظلماء واتمادى في غيّي !

لقد اعطيتني جواباً آخر لا ازال اذكره بـين امورٍ وشجون ، أُغفلُ ذكرَهـا الآن ، لأنتقلَ بسرعةٍ الى ما يوجبُ عليَّ الاعتراف لعظمتك ؛ وكم من امور قد نسيتها !

اجل اعطيتني جواباً آخر بلسان كاهنك الاسقف الذي ترعرع في حضن كنيستك وتعمَّق في درس الكتب المقدسة : جاءت اليه أُمّي ذات يوم ورَجَتْهُ بالحـاحٍ ان يتحدثَ معي ليشجب ضلالي وينفرّني من الشر ويعلّمني الصلاح . — وكان يقبل هذا الطلب حين يرى اناساً اهلاً للاصلاح — لكنه رفض رأيها ، لحكمةٍ فاتني فهمها آنذاك ؛ انما ادركتها

بعدئذ ، وذلك بسبب ادعـائي ونـزَقي وتعصبي الذميم للمذهب الذي إعتنقته ؛ ولأني ازعجت باسئلتي اناساً كانوا له جاهلين ــ وهي التي اوقفته على حقيقة امري ــ ثم قال لها : « دعيه واكتفي بالصلاة الى الله من اجله فيكتشف بنفسه ومن خلال مطالعاته فسادَ ذلك المذهب وشره » . واخبرها قصة والدته التي اغواها المانويون فسلمته اليهم صغيراً فطالع معظم كتبهم ونسخها فادرك خطر معتقدهم ودون ان يلجأ الى حجج وبراهين نبذها وفرَّ منها هارباً . امّا كلام الاسقف هذا فلم يقنع والدتي بل اغرقت في الصلاة والبكاء والحثّ عليه بان يجتمع اليَّ ويحدثني بأمر نفسي ؛ وللحال ضاق ذرع المطران ونفد صبره فقال لها : « اذهبي عني يا امرأة وثقي ان ابن هذه الدموع لن يهلك ابداً » .

وكم سمعتُ امي تردد علي في احاديثها جواب المطران وكأنه لها صوتٌ من السماء !

الكتاب
الرابع

عواصف وظلمات

تسع سنوات في المانوية

طوال تلك السنوات التسع الممتدة بين التاسعة عشرة والثامنة والعشرين من عمري كنا فريسةً لشهوات مختلفة : كنا نغري الناس ويغروننا ونخدعهم ويخدعوننا ، تارةً علناً بواسطة العلوم « الحرة » وطوراً سراً تحت شعائر الدين الكاذبة ؛ هنا تقاذفتنا الوساوس والأوهام وهناك جرفتنا الكبرياء في تيّارها وفي الحالين كنّا أفاكين ! وكنا نسعى في اثر شعبيّةٍ رخيصة نجنيها حيناً من تصفيق النظارة لنا واحياناً من المباريات الشعرية التي اشتركنا فيها والجهاد في سبيل اكاليل ذابلة ومن المشاهد المسرحية الصبيانية والشهوات الجامحة ؛ وطمحتُ الى التطهّر من تلك الأدناس فحملتُ الاطعمة الى « المختارين ، القديسين » المعروفين بهذا الاسم ليحوّلوها في معدهم الى الهةٍ وملائكة يعملون على خلاصنا ... طلبت تلك الاشياء وحققتها فعلاً مع زمرة من اصدقاء خدعتهم ، بضلالي .

ألا ، فليهزأ بي المتكبرون الذين لم تُذقْهم طعم الذل والانسحاق اللذين يحملانهم الى الخلاص ! واسمح لي بأن اعترف بعاري لك ايها العظيم ؛ اسمح لي ، بحقك ، وهب لي

ان اتفحّص من جديد ما دفعني الى الشرود عن طريق الصواب لكيلا تخونني ذاكرتي فأقدم لك ذبيحة الشكر! بدونك اسير الى اللجة؛ وما لي في احسن اوقاتي سوى ان ارضع لبنك واشبع منك يا غذاءً لا يفسد! ومن هو الانسان؟ حسبه هذا! آه! فليهزأ بنا العظماء والاقوياء؛ امّا نحن الضعفاء المساكين فنرجوك ان تسمع اعترافاتنا.

استقامة نيته في التدريس

تغلّبتْ علي شهواتي فرحت ادرّس الخطابة وابيع هذا الفن طوال تلك السنوات وكان رواجه يقوم بالهذر وشقشقة اللسان؛ وعلمتَ انت اني رغبتُ في تثقيف طلاّبٍ صالحين حقاً فعلّمتهم بلا غشٍ ولا تمويه فن الخداع ليسعوا في خلاص المجرمين حين تدعو الحاجة، لا في اهلاك الابرياء، الهي! رأيتني عن بعدٍ اسقط على حضيضٍ زلّت عليه قدمي؛ وشاهدت من خلال الدخان الكثيف شرارات نيتي المستقيمة الصالحة لتعليم طلاّب الأباطيل، الباحثين عن الاكاذيب؛ اجل، رأيت كل هـــذا ورأيتني احاكيهم آنذاك في كل شيء.

حياته الزوجية اللاشرعية

اتخذت لي زوجةً ولم تكن شرعيةً؛ اتخذتها اشباعاً لشهوةٍ جامحة ولم يكن لديَّ سواها وحفظت جميع عهودي معها ثم تحققت تماماً بنفسي الفرق بين الميثاق الزوجي العاقل المعقود في سبيل اعطاء الحياة وبين ما يرتكز على اشباع اللذة الحيوانية ايلاداً للبنين، رغماً عن والديهم حتى اذا ما فتحوا اعينهم للنور فرضوا محبتهم على والديهم.

حين عزمت على الاشتراك في مباراة شعرية سألني احد المنجمين مبلغاً من المال ثمن فوزي على اقراني ، فأجبته : لعنة الله على هذه العقود المخجلة فاني اكرهها ولن اضحي البتة بذبابةٍ واحـــدة في سبيل النجاح ولو كانت ثمرته اكليلاً ذهبياً خالداً ؛ وكان هذا المنجم يزعم انه يقدر ان يستنزل علي رضى الأبالسة لقاء حيوانٍ بسيط يقرّبه اليهم .

وانا ما كرهت هذا العمل الخبيث لأني احبك واثق بك يا اله قلبي وما قدرت ان احبك لأني وضعت كل مبتغاي في جمال الجسد . والنفس التي تتوق الى هذه الخزعبلات تبتعد عنك فتزني وتستسلم الى الكذب والأوهام ! رفضت دوماً ان يقرَّب عني للأبالسة استرضاءً لهم ؛ لكني قرَّبت لهم بيدي حين استسلمت الى المانوية ! وما الفرق بين إطعام الريح واطعـــام هؤلاء الشياطين الذين يتخذون من ضلالنا موضوع تسليةٍ لهم وتفكهة ؟؟

لم انقطع تماماً عن استشارة المنجمين ولم يكن لديهم ذبيحة ولا مـــا يشبهها ؛ ولم يعرفوا صلاةً يرفعونها الى الروح المعهود لكي يجعلهم الهة وبرغم ذلك فقد نبذتهم التقوى المسيحية وقضت عليهم بحق .

الخيرُ في هذا الوضع الراهن هو ان اعترف لك ايها السيد العظيم قائلاً : « تحنَّن عليَّ يا رب وتعهَّدني بعنايتك لأنني خطئت قدامك ؛ اجل ، اقول هذا لا لكي نسيء استخدام عفوك ونستسهل الشر بـــل لكي نذكر كلمة المعلم » جيدة هي صحتك فلا تخطأ لئلاّ تجرك الخطيئة الى ما هو شر من ذلك ... اولئك يحاولون نقض هذا التعليم الخلاصي حين يدّعون ان للشر المحتوم اصلاً في السماء ... وهذه هي مشيئة ڤينوس وزُحَل ومارس واله الحرب ؛ وهم يبغون من ادعائهم ذاك ان يعصموا الانسان من الغلط فيُلقوه على خالق السماء والنجوم ومدبرها وينفوه عن الانسان ، عن تلك

الكتلة التي من لحم ودم، المعروفة بصَلَفها وخبث رائحتها ! ! والخالق مصدر كل عدلٍ ، هو الهنا وسعادتنا وهو يجازي كل انسانٍ حسب اعماله ولا يحتقر القلب المتواضع والمنسحق .

ميله الى التنجيم

كان رجل ذكي الفؤاد راجح العقل ، واسع الشهرة مبرزاً في عالم الطب بفضل كده واجتهاده ، فوضع على رأسي المريض الاكليل الذي سبق الكلام عنه وذلك يومَ كان يشغل منصب قنصل لدى الرومان ؛ اجل ، لقد كلّلني ، لا بصفته طبيباً ؛ لأنك وحدك الطبيب الشافي من ذاك المرض يا من تقاوم المتكبرين وتوزع نعمك على المتواضعين ! أصحيح انك حبستَ عني مساعدتك وبخلتَ بها عليَّ عن يد ذاك الشيخ العجوز ! اصحيح انك لن تتعهد نفسي بعنايتك ؟ لقد ربطتُ مصيري به واصغيتُ الى احاديثه بانتباه كلي وثبات متواصل فوجدتُ في كلامه وتفكيره ورصانته لذةً خاصة رغم عجزه البياني في التعبير ؛ ولمّا علم من حديثي انني مكبّ باجتهاد على مطالعة كتب المنجمين اسدى اليَّ نصيحة مباركة ترافقني حتى القبر : ان اطرح عني تلك الكتب وبدلاً من ان استخدم مواهبي العقلية والجسدية في درس ترهاتٍ لا طائل تحتها اشار عليَّ باستخدامها في سبيل ما هو انفع وافيد وقال لي :

« انا درست التنجيم ومارسته في شرخ شبابي ، كسباً لقوتي ؛ ولو اني فهمت جيداً هيبوكرات (الطبيب اليوناني الشهير في الجيل الخامس قبل الميلاد) لكنت ادركت مضمون تلك الكتب التي لم اودّعها لدرس الطب إلاّ لأني لمست بيدي ضلال مبادئها وفسادها وايقنت انه لا يليق برجلٍ مثلي ان يكسب قوته عن طريق الاحتيال على الناس. اما انتَ فلك من علمك واتقانك فن الخطابة ما يكسبك مرتبةً عالية في المجتمع ويبدو انك لا

تمارس مهنة التنجيم تحصيلاً لقوتك بل رغبةً بالاطلاع ؛ صدقني يا اخي انني قررت ان اتخذ التنجيم مهنةً لي وكسباً لقوتي ولهذا تعمـّقت في درسه . » اجبته حينذاك : « ان صحَّ زعمك فكيف يتحقق اذاً ما يتكهـّن به المنجمون ؟ » اجاب : « ان ما يتحقق منه قد يكون نتيجة التقادير والصدف الطبيعية » اذا طالعنا الصفحة الأولى من ديوان شاعر نظمه في ظروف معينة ووجدنا فيها بيتاً شعرياً يناسب الموضوع الذي يدور النقاش حوله، فهل من عجب بعد ذلك مثلاً ان نجد عبارة تلفظت بها نفس بشرية صدفة ودون قصد تناسب وضع من يطرح السؤال واعماله ؟

بعد هذا التوجيه رسمتُ في ذاكرتي البرهان عن التحريات المقبلــة التي سأجريها في المستقبل القريب.اما اليوم فلم يستطع ان يقنعني بضرورة نبذ هذه الأمور كما وان صديقي نيريديوس المشهور بدماثة اخلاقه وطيب سريرته واحتقاره الشديد لتلك التمارين العرافيـّة عجز هو ايضاً عن ان يقنعني بضرورة الاقلاع عنها ؛ لأن عقلي كان متأثراً جداً بسلطة المؤلفين في هذا الموضوع ولأن الحجة الدامغة التي بحثت عنها طويلاً تنقصني ولم ادرك ان المنجمين الذين يصيبون احياناً في تكهناتهم يأتون بذلك لا لمهارتهم في فن التنجيم بل قضاءً وقدراً .

نشيد الصداقة

وفي ذلك الزمن حين اخذت ادرّس في مدينتي ومسقط رأسي تعرّفت طوال حياة التدريس المشتركة الى صديق عزيز جداً عــلى قلبي وكان في سني : وكنا كلانا في مقتبل العمر ؛ ترعرعنا معاً وذهبنا معاً الى المدرسة ولعبنا معاً انما لم يكن لي آنذاك ذلك الصديق الذي عرفته فيما بعد ؛ ورغم توثـّق عرى الصداقة بيننا لم تكن صداقتنا حقيقية على مثال تلك التي تجمع

بينك وبين من ثبتوا فيك بواسطة المحبة التي اشاعها في قلوبنـــا روحك القدوس يومَ منحتناه. ومع ذلك كانت عذبة للغاية تتغذّى من الانسجام الشديد بين طبعينا ؛ ابعدتـهُ عن الايمان القويم الذي ما احبَّه في سن المراهقة ونبذه جوهراً وعَرَضاً ، والقيته بين الاوهام والأباطيل الشيطانية التي جَعَلَتْ امي تذرف عليَّ دموعاً غزيرة ؛ فاذا بقلبه يغوص في لجة ضلالي فالتصق بـــه قلبي واذا بك تتعقَّب عبيدك الآبقين وسيفك مصلتٌ فوق اعناقهم يا اله النقمة وينبوع المراحم يا من تسيّرنا اليك على سبل غريبة ! واذا بك تأخذه من هذا العالم ولمّا تنقضِ سنةٌ كاملة على صداقتنا التي لا اعذب منها على قلبي ولا احب .

وفاة صديقه

اي انسانٍ يقدرُ بما لَـهُ من خبرة ان يحصي وحـــده امجادك ؟ ماذا صنعت يا الهي ، آنذاك ؟ وما اعمق غور احكامك! ساورتْه الحمى فألقته في سريره وافقدته الوعي فأخذ يسِحُّ منه عرق الاحتضار ولمّا يئسنا من شفائه عمَّدوه على غير علمٍ منه فلم اعارض لأني كنت اعتقد ان ما لا يزال راسخاً في قلبه حتى الآن هو ما تعلَّمه مني لا ما كانوا يُجرونه على جسمه الفاقد الحس. انما كانت النتيجة معاكسةً. استعاد صديقي صحته ونجا من الخطر واول ما اجتمعتُ اليه ، بعد ان زال الخطر عنه واصبح قادراً على النطق — لأني ما ابتعدت عنه قيد شعرة — حاولت ان امازحه ظاناً انه سيشاركني في مزاحي حول عمادٍ ، قبله ، بلا وعي ولا انتباه ، فقطَّب جبينه وعبس دلالةً على انه كان عارفاً بالسر الذي قبلـــه وصارحني قائلاً كأنه يتهدد عدواً امامه : « ان اردت ان تحافظ على صداقتنا فلا تتلفظ بكلمةٍ عن الموضوع ! » فضبطت نفسي وخجلت منها وتركت لـــه الوقت الكافي

لاسترجاع قواه آملاً ان اعود اليه ثانيةً بعد ان يتعافى ويستعيد صحته التامة لأنفّذ فيه مآربي . ولكن خابت الآمال ، فعاودته الحمّى اثناء غيابي عنه ومات بعد ايام قليلة وأفلت من يديَّ ليسكن بقربك يا الهي حيث يعزيني .

حزنه العميق عليه

وبَسَطَ موته على فؤادي سحابةً من الحزن العميق فاصبحت ارى الموت في كل شيء واضحى مسقط رأسي لي عذاباً وبيتي الوالدي وحشةً ولا اشدّ منها كما اضحى لي عذاباً قاسياً كل ما اشتركنا به في الماضي ؛ فتشتْ عنه عيناي في كل مكان فلم تعثرا عليــــه ؛ وكرهتُ كل شيءٍ هجره صديقي وبخاصة ما كان يقوله لي يوم كان حياً : « ها هوذا آتٍ » . سُدّت بوجهي سبل الفرح وتساءلت عن سبب غمي واضطرابي ولا مجيب واذا قلت لنفسي : « ثقي بالله » ثارتْ لأن هذا الغائب العزيز الذي ارتحل عنا كان اقرب الى الحقيقــــة وافضل من ذلك السراب الذي دعوت نفسي الى الترجي فيه دون ان اطمئن الا الى البكاء الذي حلّ محلَّ صديقي في قلبي .

سر الدموع

والآن لقد مضى كل هذا ، ايها الرب ومسَحَ الزمن جرحي ببلسمه فهل تأذن لي ان اقرِّب أُذْنَ قلبي من فمك فأسمعك تحدثني ايها الحق عن اللذة التي يجدها الحزانى في البكاء ؟ وهل نبذت بعيداً عنك شقاءنا ايهـــا الحاضر في كل مكان ، لتظل انت كما انت ونحن ننتقل من حال الى حال ؟ وان لم نبكِ على مسمعٍ منك ، فاي املٍ يبقى لنا من الحياة ؟ وما هي الثمرة الطيبة التي نجنيها من مرارة الحياة كالبكاء والنوح والتشكي؟اليست حلاوتها ان نلقى لديك اذناً صاغية؟ اليس كذلك ؟ اجل، في صلاتنا نجد

عذوبة حين نعلم ان صلاتنا مستجابة ! ولكن ، اتلك هي حالنا حين نتألم لفقد عزيز على قلوبنا او لحلول ذلك الأسى الشديد الذي ضغط على نفسي يوم فقدته ؟ لم يبقَ لي بصيصٌ من الامل في ان اراه يحيي بيننا ! ولم اطلبه بدموعي بل اكتفيت بالبكاء والألم وحزنت لضياع فرحي . أتكون الدموع مرةً وحلوة في آن واحد؛ لاننا نكره ما سرنا فيما مضى واصبح اليوم يحزننا ؟

بغضه للحياة

ولِمَ هذا الحديث ؟ والوقت وقت اعتراف لك لا وقت سؤال . كنت تعساً ككل من يرتبط بصداقات مع من حتِم عليه ان يموت ؛ فانه يشعر لدى فراقه بحزنٍ عميق ويحس بالشقاء الذي يحدثه فراقه فيـه قبل ان يفقدها ؛ تلك كانت حالتي النفسية آنذاك فبكيت بكاءً مراً ومكثت في بكائي ؛ اجل ، لقد بلغت ذلك الحد من الشقاء وتعلقته اكثر من تعلقي صديقي وتمنيت الخلاص من هذا الشقاء بعد صديقي لا قبله . ومن يدري اذا كنت قد احببت ان افديه بروحي كما صنع اوريست وبيلاد — ان صحَّ الخبر — وقد ارادا ان يفدي احدهما الأخر بروحه فيموتان معاً لأن حياة الواحد منهما بدون الآخر اصعب عليه من الموت عينه ؛ لكنني شعرت بعدئذٍ بعاطفة مناقضة لهاتيك التي جمعت بين ذينك الصديقين فأحسست بكره شديد للحياة وبخوف اشد من الموت وعليه كلما احببت صديقي ،زادت كراهيتي للموت ، وخوفي منه لأنـه حرمني اياه ، كعدوٍّ قاسٍ جداً ، يتأهَّب لابتلاع جميع البشر بطرفة عين كما ابتلع صديقي . تلكَ كانت شواعري آنذاك ولا ازال اذكرها .

هوذا قلبي يا الهي ! هوذا قلبي يبوح لك بسره ! اليك ما فيـه من تذكارات يا رجائي ، يا من تنقيني من دنس هذه الأميال فتوجّه انظاري اليك وتحرِّر قدميَّ من تلك القيود .

وعجبت ايضاً كيف ان البشر لم يموتوا كلهم مع ذاك الصديق الذي احببته كأنه باقٍ الى الأبد. وزاد تعجبي من نفسي لكوني احيا بعده وانا الذي ما كنت إلاّه. وما احسن ما قاله شاعر عن صديقٍ له حين سمّاه: « شطري الثاني » وخبرت صحة هذا القول في ذاتي فكان قلبانا قلباً واحداً في جسمين وكرهت الحياة بعد ان فقدت شطري الثاني ؛ وقد يكون خوفي من الموت خوفاً عليه من الموت ، وهو ذاك الصديق الذي احببته كثيراً .

سفره الى قرطاجة

مجنون هو الانسان الذي لا يعرف ان يحب الناس طبقاً لما هم عليه ! ومجنون هو الانسان الذي يفقد توازنه حين تلم به المصائب ! وانا استحققت هذا اللقب حين ضاق صدري وصعّدت الزفرات وبكيت واضطربت وفقدت رشدي وراحتي وتمزقت فيَّ نفسي وسالت دماؤها وابت ان تسكن في جسمي ؛ ولم اجد لها موضعاً احلُّها فيه ؛ وما استقرَّت لا في الغابات الرائعة المنظر ولا في اللعب والاغاني ولا في المناظر الزاهرة الضاحكة ولا على الموائد الفخمة ولا في لذات الغرفة والسرير ولا في مطالعة الكتب وانشاد الاشعار ! اجل ، نفرت من كل هذا حتى النور عينه واستثقلت كل ما لم يكن صديقي وكرهت كل ما كان غريباً عنه عدا الدموع والزفرات ... ففيها وحدها وجدت قسطاً من الراحة زهيداً حتى اذا ما انقطعت عنها شعرت حالاً بكابوس الشقاء يضغط على صدري .

كان من واجبي ان اطلب الفرج والشفاء لدنك ايها الرب الهي لكنني رفضت وما استطعت لأنك لم تكن ، بنظري ، ثابتاً ؛ ولكن الاله الذي عبدته هو سراب ووهم ؛ وحين احاول ان القي بنفسي عليه ، لتستريح ، كانت تزل بها القدم الى الفراغ فتهوي من جديد عليَّ ؛ وبقيت شقاءً لنفسي فهي لم تتعوّده وانا لم ابتعد عنه ! وكيف لقلبي ان يهرب من قلبي؟

كيف لي ان اتحرّر من ذاتي ؟ ام كيف لي ان انجو من ملاحقة نفسي لنفسي ؟ وفضلاً عنه ، لقد هجرت وطني وتركت تاغسطا الى قرطاجة حيث لم تتعوّد عيناي ان تريا صديقي فخفّ بحثهما عنه .

ليست الساعات فضةً جامدة لا قيمة لهـا تمرُّ دون ان تترك اثراً في شعورنا؛ لكنها تعمل عملها العجيب في نفوسنا فتأتي وتنقضي ويذهب اليوم تلو الآخر وفي رواحها ومجيئها تسكب في نفسي آمالاً جديدة وتنعش ذكريات ماضية فتتغلّب على الألم الماضي الذي يعقبه آلام جديدة او على الأقل بذور اخرى للآلام . ولقد ولج الحزن بسهولة الى قلبي ، وسيطر عليه لأني طرحت نفسي على الرمل وتعلّقت شخصاً ، كأنه لن يموت ابداً بينا هو يمشي الى الموت ! كنت اجد تعزيتي وحياتي في مـا يقدمه لي الاصدقاء من انسٍ وكنت اشاطرهم حبَّ من استعضنا بهم عنك كالخرافات والكذب الطويل المدى الذي يدغدغ ويفسد نفوسنا التي تميل الى معرفة كل شيء.وكان ذلك الوهم يبقى في عقلي حتى بعد موت صديقي ؛ وكانت لهم صفات اخرى حسنة سيطروا بواسطتها على شعوري فكنا نتجاذب الاحاديث ونمزح ونتبادل العطف والمودة ونشترك في مطالعة الكتب الجميلة ونهتم بعضنا ببعض ؛ واذا ما وقع خلاف بيننا ، فبسيط كالذي يقع بين الانسان ونفسه فلا يعكر صفوَ مودتنا ؛ وكنا نتبادل المعارف لتثقيف عقولنا ونفوسنا ونأسف على من يغيب عنا وننتظره بفارغ الصبر ثم نغتبط برجوع من يعود الينا . كانت كل هذه المظاهر وسواها تخرج من قلوب المتحابين كلاماً ونظراتٍ وبألف اسلوب آخر محبِّب وبفضلهـا كانت القلوب تصهر جميعها في بوتقة واحدة لتؤلف قلباً واحداً .

ذاك ما نهواه في اصدقائنا واننا لنشعر بوخزٍ في ضميرنا حين لا نبادل الحب بالحب دون ان نطلب من محبوبنا سوى مظاهر المحبـة والعطف

الخارجية. ولهذا نلبس الحداد على صديقٍ فقدناه فنتألم وتظلم الدنيا في عينينا ويتحول الفرح الى حزن في القلب الذي يغوص في الدموع ويصبح موت الراحلين موتاً للذين يحيون بعدهم. ما اسعد من يحبك ويحب صديقه وعدوّه حباً بك ! إنه لن يخسر عزيزاً عليه لانه يُحب الكل في شخص من لا يستطيع ان يخسره ابداً ! من سواك نحبُّ ونحب الجميع فيه ؟ هو انت يا الهنا ، يا خالق السماء والأرض وواسِعَها ؛ انت وسعتها وخلقتها في وقت واحد ! لا يفقـــدك إلاّ من يتخلى عنك ؛ والى اين يذهب ويهرب من يتخلّى عنك ؟ من عطفك يهرب الى غضبك ؛ وهل يستطيع ان يتهرب من عقاب شريعتك ؟ شريعتك هي الحقيقة ؛ وانت الحقيقة ! !

التوقف على جمال المخلوقات يخدع النفس

يا اله الفضائل أَميلْنا اليك وأَرِنا وجهك فنخلص ؛ اجل ، حيثما تتجه نفس الانسان تلقَ الماً إلاّ اذا استقَرَّت فيك ! ان استقرَّت في الجمالات الخارجة عنك وعنها لا تطمئن ؛ لان لا كيان لهذه الجمالات الا فيك ؛ فهي تولد وتموت ؛ تبدأ ان تكون ساعةَ تولد ، ثم تنمو وتسير نحو الاكتمال حتى اذا اكتملت شاخت وماتت ! لا تبلغ الكائنات حدّهـــا في الهرَم بل في الموت ؛ وعليه فحين تولد وتتوق الى الوجود ، تقاس سرعتها الى اللاّوجود بمقدار سرعتها نحو الوجود : هي سنّة اوجدتها لها لئلاّ تتعدّاها ؛ ان هذه الاشياء اجزاء ممّا لا يقدر ان يرى الوجود في آن واحد ولكنها بحكم ظهورها واختفائها تؤلف الكل الذي هي جزءٌ منه . على هذا المنوال يتركب كلامنا الذي ننطق به يتركّبُ من علامات واشارات لها جرْسها ووقعها الخاص ولا يتمّ الحديث الا اذا كانت كل لفظة تذهب وتفسح المجال لاختها بعد ان تكون قد مثلت دورها في الحديث . فلتمدحك نفسي يا الهي من اجل هذه الجمالات كلها التي خلقتها ! لا تسمح بان تسقط نفسي في شِبَاك

الحب الشهواني ! تسير تلك الجهالات في سبيلها نحو اللاوجود وتمزّق نفسنا بما فيها من اشواق ومطامح تجرها الى الهلاك : فالنفس البشرية تتوق الى ان تستقر في الاشياء التي تحبها دون ان تجد فيها راحةً لأنها تتغيّر دوماً ولا تثبت على حال؛ واي انسانٍ يستطيع ان يتناولها بواسطة جسده ليستأثر بها وان قريبةً منه ؟ لا احد ، لان عمل الجسد حسّي وبالتالي بطيء وهو لا يصْلحُ الا لما خلق من اجله ويعجز عن ان يوقف مخلوقاً عن متابعة سيره في المجال الذي اوجدته فيه لأن الكائنات تسمع من فم كلمتك هذا القرار القائل : « من هنا والى هناك ! »

لا تستسلمي يا نفسُ الى الأباطيل التي تصم اذن قلبك عن السّماع بل أصغي انت الى الكلمة الذي يهتف قائلاً : « ارجعي ! ارجعي !» انكِ تجدين راحة تامة حيث لا يعرف الحبيب هجراً من قبل حبيبه الا اذا تخلّى هو عنه؛ تأملي هذه الاشياء، انها تذهب تاركةً المحلّ لسواها حتى يتكوّن العالم باسره من مجموعها الحقير وقال كلمة الله: « أأذهب الى محل آخر؟ » اقيمي فيه يا نفسي وسلّميه ما اخذتِ منه فانك قد سئمتِ من الفشل الدائم ! واستودعي الحقيقة ما سلمتك الحقيقة فلن تخسري شيئاً بل تستعيدين جمال ما فسد فيك وتشفين من جميع امراضك وتجددين فيك عناصرك السائرة الى الهلاك فتتحسّن وتتمسّك بك ولن تجرّك معها الى اللجة بل تمكث معك قرب الله الذي يثبت ويبقى الى الأبد !

لمَ تسلكين ايتها الفاسقة في طريق الشهوة اللحمية ؟ قفي انتِ وعودي ولترتدّ هي عن غيها ولتسِرْ في اثرك ! ان ما تثير فيكِ من شعور هو جزء من كل وانت تجهلين المجموع الذي يتركب من تلك الاجزاء ومع ذلك فانها تملك على مشاعرك . لو كان شعورك الجسدي يقوى على ان يدرك الأجزاء كلها ولو لم يكن هذا الشعور محدوداً ومحصوراً في جزء من المجموع ،

قصاصاً لك ، لكنتِ تتمنّين ان يزول ما يحضر امامك اليوم لتتذوقيه في مجموعه بطريقة فضلى . ان الألفاظ التي ننطقُ بها تلج الى مسمعك عن طريق الحس الجسدي ذاته وبالطبع فانك لا تريدين ان تبقى تلك المقاطع مقيمة في اذنك بل ان ترحل عنها بسرعة ويحل محلها غيرها لكي تسمعي الكل في مجموعه ؛ وعلى هذا المنوال تسير الاجزاء فتؤلف كلاً واحداً ويظل الجزء مختلفاً في ذاته عن الكل ؛ والكل اقرب الى القلب من الجزء الواحد ؛ وافضل من هذا خالق هذه الاشياء كلها ؛ وخالقها هو انت يا الهنا يا من لا انقضاء له ولا خَلَف لانه ثابت الى الأبد !

سعادة الانسان الحقة في الله

اذا كنتِ تفرحين بالأجساد يا نفسي فسبّحي الله من اجلها واصعدي بمحبتك منها الى مكوِّنها خوفاً من ان تسيئي اليه بسبب ما يفرحك ! واذا كنت تفرحين بالأنفس فليكن حبك لها في الله لأنها تتغيَّر ولا تثبت الا في الله الذي تهلك بدونه وتموت . فليكن حبك لها في الله وخذي معك اليه كل من استطعتِ اليهم سبيلاً وقولي لهم : فلنحببه لأنه صنع كل شيء وهو معنا ؛ لم يخلق الكائنات ليتخلّى عنها ؛ منه جاءت وفيه تثبت ؛ انه مقيم حيث تشعرين بطعم الحقيقة ؛ تجدينه في اعماق القلب وان ابتعد عنه القلب ! عودوا ايها الخطأة الى قلبكم وتمسَّكوا بخالقكم ؛ امكثوا قربه فتطمئنوا ؛ استلقوا عليه فتستريحوا ! كيف تسلكون السبل الوعرة ؟ الى اين تذهبون؟ تحبون الخير والخير فيه ؛ ولا طعم للخير ولا لذة الا بمقدار ما يكون فيه ؛ لتنقلب حلاوته الى مرارة اذا كان طالبُه يتخلّى عن الله ويبحث عنه بمعزلٍ عن خالقه ! لِمَ تتابعون سيركم على طرقٍ صعبة وعرة ؟ لا راحة حيث تبحثون ! ابحثوا عنها في موضعٍ آخر ! تطلبون الحياة السعيدة في ديار الموت فلا تجدونها ؛ وكيف تكون الحياة سعيدة حيث لا حياة ؟ !

هبط الينا ، هو ، حياتنا ، هبط الى حيث نقيم ولبس موتنا فقتله بفيض من حياته الشخصية وصرخ فينا بصوت كالرعد لنعودَ اليه ، لنعود الى ذاك المقدِس الخفي الذي خرج منه الى احشاء العذراء؛ فاتحد بالطبيعة البشرية ؛ اتحد بطبيعتنا الميتة لينجيها من موتها ؛ ومنه ظهر « كالعروس الخارج من حجَلته تبتهج كالجبّار للعدْو في السبيل » (مزمور ١٨ : ٦) واسرع في عدوه يهتف فينا بالقول والعمل والموت والحياة ونزوله الى الجحيم وصعوده الى السماء ؛ اجل ، هتف فينا بكل ذلك لنعود اليه ، وتوارى عن اعيننا لكي نعود الى قلوبنا ونجده فيها . وان ذهب فهو لا يزال بيننا ، انظروه ! لم يرد ان يبقى طويلاً معنا لكنه لم يتخلَّ عنا وذهب الى مكانٍ لم يغرب عنه ابداً « فالعالم كوِّنَ به » وهو في هذا العالم « واليه جاء ليخلص الخطأة ». لجأت نفسي اليه بعد ان خطئت فخلصها من خطيئتهـــا ! حتى مَ تظل قلوبكم مثقلةً بالخطيئة يا بني البشر؟لقد نزلت الينا الحياة ؛ ألا تريدون ان تصعدوا اليها وتحيوا ؟ وكيف تصعدون وانتم فوق « وفمكم في الاعالي » انزلوا اولاً حتى تستطيعوا ان تصعدوا بعدئذ الى الله لأنكم سقطتم بتشامخكم على الله » .

قولي لهم هذه الاشياء يـــا نفسي لكي ينوحوا في وادي الدموع ثم ارفعيهم انتِ الى الله لأن روحهُ يلهمكِ النطق ان عرفتِ ان تتكلمي تحت تأثير نار المحبة !

مشكلة الجمال كما يراها اغوسطينوس

كنت اجهل تلك الأمور فأحببت الجمال الأرضي وغرقت في اللجة وكنت اقول لأصدقائي !.. وهل نحبُّ ما ليس جميلاً ؟ ما هو الجميل ؟ وما هو الجمال ؟ وماذا يجذبنا ويجعلنا نتمسَّك بما نحب ؟ لولا جمال الشيء الذي نحبه ولولا جاذبيته لما أثَّر علينا . لاحظتُ في الاجساد جمالاً يقوم على تناسق المجموع والاجزاء وتناسقاً يقوم عـــلى نسبة صحيحة بين شيئين

كتناسق الجزء والكل ومناسبة الحذاء للرجل وهلمّ جراً.. واذ كنت افكّر واتأمل بهذه الامور تبلورت في عقلي مجموعة من الآراء وضعتها في كتاب سمّيته « الجميل والمناسب » يتضمن سفرين او ثلاثة على ما اظن ؛ انت تعرفه بالضبط يا الهي اما انا فقد نسيتُ واضعتُ الكتاب دون ان اعرف كيف كان ذلك !

وماذا دفعني الى اهداء الكتاب المذكور الى خطيب روماني اسمه هياريوس ؟ لم اكن اعرفه شخصياً انما كنت اشعر بميل شديد اليه بعد ان سمعت الكثير عن علمه وعن ثناء الناس عليه اولئك الذين أُعجبوا به لأنه درس الفصاحة اليونانية وصار يخطب باللاتينية كاللاتيني وهو السوري وكانت معارفه الفلسفية قيّمةً . وهكذا فقد احببت هذا الشخص واثنيت عليه وان غائباً عنا ! ! هل يمكن للحب ان يلج الى قلب السامع عن شفاه المادح ؟ كلاّ ؛ لكن الحماس ينتقل بالعدوى من هـذا الى ذاك ويتعلّق السامع الشخص الممدوح حين يثق بصدق المادح واستقامته ولا سيّما اذا كان ثناؤه مبنياً على المحبة .

لقد ركّزتُ محبتي للناس على احكام الناس وآرائهم لا على حكمك انت يا الهي يا من لا تغش احداً .

ولِمَ لَمْ يثنوا عليه كما يثنون على سائق عربة مشهور او على صيّاد للحيوانات ينال اعجاب الجمهور ؟ صاغوا له الثناء على شكل آخر حتى اني تمنيت ان اكون محلّه ! رفضت المحبة والثناء اللذين يُغمَرُ بهما جمهور الممثلين الهزليين وانا كنت اثني عليهم واتذوّق ما يقومون به ؛ وآثرت العيشة الخفية على هذه الشهرة والبغض على هذا العطف ! كيف ينتظم في النفس البشرية الواحدة هذا التوازن من الحب المتنوّع المتباين ؟ ام كيف يمكنني ان احب في اخي الانسان هذا الميل او ذاك الذي لو لم اكن اكرهه لما

كنت نبذته وطرحته بعيداً عني . وفضلاً عمّا سبق ، فكلانا بشر ! نرى شخصاً يحب حصاناً جميلاً ولا يريد ان يصبح حصاناً وإن كان الأمر مستطاعاً ؛ انما لا تنطبق الطريقة ذاتها على الممثل الهزلي المشارك لنا في الطبيعة البشرية ؛ وقد احبُّ احياناً في هذا الانسان ما اكرهه لنفسي .آه! الانسان لجة عميقة الغور ؛ لكنك احصيت كل شعرة في رأسه ولم تخفَ عليك واحدة منها . ما اسهل احصاء شعره وأصعب ادراك جميع نبضات قلبه !!!

كان ممّن احببتهم واحببت ان احذو حذوهم ، لقد تهتُ في كبريائي ورحت مع كل ريح بيدَ انك تدبّرتني سراً . هل باستطاعتي ان اعرف (واني لمجدك اعترف) واتيقّن ان حبي له نشأ عن محبته مادحيه له لا عن صفاته التي استوجبت الثناء عليه ؟ فلو ان مادحيه انتقدوه وذمّوه وحقّروا صفاته التي من اجلها مدحوه لما تحمّست له واكثرت في حين ان الجوهر لم يتغير ولا الرجل ذاته تغيّر ، امّا الذي تغيّر فالدعايات التي حاكها حوله من حدّثوني عنه .الى هذه الدرجة من الضعف والخمول تصل النفس التي تجهل الحقيقة في قلبها ؛ فتذهب مع كل ريح وتدور وتروح وتجيء وفقاً لاحكام الرأي الاجتماعي العام ؛ وترتفع سحابة تحجب عنها النور لئلاّ ترى الحقيقة التي تمثُلُ امامنا !

علّقت اهميةً كبرى على وقوف ذاك الشخص على انشائي ومؤلفاتي ؛ فان استحسنها ازددت حماساً وإلاّ ، جرح فؤادي ؛ جرح هذا القلب المستسلم الى الأباطيل ، الفقير الى الثبات والصحة التي تهبنا اياها يا رب ؛ وكانت نصوص ذاك « الجميل » و « المناسب » في المقالة التي اهديتها له تشغل بالي ؛ وحولها وحدها تدور جميع تأملاتي !

لم ادرك ان اصول الافكار العميقة قائمة على فنّك ايها الكلي القدرة « يا من وحدك تجترح العجائب » وتاه عقلي في ميدان الصور الجسدية وحدَّديت الجميل كما يلي : « كل ما يروع في ذاته » وحدَّدت المناسب هكذا « كل ما يروع لتناسقه مع شيءٍ آخر » واستشهدت على هذا التحديد بامثلة اتخذتها من العالم الحسي ؛ ثم انتقلت الى طبيعة النفس ولم ادرك معناها الصحيح لأن ما كان عالقاً بذهني من المغالط عن الكائنات الروحية منعني من ادراك الحقيقة ومع ان نور الحقيقة قد بهرَ ناظريَّ ، مِلْتُ بنفسي المضطربة عمَّا ليس له جسد الى الرسوم والالوان والأجرام الكبيرة وبما انني قصَّرت ولم ارَ شيئاً منها في نفسي فهمت اخيراً انني عاجز عن ادراك نفسي .وكما كنت احب السلام في الفضيلة واكره الفوضى في الرذيلة هكذا اعتقدت ان في الفضيلة وحدةً وفي الرذيلة انقساماً ؛ وخيّل اليَّ ان النفس العاقلة ترتكز على هذه الوحدة وعلى جوهر الحقيقة والخير الأسمى ؛ واعتقدت ، وانا الشقي ، ان انقسام الحياة غير العاقلة يوصلني الى معرفة جوهر الشر الأكبر الذي هو طبيعة وحياة ؛ وهذه الحياة ليست منك ، يا الهي ، يا علة كل كائن ، لقد سمَّيت الأولى وحدةً قائمة بذاتها Monade لأنها عنصرٌ روحي لا جنس له genre وسمَّيت الثانية وحدةً مزدوجة التكوين Dyode كالغضب في الاثم واللذة الحسية في حياة العبث والمرح ولم افقه معنى كلامي لأني كنت جاهلاً وما ادركت ان الشر لا يمكن ان يكون جوهراً وان عقلنا خيرٌ اسمى لا يتغيَّر !

وكما ان الانسان يقترف الجرائم اذا كانت عاطفته واخلاقه شريرة فيغضب ويثور على النظام والقوانين ويستسلم الى العبث واللهو ولا سيَّما حين تترك نفسه العنان للميول التي تغذي اللذات الجسدية هكذا تتلطخ

الحياة البشرية وتضل وتفسد اذا كانت نفس الانسان العاقلة شريرة . ولقد كانت نفسي شريرةً لأنها لم تقدّر النور الذي يجب ان ينيرها، حق قدره، فتشترك بواسطته بالحقيقة لانها ليست حقيقة . « انت تنـــير مصباحي يا الهي وتبدد من عقلي الظلمات » ومن كمالك اخذنا ايها النور الحقيقي الذي ينير كل انسان آتٍ الى العالم دون ان يكون لهذا النور دورة او خسوف » .

حاولت ان ارتفع اليك فلم تقبل ؛ وتركتني اتذوّق طعم الموت يا من « تقاوم المتكبرين » واي شيءٍ احق بالحمق والكبرياء من ان ادّعي ، وانا الجاهل، انني مثلك جوهراً ؟ اني اعلم بما يطرأ عليّ من تغييرات ولو اردت ان اكون عاقلاً لانتقلت من حالٍ الى حال في مدارج الكمال . آثرتُ ان اراك عرضة للتغيير على ان اعتقد في داخلي باننا مختلفان جوهراً ؛ وبعـــد درس ما تقدم ، ارى انك نبذتني وصدَمتَ عنادي الأرعن صدمة قوية فتخيلتُ صوراً جسدية حتى كنتُ وانا اللحم اتهمُ اللحم ؛ وانا الفكر التائه شردت عن حظيرتك حتى سرت هنا وهناك ووصلتُ الى ما لا وجود له لا في ذاتك ولا فيّ ولا في عالم الاجساد . انها لخيالات وهمية لا تمتُّ بصلة الى حقيقتك ؛ بل هي ثمرة حماقتي التي صوّرَتْها لي عن الاجساد فكنت اقول للصغار ، المؤمنين بك ، ولمواطنيّ الذين فصلني عنهم الأسْرُ ، على غير علمٍ مني ؛ اجل ، كنت اقول لهم أنا الأحمق الثرثار : « وكيف تنخدع النفس البشرية ان كان الله خالقها ؟ » وما كنت اريـــد ان يجاوبوني : « وكيف ينخدع الله اذاً » ؟ وآثرت ان أُثبت ان جوهرك الثابت اللامتغير ينخدع حتماً على ان اقر واعترف ان طبيعتي المتقلقلة تاهت بملء حريتها فاستحقت العقاب على ضلالها .

كان عمري حين تأليف ذاك الكتاب، ستاً وعشرين او سبعاً وعشرين سنة؛ وكان فكري يعانق هذه الخرافات المادية فيسمع طنينها في اذن قلبي؛ ومع هذا كله فقد كنت استمع الى نغمك الباطني ايها الحقيقة العذبة؛ واتأمل الجميل والمناسب واحببت ان امثل بحضرتك «فاسمعك واغتبط بصوت الختن» دون ان اقدر على الوقوف امامك؛ لأن اصوات ضلالي كانت تجرّني الى الخارج ويُسقطني ثِقَلُ كبريائي في اللجة وانت «لم تمنح السرور ولا السعادة لأذني» «ولم ترتجف عظامي» لأنها لم تكن قد ذاقت طعم «الانسحاق».

واي نفعٍ جنيتُ من قراءة كتاب ارسطاطاليس Les dix catégories المقولات العشر الذي فهمته لوحدي؟ كان استاذي في قرطاجة مع كثيرين سواه من العلماء يتيهون فخراً وتنتفخ خدودهم تجبُّراً لسماعهم لفظة «المقول» وهذه الكلمة تملك عليَّ شواعري وتنبّه فيَّ ما هو سماوي وغير عادي! واجمل ما في الأمر ان اكون قرأته وفهمته وحدي؛ وحين تحدثت عن مضمونه مع فلان وفلان صرّحا انهما فهماه سطحياً رغم درسه على اساتذة ماهرين وبواسطة شروح شفهية ورسومٍ مختلفة على الأرض؛ ولم يزيداني به معرفةً.

يتناول المؤلف في كتابه جواهر الكائنات واعراضها كالانسان مثلاً وما يلازمه من مظهر وقامة ودرجة قرابة (من هو اخوه؟) ومحل اقامته وتاريخ ولادته وهل هو واقف ام جالس؟ شاكُ السلاح ام لا؟ نشيط ام كسول خامل؟ وجميع هذه الميزات التي لا تحصى فمنها ما يتعلق بالاجناس التسعة الاخيرة genres ومنها ما يتعلق بجنس الجوهر بالذات.

وماذا جنيت منها؟ لا شيء سوى الضرر! واعتقدت ان هذه الاجناس

العشرة تحتوي كل موجود ؛ وحاولت ان ادركك فيها ايضاً يا الهي ؛ يا من لا ابسط منه ولا ابقى ؛ كأن كيانك متعلق بعظمتك وبجمالك اللذين رأيتهما فيك كما في جسمٍ ؛ بيدَ أنك ، انت ، لـــذاتك العظمة والجمال ؛ امّا الجسد فليس عظيماً ولا جميلاً لكونه جسداً ؛ ولكونه يظل جسداً قلَّ جماله ام صغر حجمه . جميع آرائي فيك كانت وهماً لا حقيقة ؛ اجل ، كانت افكاري صورةً حية لشقاوتي ولم ادرك حقاً سعادتك. انت امرتَ الأرض بان تنبت لي شوكاً وقرطباً وانا رحت انفـِّذ امرك فحصلت خبزي بالجهد والتعب .

مطالعته لتلك الكتب اعطته فكرة خاطئة عن الله

وما فائدتي من كتب الفنون اقرأها وافهمها دون مساعد ؟ وانها لفنون سمّوها «حرة» ! وما فائدتي منها وانا الرِقُّ المستعبد لشهواتي الشريرة؟وجدت فيها لذة ولم اميّز ما فيها من حقيقة وصواب ؛ اذ كان ظهري للنور ووجهي نحو الاشياء المُنارة وكانت عيناي تبصران الاشياء دون ان تكونا في النور ! ادركت قسطاً من الخطابة والموسيقى والهندسة والمناقشة وعلم الأعداد ؛ انك بالأمرِ لعالمٌ ايها الرب الهي يا من وهبتني حدةَ الذكاء ؛ فــلم اخصَّك بشيءٍ من عقلي بل كان ذكائي الحاد سبباً لهلاكي ، ولم ينفعني ابداً . بذلتُ جهدي لاحتفظ بافضل حصةٍ من نصيبي ، وعوضاً من ان اسلمك مواهبي ، ذهبتُ الى ارضٍ غريبة وبذّرتها بعيداً عنك في الملذات وهوى الزانيات !

وما فائدتي من نعمةٍ اسأت التصرف بهـــا ؟ لم ادرك الصعوبات التي تنشأ عن تلك العلوم فتعترض سبلَ اشد الناس ذكاءً واقدرهم على العمل ، الا حين حاولتُ ان اشرحها لهم ؛وكان احدُهم ذكاءً من يتبعني في شروحي دون ابطاء !

وما فائدتي من كل ما قرأت ؛ وقد اعتقدتُ انك، ايها الرب الهي ، ايها الحقيقة ، جسمٌ نورانيٌّ عظيم واني جزءٌ من هـــذا الجسم ؟ آه ! يا لفداحة اثمي ! تلك كانت حالي ؛ اني لا اخجل يا الهي من ان اعترف بتحننك عليَّ وابتهل اليك ؛ اذ لم اخجل في ماضيَّ، من المجاهرة امام الناس بتجاديفي ، ومن نباحي ضدك ! وما فائدتي من هذا العقل السريع الفهم للاشياء العلمية ؟ وما فائدتي من كتب كثيرة ، صعبة، فهمتها بلا مساعد طال ما اني اعتنقت كل ضلالٍ ، فيه شناعة وقباحـــة وانتهاك لاقدس الحرمات ؛ ورفضت التعليم الخلاصي ؟ وما هو الضرر الذي يلحق بصغارك ذوي الفهم البطيء، ان ظلوا دوماً بقربك وانتظروا بأمانٍ في عش كنيستك الى ان ينبت ريشهم ويغذوا بايمانك الأقدس جوانح محبتهم ؟ !

انا لنحتمي تحت جناحيك ايها الرب الهنا ، فاحفظنا واحملنا ! انت وحدك ستحملنا ؛ اجل، ستحملنا صغاراً وشيباً لان بك قوتَنا ؛ إن ابتعدنا عنك ضعفنا ، ولا خيرَ لنا الا بك ؟ ولكن ، بما اننا ابتعدنا عن خيرنـــا سقطنا في الاثم وتهنا عن الصراط المستقيم ! آه ! فلنرجع الآن اليك ايها الرب لئلاّ نهلك ؛ خيرنا حيٌّ وثابت ومناسب لك يا من انت وحدك خيرنا ! نحن لا نخشى فقدان الملجأ الذي ابتعدنا عنه حين سقطنا . مسكننا لا ينقضُ ؛ مهما طال غيابنا عنه ؛ لأنه ازليتك يا رب !

الكتاب
الخامس

وَميضٌ في الليل

صلاة الى الله

اقبل ذبيحة اعترافاتي عن يد لساني الذي كوّنتَه ودفعتَه الى الاشادة باسمك واشفِ جميع عظامي لتقول لك : « من مثلك يا رب؟» ان من يعترف لك لا ينبئك بما في قلبه! لأن القلب المُغلق لا يغيب عن نظرك ! ولا قسوة البشر تدفع يدك ؛ بل ؛ اذا شئت فانك تليّنها برحمتك ، او بنقمتك ؛ ولا احدَ يهرب من وهجك .

لتمدْحك نفسي حباً بك ؛ ولتعترف بمراحمك شكراً لك ؛ جميع مخلوقاتك لا تنقطع عن تسبيحك . كل روح يسبحك بلسانه . الحي والجماد يسبحانك بلسان من يتأملهما ؛ اما نفسي ، الناهضة من مرضها ، فانها تستند الى خلائقك لتصل اليك يا صانع العجائب فتجد فيك النشاط والقوة الحقيقية .

اذا ابتعد عنك الاشرار وهرب منك القلقون ؛ فانك تراهم وتخترق ظلماتهم ويبقى المجموع ، وهم منه ، جميلاً ، على ما فيهم من القبح ! ايَّ ضررٍ الحقوا بك وايَّ عار انزلوا بملكك العادل السليم ، المنبسط ، من اعالي السماوات حتى

اسافل الأرض ؟ اين هربوا ، حين فروا من وجهك ؟ وهل يختفون عن ناظريك ؟ لقد هربوا ، لئلاّ يروا انك تراهم ، فعميت عيونهم واصطدموا بك يا من لا تتخلى عن مخلوقاتك ؛ لقــد اصطدم بك الظالمون ، فنالوا عقاباً عادلاً ؛ ولما كفروا برحمتك تناولهم عدلُك ، وسقطوا تحت غضبك : جهلوا انك في كل مكان ؛ وان لا مكان يحدّك ، وانك وحدك حاضرٌ امام من يبتعدون عنك . ليرتدّ هؤلاء اذاً اليك ؛ وليبحثوا عنك ، يا من لا تتخلى عن مخلوقاتك وان تركتْ خالقهـــا . فليرجع اولئك اليك ؛ وليبحثوا عنك انت يا من تقيم في قلوبهم وتسكن في قلوب المعترفين لك والمنطرحين على اقدامك والباكين على صدرك ، العائدين من اسفارهم الطويلة الشاقــة ؛ وحين تمسح بلطفٍ دموعهم يستغرقون في البكاء ويجدون غبطة لأنك خلقتهم بالأمس ، وتخلقهم اليوم من جديد ؛ وفيك وحدك يجدون اليوم تعزيتهم ايها الرب ؛ لا في انسانٍ من لحم ودم! اين كنت يومَ بحثتُ عنك؟ انت كنت امامي ؛ اما انا فقد تنكّرتُ لنفسي وضيّعتُها ولم يعــد لي من سبيلٍ اليك !

سأتكلم بحضرة الهي عن السنة التاسعة والعشرين من عمري .

قدوم فوستوس الى قرطاجة

كان في قرطاجة اسقف مانوي اسمه فوستوس وكان احبولةً شيطانيةً ؛ فاستمال اليه الكثيرين بفصاحته ؛ ومع اني أُعجبتُ ببيانه فقد عرفت ان اميّز بينه وبين الحقائق التي اتوق اليها ؛ ولذا لم اكترث للقالب الذي يصوغ فيه خطابه بل وجّهت جلّ اهتمامي الى الغذاء العلمي الذي يقدمه لعقلي ؛ ولا سيّما بعد ان ذاع صيته ؛ وعلمت انه متعمّقٌ بجميع العلوم الشريفــة والمعارف الحرة !

ولما كنت مطلعاً على عدة كتب فلسفية وحافظاً لمبادئها في ذهني اخذت اقارن بين بعضها وبين خرافات المانويين الطويلـــة ؛ واتضح لي رجحان الكفة لدى الذين فهموا العالم وان كانوا عاجزين عن الوصول الى خالقه . وبما انك عظيم يا رب فانك ترمق بنظرك كل وضيع وترتفع عن المتكبر ولا تقترب الا من المنسحقي القلب ؛ والمتكبرون ، لا يجدونك وإن توصلوا بخدمتهم الى ان يحصوا نجوم السماء ورمال البحر ويقيسوا بالبركار الارجاء العلوية ويعرفوا الكواكب وحركاتها !

انهم ليبحثون عن خفايا الأمور بما آتيتهم من حدة ذكاءٍ ونباهة ؛ ولهذا اكتشفوا منها عدداً لا يُستهان به ؛ وتنبأوا عن الخسوف والكسوف قبل حصولها بسنوات ، من يوم كذا في ساعـــة كذا ، ودقيقة كذا ، فصحَّت حساباتهم وتحققت نبوءاتهم ؛ ثم دوَّنوا القواعد التي اكتشفوها في الكتب وها نحن اليوم نطالعها وندرك بفضلها ، قبل الاوان ، السنة والشهر واليوم والساعة والدقيقة التي يتم فيها الكسوف والخسوف ؛ فيكون لنا ما توقعناه !

ويعجب الجهّال من هذه الامور وينذهلون ؛ ويغتبط بهـــا العلماء ويفاخرون ؛ لكنهم ينحرفون عن نورك العظيم بسبب كبريائهم الاثيمة ويتحدثون عن كسوف الشمس المقبل ، متعامين عن الكسوف الباطني الذي يعتريهم ؛ لأن ابحاثهم خالية من روح التقوى ، مصدر العقل الذي بفضله يقومون بتلك الابحاث ؛ ولو افترضنا انهم عرفوا خالقهم فلا يقربون انفسهم اليك لتحفظ خلائقك ولا يضحون بها امامك؛وكأنهم لها خالقون؛ ولا يسبحونك بافراحهم عـــلى مثال الطيور في الجو والاسماك في مسالك البحار ولا يقربون لك ملذاتهم كالقطعان في الحقول لكي تحرق يا الله بنارك

الآكلة امياهم الميتة وتخلقهم من جديد الى حياةٍ لا تزول .

لقد جهلوا كلمتك الذي كونتهم به ؛ وكوَّنت به ما يحصونه، والحاسة التي بها يرون ما يُحصون ، والعقل الذي بفضله يُحصون . « اما حكمتك فلا قياس لها » ؛ ها ان ابنك الوحيد قـد اصبح لنا حكمة وبراً وقداسة فاحصي معنا ودفع الجزية لقيصر لكنهم لم يعرفوا هذا الطريق الذي ينزلون من ذواتهم اليه وعليه يصعدون ليبلغوا اليه ؛ لقد جهلوا حقاً هذا الطريق وظنوا انفسهم متساوين والكواكب في السماء سمواً ونوراً ؛ بيد انهم تحتُ ؛ وها هم يُلقَون على الحضيض ويغشّى الظلامُ قلبهم الفاقـد الشعور ؛ كشفوا النقاب عن بعض الموجودات لكنهم لم يطلبوا، عن تقوى، الحقيقة التي ابدعت الخليقة ولذلك فلم يجدوها ؛ ولو وجدوهـا وادركوا الله فلا يكرمونه كما يليق به ؛ ولا يشكرونه ؛ انما يتيهون في اثر افكار تافهة فيدّعون الحكمة وينسبون لأنفسهم ما لك ؛ ثم يحاولون ، في فحشائهم العمياء ، ان يخلعوا عليك ما لهم ؛ فيثقل عليك نفاقهم ايها الحق ويحولون مجد الله الذي لا يفسد الى صورة الانسان الفاسد ومثاله، والى الطيور والدواب والزحافات ويفسدون وجه حقيقتك اذ يحولونها الى كذب ؛ ويفضلون ان يؤدوا الخدمة والاكرام الى الخليقة لا الى خالقها .

وفضلاً عمَّا سبق فقد احتفظت باقوالٍ لهم عن الخليقة صحيحة وفهمت شرحها المنطقي بفضل الحساب ونظام الأزمنة وشهادات الكواكب المرئية ثم قارنت بينها وبين اقوال المانويين الذين افاضوا في الكتابة عن هذا الموضوع دون ان تنجلي امام عينيّ الاسباب التي من اجلها تأخـذ الشمس في الانقلاب ويستوي الليل والنهار ويحدثُ الكسوف او الخسوف ؛ كما واني لم افد شيئاً من الكتب الفلسفية العالمية لكنني شعرت بقوةٍ تأمرني للقبول بمضمونها دون ان يكون هذا الايمان متفقاً والحسابات القانونية التي اثبتها

عيناي ؛ وما اشد التبايُن بينهما !

هل يكفي للانسان ايها الرب اله الحق ان يدرك تلك الأمور لترضى عنه ؟ ما اشقى الانسان الذي يعرفها كلها ويجهلك ! وما اسعد من يعرفك وان كان يجهلها ! وايم الحق ان من يعرفك ويعرفها ، لا يسعد بها بل بك يسعد ؛ وان عرفك سبحك كما يليق بجلالك ورفع لك الشكر ، وابى ان يتهافت وراء التوافه من افكاره !

وكما ان من كان يملك شجرة وشكرك عن الثمر الذي يفيد منه — وان جهل طولها وعرضها — لأفضل ممن قاسها طولاً وعرضاً واحصى اغصانها كلها ولم تكن له ملكاً ولا عرف خالقها فأحبه ؛ كذلك هو المؤمن فانه يملك العالم وجميع ما فيه من كنوز ؛ ودون ان يحوز شيئاً فهو يملك كل شيءٍ ان استمسك بك يا من يخضع لك كل ما في العالم . ويا لبلاهة من يخامره ادنى ريب في ان مثل ذاك المؤمن ليس افضل — ولو كان يجهل سبل الدب الاكبر والدب الأصغر — ممَّن يرصد الافلاك ، ويحصي النجوم ، ويزن العناصر ويتجاهلك انت ، يا من تدبر الكون وتحصي جميع ما فيه بوزنٍ وقياس .

ومن ذا الذي طلب الى ماني ان يكتب في موضوعٍ لا اهمية له في التقوى ؟ حقاً قلتَ للانسان « التقوى هي الحكمة » . ومع ان ماني كان يجهل التقوى فقد كان بامكانه ان يتقن سواها من العلوم ومع انه لم يلمَّ بواحدةٍ منها ، فقد كان يزعم — وهذه هي الوقاحة بالذات — انه يدرّسها . باطلٌ هو ذاك المجد الناتج من التباهي بالعلوم الزمنية ؛ انما تقوى وفضيلة هو الاعتراف بها اليك ؛ وان شذَّ ماني ، عن هذه القاعدة ، لكثرة كلامه وثرثرته ، فقد ظهرت آراؤه على حقيقتها من خلال الموقف الذي اتخذه لنفسه امام من يعرفون حق المعرفة تلك العلوم ليقنعوه بها ؛ بيدَ انه ابى إلاَّ

ان يكرموه ولذلك حـــاول ان يقنع الناس ان الروح القدس المعز ي الذي يغني من مواهبه المؤمنين بلك ، مقيمٌ شخصياً فيه ، بكل ما له من سلطان؛ واذا امسكوه بالجرم المشهود يتكلم خطأ عن السماء والكواكب وحركـــات الشمس والقمر – وان لم تكن هذه الامور تمتُّ بصلة الى الديانة – لم يكن اخف اثماً من ذي قبل ؛ لأنه ينطق بما يجهل ، كذباً وبهتاناً ، في ثورة من الكبرياء ، جنونية ، ويسمح لنفسه بها مستنداً الى ما لشخصيته من الوهية مزعومة ! !

وحين اعلم ان هذا الأخ المسيحي يجهل هذا الأمر او ذاك ولا يميّز بينهما احافظ عليه بأناةٍ ،واعتقد ان عدم معرفته لمواضع المخلوقات وطبائعها لا يؤذيه ؛ طال ما يؤمن بلك ايماناً لا عيب فيه يا خالق جميع الكائنات ؛ لكنّ الشر يحصلُ ان اعتقد ان هذه الامور كلها تتصل اتصالاً وثيقـــاً بشكل التعليم الخلاصي ذاته ثم تجرأ بعدئذ ان يثبت بقوة ما يجهل ؛ لكن هذا الضعف يلقى في مهد الايمان ، ذراعي محبةٍ والدية تحتضنه حتى ينمو الانسان الجديد فيه ويبلغ الكمال في مأمن من ريح التعاليم المضادة .

وقد التقى معاً في ذاك الشخص المعلم والقائد والمشير حتى انه توصّل الى اقناع تلاميذه بانهم حين يقتفون آثاره لا يتبعون انساناً عادياً وحسب، بل الروح القدس عينه . فمن من بين البشر لا يقتنع بان هذا الجنون والنفاق اهلٌ للنبذ والاحتقار ؟

وفضلاً عن ذلك لم يكن لي ثقة تامة بشروحه عن الايـــام والليالي التي تسير وفقاً لنظام معروف ، على ما فيها من طولٍ وقصر ، ثم تتعاقب؛ وعن الكسوف والخسوف وعمّا شاكلها من الاحداث التي طالعت عنها كثيراً في الكتب. لو ان شرحه كان مقبولاً لكنت بقيت في ريبةٍ من جوهر الاشياء انما كنت فضلت ان ابني ايماني على ما له من سلطةٍ اكتسبها بفضل ما

كانوا ينسبون اليه من قداسة .

وطوال تلك السنوات التسع وحين تاه فكري في اثر المانويـــين كنت انتظر بشوق حار رجوع فوستوس المذكور ؛ وان حدث لي ان التقيت رفاقي تباع ماني وكشفت لهم عن صعوباتي كانوا يقصِّرون عن حلِّها ؛ انما كانوا يعلّلون النفس بان هذه المشاكل المعقَّدة وسواها مما يفوقها تعقُّداً وصعوبة ستجد لها حلاً كافياً وافياً لدى عودة فوستوس .

وها هوذا يعود اخيراً الرجل اللطيف المعشر ، العذب الكلام ، فيردد احياناً التعابير التي ألِفها المانويون في احاديثهم ليفوقهم طلاوةً وسهولة . وكيف يستطيع هذا الخادم اللبق ان يروي غليلي من اكوابه الثمينة ؟ وقد اصبتُ بتخمة في اذنيَّ ، لكثرة ما سمعت من تلك الخرافات وامثالها ، التي ليست افضل من شقيقاتها السالفات تأليفاً ولا اصحَّ منها ، وهي خالية من كل لبّ . ورغم ما فُطِر عليه من جمال الطلعة وما اكتسبه من فصاحة اللسان فلم اجده اكثر حكمة من غيره ... امَّا اولئك الذين علَّلوا انفسهم بقدومه فقد اخطأوا رأياً اذ بنوا حكمهم على ما خبروا فيه من حسن منطق ورائع بيان .

وعرفت فئة اخرى من البشر لا ثقة لهم بالحقيقة ويأبون ان يقبلوها في لغة غنية واسلوب منمَّق في حين انك قد علمتني طرقك الخفية والعجيبة يا الهي فآمنت بتعاليمك ، التي هي حق ؛ ومن سواك يا رب يقدر ان يعلم الحقيقة اياً كان مصدرها ؟ ولقد علَّمتني ايضاً ان القول الحق ليس حقاً لكونه جاء في اسلوب فصيح ولا بُطْلاً لكونه اسيءُ الافصاح عنه ؛ ولن يكون ذاك حقاً لكونه قيل باسلوب خشن ولا هذا بطلاً لكونه قيل باسلوب ظريف ؛ بل ان الحكمة والجهل كالاطعمة المفيدة والمضرة ؛ والاسلوب الظريف والخشن كآنية الطعام اللائقة وغير اللائقة التي يصلح استعمال

احدهما لهذا او لذاك من انواع المآكل .

ولما كنت مشتاقاً من زمنٍ الى سماعه فقد وجدت في احاديثه الطافحة بالحياة ومناقشاته التي وفّق فيها الى افضل الالفاظ افصاحاً عن افكاره ، متعةً خاصة ؛ وأُعجبت به وشاركت الناس في اطرائه وتعظيمه وفقتهم ثناءً عليه لكنني اسفت لعدم تمكني من الوصول اليه بسبب الازدحام فأعرضَ عليه في خلوة ، المشاكل التي لقيتُ منها الأمرَّين لنناقشها. اخيراً اتيحت لي الفرصة فاجتمعتُ واصدقائي به ؛ وما ان افضيت اليه بقسطٍ من مشاكلي حتى ظهر لي جهلُه التام للآداب الحرة ما عدا الغراماطيق الذي كان يلمّ به إلماماً سطحياً ؛ ولما كان قد اطّلع على بضع خطب لشيشرون وعـــدة مقالات لسينيك وعلى مقطوعات شعرية وعلى الكتب المانوية الموضوعة بلغة لاتينية صحيحة وغنية فقد اكتسب بفضل تمرُّسه اليومي بالخطابة سهولةً في التعبير ازدادت يوماً بعد يوم لحسن لباقته وذكائه الفطري .

اصحيح قولي هذا ، ايها الرب الهي ، يا فاحص الضمائر؟ ها اني افتح قلبي وذاكرتي امامك يا من تعهدتني منذئــــذٍ بعناياتك الخفية ووضعت نصب عيني ، مغالطي المخجلة ، لكي اراها واكرهها .

وما ان ظهر لي بوضوحٍ عجزه عن شرح المواضيع التي كنت آمل ان يتفوّق فيها حتى اخذت ثقتي به تتضاءل ، ولم اعد ارجو منه تنويراً لمـــا أُغلِق علي فهمه ، وحلاً للمشاكل التي كانت تعذبني ؛ باستطاعته ان يكون حقاً تقياً — وان جهل تلك الامور — شرط ان لا يكون مانوياً ، لما تضمنته كتب المانويين من خرافاتٍ لا حدَّ لها عن السماء والنجوم والشمس والقمر ؛ وكم تمنيت عليه لو يشرحها لي بدقة ويقارن بينها وبين سواها من الشروح المرتكزة على الحساب التي اطلعت عليها في محلٍ آخر لكي ارى ان كانت معطيات الكتب المانوية افضل منها او عـــلى الاقل ان كانت

تشرح الحوادث الآنفة الذكر شرحاً مفصّلاً ومقبولاً ؛ بيدَ اني لم اعد اومن بمقدرته على ذاك الأمر .

وعرضتُ عليه صعوباتي ليدرسها ويعطي رأيه فيها؛ فامتنع بكل تواضع عن تحمُّل هذه المسؤولية وقد كان مدركاً عدم كفاءته وما خجل من المجاهرة بها . لله ما ابعده عن فئة الثرثارين الذين حاولوا ان يلقّنوني شيئاً من تعاليمهم دون ان يقدموا لي تعليماً ذا قيمة . لقد كان ذا قلبٍ كبير ، حذراً من نفسه؛ وان بعيداً عنك . وعلم بجهله فابى الدخول في نزاعٍ صعب لا يرى له منه مخرجاً فازددت حباً له لأن تواضع الروح اجمل من العلوم التي كنت اتوق الى معرفتها ؛ وتلك كانت حاله في كل معضلة صعبة ودقيقة .

شلَّ حماسي لتعليم ماني وخفَّت ثقتي باساتذته بعد ان ثبت لي عجز اشهرهم عن حل المشاكل التي كانت تعذبني ؛ وبقيت على اتصالٍ بـه لشدة حماسه للأدب الذي كنت ادرّسه للشباب في قرطاجة، ورحنا نطالع معاً الكتب؛ فمنها ما كان مطابقاً لعقليته وما قد سمع به. وما ان عرفته حتى زال ما بي من ميل شديد للدخول في شيعة ماني لكني لم اقطع صلاتي بالمانويين بل اقتنعت بما انا عليه الآن لفقدان الأفضل وانتظرت بزوغ فجر جديد يرشدني الى الأحسن .

ويبدو ان فوستوس الشهير الذي اوقع الكثيرين في شراكه القتّالة قد حطّم قيودي دون ان يعلم ؛ لأن يديك يا الهي ، بسر عنايتك الخفي ، لم تتخليا عني ، وبينا كانت امي تصعد اليك الصلوات ليلاً ونهاراً من قلبها الجريح كنت تتصرف تجاهي تصرفاً عجيباً ! اجل ، اتيت هذا كله يا الله « لأن الرب يقوّم خطى الانسان ويحصي سبله » . ونحن ، من اين لنا الخلاص ان لم تجدّدْ يدُك ما قد سبقت فخلقت ؟؟

اثرت علي يا رب واقنعتني بضرورة السفر الى روما للتدريس فيها لا في قرطاجة ؛ ولن انسى ان اعترف لك بفضل هذا التدبير الذي ابان لي عن رحمتك لنا التي لا تني عن مساعدتنا ، فحق لنا ان نمجدها .

لم اتوخَّ من خلال سفري الى روما معاشاً افضل او مركزاً اعلى وعدني به اصدقاء حثوني على السفر ؛ وان لم تخلُ تلك الوعود من تأثير عليَّ . انما السبب الاول او بالاحرى الاوحد هو انَّ الطلاّب في روما ، وفقاً لما سمعت عنهم اكثر انضباطاً وهدوءًا من زملائهم في اي بلدٍ آخر وذلك عائد الى النظام الدقيق الذي يسيّرهم ؛ فلا تراهم مثلاً يهجمونَ بكل وقاحة الى صف استاذٍ غريب كما ان قبولهم في الصف منوطٌ به ؛ بينا الحال في قرطاجة تختلف تماماً عنها في روما ؛ يتمتعون فيها بحرية مكروهة لا رادع لها : يهجمون على الصفوف وينشرون الفوضى عابثين بالنظام الموضوع لمصلحتهم ويعملون القبيح ولا يبالون بالشريعة التي يحق لها ان تلاحقهم لأن التقليد المرعي يحميهم ضد كل قانون فيظهر هكذا انحطاطهم الاخلاقي . يأتون المنكر الذي تحرّمه شريعتك ولا يخجلون منه ويعتقدون انهم يصنعونه ولا لوم عليهم ؛ بيد ان العمىَ الذي ضُربوا به ، عقابٌ لهم ؛ وشتان ما بين عذابهم الشديد وعذاب الآخرين .

ما اردت قط ان اتخلّق ، طالباً ، بتلك الصفات ؛ بيد اني اضطررت ، استاذاً ، ان اتحملها من جانب الآخرين ففضلت السفر الى حيث لا وجود لها ، استناداً الى آراء ذوي الخبرة ؛ لكنك ، انت يا رجائي ونصيبي في ارض الاحياء ، جعلتني اغيّر مسكني سعياً وراء خلاصي ؛ واشعرتني بالمهماز في قرطاجة ، لكي اهجرها ، واريتني في روما مشاهد مُغْرِيةً لتدفعني اليها : حققت لي كل هذه الأمور على يد اناسٍ يعشقون حياة الموت ؛

يأتون هنا اعمالاً جنونية وينتظرون هناك تحقيق الوعود الفارغة . ورغبةً منك في تقويم خطايَ استخدمتَ ، خفيةً ، ضلالي وضلالهم ؛ لأن معكّري صفاء عيشي كانوا يقعون في ثورة من الغضب جنونيــة تعمي بصائرهم ؛ والدافعون بي الى استلام وظيفة اخرى كانوا منقادين وراء افكارهم السافلة فرحت العن في قرطاجه تعسي الحقيقي وابحث في روما عن سعادة كاذبة .

حزن مونيكا

ولِمَ تركت قرطاجة الى روما ؟ انت تعرف السبب يا الهي لكنك كتمته مني ومن امي التي بكت كثيراً لذهابي ولحقت بي الى البحر . اما انا فقد خدعتها فيما كانت تشد بي بقوة لتبقيني لديها او لتذهب معي ؛ وتظاهرتُ امامها باني باقٍ هناك لوداع صديقٍ ينتظر ريحاً مؤاتية للسفر ؛ فكذبتُ على امي وهربتُ وغفرتْ لي رحمتُك زلتي تلك ؛ ووقتني مياه البحر ، مع ما انا عليه من اوساخ ونتانة وقادتني الى مياه نعمتك فاغتسلتُ بها تجفيفاً للدموع الغزيرة التي كانت امي تروي بها الارض كل يومٍ امام عينيك .

ابت ان تعود بدوني ؛ وبعد جهدٍ طويل اقنعتها بان تقضي تلك الليلة في كنيسة صغيرة على اسم القديس قبريانوس ، قائمة على مقربة من مركبنا. وفي تلك الليلة عينها سافرتُ انا خلسة وهي ظلّت تصلي وتبكي .

وهل سألَتْك بدموعها يـــا الهي شيئاً سوى ان لا تسمح لي بالسفر ؟ تدبرتَ الأمر ، فاستجبت طلبها الجوهري ، متغافلاً عمَّا سألَتْك في تلك الساعة لتصيّرني الى ما كانت تتمنّاه لي كل يوم .

نفخ الهواء فملأ أشرعتنا واذا بالشاطئ يغيب رويداً رويداً عن اعيننا ؛ الى ذاك الشاطئ ستعود امي في الصباح كأنها مصابة بمسٍ في عقلها لشدة حزنها وستملأ بزفراتها وتنهداتها اذنيك ؛ وانت غافلٌ عنها . سلختني يا رب عن لذتي لتقضي على شهواتي واذا بأسف والدتي الصادر عن حب بشري

صرِف يلقى ثوابه العادل من الآلام : احبت ان امكث بقربها ككل الامهات او اكثرَ منهن ؛ وما عرفت مقدار الافراح التي تعدُّها لها اثناء غيابي عنها ، فبكت وناحت ؛ وهذا هو الدليل على ان ميراثها من امها حواء لا يزال فيها ؛ اجل ، لقد كانت تطلب بالزفرات مَنْ ولدتْه بالبكاء ؛ وها هي بعد ان اتهمتني بالكذب والنفاق تعود الى ما كانت عليه فتصلي اليك من اجلي ، بينما كنت اتابع سفري الى روما .

مرض اغوسطينوس

وحين بلغت روما استقبلني المرض الجسدي بسوطه وسرت على طريق جهنم مثقلاً بجميع الآثام التي ارتكبتها ضدك وضد نفسي وقريبي ؛ وما اكثرها ! ولقد كانت حجر الثقل في سلسلة الخطيئة الأصلية التي نموت بها كلنا « في آدم » ، ولمَّا تغفر لي منها واحدةً في يسوع المسيح ولا هو محا بصليبه العداوة الناشئة بيني وبينك من جراء خطاياي . وهل يمحوها بصليبٍ لا اومن بأن من مات عليه انسانٌ حقيقي ؟ اني انكرت حقيقة موته بالجسد على الصليب ، فماتت نفسي ؛ وبرهنت بحقيقة موته عن حياة نفسي الوهمية .

تفاقم شرُّ الحمى عليَّ وكدت اسافر الى الهلاك . وان مت آنذاك ، فالى اين اذهب؟ لا شك ، الى النار ، الى العذاب الذي استحقَتْه مآثمي طبقاً للنظام الذي اقرته مشيئتك ! وكانت امي تجهل ما حلَّ بي ؛ ومع انها غائبة عني فقد كانت تصلي لأجلي ؛ وانت ايها الموجود في كل مكان كنت تستجيبها وتشفق عليَّ وترد لي صحة الجسد ؛ وان ظلَّ قلبي مريضاً في آثامه .

وفي اثناء ذاك الخطر الشديد ما طلبتُ عمادك الذي طلبته طفلاً من امي التقية وفقاً لما اعترفت به سابقاً ؛ ولما ترعرعتُ سخِرتُ من ارشادات

طبك يا من لم تسمح بان اموت مرتين في تلك الحال ؛ ولو انك سمحتَ وجرحتَ قلب امي بجرحٍ كذاك الجرح ، لما كان برئ منه الى الأبد ؛ اني لعاجز عن وصف حبها لي ، وكم كانت تتألم لكي تلدني بالروح ! ان هذا الألم اشدُّ وطأةً عليها ممَّا تحمّلته يوم ولدتني بالجسد !

وهل كان بامكانها ان تشفى من جرحهـــا لو فاجأني الموت في حالتي المعهودة فمزّق احشاء حبها ؟ لا اعلم ! وكيف تذهب سدى تلك الصلوات العديدة المتواترة التي ترفعها دوماً اليك وحدك ، ولا تمل ؟ اكنتَ احتقرت يا اله المراحم « قلباً منسحقاً ومتواضعاً » لدى ارملة عفيفة قنوع ، لا تنقطع ابداً عن الاحسان ؛ بل تخضع وترضخ لأوامر قديسيك ولا ينقضي يوم دون ان تحمل قربانها الى مذبحك ؟ انها لتزور مرتين في النهار كنيستك صباح مساء لا رغبةً في حكايات النساء العجَّز وثرثرتهم بـــل لتسمع كلمتك وتُسمعك صلواتها ! أكنت اهملت دموع من لم تسألك لا ذهباً وفضة ولا خيراً فانياً ، سريع الزوال ؛ بل الخلاص ، لنفس ولدها ، يا من اوصلتها بنعمتك الى ما هي عليه الآن ؟ أكنت سخرت منها وحبست عنها مساعدتك ؟ لا ، لا ، ايها الرب ؛ انك كنت دوماً حاضراً لها ، تستجيب دعاءها وتعمل طبقاً للنظام الذي رتبتَ مراحلَه سابقاً ! حاشا لي ان افكر بانك حاولت ان تخدعها في تلك الرؤى والاجوبة التي ذكرتُ شيئاً منهـــا وحفظتها هي في قلبها الأمين ؛ ورفعتْها دوماً اليك في صلواتها ؛ وكأنها موقعة بامضائها : ان رحمتك ازلية ؛ ولهذا تتنازل يا رب وتجعل ذاتك مديوناً بوعودك للذين تترك لهم ديونهم !

لقـــد شفيتني من مرضي وخلصت جسد ابن امتك لتوفِّر له فرصةً مؤاتية من اجل خلاصٍ ، افضل وابقى !

وما زلتُ على اتصال وثيق في روما باولئك القديسين الكذبة ؛ لم اتصل بتلاميذهم وحسب ، ومنهم ذاك الـــذي قبلني في بيته ، طوال مرضي وفي ايام نقاهتي ، بل وبأولئك المدعوين مختارين !

والى ذاك الحين ايضاً ما اعتقدت ان الخطيئة منا ؛ بل لا ادري اي طبيعة اخرى تخطأ فينا ؛ وكنت في كبريائي اجد لذة في ان اتبرأ من الاثم حتى اذا اثمت لا اعترف باثمي امامك لكي تعطيني الشفاء لنفسي الخاطئة اليك ؛ بل احب ان اعذر نفسي واتهم كائناً فيَّ غريباً عني . وايم الحق ، انا خطئت فقسمني اثمي على ذاتي وبقدر ما كنت انفي الخطيئة عن نفسي كان يصعب عليَّ الشفاء والبرءُ منها ؛ وآثرت انا الفاسد الممقوت ، يا الله ، الكلي القدرة ان اراك فيَّ ، مغلوباً ، واهلك ، على ان تظفر بي ، واخلص !

ما اقمتَ انذاك « حارساً لفمي وحافظـــاً لشفتي لكيلا يميل قلبي الى كلام الشر» ويبحث عن الاعذار على مثال فعلة الاثم فبقيت على اتصالٍ بمختاريهم دون ان ارجو نفعاً من تعليمهم الفاسد الذي عزمت ان احافظ عليه حتى اجد ما هو افضل منه ؛ بيدَ ان حماسي له قد خفَّ ، ونفوري منه قد زاد .

ثم اعتقدت ان الفلاسفة المعروفـــين بالمحفليين « Académiciens » يفوقون حكمةً ، سواهم ؛ اذ يقولون ان الشك بكل شيءٍ واجبٌ ؛ والانسان عاجز عن فهم كل حقيقة ؛ فبدا لي حينذاك ان تعليمهم الصحيح هو ما كان يعزوه الناس اليهم لأني كنت اجهل في ذاك الوقت نياتهم الأساسية .

وحاولت ان ازعزع ثقة مضيفي الفائقة الحد بخرافات امتلأت كتب المانويين منها ؛ كما واني وطدت علاقاتي الودية بهم دون الخـــارجين عن

شيعتهم ؛ ومع ان نشاطي السابق للدفاع عنها قد خفَّ كثيراً ، فقد تقاعست ، لما بيني وبين المانويين من صلات – وقد كانوا كثرةً ، مختبئين في روما – في البحث عن سواها ولا سيَّما بعد ان فقدت كل امل بوجود الحقيقة التي ابعدوني عنها داخل كنيستك يا سيد السماء والأرض ، يا من خلقت ما يرى وما لا يرى . وظننت ان الاعتقاد بك في شكل بشري ذي اعضاء ؛ وجسدٍ مركب كجسدنا ، عارٌ ؛ إن تصوري الهي في شكل بشري على مثال جميع الكائنات ، كان السببَ الرئيسي والوحيد لضلالي المحتوم !

واعتقدت بعدئذ ان للشر طبيعة مماثلة ، لها شكلها الخاص الممقوت الذي يكون ، إمَّا كثيفاً كالتراب ، او نحيفاً رقيقاً كالجرم الهوائي فيتخيلونها روحاً شريراً يزحف على هذه الارض ؛ واذ كانت تقواي العمياء ترغمني على الاعتقاد بان الله الصالح لا يخلق طبيعة شريرة فقد قارنت بين هاتين الطبيعتين اللامحدودتين : الشريرة منها على قياس اصغر والصالحة على قياس اكبر ؛ ثم انتقلت من ذاك المبدأ الوخيم العاقبة الى نتائجه المنكرة الفظيعة !

وان حاول فكري الرجوع الى الايمان الكاثوليكي شعَر بصدمة تردّه عنه اذ ان الفكرة التي كونتها عنه لنفسي كانت مغلوطة ؛ واعتقدت كذلك انه اقرب الى التقوى ان اومن بك يا الهي أنك غيرُ متناهٍ في جميع اجزائك ، يا من اليك وحدك اعترفُ بجميع نعمك علي ، ما عدا واحدة ، وهي ان الشر ينتصب لمقاومتك ؛ فاضطررت اذ ذاك الى الاعتراف بانك متناهٍ في جميع اجزائك ؛ لكن ، لا على مثال الجسم البشري . ثم كنت افضل الاّ اعتقد انك خلقت الشر ؛ ذلك لأن الشر بنظري طبيعةٌ تشبه نوعاً ما ، الطبيعة البشرية ، وما كان بامكاني ان اتصوَّر الروح إلاّ على مثال جسمٍ رقيق نافذٍ يتنقل في الاجواء بدل ان اعتقد ان طبيعة الشر

تصدر عن يدك كما كنت اتخيلها . واعتقدت ان مخلصنا ابنك الوحيد فيضٌ من جسدك النوراني جاءَ لخلاصنا ؛ وانتفيت من ايماني كل ما لا يتلاءم وآرائي الجنونية ؛ وادَّعيتُ انه لا يمكن لتلك الطبيعة ان تولــد في احشاء مريم العذراء دون ان تختلط بالجسد ؛ وان صحَّ هذا القول وامتزجت بالجسد فكيف لا تتدنّس منه؟ هذا ما لم اقوَ على فهمه وخشيت ان اومن بتجسده ؛ واضطر بالتالي الى القبول بانه متدنس من الجسد .

وسيضحك مني اليومَ احبّاءُ روحك القدوس ، لــدى مطالعتهم لاعترافاتي ؛ وتلك كانت حالتي .

وظهرت لي انتقادات المانويين لكتبك المقدسة صحيحة غير قابلــةٍ للدحض ، رغم اني كنت اتوق احياناً الى الاخذ برأي حكَم ، نيّر البصيرة ، في بعض نقاطٍ معينة .

واخذتْ محاضراتُ البيديوس ضد المانويين تؤثر فيَّ منذ ان كنت في قرطاجة ولا سيّما حين يستشهد ببعض نصوص تصعب مقارعتها ؛ وبدت لي ردود المانويين عليه ضعيفة ؛ وكانوا يعطونها خفية ويتهرَّبون من اعلانها ، مدَّعين ان كتب العهد الجديد مزوَّرة على يد اشخاص مجهولين ارادوا ان يدخلوا الشريعة اليهودية في الايمان المسيحي ؛ بيدَ انهم لم يقدموا نصاً واحداً بدون تحوير . وانا فقد كنت اسيرَ الاشباح الجسدية التي نهكت قواي وشلّت حركاتي ؛ فضاق صدري وكدت اختنق لشدة وطأتها علي ، وعبثاً حاولت ان استنشق هواء حقيقتك الصافي النقي .

اشمئزاز اغوسطينوس من الطلاب في روما

ثم بدأت احقق الغاية التي جئت الى روما من اجلهــا ، وهي تعليم الخطابة ؛ وجمعت لديَّ بعض الطلاب ، في بدء الأمر ، حباً بالتعرف اليهم وسعياً وراء الشهرة .

وادركتُ ان لسكان روما عادات قلّ ما تألمنا منها نحن في افريقيا ؛ وثبت لي حقاً ان لا وجود فيها للاعمال التخريبية التي يقوم بهـا الطلاب المتمردون في قرطاجة ؛ انما يتفق الطلاب احياناً فيما بينهم ضد استاذهم ويتركونه لئلاّ يدفعوا له رواتبه، عابثين بمبادئ العدل الاساسية، طمعاً بالمال.

فاخذ قلبي يضمر لهم الحقد؛ لا من اجل الأذى الذي الحقوه بالآخرين بل خوفاً ممّا قد يصيبني ، انا ، في مستقبل الايام.

هؤلاء حقاً لا شرف لهم ؛ يبتعدون عنك فيزنون ؛ ويتعلقون توافهَ هي للزمن العوبة ، وكسباً دنيئاً يوسّخ الايدي التي تتعاطاه لأنهم يعانقون عالماً يهرب ، ويحتقرونك انت يا من تثبت الى الابـد وتدعو اليك النفس البشرية العاهرة لتصفح عنها حين تتوب ؛ ولا ازال لحد الآن اكره امثال اولئك الطلاب لفسادهم وشذوذ اخلاقهم ؛ إلاّ اني احبهم ، لكي يرعووا عن غيهم ، ويؤثروا العلم الذي يطلبونه على الفضة ، وانت على العلم ذاته، يا الهي الحق ويا ينبوعاً يتدفق منه الصلاح الذي لا يشوبه كدر والسلام الكلي النقاوة! وفي ذلك الوقت ايضاً ابيتُ ان اتحمّل شرهم ضناً بمصلحتي لا خدمةً ؛ يا من اردتهم افضل مما هم عليه .

في تلك الاثناء طلبتْ ميلانو من حاكم روما استاذاً للخطابة على نفقة الخزينة فاستنجدت لهذا المنصب باصدقائي السكارى من ترّهات المانوية، فكان سفري هجراً لهم دون ان يعلم احدٌ منا . واذ قدّمت خطابي الى سيّماك مدير المدينة آنذاك استحسنه وارسلني الى ميلانو . وعند وصولي اليها قمت بزيارة خادمك الامين المطران امبروسيوس الذي طبقت شهرته الخافقين ؛ وكان يوزّع بغيرة وقّادة « جوهر قمحك الصافي » عـلى شعبك « وغبطة زيتك » و « نشوة خمرك » الذي لا يسكر ، فقادتني اليه يدك على غير علمٍ مني ليقودني بدوره اليك على معرفةٍ مني .

واستقبلني رجل الله الشهير استقبال اب لابنه واظهر لي كل عاطفةٍ طيبة في قلب اسقف ؛ واخذت احبه ؛ لا لأنه يعلم الحق الذي لم يعد لي ادنى املٍ بالوصول اليه في كنيستك ؛ بل لأنه يعطف عـــليَّ ؛ فواظبت على حضور مواعظه، لا كما يجب علي ان احضرها؛ بل تثبُّتاً من فصاحته ومِمَّا اذا كانت تستحق الثناء الذي ينهال عليه من كل جبهة ؛ وبقيت في موضعي استمع الى كلامه ، متغافلاً عن الجوهر . فاعجبت بانشائه العذب الذي فاق به فوستوس دون ان يضاهيه قالباً واخراجاً . على انه لا مجالَ للمقارنة بينهما لأن الواحد منهما كان يتيه وراء الاكاذيب المانوية والآخر يعلم تعليماً خلاصياً لا اضمن منه ولا افضل ؛ لكن ، ما ابعد الخلاص عن الخطأة امثالي ؛ وان كنت اتقدم منه بتؤدةٍ على غير علمٍ مني .

وجَّهت جلَّ اهتمامي الى القالب الذي صاغ فيـــه المواعظ ؛ لا الى الحقائق التي علـّمها وذلك بعد ان يئست من الوصول اليك على ذاك الطريق ؛ انما كانت الافكار التي اتغافل عنها تلج الى قلبي مع الألفاظ دون ان استطيع الى تحريرها سبيلاً ؛ فبينا افتح قلبي للفصيح من كلامه تدخل الحقائق معه تدريجياً .

فادركت في بدء الامر ان افكار امبروسيوس مقبولة وغيـَّرت رأيي في الايمان الكاثوليكي : فمن ضعيفٍ على رد انتقادات المانويين القهـَّارة ، اصبح اليوم قوياً ؛ ولا سيَّما بعد ان سمعته يشرح طبقاً لروح النص بضعة مقاطع من العهد القديم غامضة حيث كنت اجد الموت حين اشرحها طبقاً للحرف ؛ وما ان شرح عدة نصوص عـــلى هذا النحو حتى خذلت اليأس الذي دفعني الى الاعتقاد بانه يستحيل مقاومة اعداء الشريعة والانبياء والهازئين بها .

وفضلاً عمّا تقدم فلم اعتنق المذهب الكاثوليكي لأن علماء الكاثوليك يدافعون عن معتقدهم ويدحضون بقوة منطق اعتراضات خصومهم ؛ ولم اشجب ايضاً المبادئ التي كنت ادين بها سابقاً لأن قوى الدفـــاع لدى الجانبين متساوية : اصبحت بنظري الكنيسة الكاثوليكية لا غالبة ولا مغلوبة .

وسعيت جهدي للحصول على حجة ثابتة تقنع المانويين بضلال معتقداتهم : ولو انني توصلت الى تصوّر طبيعة روحية ، لكنت حطمت جميع خزعبلاتهم وكنستها من فكري ؛ لكن اتعابي ذهبت سدىً . اما من حيث العالم الخارجي ، المحسوس ، فقد توصلت بفضل ابحاثي والمقارنات التي أجريتها الى وجود ارجحية فضلى لدى معظم الفلاسفة .

واذ داخلني شك في جميع هذه الامور ، على مثال المحفليين وملتُ مع كل ريح ، قررتُ ان اتخلّى على المانويين ولم يعد لي حقٌ بعد هذه الازمة التي اجتزتها ، بالبقاء في بدعتهم ؛ وقد بدت لي دون الكثير من البـــدع الفلسفية ؛ وابيتُ ان اكلَ نفسي المريضة الى فلاسفة يجهلون اسم يسوع . وقررتُ البقاءَ موعوظاً في الكنيسة الكاثوليكية ، كنيسة آبائي حتى يسطع نور الحق الثابت الذي يضيء لي السبيل .

الكتاب
السادس

لحاق أمه به الى ميلانو

لحاق امه به الى ميلانو

يا رجائي منذ صباي ، اين كنت ؟ والى اين تراجعت ؟ ألم تخلقني انت وتميزني عن دوابّ الارض ؟ ألم تجعلني اكثر حكمةً من طيور الجو ؟ لقد رحت في الظلام على طريق زلِقٍ وفتشت عنك في الخارج فلم اجد اله قلبي ؛ وغصت في لجج البحار فضاعت ثقتي ، ويئست من الوصول الى الحقيقة .

لحقت بي امي — معتمدة على تقواها الصحيحة — في البحر والبر ، متوكلةً عليك في كل المخاطر حتى انها ، لدى اشتداد الخطر في البحر ، راحت تشجع البحارة الذين يجب عليهم في مثل تلك الحال ان يشجّعوا الملاّحين ، الحديثي العهد ، وتبشرهم بسلامة الوصول ؛ بهذه السلامة ، التي ضمنتَها لها في الرؤيا .

فوجدتْني مشرفاً على الغرق ، يائساً من الوصول الى الحقيقة . لكن ، حين اخبرتها عن تركي للمانوية ومكوثي خارجاً عن الكثلكة ، غمرتْها موجةٌ من الفرح ، كتلك التي تغمرها لدى سماعها بشرى لم تكن بالحسبان ؛ واطمأنت

قليلاً اليّ ، انا الشقي ، وقد طال ما بكت عليّ كأنني ميتٌ تسأل لـــه القيامة ؛ وكم حملتني على نعش فكرها وقدمتني اليك لتقول انت لابن الارملة آمراً : ايها الشاب ، لك اقول ، وتعود اليه الحياة ثم يتكلّم فتردُّه الى امه !

ولم تأخذها غبطةٌ حين علمت انني بلغتُ الى ما كانت تسألك، كل يوم ، بدموعها . وإن لم اصل الى الحقيقة فقـــد رجعتُ عن غيّي . واذ كانت واثقةً من وعدك الصادق، اجابتني برزانة كلية وبقلب يطفح ثقة : لقد وعدني يسوع المسيح بان اراك كاثوليكياً مؤمناً قبل موتي . ذاك كان كلامها اليّ . ولكنها ازدادت صلاةً وبكاءً اليك يا ينبوع الرحمة، لتسرع الى اغاثتي ، وتبدد ظلامي بنورك. لقد كانت تسرع الى الكنيسة وتواظب على الصلاة فيها استقاءً للمياه المتدفقة للحياة الابديـــة من بين شفاه امبروسيوس . أحبت ذاك الانسان العظيم كأنه ملاكٌ آتٍ من قبل الرب ؛ وعلمتْ انه اوصلني الى ما انا عليه من التردُّد بين الشك واليقين ووثقت بأنني سأتعافى من مرضي بعد هذا الخطر الشديد، او بالأحرى، بعد هذه الأزمة العارضة ، حسب قول الاطباء .

مونيكا تضحي ببعض ممارساتها التقوية استجابة لطلب امبروسيوس

واذ كانت تحمل الى قبور القديسين ، حسب عادةٍ درجت عليها في افريقيا ، حساءً وخبزاً وخمراً صافياً ، رفض الحاجبُ تقادمها . ولما علمت ان الاسقف يحرّم ذلك ، رضختْ لأمره فعجبتُ كيف انها آثرت تأثيم العادة التي دَرَجَتْ عليها حتى الآن وأبت الاعتراض على امر الاسقف لأنها اتخذت القناعة شعاراً لها ؛ ولم يكن حبها للخمر يحملها على كراهيـــة الحقيقة على مثال الكثيرين من الناس الذين يشعرون بدوار ، امام نغمٍ من القناعة ، كمن يسكرون امام كاس ماءٍ . بيدَ انها يوم كانت تحمل قفة

الاطعمة العادية المعدة للتذوق والتوزيع ، كانت تتناول منها كوباً صغيرة من الخمر الممزوج بالماء بنسبة ذوقها وقناعتها تشجيعاً للآخرين. وان كان هناك اكثر من مدفن يجب تكريمه كانت تنقل الكوب لتستخدم مزيجها من خمر وماء فاتر فيقاسمها اياه المؤمنون الحاضرون جرعة جرعة لانها كانت ترمي من خلال عملها ذاك الى التقوى لا الى اللذة ...

ولمّا علمت ان ذاك الواعظ الشهير معلّم التقوى قد حرّم تلك الاعمال حتى على من كانوا يمارسونها جزئياً كيلا يترك للشّرب مجالاً للسكر ولا سيّما لأن تلك الاجتماعات تشبه الى حدٍّ بعيد خرافات الوثنيين واجتماعـــاتهم ، انقطعت عنها بكل طيبة خاطر وبدلاً من ان تحمل الى المدافن سلةً ملأى بثمار الأرض ، حملت اليها قلباً يطفح بأطيب الأمـــاني واصفاها ووهبت المعوزين، ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ؛ وارادت ان يُحتفل على المدافن بتوزيع جسد الرب لأن الشهداء قد ذُبحوا ونالوا اكليل المجد بعد ان ساروا على خطى المسيح المتألم .

لكنني ، بحضرتك ، ادرك ، ايها الرب الهي ، ان امي مـــا كانت رضيت باستئصال تلك العادة ، لو لم يكن امبروسيوس هو المحرّم لها . لقد كانت تحترمه كثيراً وتحبه حباً شديداً بسبب خلاصي ؛ امّا هو فقد كان يحب فيها تقواها ، وغيرتها على عمل الخير والمواظبة عـــلى الحضور الى كنيستك . وحين يراني لا يتمالك عن مدحها والثناء عليها وعن تهنئتي بهذه الأم ، وهو يجهل جوهر ابنها الذي يشك بكل شيء ؛ ولا يرى ان بلوغ الحقيقة ممكن .

تردده امام امبروسيوس

في ذلك الوقت لم اكنْ اتضرعُ اليك بدموعي لتغيثني لأن عقلي كان يميل الى الاطلاع ويحب المناقشة ؛ وظننتُ ان امبروسيوس انسان يسعد بما

تقدمه له تلك الشخصيات البارزة من مظاهر الحفاوة والاكرام. شيءٌ واحد كان يشغل بالي فيه : تبتّله . اما امانيه ومعاركه ضد التجارب الملازمة لسيادته وتعزياته في المحنة وافراحه الطيبة التي يشعر بها حين يلوك خبزك بفم قلبه الخفي فقد كنت اجهلها ولا اعلم عنها شيئاً .

هو ايضاً كان يجهل ما فيَّ من قلق وما يحيق بي من خطر . وانا استصعبت ان اسأله ما اريد ، وفقاً لما اريد . وحالت بيني وبينه جمهرة من ذوي الاشغال كان يسهم ني حل مشاكلهم حتى اذا ما فرغ من مساعدتهم كان يقضي اوقاته القصيرة ، في تغذية جسده بالضروري من القوت وعقله بالمطالعة .

في اثناء مطالعته كانت عيناه تلتهمان الصفحات بسرعة وعقله يستقصي معانيها ؛ اما صوته ولسانه فجامدان . كم مرة وقفت ببابه ، ولا حرج في الدخول عليه ؛ ولا حاجب يمنع الزائرين عنه ، فرأيته يقرأ بصوت منخفض ؛ فأجلس واستسلم الى صمت طويل — ومن يجرؤ ان يفسد عليه تفكيره العميق — ثم اغادره لئلاّ يستثقل وجودي ان انا سلخته عن تلك الهنيهات القصيرات التي يفيد منها ترويحاً عن النفس بعد ان ينتهي من حلِّ مشاكل الناس . ولربما اجتنب المطالعة بصوتٍ عالٍ لئلاّ يضطر الى شرح نص غامض او الى مناقشة مسألة معقّدة فيضيعَ اذ ذاك قسماً من وقته المعيّن لفحص الكتب ، تلبية لطلب مستمعٍ ، معجب بالقراءة. وقد تكون ضرورة المحافظة على صوته الذي اخذ يخف تدريجاً هي التي حملته بحق على ان يقرأ بصوت منخفض. واياً كان الدافع الى اتخاذ هذه الطريقة ، فلا شك ، انه دافع طيبٌ ، لدى رجلٍ صالح نظيره .

عجزتُ حقاً عن ان اسأل ، ساعة اشاء ، صوتك المقدس الحال في قلبه ؛ وما استطعت اليه سبيلاً إلاّ في الأوقات الوجيزة . بحثت عن فرصة اسر

فيها اليه بما كان ينتابني من قلق واضطراب ، فلم اجدها . ما مرَّ قطُ يومُ الرب الا وسمعته يشرحُ باتقانٍ امام الشعب الكلام الحق . مذ ذاك الحين اخذتِ الثقةُ تدخل الى قلبي ، شيئاً فشيئاً ، مترجياً وجود حلٍ لأقوال الدجالين الخبيثة وتهمهم الموجهة ضد الكتب الالهية التي خدعوني بها واضلوني .

ولما ادركتُ ان ابناءك الروحيين ، الذين جدَّدتَ صورتَهم بالنعمة في كنيستك الكاثوليكية ، لم يفهموا كلمتك : « الانسان مخلوق على صورة الله » وانَّ لك جسماً بشرياً يحدك ، علا وجهي الاحمرار فرحاً ؛ لم اشك في جوهر الروح ، لكوني نبحتُ طوال سنوات عـــدة ضد الاشباح التي ولدتها الخيالات اللحمية ، لا ، ضد الايمان الكاثوليكي . وكم تجاسرت وكفرت يوم اعتبرت ذاك التعليم خاطئاً فأثَّمته بدل ان ابحث عنه بدقة ! ! ايها المتسامي والقريب ، الخفي والحاضر ، يا من لا تملك اعضاءً كبيرة واخرى صغيرة ، ايها الحاضر بكليتك في كل مكان دون ان يحدَّك مكان ، لقد صنعتَ الانسان على صورتك ولم تشاطرْنا صورتنا الجسدية وها هو من قمة رأسه الى اخمص قدميه موجودٌ في مكان .

واذ كنتُ اجهلُ شكلَ صورتك وَجَبَ عليَّ ان اقرعَ بـــابك وان اتحرَّى عن معنى هذا الايمان ؛ لا ان احتجَّ ضده بوقاحة ، كأني على حقٍّ فيما كنت اظن صواباً. يُقاس الخجل الذي اعتراني ، لاغتراري طويلاً بما وعدوني به حقيقة ، بنسبة الهم الذي قضَّ علي مضجعي سعياً وراء حقيقة ثابتة . ان تبشيري بما ليس ثابتاً كأنه ثابتٌ واكيدٌ يدلُ عـــلى حماسي وسذاجتي في اعتناق الضلال . لم يتضح لي ضلالُ تلك التعاليم إلا فيما بعد ؛ بيدَ اني مذ الآن وثقت بانني ، فيما مضي ، قد أنزلتُ منزلة الأكيد ما ليس اكيداً ، حين وجهتُ التهم العمياء ضد كنيستك الكاثوليكية . اما تعليم

الكنيسة الحقيقةَ فقد اجهله ؛ بيد انها في كل حال لم تكن تعلّم ما كنت احاربه بشدةٍ واؤثّمه. هنا بدأتُ اتراجعُ واتطوَّرُ باستمرارٍ وفرح ايها الرب الهي ، ولا سيَّما حين ادركتُ ان كنيستك الواحدة ، جسدَ ابنك الوحيد ، التي فيها تعلمتُ ، حدثاً ، اسم المسيح ، لم تتذوّق ابداً تلك الأكاذيب والترهات الصبيانية ولا حدَّدت في تعليمها السليم الخالي من كل غش ، مكاناً رحباً ، لك ، ايها الخالق لكل شيء ، مكاناً تحدُّه الأعضاء البشرية .

واغتبطتُ كذلك ،لأن كتب الشريعة القديمة والأنبياء لم تُعرَض عليّ اليوم كما في الماضي حيث لاحظت اموراً كثيرة تافهة فوجهت اللوم الى قديسيك على عواطف هم براءٌ منها . وكنت التذ في سماع امبروسيوس يردّد في مواعظه للشعب ، قاعدة سلوك ، يدعو اليها بالحاح : « الحرف يقتل والروح يحيي » . وحين يرفع الستار السري يكتشف المعنى الروحي حيث يبدو الحرف خاطئاً . لم يقل شيئاً يزعجني وان كنت لا ازال حتى تلك الساعة اجهل ان كان يقول الحق ام لا . وظل قلبي بعيداً عن شروحه ، خوفاً من السقوط ؛ فكان ترددي هذا سبب موتي ؛ واردتُ ان اتأكد مما لا يرى كما انا واثق من ان سبعة وثلاثة تجمع عشرة. ولم اكن مجنوناً لأدرك ان الحصول على هذا الطلب كاملاً امرٌ مستحيل ؛ وزعمت اني اصل الى اليقين عينه في كل حقيقة : جسدية كانت ، بعيدة عن حواسي ، ام روحية ؛ فيما لا يستطيع عقلي ان يتصور ما لا جسد له.

وكان يلزمني الايمان لأشفى ، فتحدِّقَ عينا عقلي المطهرتان بحقيقتك الخالدة ، الثابتة الى الابد ؛ انما يحدث احياناً لانسانٍ يمر على طبيب جاهل ان لا يعود يثق حتى بالنطاسي البارع . وعلى هذا النحو فان نفسي التي لا شفاءَ لها إلا بالايمان ، رفضت الشفاء خوفاً من ان تُخدع في ايمانها ،

وامتنعت عن قبول ذاك الدواء ، الايمان ، الذي تعدُّه يداك وتوزعانه على المرضى في العالم بأسره ؛ وقد جعلتَه دواءً شافياً !

ومنذئذ اخترت المعتقد الكاثوليكي بعد ان وجدتُ فيه حكمةً وصراحةً كليةً اذ يدعوني الى الايمان بما ليس صريحاً وواضحاً – إمّا لان الكشف عنه ممكن لدى البعض دون سواهم وإمّا لأنه يستحيل – ولم اجد فيه اثراً للرياء المعروف في المانوية التي تهزأ بالايمان ، وتعتمد عِلْماً مرتكزاً على وعود فارغة ؛ وتطلب منك المانوية ان تؤمن بمجموعة من الامثال يستحيل الركون اليها والتثبت منها لأنها من صميم الخرافة .

وبينا كنت ايها الرب الهي آخذاً قلبي ، بيدك الكلية الرحمة والحنان لتضمد جراحه ، نَشَأَتْ فيَّ تدريجاً الفكرة التالية : كم من اشياء لا عدَّ لها ، آمنتُ بوجودها قبل ان اراها واطلعَ عليها ؛ وكم من احداثٍ في تاريخ البشرية وبلدان ومدن لم أرَها بنفسي انما صدّقت الكثير منها وعنها استناداً الى شهادة الاصدقاء او الى رأي الاطباء وسواهم من هذه الفئة او تلك ؛ والاّ لما أتينا شيئاً يُذكر في هذه الحياة . اني اذكر جيداً واقتنع تماماً واومن ايماناً ثابتاً باني ابنٌ ، لهذين الوالدين ، لأبويَّ . من اين لي هذا ؟ اذا كنت لا اقبل ما يقال لي بهذا الصدد ؟ وهكذا فقد اقتنعت بان من لا يؤمنون بكتبك الالهية التي اعترفت بسلطانها معظم شعوب العالم يستنزلون اللوم عليهم بخلاف من يؤمنون . ثم اقتنعت بانه لا يجوز لي ان اصغي اليهم وهم يقولون : وكيف تعرف ان البشر اخذوا هذه الكتب من روح الاله الحق الذي لا يغش ولا يخدع ؟

ذاك ما وجب عليَّ القبول بـه ؛ لم أَجدْ في المناقشات السفسطائية والاتهامات التي يتبادلها الفلاسفة المتخاصمون ، وقد اطلعتُ عليها في الكتب ، برهاناً أعتمده لأنتزع من قلبي الايمان بوجودك ، وبأنك تدبر الكون

بأسره ؛ وان لم اعرفك من انت .

وتأرجح ايماني بين الضعف والقوة مع اني بقيت مؤمناً بأنك موجودٌ ، تعتني بنا . ولم اكوِّن لنفسي فكرةً صحيحة عن جوهرك وعن السبيل الذي يُوصلنا اليك او ذاك الذي نعود عليه اليك .

قصَّرنا بسبب ضعفنا عن ادراك الحقيقة بفضل عقلنا وحده ؛ واحتجنا الى كتبك المقدسة فأخذت اعتقد انه ، لو لم يَحسُنْ لديك ان نؤمن بك ونبحث عنك بواسطتها ، لما كنت منحتَها ذاك السلطان في المسكونة كلها.

لقد أعرضْتُ عنها لما فيها من اشياء يستحيل فهمها وقبولها ؛ بيد أني ، لدى سماعي بعض شروحٍ مرضيةٍ لها ، وجدتُ السبب في عمقِ اسرارها الخفية ؛ واعتقدتُ ان سلطان الكتاب المقدس ، وان ظل في متناول الجميع ، يكسب احتراماً افضل وثقة المؤمنين حين يشرح شرحاً علمياً عظمة اسراره الجليلة . ان صفاء لغته وبساطة اسلوبه جعلته في متناول الجميع ونبَّهت ذوي العقول الراجحة وفتحت احشاءها لجميع الناس وفيها استقبلتهم ؛ بيد ان نخبة مختارة وصلت اليك ؛ انها لنخبةٌ قليلة ، انما اكثر ممَّا يظنون ، بفضل ما لتلك الكتب من سلطان وما هي عليه من وداعة مقدسة تهيب بالناس الى أحضانها .

ذاك ما كنتُ اتأمل فيه يومَ كنتَ بقربي ؛ انا كنت ابكي وانت تصغي اليَّ ؛ انا كنت اتهادى فوق الامواج وانت تضبطني بيمينك ؛ انا كنت اسير على طريق العالم الرحب وانت لم تتخلَّ عني .

حلم السعادة

كان بي نهمٌ الى المجد والكسب والزواج وانت تهزأ بي . ومن جراء تلك الشهوات تحملت من الصعوبات امرَّها وانت تحنو عليَّ وظهر لي حنانك يومَ ابيتَ ان اذوق احداً سواك .

هاك قلبي ، يا رب ، انظر اليه يـــا من اردت ان تذكـّرني بماضي لأعترف به اليك . فلتلتصق الآن نفسي بك بعد ان سلختَها عن دبقِ الموتِ اللزج .

آه ما كان اشقاها ! وانت كنت تنخز جرحها الحي لتكفر بكل شيء وترتدَ اليك يا من تسمو فوق الكل ويا من ، لا شيء ، بدونك ؛ اجل ، كنت تنخزها لترتد اليك فتشفيها . آه ! ما كان اشقاني ! وماذا عملت حتى تساعدني على فهم شقائي ؟ كنت ذات يوم أَعدُّ رثاءً للقيصر ، أسرد فيه بضعة اخبار ملفقة ليصفـّق لها السامعون الذين يعرفونها كاذبة . وكان قلبي في ذلك الوقت فريسةً لهذه الهموم التي تتأكّله . فبينا انا سائر في احد شوارع ميلانو رأيت فقيراً يستعطي — واظن انه كان سكران — ويقهقه ضاحكاً ؛ فتنهدت اذ ذاك ورحت احدث اصدقائي وزملائي عمَّا تجنيـــه علينا جهالاتنا من آلام ومصائب . اننا نجاهد ونكد ونرزح تحت عبء شهواتنا ونجر وراءنا حملاً من المآثم يتثاقل كلما تقدمت في السن . وهدفنا هو ان نبلغ تلك الغبطة الاكيدة التي سبقنا اليها هذا الفقير دون ان يتاح لنا ذلك ... لقد توصل هو بفضل ما نفحه به المارة من قروش قليلة ، الى سعادة وقتية ما تمكنتُ منها قط رغم سعيي الحثيث على طرقٍ فيها ضنكٌ وتعب . من الأكيد انه لم يحظَ بالفرح الحقيقي ؛ وانـــا كذلك بحثت في محاولاتي ومساعيَّ عن سعادة تفوقها بهتاناً وكذباً . على كل حال ، لقد كان هو يطفح بهجةً وسروراً وانا حزناً وكمداً . هو وجد الطمأنينة التامة وانا القلق والاضطراب . لو طُرحَ علي السؤال التالي : اتريد الحزن لنفسك ام الفرح ؟ لاجبت : الفرح . لو خُيِّرتُ بين حالة هذا الفقير المستعطي وما انا عليه ، لفضلت البقاء على حالي مع ما لي من هموم ومخاوف وآلام.

اهذه هي الحقيقة ؟ ما كان يحق لي ان اعتبر نفسي ارفع منه قدراً، بسبب علومي . ان علمي لم يزدني سعادة لكنني بواسطته أُرضي الناس ، لا لكي اعلّمهم بل لكي ارضيهم . ولهذا السبب فقد حطمت عظامي بقضيب تأديبك يا الله .

ابعدوا عن نفسي ايها القائلون لها : « يجب ان نعرف سبب الغبطة ؛ فالمستعطي وجد غبطته في السكر وانت طلبتها في المجد » . واي مجد ، يا الله ، اي مجدٍ لا نجده فيك؟ غبطته، غبطةٌ زائفة ؛ ومجدي، مجد باطل ؛ ازداد فكري قلقاً واضطراباً . هو راح يُعدِ في تلك الليلة سكره ؛ اما انا فقد نمتُ ، ثم نهضت ، سكران ، وسأظل انام وانهض على هذه الحال ! حتى مَ ؟ انت وحدك تعلم ! اجل يجب ان نعرف سبب الغبطة لأن الفرح الذي يولّده الرجاء القائم على الايمان ، بعيدٌ جداً عن هـــذه الاباطيل والترهات . اذن ، بيننا فرق عظيم . لقد كان ، ولا شك ، اسعدَ مني ؛ لا لأنه كان مغموراً بالفرح وانا بالهموم بل لأنه استحصل على خمره وهو يتمنى السعادة للآخرين بينا كنت اسعى في اثر المجد الباطل على طريق الكذب والنفاق .

تلك افكارٌ افضيتُ بها الى اصدقائي عن هذا الموضوع ؛ كم مرةٍ عدت الى نفسي في مثل هذه الظروف وطالبتها بالحساب لأعرف مصيري، فكنت اجد ان حالتي تزداد سوءًا يوماً بعـــد يوم . وكلما تألمتُ من حالتي تفاقم شري . واذا ما قدر لي ورأيت الحظ باسماً لي ، فما قويتُ على مدّ يدي اليه ؛ وما ان اقبض عليه حتى يفلت مني مجدداً .

شكونا هذه الحالة نحن معشر الاصدقاء الساكنين معــاً ؛ ولا سيَّما اليبوس ونبريديوس وانا ؛ وكنا الثلاثةَ نتسارُّ فيها : اليبوس هو ابن عائلة كريمة في مسقط رأسي ؛ وهو اصغر مني سناً. تتلمذ على يدي في مدينتنا ثم في قرطاجة. واذ رآني معلّماً صالحاً أحبَّني كثيراً فبادلته الحبَّ، لطيب عنصره ونبوغه في ممارسته الفضيلة ، رغم حداثة سنه ؛ بيــد ان الأخلاق السافلة في قرطاجة وذاك النهم الدائم الى التمتع بالمشاهد الاباحية قد قذفتْ به الى ملاهي الملاعب الرومانية . واستسلم اليها ، ويا للأسف، يومَ كنت مدير مدرسة عمومية تدرس الخطابــة ؛ كان يتغيب عن الدرس لخلاف نشب بيني وبين والده . وعلمتُ جنوحه الى ملاهي السيرك فآسفت جداً عليه لأنه سوف يضيع اجمل الآمال المعقودة عليه ان لم يكن قد خسرهــا حتى الآن . وما استطعت ان احذره ، ولا ان اردعه بالقوة عن طريقه ، لا باسم الصداقة ، ولا بالسلطان الذي لي عليه ، انا مدرّسه ؛ وتصورته مشاطراً والده عواطفه تجاهي ، وهو لم يكن على شيء من ذلك، اذ تناسى مشيئة والده ، وراح يحييني ويحضر درسي فيصغي اليَّ بعض الوقت ثم يذهب .

وغاب عن بالي ان اضغط عليه كيلا يُضعفَ مواهبه الطبيعية المتميزة بانحرافه الأعمى الى الالعاب والملاهي . امَّا انت ايها الرب يا من تضبط بيدك الدفة التي توجه خلائقك كلهــا فلم تنس ان اليبوس سيكون في مصاف ابنائك ، خادماً لسرك المقدس ، ولكي يعود اليك الفضلُ في إصلاح سيرته ، فقد اتخذتني اداةً لذلك ، على غير علمٍ مني .

كنت ذات يوم جالساً كعادتي في مكاني والتلاميذ امامي ؛ فاذا به يدخل الصف ويحييني ثم يجلس يصغي الى شرحي . وكان نصٌ بين يديَّ

فخطر ببالي فكرٌ ، لا بأس به ، وهو ان استعير تشبيهاً من ألعاب السيرك لأعبّر عن فكرةٍ بقالب واضحٍ جميل. وتفوّهت ببعض ملاحظاتٍ لاذعة ضد عبيد تلك العادة الممقوتة . انت تعلم ايها الرب الهنا انني مـــا فكرتُ آنذاك بشفاء اليبوس من طاعونه ؛ انما هو اعتبر ملاحظاتي موجهة اليه وحده ؛ ولو كان الكلام موجهاً الى سواه لثـــار عليّ ؛ اما وهو الفتى النبيل ، فقد اغتنمها فرصة ليثور ضد نفسه ويزداد تعلقاً بي .

لقد سبقتَ فقلت هذه العبارة التي وردت في كتبك : « انّـب العاقل فيحبك » انا ، لم أؤنبه ؛ بيد انك ، يا من تستخدم الجميع ، عن معرفةٍ ام عن جهل منهم ، طبقاً لمقرراتك وتدابيرك العادلة ، جعلت قلبي ولساني جمراً متقداً تكوي به الاجزاء الفاسدة من تلك النفس المعـــدة للرجاء الصالح فتشفيها على هذا النحو من مرضها. فليخرس عن مدحك وتسبيحك من لم يدرك رحماتك التي ، تعترف لك من عمق اعماق قلبي .

سمع اليبوس تلك الكلمات فوثب من الهوة العميقة ، حيث كان يعيش على هواه ، ثمِلاً من اللذة التي حجبتْ عنه النور ؛ ونقّى نفسه ، مضحياً بكل شيء ، نابذاً عنه كل ما في الملاهي من نتانة ؛ ولم يعـــد يطأ تلك البقعة . وخاصم اباه الذي قاومني ثم اتخذني من جديد معلماً له وبعدئذ غفر الوالد ورضي ؛ وراح هو يثابر على دروسي ووقع معي في شِراك المانوية واحب في المانويين زهدهم الزائف ظناً منه انه صدقٌ وحقيقة ، فيما هو مراوغةٌ ، واحبولة نُصبت على طريق النفوس المختارة التي لا طاقة لها بمعرفة جوهر الفضيلة فتؤخذ، بسهولة كلية ، بمظاهر الفضيلة المزيفة السطحية .

وقبل ان يكفر بالحياة الزمنية التي درّبه عليها والداه ولقّناه فوائدهـــا تدريجياً ، سبقني الى روما ليدرس الحقوق ؛ وفي روما سوف يستولي عليه نهم قوي لحضور حفلات المصارعة بين السيّافين .

كان يكره تلك المشاهد وينفر منها . صادف مرة في مواسم تلك الالعاب الوحشية المشؤومة ، اصدقاءه وزملاءه راجعين من وليمة ؛ وبرغم ممانعته الشديدة ورفضه رفضاً باتاً دعوتهم فقد اقتادوه بحكم صداقتهم لـه والحاحهم الشديد عليه الى المدرج ؛ وكان يقول لهم : بامكانكم ان تحملوا جسدي وتضعوه هناك ؛ انما ، لا تظنوا انكم قادرون عـلى ارغام عقلي ونظري على التطلع الى تلك المناظر . سأكون في الملعب دون ان اكون فيه وسأنتصر عليكم وعليهم ... امّا هم فقد تركوه يتكلّم ثم اصطحبوه ليروا موقفه !

وصلوا الى مدينة الملاهي واتخذوا مـا توفّر لهم من محلات ؛ فكانت الشهوات الحيوانية السافلة تضرب الرقم القياسي في ثورانها ؛ واطبق اليپوس جفنيه ومنع قلبه من الاشتراك بهذه الترّهات المخجلة . أوّاه ! لو انه سدّ اذنيه كذلك لما سمع ما جرى اثناء المعركة فاستصرخ الجموع بقوة ! لقد اثر ذلك الحادث في نفس اليپوس وغلب عليه الفضول ففتح عينيه ليرى ما حدث ظناً انه في مأمنٍ يخوّله ان يحتقر او ان يتغلب عـلى ما سيراه ؛ فأصيب للحال بجرح بليغ في قلبه اعمق ممّا اصيب به ذلك الرجل الذي تاقت عيناه ان ترياه وسقط سقطة ، شراً من سقطة السياف الذي سبّب سقوطه صرخة الشعب . فتحت الصرخةُ اذنيه وفتحت الطريق امام الضربة الثانية التي أودت بنفسه المتوكلة على جرأتها ، لا ، على قواها . اتكالها على ذاتها اظهر ضعفها في حين كان من واجبها ان تتكل عليك . وما ان رأى الدم ، حتى استشرى في شربه وبدلاً من ان يرتد عنه حدّق فيـه وراح يعبُّ الغيظ دون كيل . لقد استطاب تلك المعارك الاثيمة وثمل من ملذاتها الدامية ولم يَعُدْ كما كان لمدة وجيزة. لقد اصبح واحداً من ذلك الجمهور الذي قصد ان يراه وزميلاً حقيقياً لأولئك الذين اقتادوه الى ذلك المكان .

نظر فصرخ وتحمَّس فعاد من تلك المناظر وفيه من الجنون ما يستحثه على الرجوع اليها ، لا بصحبة من اقتادوه اليها وحسب ؛ بل عـــاد اليها مجلياً جارًّا وراءه الكثيرين .

ومن تلك اللجة ، انتشلَتْه يدك القديرة الكثيرة الرحمة وعلّمتْه ان يضع ثقته فيك ، لا ، في نفسه ؛ لكنه لم يَسِرْ بموجب تعاليمك إلاّ بعد مدة طويلة .

واحتفظت ذاكرته بتلك التجربة علاجاً للمستقبل على غرار ما جرى له يوم كان تلميذاً لي في قرطاجة. فبينما كان يستعد حوالى الظهر في الساحة العامة ويفكّر بالقاء قطعة ادبية يتمرّن فيها على الخطابـــة كسواه من الطلاّب ، أوقفه رجال الشرطة المراقبون في الساحة العامة متهمينه بالسرقة ؛ ايها الرب الهي ، اعتقد انك سمحتَ بذلك تحقيقاً لغاية ، لكي يتعلَّم ، هو الذي سيصبح ، فيما بعد، رجلاً عظيماً ، الاّ يحكم على اخيه الانسان إلاّ بعد ان يثبت له ذنبه .

نادرة جرت لأليبيوس

كان يتنزه وحده في دار المحكمة وبيده لوحاتـــه وريشته فاذا بطالب شاب ، مشهور بلصوصيته ، يخفي فأساً ويسرع الى المتكأ الرصاصي الذي يعلو شارع الصيارفة ويروح يقطع الرصاص المذكور ؛ فلما سمع الصيارفة المجاورون ضربات الفأس همهموا وارسلوا يوقفون غريمهم واذ سمـــع اللص اصواتهم ألقى آلته جانباً وهرب لئلاّ يمسكوه بالجرم المشهود ؛ فرآه اليبيوس خارجاً يعدو بسرعة كلية، دون ان يراه قد دخل ؛ واراد استطلاع الخبر فتوجـــه الى حيث كان اللص ووجد الفأس فراح يتأملها واقفاً بهدوء واطمئنان . اذ ذاك اقبل رسلُ الصيارفة فوجدوه وحده ممسكاً بالآلة التي نبَّهتهم صوتها ؛ فالقوا القبض عليه واقتادوه الى وسط الساحة العامة حيث

احتشد الناس وكانوا يتباهون لالقائهم القبض على اللص بالجرم المشهود ثم ساقوه الى القضاة .

انتهت القصة عند هذا الحد وللحال اقبلت يا رب تساعد البريء الذي كنت له الشاهد الأوحد. وفيما هو سائرٌ بينهم ، الى السجن او الى العذاب ، لا ادري ، التقوا مهندساً معمارياً مكلفاً بمراقبة املاك الدولة العامة ففرحوا لمصادفتهم اياه لأنه كان يتهمهم بسرقة بعض الاشياء من الساحة العامة ؛ فرحوا ، ظناً منهم انه سيعرف اخيراً ابطال تلك السرقات .

لكن هذا المهندس المعماري عرف للحال اليبوس لأنه كان قـد التقاه مراراً في بيت احد الشيوخ اصدقائه ، حيث كان يتردد في زياراته ، فأخذه بيده ، وانتزعه من بين الجماهير ، وسألهم عن سبب هذه المعاملة السيئة التي يلقاها . واذ المَّ بواقع الأمر طلب من الموجودين الثائرين ، المهددين ان يتبعوه ؛ ولما وصلوا الى بيت الشاب الذي اقدم على ذاك العمل وجدوا على الباب حدثاً ، لم يمنعه صغرُ سنه من وضع معلمه في مأزق حرج ، فكشف النقاب عن حقيقة الخبر لأنه رافق معلمه الى الساحة العامة . وسرعان ما عرفه اليبوس واشار عنه الى المهندس المعماري فسأل الولد عن الفأس قائلاً له : « لمن الفأس ؟ » فأجاب للحال : لنا . وصبوا عليه وابلاً من الاسئلة اضطرته الى الاقرار بكل شيء .

ورست التهمة في ذلك البيت ؛ ويا لخجل الشعب الذي القى القبض على اليبوس ، الذي سيصبح فيما بعد مبشراً بكلمتك ، وسيقضي في عدة دعاوى في كنيستك. لقد خرج من بين تلك الجماهير اكثر خبرة وعلماً وادباً.

تجرد اليبوس

التقيته في روما فتعلّقني بشدة ولحق بي الى ميلانو ، ملازماً لي ، رغبة منه في الافادة من الحقوق التي درسها : تلك كانت امنيةُ والديه ؛ انما لم

يتحمَّس لها . استلم ثلاثاً وظيفة مساعدٍ قضائي فبرهن عن نزاهةٍ مثالية امام رفاقٍ له يُؤْثِرون الذهب على الاستقامة ، ويا للعجب ! وخَبَروا اخلاقه يوم سلّطوا عليه مهماز الخوف ومغريات البخل والطمع .

شغل في روما منصب مساعد للمسؤول عن مالية ايطاليا يوم كان احد الشيوخ المتنفذين الكبار يستعبد الناس ، عن طريق الحسنى والارهاب ؛ وحاول ان يقوم ، كزملائه المتنفذين ، بما يحرِّمه القانون فعارضه الپيبوس ؛ ولما وعدوه بمكافأة ردَّها ، ساخراً ؛ جرّبوا ان يهددوه فداس تهددهم برجليه. أُعجب الناس بصفاته النادرة التي ما تودَّدت الى صديق ولا خافت عدواً وبخاصة من كان كذاك المتنفذ ، وبين يديه الف وسيلة ووسيلة للايقاع به او لخدمته . ان القاضي عينه الذي اتخذ الپيبوس مستشاراً ما لبَّى طلباً لكنه دون ان يرفض رفضاً باتاً كان يلقي المسؤولية على الپيبوس ويقول عنه : « لا يسمح لي بذلك » وفي الواقع لو تسامح مرة لاستقـــال الپيبوس من منصبه .

امرٌ واحد كان يُؤثّر في نفس الپيبوس ، حبُّه للأدب . قُدِّر له ان يستثمر خدمات الناس في نسخ المخطوطات بيد انه استشار العدالة واختار الأفضل اذ آثر الحق على السلطة ؛ والحق يحرِّم امثالها بينا العدالة ترضى بها . انه ، لأمرٌ تافه ؛ لكن « الامين في القليل ، امينٌ في الكثير ايضاً » ولن تخلو من معنىً هذه الكلمات الخارجة من فم حقيقتك القائلة : فان كنتم غيرَ أُمناء في مالِ الظلم فمن يأتمنكم عـــلى مال الحق ؟ وان كنتم غير أُمناء فيما ليس لكم فمن يعطيكم ما هو لكم ... (لوقا ١٦ : ١١) .

هكذا كان ذلك الصديق ؛ جمعتني به صلات وثيقة . ولقد تساءل ، مثلي ، قلقاً ، عن الحياة التي يجب ان نحياها .

اما نبريديوس فقد ترك هو ايضاً موطنه بقرب قرطاجة كما هجر قرطاجة بعد ان اقام فيها مراراً ؛ لقد ترك ارزاق والديه الخصبة : وترك بيته ووالدته التي رفضت اللحاق به وجاء الى ميلانو ، باحثاً معي عن الحقيقة ، طالباً الحكمة . اجتهد في درس ظروف الحياة السعيدة وما كَلَّ في تقصّي اشد المشاكل تعقداً ؛ وفي كل اطواره كان شاكياً متردداً مثلي ! كنا جياعاً ثلاثة يفضي الواحد منا الى الآخر بحاجته ؛ وحين رفعنـــا لحاظنا اليك ، انتظرنا منك القوت في الوقت المناسب . وبرحمةٍ منك يا الهي وحين كنا نشعر بالمرارة التي تخلفها لنا اعمال حياتنا الدنيوية كان الظلام يخيّم علينا فنشيح بوجوهنا باكين مرددين : « حتى متى يا رب ؟ » وفي تردادنا لهذا السؤال ما تخلّينا عن حياتنا تلك ؛ لأننا لم نحصل على حقيقة ثابتة نستمسك بها لنكفر بالماضي .

عجبت واضطربتُ حين قست الوقتَ الذي انقضى بين التاسعة عشرة من عمري واليوم ، مذ رحت اجتهد في درس الفلسفة واستعد لهجر آمالي الباطلة وشهواتي الكاذبة الحمقاء لدى حصولي على الحكمة . اني اليومَ في الثلاثين من سني لا ازال اتخبط في الحمأة عينها واميل بقوة الى الاستمتاع بالحاضر الذي يهرب دوماً من وجهي ويشتتني وانا اقول مردداً : سوف اجد مطلبي وسوف يتضح لي الأمر فاحتفظ به . هـــا هوذا فوستوس آتٍ ليشرح لي كل شيء . ايها الرجال العظام في المحفل ، هل نستطيع ان نبلغ الحقيقة فنكيّف حياتنا بموجبها ؟ كلا ! لنبحث اذاً بكثير من العناية ولا نيأس ! لقد كانت بعض الاشياء تبدو لي غـــير ممكنة في الكتب الكنسية فأصبحت اليوم قابلةً لشروح اسمى وارفع ؛ اود ان اركز قدميَّ حيث وضعني ابواي ، طفلاً ، حتى اجد الحقيقة صافية ، خالصةً من كل

كدرة . ولكن ، اين اجدها ؟ وكيف ابحث عنها ؟ امبروسيوس ، ينقصه الوقت ؛ وانا ، ايضاً بحاجـــة اليه للمطالعة . وفضلاً عن ذلك ؛ من اين لي الكتب ؟اين احصل عليها؟ ومتى ؟ ممَّن استعيرها؟ لنوزّع اوقاتنا ونقسّم ساعاتنا من اجل خلاص نفسنا ! ها ان رجاءً عظيماً يطلع علينا : لم يعلّم الايمان الكاثوليكي البتة ما كنت اعتقد به ؛ وانا قد اتهمته زوراً .

يقول ذوو الخبرة في هذا الموضوع ان من يتصور الله محدوداً في صورة انسان يأتِ اثماً فظيعاً. ترددنا قبل ان نقرع الباب ، باب الحقائق الأخرى وخصصت ساعات الصباح بتلاميذي . فكيف اشغل شقيقاتها الباقيات ؟ ولم لا استخدمها في هذا البحث ؟ ومتى نزور ذوي النفوذ من اصدقـــائنا ونحن بحاجة الى مساعدتهم ؟ والبضاعة التي يبتاعها طلابنا ، متى نعدّها ؟ وقواي ، متى اجددها ؟ والراحة الضرورية ، متى اوفرهـــا لعقلي الذي اضنكته الهموم ؟

الدمار ! الدمار لهذه كلها ! لندع تلك الترهات ! لنقِـفْ انفسنا على البحث عن الحقيقة! شقاءٌ هي الحياة ومجهولٌ هو يوم الموت. إن فاجأني ، فكيف اغادر هذا العالم ؟ واين اتعلّم ما قصَّرتُ عنه في هذه الحياة ؟ ألا يعقب اهمالي ، هذا ، عقابٌ صارم ؟ ايقضي الموتُ على الهم ؟ ام يضع له حداً ؟ علي ان ادرك هذا الأمر .

حاشا ان يكون الأمر كما ظننت ! للايمان الكاثوليكي نفوذ قويٌ في العالم بأسره يزيد في اهميته ومكانته.لو انتهت حياة الانسان بالموت الطبيعي لما خلق الله لنا الجهالات بهذا الحد والمقدار ؛ ولماذا اتردد في الكفر بالعالم واباطيله ولا اقف ذاتي بكلتيها على البحث عن الله والحياة السعيدة ؟

مهلاً ! مهلاً ! لخيور الارض رونقٌ وبهاء ؛ وتحطيم اميالي اليها ليس بالأمر الهيّن ؛ والعودُ اليها من جديـــد امرٌ مخجل ! كدت انال

بكفاءتي مرتبةً شريفة وهل لي ان اتمنّى ما هو افضل منها في هذا المضمار؟ كثرة الاصدقاء المتنفذين ، تساعدني للحصول على رئاسة محكمة ، هذا ان قنعت بها في الوقت الحاضر ؛ سوف اتزوج من ثرية تخفيفاً لمشاكلي واقنع بما نلت . كم من رجالٍ عظام مثاليين اكبوا بعد زواجهم على تحصيل الحكمة !

بينا كنت اتكلم بهذا كان قلبي في مهب رياح مضادة ؛ الوقت ينقضي ؛ وانا متقاعسٌ عن الرجوع الى الرب مرجئاً من يومٍ الى آخر حياتي بلك لا موتي في ذاتي . احببت السعادة لا حيث هي ؛ ورحت ابحث عنها ، هارباً منها . كنت اظنني شقياً ان حرمتُ من تقبيل امرأة . ما فكرت بالعلاج الذي قدمته لنا ايها الرؤوف لمداواة ضعفي وما خبرته قط في حياتي ؛ اعتقدتُ ان العفة متعلقة بقوانا الذاتية وما شعرت بها فيَّ . أإلى هذا الحد أوصلني حمقي حتى جهلت قول الكتاب : « لا احد يستطيع ان يكون عفيفاً الاّ بك » . لو اني قرعتُ اذنيك بايمان قوي والقيتُ بهمي عليك ، بقلبٍ شاكٍ ، لكنت وهبتنيها !

مشكلة الزواج

لقد منعني اليبوس من الزواج فكان دوماً يقول لي انه ، في حال قبولي بالزواج ، سوف لا نتمكن من العيش معاً في ظل الحكمة كما تمنينا منذ زمن بعيد ، بمعزلٍ عن كل هم . لقد كان يحافظ على طهارةٍ تامة ؛ وانه لعجيب فيه ان يجرّب ، في سنيّ مراهقته الاولى ، اللذة وَلَمْ يتذوقها ؛ لم يتذوقها وحسبُ بل انه استبقى لنفسه منها الكراهية والحسرة ومنذئذٍ راح يعيش في تعففٍ تام .

اما انا فقد قدمت له مثلاً اولئك المتزوجين الذين تعاطوا الحكمة فنالوا من الله اجراً وحافظوا على اخلاصهم لأصدقائهم . ما كان ابعدني عن عزة

نفسهم ! لقـــد استعبدتني الشهوة اللحمية الجامحة ، فرحت اجرُّ قيودي وتمنيت عليها لو تتكسر . لكنني رفضتُ كلمات المشورة الصالحة وكأن يداً امتدت اليها لتفكها فاصطدمت بجرحي .

بلساني تحدثتِ الحيَّة الى الپيوس لتغويه واستعملتْ كلامي لتنشر على طريقه بحيراتٍ عذبة ، تعثر فيها خطاه الشريفة الحرة . لقد تعجَّب حين رآني ، وانا الذي كان يحترمني جـــداً ، واقعاً في شرك الشهوة حتى أكدتُ له في احاديثي معه ان المرأة ضرورية لحياتي . ولكي اضع حداً لاستغرابه قلت ان الفرق عظيم بين اللذات السريعة الهاربة التي تذوقهـــا فخلّفت في نفسه ذكرى عابرة يسهل عليه نسيانها واحتقارها والملذات الناتجة من العلاقات التي اغذيهـــا ومنها اعيش ؛ ولو اني تمتعت بها عن طريق الزواج الشريف لما تعجَّب لكوني لا استطيع ان احتقر الحياة الزوجية . ومن ثمَّ اخذ يتوق الى الزواج ؛ لا اشباعاً لميل حسي ، وفقاً لما صورته له ، بل رغبة في الاطلاع ، وعن فضولٍ منه ؛ واعلن عن رغبته في معرفة تلك السعادة التي بدونها لا تكون حياتي حياةً بل عقاباً ؛ مع انها رغم ضعفها وعيوبها ، كانت تروقـــه . حين كان حراً من قيودي كان يتعجب من عبوديتي فولَّد ذاك العجب في نفسه ميلاً الى تجربتها واخذ يسير الى امتحانٍ كاد يودي به الى العبودية التي كان يدهش منها . لقد اراد ان يتعاقد مع الموت ومن احب الخطر سقط فيه .

لم نَـمِلْ ، لا انا ولا هو ، الى الحياة الزوجية رغبة في اقامة الحيـــاة المشتركة او في تربية البنين ؛ كلا ؛ جمال الزواج ، بنظري ، يقوم باشباع شهوة لحمية لا تشبع ؛ وهنا سر عذابي واستعبادي . امَّا الپيوس فقد وصل الى تلك العبودية عينها مسوقاً وراء تعجُّبه وفضوله .

اقمنا على تلك الحال منتظرين منك ان ترمق شقاوتنا بعين رحمتك ايها

المتعالي، يا من لا تتخلى عنا نحن الغائصين في مَوْحِلينا بل تتخذ لمساعدتنا سبلاً عجيبة غريبة.

لقد الحوا عليَّ بالزواج فطلبتُ ونلتُ وعداً بعد ان وضعت امي كل ما عندها من نشاط وحماس في خدمتي، معتقدة، انني اغتسل بعد زواجي بمياه العماد الخلاصية. وكانت تُسَرُّ حين تراني استعدُّ لــه ؛ وفي ايماني كانت ترى تحقيقاً لأمانيّها واوعودك يا رب.

وفي كل يوم، وبناءً على طلبي الذي اصوغه وفقاً لرغبتها الشخصية، كانت تتوسل اليك من صميم قلبها بهتاف شديد، كي تنعمَ عليها وتريها في الحلم ما قد اصير اليه في زواجي القريب ؛ فما رضيتَ ولا انعمتَ عليهــا بذلك. لقد كانت ترى صوراً وهمية، خيالية على مثال ما يولّده عقلُ الانسان الثاقب، ساعة يكون منهمكاً في تفكيره؛ وكانت تخبرني عن تلك الصور دون ان تثق بها كأنها من لدنك، وتعيرها اهتماماً كبيراً وتميز، بفضل مذاقٍ خاص، لا يعبر عنه بالكلام، بين ما توحي به انت وما تولّدُ نفسُها من احلام.

وزادوا عليَّ الحاحاً وكانت الفتاة المطلوبــة دون سن الزواج بسنتين فانتظرتها لأنها تروقني.

مشروع لحياة اشتراكية

وكنا عصبةً من الاصدقاء توافقنا فكراً او حديثاً وقررنا انسحابنا من بين الجماعة لنعيش بسلامٍ، بعيدين عن ضوضاء الحياة البشرية الصاخبة المزعجة. واليك النهج الذي قررنا تطبيقه في حياتنا الآمنة المقبلة : نجعل اموالنا وارزاقنا مشتركة، موحّدة؛ فلن يعود لهذا ملكٌ هنا ولا لذاك هناك. وبفضل صداقتنا الخالصة تتوحد كل ثرواتنا وتصبح ملكاً لواحد والجميع لها مالكون. اعتقدنا ان عدد المشتركين بهــذه الحياة سيكون عشرة ؛

وكثيرون منّا كانوا يُعدون من كبار الأثرياء وبخاصةٍ رومانيانوس مواطني وصديقي الحميم الثابت الذي اضطرُّ بحكم مشاكلـه الكثيرة الى اللجوء الى القضاء؛ لقد كان اشدهم حماساً لهذا المشروع واثر كثيراً، بفضل نصائحه وارشاداته ، ولما كان يتمتع به من ثروةٍ طائلة دونها ثروة كلٍ منا . وقررنا إسناد القضاء الى اثنين منا لمراقبة الامور الضرورية ، نستبدلها كل سنة ، دون ان يكون لأحدٍ من الباقين اي دخلٍ في تدبير الحياة والسهر عليها . ولكن حين عدنا الى ذواتنا وتساءلنا عمَّا اذا كانت زوجاتنا يقبلن بذلك التدبير - وبيننا المتزوج والمشرف على الزواج - فاتنا ذلك المشروع فتحطَّم وأُهمل .

ومن ثمَّ عدنا الى ما كنا عليه من تحسُّر وبكاء ؛ وعدنا الى توجيه خطانا على « سبل العالم الرحبة الواسعة » لان في قلب الانسان افكاراً كثيرة ومشورتك يا الله تثبت الى الأبد « سفر الامثال ١٩ : ٢١ » . ومن شاهق مشورتك تسخر من مقاصدنا وتهيئ مقاصدك لترزقنا طعامنا في حينه وتملأ نفوسنا من بركتك .

استعباد الشهوة لاغوسطينوس

اذ ذاك تكاثرت خطاياي ؛ ولمَّا انتزعوا من قربي المرأة التي قاسمتني سريري لأنها مانعٌ دون زواجي العتيد، أُصيب قلبي بجرح بليغ لانه تعلقها بشدة ؛ هو سال دمه طويلاً وهي رجعت الى افريقيا مخلِّفة لي بعدها ابن الزنى .

وانا الرجل ، المنكود الحظ ، لم اقدر ان احذو حذوها ولا استطعت الصبر سنتين للاقتران بخطيبتي ، لا حباً بالزواج بل اشباعـاً لشهوة استعبدتني فساكنت امرأة اخرى ، سرية ، تغذيةً لمرضي النفسي وتمديداً له وحفاظاً عليه في كنف عادة ستظل قائمة حتى وصول الزوجة . وعلى

هذا النحو ، فان الجرح الذي انفقأ حين سلخوا عني الأولى لم يبرأ ؛ لكنه امتلأ قيحاً بعد آلام مبرّحة ؛ وان كان الوجع خفّ فقد انقطع كل املٍ من شفائه .

السعي في اثر السعادة الزمنية يولد الخيبة والفشل

لك الشكر ولك المجد يا معين الرحمة ؛ لقد اصبحتُ انا ادعى الى الشفقة وانت اقرب اليَّ من ذي قبل ! قريبةٌ مني جداً هي تلك اليد التي تنهضني من موحلي وتغسلني ؛ انا ما عدتُ اشك فيها ولم يعد يصدني عن التوغل في الشهوات اللحمية سوى خوفي من الموت وخوفي من قضائك المقبل . سيطرت هذه العواطف على قلبي وظلت آرائي مترجرجة .

وتحدثت الى صديقيَّ اليبوس ونبريديوس عن الخير الأسمى والشر الأعظم وقد أناصِر باطنيا ابيكور لولا ايماني بخلود النفس والثواب والعقاب ، هذه الثلاثة التي تنكّر لها ابيكور . ثم طرحتُ السؤال التالي : ان كنا خالدين وعشنا في لذة جسدية ثابتة ولم نخش ضياعها ، فلم لا نكون سعداء ؟ وعن اي شيء لا نزال نبحث ؟ ولم أجد ان ما يشقيني كثيراً هو اني في عمايَ وجراحي لا استطيع ان اتصوّر نور الفضيلة ، نور الجمال الذي يجب عليَّ ان اعانقه ، حباً به ؛ هذا الذي لا تبصره عيني اللحمية ولا يُرى إلا من عمق اعماق النفس . في شقاوتي ما سألت عن مصدر غبطتي ، بالتحدث الى اصدقائي ، ولو دار الحديث حول امور يُستَحَى منها . نعم ، لولا اصدقائي لما وجدت سعادتي ، سعادتي القائمة على الشهوة التي فيها انغمست . اجل ، لولا اصدقائي لما وجدت سعادتي حتى في اشباع نهمي من ملذات الجسد المتنوعة . لقد احببت اولئك الاصدقاء بتجرد وشعرت انهم يبادلوني الحب .

آه ! من السبل المعوجّة ! الويــل ، لنفس ، تمرّدتْ عليك ، فابتعدتْ عنك ، مؤمّلةً الحصول على الافضل ! كيفما دارت على ذاتها وانقلبت على جنبها او بطنها تجد كل شيء قاسياً اذ لا راحة لها إلا فيك . ها انك تُقبل الينا وتخلصنا من مغالطنا المسكينة وتسيّرنا عــلى طريقك وتعزينا بهذه الكلمات : « هلموا ، انا اعضدكم ، انا احملكم وانا اقودكم الى هناك » .

الكتاب
السابع

صعوبة التحرر من فكرته الخاطئة عن الله

اغوسطينوس يعترف بصعوبة التحرر من فكرته الخاطئة عن الله

لقد مات مني عهدُ الشباب الاثيم الفاسد ، ودخلت طور الرجولة ؛ وكلّما تقدمت في السن ازددتُ خجلاً من بطلان اعمالي وقد عييت عن ان اتصوَّر ذاتاً لا تقع تحت عينيَّ هاتين . وما تصوَّرتُك يا الله في شكل انسان مذ اشرق علي نورُ الحكمة ؛ لقد تجنبتُ دوماً هذا الضلال واغتبطتُ لوجود الرأي المستقيم في ايمان كنيستك الكاثوليكية ، امنا الروحية . ولم يكن لديَّ افضلُ منها وسيلةً للتأمل فيك ؛ واجهدت نفسي للتفكر فيك وانا الانسان – واي انسان – وانت العظيم ، الاله الواحد الحق ! واعتقدت اعتقاداً ثابتاً بأنك غير قابل الفساد ، لا تتغيَّر ولا تتبدّل ، وقبل ان ادرك مصدر ايماني وظروفَه اتضح لي ، لا ، بل ايقنتُ ان كلَّ ما يفسدُ احطُّ مما لا يفسد وآثرت عفواً هذا على ذاك ، وما لا يتغير البتة على ما يتغير .

وصرخ قلبي صرخة قوية بوجه اشباحي ؛ وبضربةٍ واحدة حاولت ان اطرد عن مخيلتي افكار الدنس الحائمة عليَّ ؛ وما إن ابتعدتْ حتى عادت اليَّ من جديد، باسرع

من طرفة عين ؛ وتألبت على عيني وغشتهما ؛ ومع اني عزمت ان اطرد عني كل فكرة تقول بشكل جسمي فقد اضطررت الى ان اتصورك ذا جسمٍ تقيم في الفضاء او في العالم او خارجاً عن العالم في الارجاء اللامتناهية ؛ وآثرت كذلك ما لا يفسد ولا ينقص ولا يتغير على ما يقبل الفساد والنقصان والتغيير . وكل ما لم استطع ان انصوره ، على ذاك النحو ، بدا لي عدماً ، – عدماً مطلقاً – لا فراغاً كالموضع الذي ينزع عنه شيءٌ فيفرغ منه المكان ؛ ارضياً كان ام هوائياً ، ام سمائياً ، ام مائيـــاً ؛ اذ يبقى المكان فارغاً في تلك الحالة ، كالعدم الذي يحتفظ بامكانية الاتساع لآخر .

وعليه فقد غلُظ قلبي وعجزت عن قراءة مـــا في نفسي بنفسي ؛ واعتقدت بأن كل ما يمتد في موضعٍ او ينتشر فيه او يتجمعُ عليه او ينتفخ فيه او لا قبل له بهذه الحالات ، هو عدمٌ مطلق . وليست الصور التي تعودت عيناي التنقل عليها سوى اشكال يطوف بينها فكري ؛ ولم ادرك ان نشاطي العقلي الذي اوجد لي تلك الصور يختلف عنها جوهراً ؛ ولولا عظمته الجوهرية لما استطاع ان يُوجدها .

وانت ايضاً ، يا حياة حياتي ، تمثّلتُك كائناً عظيماً تخترق من كل جانب في الاجواء اللامحدودة الكونَ باسره ؛ ومن فوقه تروح بلا حدٍّ في اللانهاية وكأن الأرض تسعك وكذلك السماء والاشياء كلها ، فيجد الكلُ فيك حدَّه بينا انت لا يحدُّك مكان . وكما ان الهواء الذي يعلو الأرض لا يحجب نور الشمس ولا يمنعه من اجتيازه واختراقه دون ان يحطمه ويمزقه فيمتلئ منه بكليته كذلك اعتقدت بأنك تخترق السماء والهواء والبحر واليبس في كل جزء منها صغير وكبير ليعانق حضورك ؛ وعلى هذا النحو في الداخل والخارج ، يدبّر روحُك الخفيُّ جميع خلائقك . ذاك كان اعتقادي يومَ لم استطع الى سواه سبيلاً ؛ بيدَ اني كنت ضالاً . والحق انه لو صحَّ زعمي

لاتّسع القسم الأكبر من الأرض للقسم الاكبر منك والعكس بالعكس . واذ تكونُ الاشياءُ ملأى منك يستوعب جسمُ فيلٍ منك اكثر مما يستوعب جسم عصفور دوري لأن الفيل اضخم بكثير من العصفور ويشغل محلاً اكبر ..وعلى هذا النحو تتوزّع بين اجزاء الكون فتختلط اجزاؤك باجزائه كبيرة وصغيرة بنسبة كبرها او صغرهـــا بيد ان الامور تختلف تماماً عمّا تقدّم ؛ انما لم تكن قد اشرقتَ بنورك على ظلماتي .

وعلى اولائك الأفّاكين المخدوعين ، الثرثارين، البكم (لم تنطق كلمتك في افواههم) اكتفيتُ بالرد الذي قدّمـــه مختاراً نبريديوس في قرطاجة فهزّنا بقوة ، ، نحن الذين سمعناه . واي شيءٍ تستطيع ان تعمله ضدك ، زمرةُ آل الظلام التي اعتاد المانويونُ ان يخاصموك بها لو رفضتَ مقاومتها ؟ فان اجابوا بانها قادرة على الحاق الأذى بك فذلك يعني انك قابل للفساد والتغيير . اما اذا اجابوا بانها عاجزة عن الحاق الضرر بك فلا سبيل الى المقاومة ولا سيّما في ظروف كهذه كأن يمتزج عضو من اعضائك او شيء من ذاتك في القوى المعادية او في الطبائع التي لم تخلقها فيتلطخ بفسادها وينحط من السعادة الى البؤس ويصبح بحاجة الى من يساعده ليتحرّر منها ويتنقى . وقد تكون النفس ذاك الجزء الذي جـــاءَ كلمتُك ليخلصه من عبوديته، وهو الحر ، وينقّيه من ادرانه، وهو الطاهر ، ويرفع عنه الفساد، وهو السليم من كل فساد على ان يبقى عرضةً للفساد لكونه مركباً من الجوهر الواحـــد عينه ! ان اعترف المانويون بأنك في كليتك ، اي في جوهرك ، غير قابل للفساد فاقوالهم فاسدة ، منبوذة ؛ وان قالوا انك تفسد يخطئون ويُلامون على هذا اللؤم .

اجل ، حسبنا هذا البرهان شجباً لمن يلزم طرحهم، مهما كلّف الأمر، عن صدرٍ طال ما ضايقوه ؛ لان حديثهم وتفكيرهم المعروف يوقعهم حتماً في خطيئة انتهاك القدسيات قلباً ومنطقاً .

ولكنني وان قلت واعتقدت اعتقاداً ثابتاً انك لا تفسد ولا تتغير ولا تتبدل ، انت ، ربنا ، ايها الاله الحق يا من لا تصنع انفسنا وحسب بل واجسادنا ايضاً ولم تصنع اجسادنا وانفسنا فقط بل وكل كائن وكل شيء ؛ اجل وان اعتقدت ذلك فلا تزال مشكلة الشر من الأصل غامضةً لدي ومستعصية. اياً كان مصدر الشر فقد ارتأيت وانا أتحرّاه ان لا اتخذ السبيل الذي يجعلني اعتقد ، الله الأزليّ ، غير المتغير ، متغيراً ؛ وإلاّ أُصبح ذاك الذي ابحث عنه . وقمت بابحاثي واثقاً من ضلال تعليم هؤلاء الذين تجنبتهم من كل قواي ، اذ شهدتهم ، في اثناء تحرّيهم عن مصدر الشر ، منتفخين خبثاً ، ميالين الى الاعتقاد ان ذاتك اكثر قابليةً لتحمُّل الشر ، منهم الى ارتكابه .

وسعيتُ جهدي كي اتفهَّم تفهُّماً صحيحاً الرأي القائل ان حرية الاختيار في ارادتنا هي علة شرورنا وان الانصاف المرعي في احكامك هو سبب آلامنا ؛ ولكنني لم اتوصل الى ادراكه بوضوح واذ حاولتُ النهوض ببصيرتي من اللجة غصتُ اكثر فأكثر بالرغم من جهودي المتزايدة .

ولما تيقَّنت بأن حياتي وارادتي سواسية ارتفعتُ قليلاً الى نورك ؛ وعليه ، فحين كنت اريد شيئاً او لا اريده كنت اثق من اني انا اريد وانا لا اريد ؛ لا شخصاً آخر . ومنذئذٍ ادركت ان اصل الشر كامنٌ فيَّ . اما الاعمال التي اتيتُها ، مرغماً ، فقد شعرتُ بنفسي اني منفعل بها لا فاعل ؛ واستنتجت ان لا وجود فيها للخطيئة بل هي عقابٌ عادلٌ تُنزِلُه فيَّ ؛ وهذا ما كنت اعترف به حالاً لنفسي .

ثم استدرك قائلاً : « من خلقني ؟ اليس الهي الصالح ، الصلاح عينه ، هو الذي خلقني ؟ ومن اين اتتني ارادتي الشريرة وامتناعي عن الخير ؟

أَلكي احمل قصاصات مستوجبة؟من وضع وزرع فيَّ بذور المرارة كلها، طال ما خلقني الله الكلي الصلاح ؟ ان كانت من صنع الشيطان ، فمن خلق الشيطان ؟ وان كان الشيطان قد انتقل من صورة مـــلاكٍ الى صورة شيطان بفعل ارادته الشديدة ، فمن اين اتته هذه الارادة الشريرة التي جعلَتْه شيطانا طالما انه خلق ملاكاً على يدي خالق كلي الصلاح ؟ » لقد فككت تلك الافكار اوصالي وضيَّقت عليَّ الخناق؛ لكنني لم اسقط الى لجة الضلال « حيث لا احد يعترف لك» (مز ٦ : ٦) وهناك يظنون انك تقبل الشر ولا يظنون ان الانسان يعمله .

وصوَّبت جهودي نحو اكتشاف ما بقي من حقائق حتى وجدت ما لا يفسد افضل مما يفسد ؛ فاعترفت بانك ، اياً كنت ، لا تفسد وبانه لا يمكن لنفسٍ ان تتصور ما هو افضل منك ، ايها الخير الأفضل والأسمى. وكما ان ما لا يفسد يُفضَّل ، حقاً ولا شك ، على ما يفسد ـــ وهذا الرأي بدأت آخذ به ـــ كذلك ، كان بوسعي ان ادرك ما هو افضل منك لو لم تكن غير قابل للفساد . وحيثما أجد انه يجب تفضيل ما لا يفسد عـــلى ما يفسد ، يلزمني ان ابحث عن مصدر الشر فأتحرَّاه ؛ وبكلمة اخرى عن مصدر الفساد الذي لا يقوى البتة على تشويه جوهرك اذ لا يعرف الفساد سبيلاً الى الهنـــا ، اياً كان مصدره ، أمن الارادة ام من الضرورة ام من الصدف غير المنتظرة لكونه الهاً يريد الخير وهو ذاته ذاك الخير ؛ والمصاب بالفساد لا يستطيع ان يكون خيراً . لا تُرغم يا الهي على القيام بعملٍ لأن ارادتك ليست اعظم من قدرتك ؛ وقد تكون اعظم لو انك انت اعظم من ذاتك ؛ والارادة والقدرة في الله هما الله بالذات . واي شيءٍ يخفى عليك يا من تعرف كل شيء ؟ وما من جوهر إلا وانت عالم به ؟ ولِمَ كثرة الكلام عن سبب عدم فساد جوهر الله بحيث لو انه قبلت الفساد لما كان الله ؟

وبحثتُ عن مصدر الشر ولم ابحث عنه جيداً ولا ادركت الخطأ في طريقة البحث عنه امام نظر عقلي وضعتُ الخليقة باسرها : ما يظهر منها لعينينا كاليبس والبحر والهواء والكواكب والاشجار والحيوانات التي تموت وما لا نراه فيها كأجواز الفضاء والملائكة وعالم الارواح كله ؛ وحتى الطبائع الروحية ذاتها وزعتها مخيلتي هنا وهناك كانها ذات اجسام ؛ وصنعت من خليقتك هذه مجموعة كبيرة واحدةً تقوم فيها الاجسام جنباً الى جنب حقيقيةً ام خيالية وتصوَّرت هذه الكتلة عظيمة ــ لا من حيث حجمها العادي الذي يفوق ادراكي بل من حيث توهَّمت ــ محدودة من كل جانب. وانت ايها الرب تحيط بها وتخترق جميع جوانبها دون ان تحدك جهةٌ منها كالبحر الذي يمتد ويظل واحداً لا نهاية له ويحمل في جوفه اسفنجة غايةً في الكبر ، يحدُّها البحر العظيم ويملأ جميع اطرافها .

على ذاك النحو تصورتُ خليقتك المحدودة ، الملأى منك ايها اللامحدود، وقلت في نفسي : هذا هو الهي وتلك هي مخلوقاته؛ هو صالح، وما اسماه وافضله بالنسبة اليها ؛ وبما انه صالح ، فلم يبدع سوى مخلوقاتٍ صالحة ؛ وانظرْ كيف يشملها بعطفه ويملأها . فاين هو الشر اذاً ؟ ومن اين يأتي ؟ وكيف تسرَّب ؟ اين هي جرثومته وما هو اصله ؟ ان لم يكن موجوداً ؛ فلِمَ اذاً نخاف ونحذر ممَّا لا وجود له ؟ ولكن ، ان كنا نخشاه ولا مبرر لخوفنا فهذا شرٌّ حقيقي يَخز قلبنا ويعذّبه دون مبرّر ؛ والشر يتفاقم ، ان لم يكن من داعٍ للخوف ، ومع ذلك نخاف .

وعليه إما ان نخاف من شر موجود وإما ان يكون خوفنا شراً . ومن اين يأتي الشر طال ما ان الله نفسه صالحٌ وخالق لكل شيء صالح ؟ ان الخير الأسمى والأعظم قد خلق حقاً ما هو اقل صلاحاً منه ؛ ومع ذلك فالخالق والمخلوق كلاهما صالح . من اين يأتي الشر؟ أمن المادة التي كوَّنها وصورَّها

ونظمها ؛ ولعله ترك فيها شيئاً لم يحوّله خيراً ؟ ولم ذلك ؟ الم يكن باستطاعته وهو الكلي القدرة ان يغيّر شكلها ويحوّلها كي لا يظل فيها أثر لشر؟واخيراً ، لمَ احب ان يكوّن منها شيئاً ولم يستعمل قدرته المطلقة لإبادتها من اصلها؟ وهل يمكنها ان تكون ، إن لم يشأ ؟ وان كانت المـــادة منذ الأزل فلِمَ خلاّها الى هذا الوقت ، طوال ذاك الزمان اللامحدود ، واخيراً ، قرر ان يخرج منها شيئاً ؟ ولو افترضنا انه قرَّر فجأةً ان يعمل ، هو القدير ، فلِمَ لم يُبدْها ليبقى وحده الخير الأسمى اللامتناهي والحق الذي لا يشوبه بطلان؟ لو افترضنا انه لا يليق بالصالح ان يخلق او ينشئ إلاّ ما هو صالح ، اما كان من واجبه ان يمحو ويعيد الى العدم تلك المادة المضرة وينشئ عوضاً عنها مادة صالحة يبدع منها كل شيء ؟ ولا يكون قديراً ان لم يستطع ان يخلق إلاّ بواسطة تلك المادة التي لم يصنعها بيده .

تلك هي الافكار التي رددتها في قلبي المسكين المثقَّل باشد الوساوس ضنكاً وتعذيباً التي سببهـــا لي خوفي من الموت وتقصيري عن اكتشاف الحقيقة ؛ ومع ذلك فلا يزال ايماني بالسيد المسيح ربنا وفادينا ، ايمان الكنيسة الكاثوليكية ، متأصلاً في قلبي . انه ولا شك ايمان خشنٌ قد تجاوز مراراً المسلك العقائدي ، انما بقي عقلي متمسكاً به او بالأحرى فقد كان يتشرَّب منه كل يوم ويستزيد .

وكنت آنذاك قد نبذتُ خرافات المنجمين واراجيفهم وكفرهم ؛ واني في هذه المناسبة اودُّ يا الهي ان اشكر مراحمك من صميم فؤادي ، لانك انت وحدك — ومن ينجينا من موت الضلال الا الحياة التي لا تموت والحكمة التي ليس لها ادنى حاجة للنور ، وهي تدبر الكون وما فيه حتى الاوراق التي تحرّكها الريح على الاشجار ؟ — اجل ، انت شفيتني من العناد الذي ابديتُه تجاه ذلك الشيخ الثاقب البصيرة ، ڤنديشيانوس وامـــام نبريديوس

الفتى الشاب ، الغني بالمواهب المدهشة . لقد كانا يؤكدان ، واحدٌ بقوةٍ والآخر بشيءٍ من التردد الملحّ ، ان لا وجود لعلم الغيب وان تقـديرات البشر تتلاقى احياناً مع الصدَف ؛ ولكثرة ما يتكلم الناس ، يصلون الى الحقيقة دون ان يعلموا ؛ وذلك بفضل التقاءات تتوفّر فيها الاحاديث. لقد اعطيتني صديقاً يستشير بملء حريته المنجمين دون ان يكون له إلمام بفنهم؛ كان يستشيرهم عن فضول مع انه يعلم نكتة لم يأخذها عن ابيه وهي اهلٌ لأن تقضي فيه على كل ايمان بهذا الفن لكنه تجاهلها .

تثقف فيرمينوس ثقافة حرة ودرس الفصاحة . ولمـا كان يحبني كثيراً جاءني يوماً يطلب مشورة ببعض امور يعلّق عليها الناس آمالاً كباراً ؛ ويأخذ رأيي فيما تعوَّد الناس تسميته « برجاً ».واخذت اميل في ذلك الوقت الى رأي نبريديوس في هذا الموضوع عـلى اني صارحته برأيي الشخصي وعرضت عليه تقديراتي انما كنت اردف قائلاً انها لمسائلُ سخيفة لا فائدة منها؛ فأخبرني آنذاك انه كان لأبيه المولع بتلك الكتب صديق يبحث عنها مثله وفي الوقت عينه وبما انهما متساويان من حيث الغيرة والميل الشديد الى تلك الحماقات فقد راحا يراقبان الوقت الذي تضع فيه البهائم ثم يسجلان مركز الكواكب ، رغبةً منهما في الحصول علي عدة اختبارات لفنهما المزعوم .

وبالتالي ، وفقاً لما قصَّه عليه ابوه ، وفي الوقت الذي حبلت به امه ، حَبِلت كذلك جارية كانت في بيت صديق ابيه ، فراقبها معلمها ، عفواً ، وقد كان يراقبُ عن كثب كلابه الحوامل وراحا يحسبان بدقـة كلّية الايام والساعات والدقائق والثواني ، هذا لجاريته ، وذاك لزوجته ؛ ثم ولدتا في الوقت عينه واضطر الصديقان الى ان يخرجا « البرج » نفسه هذا لابنه وذاك لعبده . ولدى بدء المخاض راحا يتبادلان المعلومات واستنفرا رجالها

على مقربة منهما ليتمكنوا من اعلام سيديهم بالساعة التي تتم فيها الولادة. وهكذا فقد تبادل الصديقان الخبر بسهولة كلية ودون ادنى تأخير ؛ كيف لا ؟ وكل منهما سيّد مطاع في بيته. والتقى الرسل على منتصف الطريق بين البيتين حتى استحال عليهما تسجيل ادنى فارق بين برجيهما حتى من حيث الدقيقة . وراح فيرمينوس ، بفضل ما ورثه عن والديه من جاه يتقدم في سبل العالم الجميلة البهية ويسير موفور الثروة نحو المراتب العالية اما العبد فقد ظل رازحاً تحت نير العبودية يثابر على خدمة أسياده وكل من عرفه يشهد بذلك .

وبعد ان سمعت هذه القصة وصدّقتها من فم راويها احسست بأن كل ما كنت اشعر به قديماً من مقاومة قد انهار وسقط وسعيتُ جهدي لشفاء فيرمينوس من فضوله وقلت له ان الوصول الى الحقيقة يتطلب مني ، بعد درس «برجه» ادراك مكانة والديه الرفيعة بين مواطنيهما ومركز اسرته في المدينة وكريم محتده وتهذيبه السامي والثقافة الحرة التي نالها . ولو ان العبـــد المولود تحت « البرج » عينه – وهو حقاً برجه – استشارني ، لكنت اضطررت ، لكي أصدُقَ له القول ، ان اعترف من خلال تلك العلامات نفسها بوجود اسرة من رعاع القوم ، من العبيد ، الى مـــا هنالك من ظروف كثيرة الاختلاف متباعدة عن الظروف الاولى فنكون قد حصلنا من خلال ملاحظات متشابهة على اجوبة اقل ما يلزمها لكي تجيء صحيحة ان تكون مختلفة ؛ وإلا كانت خاطئة . وعليه نستنتج بكل ثقة مما تقدم ان ما يصح من التكهنات المستقاة من مراقبة النجوم ينجم عفواً عن الصدف ، لا عن قاعدة علمية ؛ كما وان ما يكذّبه الواقع منها ، يُعزى الى خدعـــة من القدر ، لا الى خطأ علمي .

ومنذئذ انفتحت الطريق امامي ورحت أُجيل في خاطري الردَّ الذي

اقدمه لاعتراض قد يفاجئني به احد اولئك الذين فقدوا رشدهم ؛ فاتخذوا من تلك الأمور مهنةً . اني لن اتأخر في مهاجمتهم فاسخر منهم وادحض مزاعمهم : ألم يخبرني فيرمينوس عن احداثٍ لا صحة لها ؟ اوَلم يجره ابوه هو ايضاً الى الضلال ؟ ولذلك حوّلت تفكيري شطر الاطفـال التوائم : ان خروجهم من بطون امهاتهم يتتابع بسرعة الى حد ان هذه الهنيهة الفاصلة بينهم ، مهما اعطوها من اهمية في النظام لا تقع تحت استنتاجات البشر ولا يمكن تسجيلها بواسطة علاماتٍ يتوصل المنجمون من خلالهـا الى تأكيد حدث في المستقبل ؛ ولكن ذلك وهم وخرافة . لو تفحص المنجم علامات مماثلة لقال الشيء عينه لعيسو وليعقوب المختلفين حظاً : وعليه يكون قد تنبأ خطأ ، ولو انه قال حقاً ، فبطريقٍ متباينة على اساس الملاحظات عينها . ولكن الفضل في قول الحق يعود الى التقادير ، لا الى قاعدة علمية صحيحة .

انت ايها السيد المدبّر العادل للكون ، يا من تعمل بوحي خفي وبمعزل عن المشيرين والمستشيرين ، هب من لجة عدلك القويم جواباً مفيداً لطالب المشورة يوافق استحقاقات نفسه السرية . ولا يقولن احدٌ لك : « ما هذا ؟ ولِمَ ذاكَ ؟ » كلا ، كلا ، لا يقولن ذلك احد لأنه ليس سوى انسان !

لا يزال اغوسطينوس يبحث عن مصدر الشر

هكذا انت يا عضدي خلصتني من قيودي انما مـا زلت ابحث عن مصدر الشر فلم اجده ؛ ولكنك لم تسمح لأفكاري المترددة بأن تجرني بعيداً عن ايماني بأنك موجود وبان جوهرك لا يتغير بل ترعى البشرية بعنايتك وتمارس عدلك فيها ؛ آمنت كذلك بانك اسست طريقاً خلاصياً للانسان يسير فيه الى حياة بدايتها موتٌ في ابنك سيدنا يسوع المسيح وفي الكتب المقدسة التي تضمنها لنا كنيستك الكاثوليكية بسلطانها .

وما ان استقرت هذه الحقائق بقوة وثبات في عقلي حتى رحت ابحث بغمٍّ عن علّة الشر وما كان اشد الآلام التي انتابتني آنذاك في الصميم وما كان احرَّ زفراتي يا الهي ! وكنت تسمعها باذنيك وانا لا اعلم ؛ وحين اخذت ابحث جاداً في الصمت كانت تتعالى اليك ايها الرحيم صراخات شديدة ، هي كآبة نفسي الخرساء . انت كنت عارفاً وحدك بما يعذبني ! اي شيءٍ كنت أُسِرُّ به في اذن اصدقائي الحميمين؟ هل ادركوا ما انطوت عليه نفسي من قلق ؟ يعوزني الوقت كي اعرّفهم به وينقصني الكلام . كل ما فيَّ من زفرات يتصاعد الى مسمعك ؛ هذه الزفرات تزأر من صميم فؤادي ؛ وبغيتي كانت امامك ، حتى نور عينيَّ لم يبقَ معي » (مزمور ٣٧ : ٩-١١) لأن اذنك في باطني وانا خارج نفسي ، وهي مستقلّة عن المكان. امّا انا فلم اصغ ِ إلاّ لما هو ضمن المكان ولم اجد مكاناً استريح فيه ولا هي استقبلتني فأقول في نفسي : « حسن لي المقام هنا وكافٍ » ، ولا تركتني اعود الى حيث يطيب لي ان ابقى . لقــد ارتفعت عنها انما بقيتُ دونك . لو خضعتُ لك لوجدت فيك غبطتي الحقة وكنتَ اخضعتَ لي المخلوقات التي هي دوني ؛ وفي ذاك ، النقطة الوسطى لخلاصي ، اذ أبقى على مثالك واخدمك في اخضاعي جسدي . امّا وقد وقفت امامك مكابراً وأغرت على سيدي بعنقٍ سامدة (ايوب ١٥ : ٢٦) **تحت مجنّ » فقد** انقلب عليَّ بكل ثقله ما هو دوني ولم اجد هدنة اتنفس فيها الصعداء . إن نظرتُ ، اقبلت الي زرافات زرافات ؛ وان عزمت على التفكير استوقفتني صور الاجسام في الطريق وكأنها تقول لي : « الى اين يا فاسد ، يا لئيم» ؟ فيتصاعد هذا كله من جرح نفسي لأنك سحقت المتكبر كانسان جريح ؛ صلفي ابعدني عنك ، وانتفاخ وجهي اطبق عيني .

انت يا رب باقٍ الى الأبد انما « لا تغضب علينا الى الابد » (مزمور

۱۱ : ۳۲) فقد ترأفت علي وانا التراب والرماد ورضيت بأن تصلح عيوبي امام ناظريك ؛ وبمهماز خفي كنت تخزني لتحرمني الراحة فأحصل على يقين باطني منك ؛ وكلما لمستْ يدُك المؤاسية الخفية انتفاخي ، كلما خفَّ؛ وتتعافى نفسي التي غشاها الظلام ، شيئاً فشيئاً بفضل القطرة المفيـــدة للامراض الخلاصية .

اطلاعه على كتب فلسفية من الافلاطونية الحديثة

واردتَ في بدء الأمر ان تبين لي كيف تسحق المتكبرين وتهب نعمتك للمتواضعين وما اعظم الرحمة التي اظهرت بواسطتهـــا للبشر سبيل التواضع بحيث ان كلمتك صار جسداً وحلَّ بين البشر وعلى يد رجلٍ مصاب بصلفٍ عجيب دبَّرتَ لي بعض الكتب الافلاطونية المنقولة من اليونانية الى اللاتينية .

وفيها قرأت ، ان لم يكن هذه العبارات ذاتها فما يشبهها تماماً ، مؤيدةً بعدة براهين كتبت انه « في البدء كان الكلمة والكلمة عند الله والكلمة هو الله . كان في البدء عند الله . كلٌ به كوِّن وبغيره لم يكوَّن شيءٌ ممَّا كوِّن ، فيه كانت الحياة والحياة هي نور الناس والنور يضيءُ في الظلمة والظلمة لم تدركه » . (يوحنا ۱ : ٥) . النفس البشرية تشهد للنور دون ان تكون هي ذاتها النور ؛ وان الكلمة ، هو الله ، وهو « النور الحقيقي الذي ينير كل انسانٍ آتٍ الى العالم » (يوحنا ۱ : ۹) وان « النور في العـــالم » « والعالم به كونَّ والعالم لم يعرفه » . (يوحنا ۲ : ۱۰) اما هذا وهو « انه اتى الى خاصته وخاصته لم تقبله فامَّا كل الذين قبلوه وآمنوا باسمه فأعطى لهم سلطاناً ان يكونوا ابناءَ الله » فلم اجده في تلك الكتب . ووجدت فيهـــا ايضاً ان الكلمة ، الاله « لم يولد لا من لحم ولا من دم ، لا من ارادة بشر ولا من ارادة لحمية بل من الله » . انما لم اجد فيها ان الكلمة صار جسداً

وحلَّ فينا (يوحنا ١ : ١٣) .

ووجدت في تلك الكتب تحت اشكال وتعابير مختلفة ان الابن « اذ هو في صورة الآب لم يكن ليعتد مساواته لله اختلاساً (فيلبي ٢ : ٦) وهو من طبعه كذلك » لكنه اخلى ذاته آخذاً صورة عبدٍ صائراً في شبه البشر ووجوداً كبشر في الهيئة ؛ فوضع نفسه وصار يُطيع حتى الموت ، موت الصليب ؛ ولذلك رفعه الله ووهبه اسماً يفوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة مما في السماء وعلى الارض وتحت الارض ويعترف كل لسان ان الرب يسوع المسيح هو في مجد الآب » . (فيلبي ٢ : ٧–١١) فذاك ما لم تقله الكتب .

قبل كل زمان وفوق كل وقت ، ازليٌ سرمديٌ هو ابنك الوحيد مثلك : ومن ملئه تأخذ الانفس التي تتوق الى السعادة ؛ ويتجدد من حكمته الازلية كل من نشد الحكمة . وهذا ايضاً وجدته في تلك الكتب . وأمّا ان يموت في الزمن المعين عن الخطأة فما أشفقت على ابنك الوحيد بل سلمته من اجلنا جميعاً » فلم اجد فيها ذكراً له . لقد اخفيتَ هذه عن الحكماء وكشفتها للاطفال » (متى ١١ : ٢٩) وذلك لكي يقبل اليه التعبون والثقيلو الاحمال ويجدوا فيه راحتهم ، هو الوديع ، المتواضع القلب ؛ يُسيّر الودعاء في البر ويعلّم المتواضعين سبله ؛ ينظر الى انسحاقنا وآلامنا ويغفر لنا آثامنا كلها (رومية ١ : ٢١) . اما الذين يتطاولون الى اسمى من هذا التعليم وكأنهم واقفون على نعالٍ عالية فلن يسمعوه البتة يقول : « تعلّموا مني اني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم » . ومهما عرفوا الله فانهم لم يمجدوه ويشكروه كاله ؛ بل سفهوا في افكارهم واظلمت قلوبهم الغبية وادعوا الحكمة فصاروا حمقى ... » (رومية ١ : ٢١–٢٣) .

ورأيت ان تلك الكتب استبدلَتْ مجد جوهرك غير الفاسد باصنام

واشباح مختلفة « يشبه صورة انسان ذي فساد وطيور وذوات اربع وزحافات » (رومية ١ : ٢٣) . ذاك كان غذاءُ مصر الذي افقد عيسو حقَّ بكوريته : ان شعبك البكر سجد ، بدلاً منك ، لرأس حيوان ذي اربع «وحين ارتد بقلبه الى مصر احنى ذاته — هو صورتك — امام صورة « عجل يأكل علفه » . (سفر التكوين ٢٥ : ٢٣ ؛ اعمال الرسل ٧ : ٣٩) .

ذاك ما وجدته في تلك الكتب لكنني لم اذق شيئاً من طعامها لأنك احببت ايها الربِ أن تبعد عن يعقوب ذلَّه وعاره وتخضع البكر للأصغر وتدعو الشعوب الى ميراثك . وانا من بين الأمم جئتك وصوَّبت فكري الى ذهب مصر الذي اخذه شعبُك ، حسب ارادتك ، هو ملكٌ لك في كل مكان وانت قلت لاهل اثينا بواسطة رسولك ان « بك نحيا ونتحرك ونكون ، كما جاء على لسان بعض كتَّابهم » وطبيعي ان تخرج كتبهم من هذه الناحية ؛ اني لم اكترث ابداً لاصنام مصر وقد اخذ يضحي لها من ذهبك من ابدلوا حق الله بالباطل واتقوا المخلوق وعبدوه دون الخالق » (رومية ١ : ٢٤) .

الخبر الذي جناه من تلك المطالعة

اذ ذاك عدتُ الى نفسي ، بعد هذا التنبيه ، ودخلتُ في الصميم من فؤادي على نور ارشادك ؛ واستطعتُ الدخول الى قلبي «لانك نصرتَني» . دخلت فيه فأبصرت بعين نفسي ، مع ما فيها من كدرة ، ومن فوق عين نفسي وعقلي، نوراً ثابتاً لا يتغير ؛ ولا كالنور الطبيعي الذي يراه كل ذي جسد حتى ولا نوراً من نوعه انما نور يفوقه حدةً ولمعاناً وينير بقوة اشعته كل شيء . كلاّ ، لم يكن من ذلك النوع ، بل ممَّا يختلف عنه اختلافاً كلياً . ولم يعلُ عقلي ، كالزيت فوق الماء ، او كالسماء فوق الأرض ؛ بل كان اسمى مني لأنه خالقي وانا احط منه لأني خليقته . من عرف الحق عرف

النور ومن عرف النور ادرك الأبدية ؛ المحبة تعرف النور .

ايها الحقيقة الأزلية والحب الحق السرمدي ، انت الهي ؛ اليك ازفر ليل نهار ؛ وما ان عرفتك لأول مرة حتى رفعتني اليك لتريني ما يجب علي ان اراه دون ان استطيع الى ذلك سبيلاً ؛ وبهرتَ عينيَّ الضعيفتين باشعاعك الساطع وارتجفت حباً وخوفاً مقدساً ، بعيداً عنك ، غريباً عن جوارك ؛ وكأني كنت اسمع في ذلك المحل صوتك يهتف من الاعالي : « اناء غذاء اليافعين ، كن كبيراً لتأكلني ؛ لن تحوّلني اليك كالطعام بل انت تتحول اليَّ » .

وعلمت انك طهَّرت الانسان من رجسه وجففْتَ نفسي كنسيج العنكبوت فقلتُ : « اصحيح ان الحقيقة ليست شيئاً لأنها لا تمتد في الفضاء المحدود او اللامحدود ؟ » وصرخت بي من بعيد : « انــا هو الذي هو » . وسمعت قولك وكأنه في القلب ولم يعد امامي بابٌ للشك ؛ واصبح الشك من حياتي اسهل علي من الشك بالحقيقة التي انكشفت امــام العقل من خلال المخلوقات » .

وتطلعت الى ما هو دونك من المخلوقات فادركت انها ليست وجوداً مطلقاً ولا عدماً مطلقاً . هي موجودة لانها منك ؛ وغير موجودة لأنهــا ليست انت ؛ الوجود الصحيح هو الذي يبقى ولا يتغير ؛ « وانا فحسنٌ لي القرب من الله » (مزمور ٧٣ : ٢٨) ؛ فان لم اثبت فيه ، لن اثبت في ذاتي؛ اما هو فانه ثابت في ذاته وانه يجدد كل شيء «حكمة ٧ : ٢٧ وانت يا سيدي لا تحتاج الى خيراتي » . (مزمور ١٥ : ٢).

واتضح لي جلياً ان ما يفسد صالح ؛ اذ لو كانت الاشياء كلية الصلاح او خالية منه لما عرف الفسادُ اليهــا سبيلاً : ان صحَّ الاول فهي لا تقبل الفساد وان صحَّ الثاني فلا مجال لإفسادها والسبب هو ان الفساد مضر

ولكن لا ضرر حيث لا تشويه للخير . فاما ان لا يكون الفساد مضراً، وهذا شيء مستحيل؛ او ان يكون الفاسد محروماً من الصلاح، وهذا امرٌ لا شكَّ فيه . ما لا خير فيه لا كيان له ؛ وكل كائن يثبت في الكينونة بمعزلٍ عن الفساد افضل من غيره لانه باقٍ بلا فساد؛ ومَنْ هو اشد غرابةً ممن يدعي، ان ما يفقد كل خير ، يصبح في حالـةٍ افضل من ذي قبل من حيث يثبت بلا فساد ؟ اذاً يتساوى الحرمان من الخير مع العدم ! وعليه طال ما ان الشيء موجود فهو خير؛ وكل موجود خير ؛ والشر الذي كنت ابحث عن علتـه ليس جوهراً ، اذ لو كان جوهراً لكان خيراً . إمّا ان يكون جوهراً لا يقبل الفساد وبالتالي فهو خير عظيم ، او ان يكون جوهراً قابلاً للفساد ، وهذا لا يمكن ان يكون ، إلاّ اذا كان الجوهر خيراً .

هكذا ادركت واتضح لي ان اعمالك كلها خـير ، وفوق ذلك فانك كوّنت كل جوهر . وبما انك لم تساوِ بين خلائقك جاءت الاشياءُ ، منفردةً ، جيدة ؛ ومجتمعةً ، جيدةً جداً ؛ لأن جميع ما صنعه الهنا هو حسن جداً (سفر التكوين ١ : ٣١) .

وبالنسبة اليك ، لا شرَّ ؛ ولا اقول بالنسبة اليك وحسب بل الى كل ما خلقت لأنه ، خارجاً عن هذه الخليقة ، لا شيء يستطيع ان يستولي على النظام الذي وضعته لها ويعكّره؛ عن تنافر اعضائها ينجم الشر؛ وعن تناسق هذه العناصر فيما بينها وبين سواها ينتج الخير ؛ وجميع هذه العناصر التي تختلف فيما بينها تتلاءم وذاك الجزءَ الصغيرَ من الكون الـذي هو الأرض ؛ وهذه لها سماؤها الملائمة ، سماؤها الملبّدة غيوماً ورياحاً . حاشا لي ان افكّر واقول : « ليس لهذه الاشياء مبرّر » . لو اني ما رأيت سواها لتمنيت لو تكون افضل ؛ انما يجب عليَّ ان اشكرك من اجلها اذ كل ما في الأرض يسبحك» الحيتان والأغوار والنار والثلج والجليد والعواصف التي

تخضع لاشارةٍ منك ؛ الجبـــال والتلال ، الاشجار المثمرة وجميع اجناس الارز ، البهائم وكل قطعان الغنم ، الزحافات والطيور ، ملوك الأرض وكل الشعوب ، الامراء وقضاة الأرض ، الشبان والفتيات ، الشيوخ والاحداث جميعهم يسبحون اسمك » ؛ وبما ان جميع ملائكتك ، من اعالي السماوات اجل ، من اعالي السماوات يسبحونك ؛ وبما ان جميع جنوده ، الشمس والقمر وجميع الكواكب والنور ، سماء السماوات والمياه التي فوق السماوات تسبح اسمك فلم اعد ارغب في افضل من ذلك كله لأني عانقت في فكري مجموع الكائنات فوجدت ان العناصر السامية افضل من الدنيا وادركت باخلاص ان المخلوقات جميعها ، افضل من العناصر السامية منفردةً .

ان من لا تروقهم بعض خلائقك هم بحاجة الى « سلامة العقل » كما كنت انا بحاجة اليها يوم لم اكن ارتضي باشياء واشياء مما ابدعتَ ؛ وبما ان نفسي لم تجرؤ على بغض الله عينه فقد ابت ان تتعرف في مخلوقاتك الى كل ما لم يكن يرضيها فسقطت اذ ذاك في مذهب الذاتين دون ان تطمئن اليه ؛ لكن الكلام الذي تفوهت به لم يصدر عن باطنها الصحيح . وحين تراجعت عن هذا المذهب صنعتْ لذاتها الهاً تصورْته منتشراً في كل مكان على مدى الفضاء اللامحدود واعتبرْتك انت ذاك الاله ووضعتـــه في قلبها واصبحتْ مجدَّداً هيكلاً لمعبودها الذي نبذته عيناك . ثم جذبت رأسي اليك وانا غافل ؛ واغلقتَ عيني عن الباطل فغبت قليلاً عن الوعي وهدأ جنوني واذا بي استيقظ بين ذراعيك فأراك ، لا كائناً متناهياً، انما بشكلٍ يختلف عمّا سبق ؛ ولم تكن هذه الرؤيا من الجسد .

والقيت نظرة على ما بقي من الاشياء فادركت انها تدين لك بالوجود وان كل كائن يجد حدَّه فيك بصورة خاصة ، لا كما هي الحـــال في الفضاء ، بل لانك تضبط الكل في حقيقتك كما في يدك: حقيقة الاشياء

هي وجودها ؛ ولا ضلال الا حين يؤمن المرء بوجود من لا وجود له .

وادركت كذلك ان كل شيءٍ في محله وانه يأتي في حينه وانك وحدك ايها الكائن الأزلي لا بداية لعملك في حقبات من الزمن لا تحصى طال ما ان الماضي لا يمضي ولا المستقبل يأتي إلاّ اذا كنت تعمل دائماً .

وعلمني الاختبار ، انه لا عجب اذا كان الذوق العليل لا يستطيب الخبز الذي يستطيبه الذوق السليم ، واذا كانت العين المريضة تنفر من النور الذي تعشقه الاعين الصحيحة . لا يرتضي الاشرار بعدلك فكيف بالافعى والحشرة الصغيرة التي خلقتها على مستوى المخلوقــات الدنيئة التي تتعاظم درجة القرابة بينها وبين الاشرار بمقدار ما يكون التباين بينك وبينها كبيراً ؛ وانها لتقترب من النظام الاسمى كلما كانت مشابهة لك . فتشت عن اصل الشر فلم اجــده جوهراً بل فساداً في الارادة التي تنحرف عن الذات السامية – عنك يا الهي – الى ما هو دنيء فتفقد صوابها وتتورَّم !

وتعجبت كيف اني اخذت احبك انت بدلاً من ذلك الشبح ؛ ولم يكن سروري بك ثابتاً ؛ انما شعرتُ بأن جمالك يدفعني اليك واذا بثقلي ينزعني منك ويرميني على الحضيض باكياً . الثقل هو عاداتي اللحمية ؛ اما ذكرك فقد بقي معي وما خامرني ادنى شك بضرورة كائن استمسكُ بــه دون ان اقوى عليه ؛ لأن « هذا الجسد الفاسد يثقل على النفس والمسكن الأرضي يخفض العقل الكثير الهموم » (الحكمة ٩ : ١٥) وأيقنت حقاً ان العقل اصبح يدرك في مخلوقاتك منذ تكوينه الكمالات غير المنظورة » . (رومية ١ : ٢٠) وبينها قدرتك الازلية والوهيتك . وفيما كنت ابحث عن أسُس اعتمد عليها لقياس جمال الاجسام السماوية والأرضية وعمَّا دفعني الى ان احكّم عدلاً على تلك الاشياء المتغيرة حين كنت اقول : « هذا يجب ان يكون على الشكل الفلاني والعكس بالعكس » اجل ، انــذاك اكتشفتُ

الحقيقة الخالدة الأزلية فيما فوق عقلي الذي لا يثبت على حال .

وهكذا ارتقيت تدريجاً من الاجسام الى النفس التي تشعر بواسطة الجسد ومنها الى تلك القوة الباطنية التي تنقل اليها الحواسُّ الجسديةُ إحساسَها الخارجي ، وهذه القوة تجد عند البهائم الذكاء ؛ ومنها ايضاً الى القوة العقلية التي يخضع لحكمها ما شعرتْ به الحواس الجسدية ؛ ولمّا ادركت انها هي ذاتها قابلة للتغيير ، ارتفعت الى قوة الذكاء من تلقاء ذاتها واقتادت معها فكري بعيداً عن العادة ومظالمها واستبدادها وتحررت من مجموعة الاشباح وآرائها المتناقضة لترى النور الذي غمرها ، يوم كانت تهتف بلا وجل ، ان ، يجب على المرء ان يؤثر ما لا يتغير على ما يتغير ؛ وكيف ادركت ما لا يتغير وفهمته ؟ لو لم تدركه جزئياً لما آثرته حقاً على نقيضه واخيراً توصلت في طرفة عين الى الكائن ذاته وابصرت ان « ما لا يرى فيك يُفهم من خلال اعمالك » دون ان اقوى على التحديق فيه ؛ وشعرت بأن ضعفي يتخاذل وعدت الى ذاتي واحتفظت بذاكرة عاشقة وكأنها تتوق ابداً الى رائحة الطعام الذي لا ازال عاجزاً عن اخذه .

التواضع فضيلة ضرورية

ورحت افتش عن طريقة تمكنني من التمتع بك فلم اجدها وذلك قبل ان اعانق « الوسيط بين الله والناس الانسان يسوع المسيح الذي هو فوق كل شيء اله مبارك مدى الدهور » (رومية ٩ : ٥) الذي يدعونا ويقول لنا : « انا هو الطريق والحق والحياة » (يوحنا ١٤ : ٦) والطعام الذي يختلط بالجسد ــ بحيث ان « كلمتك صار جسداً » لم استطع ان اتناوله بسبب ضعفي ، كيما تصبح حكمتك المبدعة لكل شيء لبن حداثتنا .

لم اكن آنذاك حائزاً ما يلزم من التواضع للحصول على يسوع رب التواضع . وحتى ذاك الحين لم افهم الدروس التي اعطاناها في ضعفه لأن

كلمتك الحقيقة الازلية المتسامية جداً فوق ارفع مخلوقاتك يرفع اليه من يُطيعون ، هو الذي قد بنى لنفسه بيتاً حقيراً من طيننا في السفليات لكي يتجرد فيه من تلقاء انفسهم من يود ان يخضعهم لنفسه ويأخذهم اليه شافياً كبرياءهم ومغذياً فيهم المحبة . لقـد اراد ان يجنبهم الضلال عن اعتداد بالنفس وان يواضعهم فيريهم على اقدامهم الالوهية المتلبسة « بقميص لنا من جلد » (سفر التكوين ٣ : ٢١) ومتى ركعوا امامه منهوكين اخذهم اليه وَسَمَا بهم .

لقد كنت اعتقد في سيدي يسوع المسيح انه على خلاف ما وصل اليه ايماني : ظننته رجلاً على جانب كبير من الحكمة وحسب ؛ لا ينافسه احد في هذا المضمار . انه بميلاده العجيب من عذراء — رمزٌ لما يجب ان يتجلى فينا من تجرد عن الخيور الزمنية وتعلق بالنعم الالهية التي نتوق اليها — قد استحق ، على ما اظن ، بعنايةٍ الهية ، سلطاناً تعليمياً لا نظير له ؛ بيدَ انه لم يخطر ببالي قط ان في هذه الالفاظ « الكلمة صار جسداً » سراً . اما كل ما كنت اعرفه عنه فهو ما علمتنا اياه الكتب المقدسة انـه اكل وشرب ونام ومشى وعرف الفرح والحزن ووعظ ، وان الجسد لم يستطع ان يتّحد بكلمتك الا بواسطة النفس البشرية العاقلة ؛ وحسبنا من معرفته ان ندرك ان كلمتك لا يتغيَّر ؛ ولقد وعيتُ هذا الأمر بمقدار ما سمحت لي قواي وما خامرني ادنى شك فيه . ان تحريك المرء الاختياري لجميع اعضائه او عدم تحريكها ثم شعوره ام عدم شعوره بهذا الأمر وافصاحه عن افكاره ام لزومه الصمت ، كل هذه مظاهر تنم عن نفس وعقل قابلين للتنقل من حالٍ الى حال ؛ ولو نُسبتْ اليه خطأً في التقليد المكتوب لأصبح كل ما تبقّى مشبوهاً وفقد الجنس البشري كل ايمـانٍ خلاصي بتلك الكتب واذ كانت تقول الحق ولا تكذب ، ادركتُ ان المسيح رجلٌ كامل — ليس

له فقط جسم انسانٍ او جسمٌ ونفسٌ غير عاقلة ، بل رجل حقيقي بكل معنى الكلمة ، لا نظير له بين الناس ، وذلك ، لا لأنه الحقيقة؛ بل لأن طبيعته البشرية امتازت عن سواها واشترك هو اشتراكاً كاملاً في الحكمة .

اما اليپيوس فقد كان يعتقد ان ايمان الكاثوليك بالاله المتأنس يقتصر على وجود اللاهوت والجسد في المسيح ولا يتعداهما الى النفس البشرية ولا فكّر بانهم يعتقدون بوجود عقل بشري فيه . واذ كان مقتنعاً بان ما ورد في التقليد من اعمال منسوبة الى السيد المسيح يستلزم خليقةً عاقلة وحسّاسة فقد توانى عن السير الى الايمان المسيحي عينه ؛ ولن يدرك إلاّ فيما بعد ، ضلال تلاميذ ابوليناريوس الهرطوقي وحينذاك يعتنق بفرح الايمان الكاثوليكي .

وأقر بأنني لم ادرك، إلاّ بعد حين ، كيف حطّمتِ الحقيقةُ الكاثوليكية ضلال فوتينوس وبهتانه وهي تشرح هذه الألفاظ « الكلمة صار جسداً » وكيف ان الاحكام الصادرة ضد الهراطقة كشفت عن فكرة كنيستك الصحيحة وعن مضمون تعليمها السليم ، « اذ لا بدَّ من البدع ليظهر المزكّون بين الضعفاء » (١ كور ١١ : ١٩) .

بعد مطالعتي مؤلفات الافلاطونيين وادراكي ان الحقيقة تُستَقصى وراء عالم الاجساد رأيت ان « كمالاتك اللامنظورة قد أُدركت بالمبروءات» (رومية ١ : ٢٠) ومع اني لم أُوفَّق في محاولتي فقد ادركت ماهية الحقيقة التي حرمتني من رؤيتها ظلمات نفسي . ايقنت انك موجود ، وانك لا متناهٍ ، دون ان تنتشر في الفضاء المحدود واللامحدود ، وانك حقاً الكائن الدائم ابداً الذي لا يتغير هو ؛ ولا ادنى جزء من اجزائه ، ولا حركة من حركاته . كل شيءٍ هو منك وبرهاننا القاطع هو كونه موجود. وثقتُ من كل ذلك ؛ انما بقيت مقصّراً عن التمتع بك ورحت اثرثر مدعياً المعرفة ؛

ولو لم ابحث عن السبيل في المسيح ، مخلصنا ، لصرت الى الهلاك لا الى المعرفة . منذئذٍ ادعيت الحكمة ومع ان عقابي تعاظم عليّ فلم اذرف دمعة بل بالأحرى كنت افاخر بعلمي . اين كانت المحبة التي تشيد علـى التواضع ، على يسوع المسيح ؟ هل تعلمني اياها تلك الكتب ؟ شئتُ ان تجعلها في متناول يدي قبل ان اتأمل كتبك المقدسة لكي ترسّخ في ذاكرتي تأثيرها عليّ . وبعد حين اجد الاستقرار واطمئن الى كتبك بعد ان تضمد جراحي باناملك الشافية من السقم ، استطيع ان اميّز ، استطيع ان اتبيّن الفرق بين الادعاء والاعتراف ، بين من يدركون كيف يسيرون دون ان يعلموا من اين، وبين الطريق الذي يؤدي الى الوطن السعيد، لا لكي نراه وحسب ، بل لكي نقيم فيه .

لو انني تنشّأت منذ البدء على كتبك المقدسة وتذوقت حلاوتها ثم لقيت الكتب الافلاطونية لكانت ، ومن يدري ؟ انتزعتني من اس التقوى المتين ؛ ولو انني بقيت على استعدادي الادبي الذي اثر في تأثيراً حسناً لكنت اعتقدت انه بامكاني ان اجني من تلك الكتب وحدها كسباً مماثلاً .

وانصببتُ بشغفٍ على مطالعة الكتب الجديرة بالاحترام ، التي من روحك ، وبخاصة على كتب بولس الرسول ؛ فاذا بتلك الصعوبات ، التي خيّل الي ان بولس يناقض ذاته بذاته فيها ، تتلاشى ؛ واذا باقوال الناموس والانبياء لا تتلاءم وكلامه ؛ وظهـرت لي الوحدة بين آيات الكتاب النقية وتعلّمت ان « ابتهج برعدة » (مزمور ٢ : ١١) . وحين اخذتُ اعمل ، ادركت ، ان كل صحيح قرأته في كتب افلاطونية حديثة قد جاء هنا في كتبك ممهوراً بنعمتك حتى ان من يرى «لا يفتخر كانه لم ينل» (١ كورنتس ٤ : ٧) لا ما يرى بل ولا الحاسة التي بها يرى : « واي شيءٍ له ولم ينله »

(١ كور ٤ : ٧) . وعلى هذا النحو انه لمدعــوٌّ الى ان يراك انت الأزلي ويُشفى من سقمه ليحصل عليك ؛ ومن لا يزال بعيداً جداً عنك ولا يستطيع لبعده ان يراك، يسير على الطريق الذي يؤدي اليك فيراك ويحصل عليك . ومهما « ارتضى الانسان بناموس الله وفقاً للانسان الباطني » فما هي حيلته « بذلك الناموس الذي يحارب في اعضائه ناموس روحه ويأسره تحت ناموس الخطيئة المكتوب في اعضائه » . (رومية ٧ : ٢٢) . « انت عادل ايها الرب » (دانيال ٣ : ٢٧) « لكننا قد خطئنا واثمنا » (دانيال٣ : ٢٩) وكفرنا « فثقلت يدك علينا » (مزمور ٣١ : ٤) واننا بعدلٍ قد أُسلمنا الى الخاطئ العتيق الى ملكوت الموت أُسلمنا ؛ فاقتنعت ارادتنا وسارت بحسب ارادته ولم تعد « تثبت على الحق » (يوحنا ٨ : ٤٤) وماذا يعمل « الانسان الشقي ومن ذا ينقذه من جسد الموت هذا سوى نعمتك التي بيسوع المسيح ربنا » (رومية ٧ : ٢٤) ؟ هو الذي منذ الازل ولدته وخلقته « في بداية طرقك » . « ان سلطان هذا العالم لم يجدِ فيه ما يستوجب الموت ومع ذلك فقد اهلكه » « وأُلغي الصك الذي كان علينا » (كولو ٢ : ١٤) .

لم نجد على تلك الصفحات ما سبق ذكره ! كلاّ انها لم تقدّم لنا هذا الجو التقوي ودموع الاعتراف وذبيحةً ترضيك ومحناً روحية وقلباً منكسراً متواضعاً وخلاصاً لشعبك ! اجل، لم تقدِّم لنا مدينتك، خطيبتك، عربونُ روحك القدوس، كأسَ فدائنا .

ولا نجد فيها احداً ينشد : « الا تسكن نفسي الى الله ؟ منــه تنتظر خلاصها ؛ انه الهي ومخلصي وملجاي فلن اتزعزع » (مزمور ٦١ : ٢—٣). هناك ليس من يسمع هذا الصوت : «تعالوا الي ايها المتألمون»(متى١١ : ٢٨). هناك يزدرون تعاليمه « لأنه وديع ومتواضع القلب » لأنك اخفيت هذه عن الحكماء والفهماء واظهرتها للاطفال » (متى ١١ : ٢٨) .

شتان بين من يشاهد، من أعلى قمة محرَّجة، وطن السلام، ولا يستطيع الوصول اليـــه فتذهب جهوده سدىً في مجاهل الأرض ويتعرض لهجمات شذاذ الآفاق ومكائدهم وعلى رأسهم الاسد التنين ، وبين من يدرك السبيل اليه فيرعاه الملك السماوي بعنايته بحيث لا يجرؤ احدٌ ممَّن هربوا من الميليشيا السماوية ان يتعاطى القرصنة بل يهربون منه كمن يهرب من النار .

كانت هذه الافكار تضغط عليَّ بشكل غريب لدى قراءتي اصغر الرسل . لقد تأملت بامعانٍ في اعمالك فانذهلت .

الكتاب الثامن

عدوى[1] المثل

عدوى المثل

– فعل الشكر .

اللهمَّ ، أودُّ ان اذكرَ رحمتك عليَّ واعترفَ بها شاكراً لك . لتخترق رحمتُك عظــامي فتهتف : « من مثلك ، يا رب ، من مثلك »؟« لقد حللت قيودي » ولهذا فاني اذبح لك ذبائح الحمد وأبيّن كيف حطمتَ قيودي ليسجدَ لك كل من يسمعني ويقولَ : مبارك هو الرب في السماء ومــا اعجب واعظم اسمه في الأرض . !

رسختْ كلماتُك في قلبي ومن كل جهة أحاطت بي . لقد ايقنتُ انك تحيا الى الأبد وان كنت اراك ، كما في المرآة وعلى سبيل اللغز . نفضتُ عني كلَّ ريب وايقنتُ أنَّ جوهرك لا يقبل فساداً ، وانك علةُ كل جوهر . توخّيتُ ان ازداد استقراراً فيك لا ثقة بك . كل مــا في حياتي الزمنية ظلَّ متأرجحاً لكنَّ قلبي كان يحتاج الى التنقية من الخمير العتيق ؛ وطاب لي ان اسلك الطريق ، الذي هو المخلص عينه ؛ انما اعوزتني الجرأةُ للسير في مضايقه .

وبينا انا على تلك الحال أفضيتَ اليَّ بفكرةٍ استحسنتُها ؛ وهي ان اذهب الى خادمك سمبليشيانوس الذي ظننته صالحاً ، يسطع منـــه نور نعمتك . وسمعتُ الناس يقولون عنه انه متعبِّدٌ لك بكليته منذ حداثته . وحينذاك كان قد طعن في السن وكان تقدمه في السن وغَيَـْرته الحميدة على الاقتداء بك ، خيرَ ضمانة لمـــا حصَّل من علوم ، وما وصل اليه من خبرة . وهذا اكيد ! لقد استشرته في ما يقلقني ، علَّه يرشدني ، بعد الاطلاع على حالتي ، الى وسيلةٍ تمكنني من التقدم في طريقك !

وجدتُ الكنيسة مكتظة بالمؤمنين ، وكل واحدٍ منهم يسير على هواه ؛ فكرهت حياتي السابقة التي عشتها طبقاً لروح العالم واخذتُ استثقلها ، الآن وبعد ان خمدتْ شهواتي الماضية وانطفأ ولعي بالمال والامجاد ؛ ولم يعد لها ادنى لذة لديَّ اذا ما قستُها بلذة عذوبتك وجمال بيتك الذي احببته . لكني بقيت مرتبطاً بوثاق المرأة القوي ؛ لم يمنعني الرسول من الزواج لكنه دعا الى حياةٍ اكمل من الحياة الزوجية حين تمنَّى على الناس ان يتشبهوا به ؛ ولقد كنت اميلُ الى اختيار النصيب الذي لا يتطلب عناءً ومشقةً ، لضعفٍ فيَّ ؛ ولهذا وحده تردَّدْتُ كثيراً وحلَّت بي امراضٌ واعترضتْ سبيلي متاعبُ كثيرة مزعجةٌ مضنيةٌ واضطررتُ الى ان اجابه صعوبات عدة ، لا طاقة لي بها ، ان اخترتُ الحياة الزوجية التي اراني معداً لها .

تعلَّمتُ من فم الحقيقة عينها ان هناك « خصيانـــاً خصوا انفسهم من اجل ملكوت السماوات » « ومن استطاع ان يحتمل فليحتمل » وان من لم يعرفوا الله ، هم ، طبعاً ، حمقى ؛ اذ لم يقدروا ان يدركوا الكائن من خلال الخيرات المنظورة . لقد تخطيتُ حماقتهم الى معرفتك انت يا خالقنا ، كما قالت لي المخلوقات ، وعرفتُ كذلك كلمتك المساوي لك في الالوهية ،

الاله الواحد ، الخالق لكل شيء .

هناك ايضاً فئـــة من الكفرة ، عرفوا الله لكنهم لم يمجدوه ولم يسبحوه كاله ؛ فسقطتُ في ضلالهم ؛ بيدَ ان يمينك عضدتني واخرجتني منـــه واحلّتني في مكانٍ لأستعيد صحتي طال ما انك قلتَ للانسان « مخافة الرب هي الحكمة ». ولا تحاولْ ان تتظاهر حكيماً لأن من ادعوا الحكمة صاروا جهّالاً . لقد وجدتُ « الدرةَ الثمينة » ولم يبقَ عليَّ سوى ان ابيع كل ما لي واشتريها . لكنني وقفت متحيراً لا اعرف ان اختار.

سمبليشيانوس يقص على اغوسطينوس اهتداء ڤيكتورينوس

وقصدت سمبليشيانوس وهو الذي اتخذه امبروسيوس، الاسقف الحالي، اباً له ، يوم قبل نعمة العماد المقدس ؛ لقد كان يحبه محبةَ الابن لأبيه . اخبرته عن شروري وضلالي فهنأني اذ علم انني اطلعت على عدة كتب افلاطونية ، ترجمها ، الى اللاتينية ، ڤيكتورينوس استاذ الفلسفة سابقاً في روما الذي مات نصرانياً ، بناءً على شهادة ثابتة . لقـــد هنّأني لأنني لم اطلع على سواها من كتب الفلسفة الملأى كذباً وخداعاً على مقتضى اركان العالم. في الكتب الافلاطونية الفُ سبيل الى الله والى كلمته؛ ثم راح يستعيد ذكرياته عن ڤيكتورينوس الذي تشدُّه اليه روابط وثيقة منذ كان في روما، ليحثني عـــلى اعتناق التواضع المسيحي المحجوب عن الحكماء والمكشوف للأطفال . انني اروي هذا عن ڤيكتورينوس لان اهتداءه فتحٌ عظيم، من نعمتك ، يقبُح السكوت عنه: لقد كان ضليعاً في العلوم والفنون، مطلعاً على عدة كتب فلسفية وله فيهـــا ابحاث قيمة ؛ علّم الكثيرين من اولاد النبلاء وذوي المراتب العالية فأقاموا له تمثالاً في احدى الساحات بروما ؛ تخليداً لفضله وعلمه ؛ ولقد قبل هذا الاكرام الذي يعلّق عليه ابناءُ هذا العالم اهمية كبرى . وبرغم تقدمه في السن فقد ظل يعبد الاصنام ويشترك

في ذبائحها الدنسة ، على مثال النبلاء الذين يدعون العامة الى عبادة اوزيريس والمسوخ المؤلّهة كافة وانوبيس النبّاح ؛ وقد سبق لهم ان حاربوا نبتون وڤينوس ومينرڤا فلما انهزموا راحت روما تستشفعهم اليومَ . وڤيكتورينوس هذا الذي دافع عنهم طوال سنوات بفصاحة وبلاغة ، لم يخجل من ان يصبح اسيراً لمسيحك وابناً لنعمتك الفيّاضة ؛ فاحنى عنقه تحت نير التواضع وخفض رأسه تحت عار الصليب .

ايها الرب ، ربنا ، لقد احنيت السماوات ونزلت منها ولمستَ الجبال فتحولتْ الى دخان ؛ فكيف ولجتَ الى هذا القلب ؟

لقد اخبرني سمبليشيانوس عن مطالعة ذلك الشيخ للكتاب المقدس واهتمامه بدرس الكتب المسيحية والتعمق فيها وعن قوله له ، سراً لا جهراً : أتعلم انني اعتنقت النصرانية؟وعن جوابه : لن اصدق ذلك الا اذا شاهدتك بعيني في كنيسة المسيح ؛ ويرد الآخر مازحاً ، باسماً : أجدرانُ الكنيسة هي التي تجعلني مسيحياً؟ هذا بعض ما كان يجري بينهما ؛ ولقد اتخذ هذا الموقف خوفاً من ان يكدِّر اصدقاءه المتكبرين ، عبّاد الشياطين ، حتى رأوه يجاهر بالايمان المسيحي ؛ كما كان يتوقّع ان ينصَبَّ عليه غضبهم من برج بابلهم العالي ، من قمة ارز لبنان الذي لم يحطِّمه الرب . ولكن ، بعد مطالعات وتأملات عدة اشتدت عزيمته وخاف ان ينكره المسيح امام ملائكته القديسين ان انكره ، هو ، امام الناس ؛ ورأى نفسه مجرماً كبيراً ان خجل من اسرار كلمتك التي انشأها خلال تواضعه ولم يخجل من ان يقدمَ ذبائح للأبالسة وقد تشبَّه بهم في كبريائهم وعصيانهم . وخجل من غوايتهِ امام الحق ففاجأ سمبليشيانوس بقوله : هيا بنا الى الكنيسة ؛ اريد ان اصير مسيحياً .

وطار سمبليشيانوس فرحاً وتوجها معاً الى الكنيسة . وإذ تعلَّم الحقائق

الاولى الواجب حفظها على الموعوظين سجّل اسمه بين طالبي العماد فانذهلت رومة واغتبطت الكنيسة ونقم المتكبرون وصرُّوا باسنانهم واحترقوا كيداً وغيظاً. امّا خادمك ايها الرب الاله فقد جعلك متوكله ولم يملْ الى المختالين والمنعطفين الى الكذب .

ولمّا حان الوقت ليجاهر بايمانه ، فوق منصةٍ عالية ، امام الشعب المسيحي ، درجاً على عادة مألوفة في كنيسة روما ، تقدّم منه الكهنة — وهذا ما اخبرني به سمبليشيانوس — وسألوه ان كان يفضل تلاوة قانون الايمان سراً ، شأن من يخجلون ويخافون ؛ فأبى إلاّ ان يجهر بخلاصه امام جمهور القديسين. إنَّ من لم يخجل ولم يخفْ من تدريس الفصاحة ، البعيدة جداً عن الخلاص ، لم يضطرب حين تلفّظ بكلمتك امام قطيعك المسالم. واذ صعد ليتلو فعل الايمان ردّد اسمه الحاضرون وتهامسوا به فرحين وتبادلوا التهانئ لأن جميع الحاضرين دون استثناء كانوا يعرفونه وراحوا يرددون بصوت منخفض « ڤيكتورينوس ، ڤيكتورينوس ! » وبلغ فرحهم الذروةَ حين رأوه . وسرعان ما خيّم الصمت اذ راح يتمتم كلام الحقيقة بثقة كلية فأصغوا اليه وتمنوا ، لو أُتيح لهم ، ان يُنزلوه في قلوبهم ؛ وايم الحق ، لقد انزلوه في تلك القلوب واليها حملوه بحب وفرح .

في معاملة الله للخاطئ التائب

ايها الاله الصالح ، لماذا يفرح الانسان بخلاص نفسٍ يائسة نجت من خطر كبير ، اكثرَ ممّا لو بقيَ له بصيص املٍ بها حينَ تتعرّض لخطرٍ اخفَّ ؟ انت كذلك ، ايها الآب الرحيم ، تفرح بتوبة خاطئ اكثر من ثبات تسعة وتسعين في البرارة. يشتد فرحنا حين نعلم ان الراعي وجد نعجته الضالة وان المرأة اعادت الى خزانتك الكنز الذي لقيته ففرح معها جميع جيرانها . اننا لنذرف الدمع حين تحتفل في بيتك برجوع ابنك الأصغر

الذي كان ميتاً فقام وضالاً فوجد. فرحُنا وفرحُ ملائكتك القديسين الذين تبرروا بمحبة قدسية هما منك ايها الرب الاله يا من تثبت الى الأبد . ومن لم يكن مثلك ثابتاً ادركته بالطريقة عينها .

النفس تشعر بمزيد من الغبطة حين تجد ما فقدت مما تحب ولا تشعر بمثله طوال محافظتها على ذلك الشيء الذي تحبه: لنا على هذا ادلّة كثيرة ؛ وهي ملء العالم وكل ما فيه يشهد ويقول : صحيح ، صحيح ! القائد الظافر منتصر . لو لم يخضْ المعركة لما انتصر ؛ فرحه بالنصر يقاس بنسبة الخطر الذي احاق به اثناء المعركة . ضربتْ عاصفةٌ في اليمّ بحـــارةً فهددتهم بالغرق اذ ذاك اصفرّت وجوههم لشعورهم بدنوّ الأجل . بعد قليل سكن الجو وهدأ البحر فتضاعفت غبطتهم بمقدار الخوف الشديد الذي استحوذ عليهم ! مَرِض شخص عزيز فدلّ نبضه الى الخطر القريب وراح يتنزه ، قبل معافاته، فرِحاً دون ان يعرف لغبطته هذه مثيلاً في حياته الماضية ايام كان في صحة وعافية تامتين .

والانسان لا يستلذ الحياة الا بعد التعب والشقاء الذي لم يحلم به وحسب بل بعد عراقيل يضعها الناس في وجهه. والانسان لا يستلذ الطعام والشراب الا على اثر جوعٍ او عطش . ويتناول السكارى بعض المقبلات المالحة ، المحرقة ، ثم يشربون ليطفئوا ما هيجت فيهم من حروق ... وتلك هي لذتهم . جرت العادةُ على ان لا يستلم الخطيب خطيبته حالاً بعـــد الخطبة ليشتاق اليها قليلاً من الزمن قبل الزواج وإلاّ ابتذلها واحتقرها بعد زواجه منها .

ايّاً كان مصدر الفرح ، أكان سافلاً مخجلاً ام رفيعاً مشرّفاً ؛ اكان مودةً نبيلةً خالصة ام شبيهاً بحالة الابن الذي كان ميتـــاً فعاش وضالاً

فوجد ؛ اياً كان مصدره ؛ فالفرح الذي يسبقه عذاب مضنٍ قاسٍ ، هو اعظم فرح .

وما معنى ذلك كله ايها الرب الهي ؟ انت مصدر غبطتك الشخصية وغبطة ما حولك من كائنات . ولماذا نجد انفسنا في هذا الجزء من الكون ، تارة رابحين وطوراً خاسرين ، مرةً متخاصمين واخرى متحابين ؟ أهذا هو حظ الانسان من الحياة التي حددتها له يوم وضعت للصلاح وجوهاً متعددة ؟ ورتبت بعدلٍ كلاً في مكانه وزمانه ابتداءً من الاعالي العلوية حتى اللجج السفلى ، من البدء حتى النهاية ، من الملاك الى احقر حشرة ، من الحركة الاولى حتى الاخيرة؛ ما اسماك في الاعالي واعمقك في الاغوار ! انت لا تبتعد البتة عنا انما صعب هو الوصول اليك !

بادرْ يا رب الى العمل ؛ ايقظنا وادعُنا اليك ؛ اخطفنا واشعلنا وخُذْ بمجامع قلبنا ! لنحب نحن ونسرعْ ! ما اكثر الذين يعودون اليك وينهضون من لجة عماهم وهي اعمق من اللجة التي فيها سقط ڤيكتورينوس ! وحين يدنون منك يستنيرون بضيائك ويقبلونه فتجعلهم اولادك ككل الذين قبلوا ذاك النور . وان لم يكونوا معروفين فلا يفرح بهم اصدقاؤهم . الفرح الذي يشترك به الكثيرون ، اعظم واشد لدى الافراد انفسهم فينفخ الواحد في الآخر روح الحماس وينشّطه . وذوو الشهرة الواسعة يجرون كثيرين معهم الى الخلاص : يسيرون في الطليعة فيتبعهم الشعب وبهذا يفرحون فرحاً عظيماً ، لا بارتداد العظماء وحسب بل باهتداء عامة الشعب ايضاً .

لن افكر بوجود محاباة في هيكلك : كأن يتقدم الغني على الفقير والشريف على ابن الشعب ! ألم تخترْ الضعيف من بين النــاس لتخزي الاقوياء ، والذليل ، الحقير ، ومن لا مكانة له ، لتبطل المعتدّين بأنفسهم؟ لقد بعثت هذه الكلمات على لسان من هو « اصغر الكل » فقضى بسلاحه

على كبرياء بولس، القنصل الروماني، واخضعه تحت نير المسيح الخفيف وصيَّره عضواً بسيطاً في رعية اعظم ملك .

اجل ، وهو نفسه استعاض عن شاوول ، اسمه الاول ، ببولس تخليداً لذاك النصر الباهر ؛ لا يُعتبر النصر نهائياً الا اذا قضى الخصم على النقاط التي تكوّن القوة في يد خصمه وتجعله سيداً مسيطراً على كثيرين. لقد كان يؤثّر بنوعٍ أخص على الكبار ، ذوي الجاه والشرف ؛ وبواسطتهم ساد على عدد كبير من الآخرين . ان كان بنوك يتصورون فيما مضى ، قلب ڤيكتورينوس ، مركزاً لابليس وقلعةً محصنة له ؛ ولسانَه ، شفاراً حادة اهلك بها نفوساً كثيرة فلا عجب ان طاروا اليوم فرحاً وتحمَّسوا لدى رؤيتهم مليكنا يقيِّد الجبار بالسلاسل ويأخذ آنيته غنيمةً ، منقَّاة ، آنية كرامةٍ يستعملها السيد لكل عمل صالح .

الارادتان

ولما سمعتُ هذا الخبر من عبدك سمبليشيانوس شبَّت فيَّ نــار الغيرة للاقتداء به ، فتحققت الغاية التي كان يتوق اليها سمبليشيانوس من صميم فؤاده . واذ عَلِم ڤيكتورينوس ان الامبراطور جوليانوس قد حرَّم عــلى المسيحيين تدريسَ الفصاحة والخطابة امتثل للأمر وآثر كلمتك ، الذي يهبَ السذَّج فصاحته، على تعاليم الناس؛ وبهذا لم اعدَّه نشيطاً بل عددته سعيداً لكونه اغتنمها فرصة كي يكرِّس لك وقته كاملاً. الى هذا تقتُ يوم كنت مقيداً بقيود ارادتي ، لا بسلاسل حديديــة ، متينة : لقد استأسر العدو ارادتي وجعلها سلسلةً وقيَّدني بها لأن الارادة الشريرة مصدر الشهوة الخبيثة ؛ وهذه حين يستسلم اليها الانسان تصبح فيه عادةً . وهذه ، اذا لم يقاومها تصبح ضرورة . لقد كنت عبداً ذليلاً ، اسيراً ، مقيــداً بتلك السلاسل المتشابكة الحلقات . ولما كانت ارادتي الناشئة التي حملتني الى

خدمتك المجانية والتمتع بك يا الله ، يا من فيك وحدك وجدت سعادةً اكيدة ، عاجزةً عن التغلب على ارادتي الاولى ، فقد اصبحتُ بين ارادتين : قديمة وحديثة ، جسدية وروحية تتطاحنان وتتجاذبان .

وادركت بالاختبار الشخصي معنى كلام الرسول : الجسد يناصب الروح والروح الجسد . وهاتـــان الارادتان هما لي ولكنني كنت اميل الى ارادة الشر فيَّ اكثر منه الى ارادة الخير وقطعت كل علاقة بما فيَّ من شر وبرغم ذلك فقد بقيتُ اتأثر به ؛ وبفضل هذا الموقف تغلَّبت العادة عليَّ ووصلتُ بملء حريتي الى ما انا عليه ولم أعدْ حراً بتركه . فما هي الطريقة القانونية للاعتراض على العقاب الذي يتبع حتماً الخطيئة ؟ لقد ضيّعتُ العذرَ الذي قدمتُه حين آثرتُ العالمَ عـــلى خدمتك يومَ لم اكن ارى الحقيقة. امَّا الآن فقد اصبحتُ اراها بيد اني لا ازال مقيداً بالأرض ولهذا رفضت ان انخرط في خدمتك . وكـــان خوفي من التحرر من قيودي كخوفي منها .

اذ ذاك كنت رازحاً تحت وطأة العالم ، راضياً به كمن يحلمُ في نومه . وان حاولتُ ان افكّر فيك ، صرت كمن يرغب في النهوض من نومه ، حتى اذا ما استيقظ عاد واستغرق فيه . ما من احد يرغب في النوم الدائم ؛ وما من احدٍ لا يقرُّ بافضلية السهر على النوم ولكن حين يستولي النعاس على الاعضاء ، يتأخر الانسان عن طرده حتى اذا ما دقت ساعـــة النهوض يسترسل فيه من جديد بلذة . هكذا كنتُ : مع علمي ان تسليمَ نفسي لرحمتك خيرٌ لي من السير في ركاب شهواتي ، فقد تركتها تحت رحمة الشهوات ، اسيراً لها وعبداً ؛ وسمعتك تناديني قائلاً : قم ايها النائم من بـــين الموتى والمسيح يضيءُ لك . ولم اجد ما اجيب به على قولك الحق الذي انتصر عليَّ ؛ اجل لم اجد سوى جواب رجلٍ استولى عليه الكرى فراح يتثاءب

ويقول : الآن ، اجل ، الآن ! رويدك ، رويدك ! بيد أن هذا الآن لم يحن بعدُ ؛ وطالت جداً هذه الهنيهة من الزمن ؛ وعبثاً بحثت عن غبطة للانسان الباطني في شريعتك طال ما ان سنَّةً اخرى تقيم في اعضائي وتضاد سنَّة ضميري وتأسرني تحت سنَّة الخطيئة التي في اعضائي . وما سنّة الخطيئة هذه سوى صولة العادة الشريرة التي تقبض على النفس وتأسرها . ولئن كرهت النفسُ هذا الأمر فقد قضى عليها ذنبُها ان تقع فيه عن هوى واختيار . أوَّاه ما اشقاني ! ومن ينجّيني من جسد الموت هذا سوى نعمتك بالمسيح يسوع ، ربنا ؟

الفرج القريب

هاءنذا اقر ايها الرب الهي ، سندي وفاديَّ ، بأنك ابعدتَ عني شهوة الزواج التي طال ما قيَّدتْني ؛ وانقذتَني من عبودية الاميال العالمية . لقد كنت اقضي ايامي العادية ، قلقاً ، مضطرباً ؛ وازداد مع الأيام قلقي واضطرابي فرحت اتوق اليك ليلاً نهاراً واتردد الى كنيستك ، كلما سمحت لي بذلك اشغالي الثقيلة . وعلى مقربةٍ من الپيوس ، وهو الذي تولّى وظيفة مساعد ، ثلاثاً ، وقد كان حراً آنذاك ، يتحيَّن الفرص ليبيع من جديد اراءه القانونية كما كنت ابيع فن الخطابة ؛ هذا ، اذا كان فن الخطابة يُباع حقاً . امَّا نبريديوس فقد ضحّى في سبيلنا ورضيَ بان يكون مساعداً لڤريكوندوس في التدريس ، الذي هو منا ؛ وقد كان مقيماً في ميلانو يدرس النحو فأظهر لنا رغبة صادقة في ان يأخذ احدنا مساعداً له فلبى طلبه نبريديوس ، دون ان يكون له من هذا المنصب غُنْمٌ كبير ؛ اذ بامكانه ان يتولى منصباً اعلى لما هو عليه من الثقافة. لقد تلطف وقبل بهذا المنصب كيلا يرد لنا مطلباً نحن الذين رغبنا اليه في ذلك؛ فبرهن عن رزانة وتعقلٍ ، مهملاً التعرُّف الى عظماء العالم حيث الهموم والمشاكل التي كان

يود ان يظل بعيداً عنها ؛ فتوفَّر لديه الكافي من الوقت للبحث والتنقيب والمطالعة والمناقشات الفلسفية .

اخبار بونتسيانوس

وذات يومٍ ، كان نبريديوس غائباً عنا دون ان اعرف السبب ، فزارني في المنزل ، حيث كنت واليبيوس ، مواطنٌ يُدعى بونتسيانوس ، يشغل في الحكومة منصباً رفيعاً . جلسنا نتجاذب اطراف الحديث فوقع نظره على كتاب موضوع فوق طاولة اللعب امامنا ؛ وللحال تناوله وفتحه فوجد فيه رسائل بولس الرسول . وايم الحق ، انها لصدفةٌ لم يحلم بها البتة ؛ ظنَّه كتاباً من الكتب التي اجهدتُ ذاتي في شرحها . نظر اليَّ وابتسم ثم هنأني متعجباً كيف انه لم يجد لديَّ ، عفواً ، سوى ذلك الكتاب. انه لمسيحي مؤمن يمارس واجباته ويقضي احياناً طويلة ، امامك ، ايها الرب الهي ، راكعاً يصلي . امَّا انا فقد جاوبته ان تلك النصوص قد استأثرت باهتمامي كله ؛ وراح يسرد لنا النوادر عن الراهب المصري ، انطونيوس ، الذي اشتهر بين خدامك . واذ علم اننا لا نعرف شيئاً عن ذلك الراهب راح يتحدث عنه باسهاب ويكشف الكثير تدريجاً عن حياته واعماله فعجبنا لجهلنا انساناً يشهد ، على مقربة منا ، لعجائبك التي اجريتها بقوة نعمتك في اطار الايمان الصحيح ، ضمن كنيستك الكاثوليكية ، وكأنها قد جرت في عصرنا. وبقينا على تلك الحال : نحن عجبنا لتلك الخوارق وهو عجب لجهلنا التام. ثم راح يحدثنا عن الاديرة الكثيرة حيث تزهو الفضائل وتزدهر ؛ وحدثنا عن الصحراء الآهلة بذوي التقوى والقداسة . لقد كنا نجهل تلك الامور كلها وما يتعلق بالدير القائم خارج اسوار ميلانو الذي كان يرئسه امبروسيوس ؛ وكنا عن حياة رهبانه الافاضل نجهل كل شيءٍ ايضاً . وتابع بونتسيانوس

حديثه واسهب ونحن صامتون . اخبرنا عن نزهة قام بها ولم اعرف بالضبط وقتها ، في مدينة تريف ، واصطحب رفاقاً ثلاثـــة الى الحدائق الملاصقة لسور المدينة، بينا الامبراطور منهمك بالتفرج على الملاهي. وراح الاربعة يتنزهون اثنين اثنين : واحد مع بونتسيانوس والآخر انفرد برفيقه فأدى بهما المطاف الى صومعـــة يسكنها نفرٌ من خدامك « المساكين » « الذين لهم ملكوت السماوات » . ولـمّا دخلا الصومعة وجدا مخطوطاً عن حياة القديس انطونيوس فتناوله احدهما وجلس يطالعه. وسرعان ما استولى عليه العجب، ودب فيه الحماس ، فعزم ، من ساعته ، على اعتناق تلك الحيـــاة كافراً بالعالم من اجلك . لقد كان اولئك الموظفون يـُدعَون « وكلاء الامبراطور » وللحال امتلأ صاحبنا خجلاً مقدساً ومحبةً لله ، فنقم على نفسه والتفت الى صديقه وتفرّس فيه قائلاً : « قل لي ، بحقك ، ما هو الهدف الذي نسعى اليه من خلال هذه الجهود المتواصلة التي نقوم بها ؟ » ما هو مطلبنا؟ وماذا نرجو من خدمةٍ نقوم بها ؟ أنطمع بأكثر من صداقة الامبراطور ؟ ما اقلّ راحتنا واشد الاخطار المحيقة بنا ! اجل ، اهوالٌ فظيعة نقاسيها ، ولا تعد شيئاً ، ان قيست بما ينتظرنا من اخطار ! وهَبْ اننا تحمّلناها كلها فمتى نبلغ غايتنا ؟ بيدَ انني اذا صادقت الله نلت فوراً مبتغاي ! قال هذا تحت تأثير مخاض الحياة الجديدة . وعاد الى كتابه يطالعه مضطرباً ، دون ان يعلم احدٌ سبب قلقه الآك يا الله . وراح يحلق بفكره فوق هذا العالم ؛ ظهر قلقه واضطرابه في اثناء قراءته ثم قرّر الاستمساك بك، مختاراً النصيب الافضل. وبعد ان اصبح من خاصتك افضى الى صديقه بالتصريح التالي : أقطعُ منذ الآن كل صلةٍ بامانينا المشتركة واقرر منذ الساعة التعبّد لله ، في هذا المكان عينه . فاذا ابيتَ ان تقتدي بي فلا تعارضني . اذ ذاك اجابه صديقه : ها اني معك لمشاركتك في هذه العبادة وفي المكافأة الصالحة .

وللوقت تفرّغا لعبادتك ، وراحا يبنيان برجاً لخلاصهما ، تاركـين ، من اجلك ، كل شيء .

آنذاك راح بونتسيانوس ورفيقه اللذان كانا يتنزهان في مكان آخر من الحديقة يبحثان عنهما . ولما وجداهما قالا لهما ان قد حان وقت الرجوع ، لأن النهار قد مال الى الغروب ؛ فاطلعاهما عـلى عزمهما كما قصّا عليهما كيف تكوّن هذا القصد وتأصّل في نفسيهما وطلبا منهما ألاّ يعاكساهما في تحقيق ما نـوَيَـا عليه ان رفضا ان يشاركا هما . ظل الصديقـان في موقفهما وبكيا على نفسيهما ثم هنأا صديقيهما بحرارة وطلبا ان يصليا لأجلهما . ومن ثمّ عادا الى القصر وقلباهما ملتصقان بالتراب بينا مكث المهتديان في خيمتهما وقلباهما عالقان بالسماء . واذ سَمِعتْ خطيبة كلٍ منهما بما جرى لخطيبها نذرت عفتها لك يا الله .

الازمة النهائية

وفيما كان بونتسيانوس يروي لنا هذه الأخبار كنت ايها الرب توجّهني نحو نفسي . وفيما كنت اشيح بنظري الى الوراء لئلاّ اقابـل نفسي وجهاً لوجه كنت انت تضعني امام نفسي لأرى ما انا عليه من الشناعة والقبح والقروح والادناس ! رأيتُ نفسي فخفتُ ، ولكن ، اين المفرُّ ؟ إن اشحتُ بوجهي عني وجدتُ امامي بونتسيانوس يقصُ عليَّ اخباره فتعود بي من جديد الى ما كنتُ عليه سابقـاً وتصوّب عليَّ نظراتي » كي ادرك اثمي فأكرهه . لقد كنتُ اعرف اثمي هذا انما كنت أُطبقُ جفنيَّ واتناساه .

امّا الآن فبقدر ما ازددتُ حباً لذينك الرفيقين اللذين استسلما اليك لتشفيهما ، ناذرين لك نفسيهما ، ازددتَ كذلك بغضاً وكراهيةً لنفسي وقد وجدتُـها حقيرة ؛ منذ عدة سنوات ، اي منذ اثنتي عشرة سنة تقريباً ، يومَ طالعت هورتنسيوس الذي لشيشرون اشتعلت فيَّ نار الحب للحكمة ؛

ولم اقطع صلاتي بملذات الأرض سعياً وراء هـذه السعادة التي يعتبرُ الانسانُ السعيَ وراءها – وان لم يجدها – افضل من كنوز الارض باسرها ، افضل من ممالكها ومن الملذات الجسدية التي كانت تنتظر اشارةً مني لتتجمَّع حولي . منذ شبابي ، وانا مسكين ... سألتك نعمة الطهارة قائلاً « امنحني الطهارة والعفة ؛ ولكن لا تمنحنيها في الحال ، خوفاً من ان تجيب سؤلي في الحال وتشفيني من مرض الشهوة التي آثرت اشباعها على ترويضها ؛ ورحت اطوف على سبل الاثم والادناس دون ان اطمئنَّ اليها لكنني فضلتها على سواها من التعاليم التي ناصبتُها العداء ولم اسعَ اليها بنيَّة سليمة .

اظن ان تأخيري من يوم الى آخر في نبذِ ما للعالم ، سعياً وراءك ، ناتجٌ عن نقصٍ في النور امامي . اما اليوم فقد حان لي ان اراني عرياناً واسمع ضميري يؤنبني قائلاً : اين لسانك ؟ لقد كنت بالأمس تدعي انك لم تكفر بأباطيلك لأنك مرتابٌ في ظهور الحق. ومع ان الحق قد حصحص الآن فلا تزال ترزح تحت عبء تلك الترهات. ها إنَّ من تحرَّرت كواهلهم يطيرون على اجنحتهم دون ان يجهدوا انفسهم باحثين ، منقّبين طوال عشر سنوات واكثر . وكنت في تلك الاثناء اشعرُ بخجل شديـد ، مضنٍ ، يتأكلني سراً . ولدى انتهائه من حديثه واداثه للمهمة التي قدم من اجلها ، تركني ومضى فولجتُ الى نفسي واتهمتُها باشياء واشياء ؛ وباسواطٍ فكرية جلدتها ، حثاً لها على اللحاق بي في السير وراءك . برغمِ ذلك لبثتْ واقفةً متحيرةً لا تبدي عذراً طال ما ان حججها واعذارها قـد دُحضَتْ واستُنفِدَتْ ولم يبقَ لديها سوى صمتٍ اخرس ، مخيف. لقد كانت تخشى فراق العادة التي منها تعبُ الفساد والموت موتاً لها .

وفي اثناء تلك المعركة الضارية التي زرعت القلق في داخـلي ، او

بالأحرى ، في قلبي ، هرعتُ الى اليبوس ، قاق الفكر والمحيّا وصرخت قائلاً : « ماذا نعمل ها هنا ؟ وماذا سمعت ؟ الجهّال يغتصبون السماء اغتصاباً ، ونحن بعلمنا الفارغ ، نتمرّغ في اللحم والدم ! لماذا نخجل من اللحاق بهم لكونهم سبقونا ولا نخجل البتة من عدم اللحاق بهم .

لقد قلت ، على ما اظن ، شيئاً بهذا المعنى ثم تخليت عنه تحت تأثير اضطراب باطني شديد وهو صامت ينظر اليَّ ، متعجباً ؛ لأنه ما تعوَّد قط ان يسمع مثل هذا الكلام مني . ولقد كان صوتي يبرهن ، كملامحي الخارجية ، اكثر من الكلام ، عمّا يجري في داخلي .

حديقة ميلانو

الى جانب بيتنا بستان صغير نتصرف به كبيتنا ؛ لأن صاحب البيت لم يكن فيه ؛ فرحت الى ذلك البستان تحت تأثير العاصفـــة التي عصفت بقلبي دون ان يقوى احدٌ على تهدئتها ؛ وحدك ، يا رب ، تعرف حداً لذاك الاضطراب . امّا انا فقد كنت اجهله ؛ بيدَ اني كنت اسير نحو الشفاء واموت عن الحياة، مدركاً ما كنتُ عليه من اثم، جاهلاً ما سأصير اليه من صلاحٍ قريب .

انفردت في الحديقة فلحق بي اليبوس ، خطوةً خطوة ، ومع انه كان بجانبي بقيتُ اشعر بوحشة...وكيف له ان يتركني وشأني فريسةً لضنكٍ مرير؟

وجلستُ في مكانٍ بعيد ، لا اقصى منه عن البيت ، ارتجفُ بشدةٍ ، غضباً ، لكوني لم اقبل مشيئتك وميثاقك يا الهي ولا لبّيتُ نداء عظامي اللحمية الرافعة الى السماء تسابيحك ؛ وما كنت بحاجة تلبيةً لتلك الدعوة ، لا الى سفينة ولا الى عربة ولا الى تلك المسافة الوجيزة التي تفصلنا عن البيت . وصولي اليك رهن ارادتي ، ارادتي القوية الصلبة ، المتغلبة على الارادة الجريح ، المتقلبة هنا وهناك ، المنهزمة هنا والمنتصرة هناك .

وفي اثناء تردُّدي أتيتُ اعمالاً تشبه ما يتوق اليه بعض الناس أحياناً ولا يستطيعون إمَّا لنقص في اعضائهم الضرورية وإمَّا لان تلك الاعضاء مكبَّلةٌ او لأنها مصابةٌ بمرض عضال يشلُّ حركتها. ورحت انتف شعري والطم جبهتي واضرب ركبتي بكلتًا يدي ؛ عن هوىً قمت بذلك ولقد كنت قادراً مبدئياً ان اقوم به وألاّ انفّذ عملياً لو لم تطاوعني اعضائي. ولم ارد ان اعمل كل ما بوسعي ؛ ولم اعمل ما كنت اتوق اليه ولا قدرت ان اعمل حين اردتُ ان اعمل ؛ انما حسبي ان اريد شيئاً بارادة صحيحة حتى احققَ ما اريد : الارادة والقدرة على التنفيذ امرٌ واحد. الارادة عمل ، ومع ذلك ، فلم اعمل ؛ لقد كان اسهل على جسدي الخضوعُ لادنى اشارة تصدر عن النفس لتحريك هذا العضو او ذاك ؛ من ان تخضع النفسُ لذاتها فتحقق بارادتها وحدها ما تتوق اليه من الأمجاد .

ما هو مصدر هذا الحدث الغريب ؟ وما سببه ؟ أواه ! أنرني برحمتك علني اجد جواباً عليه في ما يحل بالجنس البشري من عقوبـــات وفي انسحاقات بني آدم الحالكة السواد ! اجل ، ما هو مصدر هذا الحدث الغريب ؟ وما سببه ؟ النفس تأمر الجسد ، فيطيعها فوراً ؛ وتأمر ذاتها فلا تُطاع . انها تأمر اليدَ ان تتحرك فينفـّذ امرها بسرعة كلية بحيث يندمج الأمر والخضوع له ؛ مع ان النفس روح واليد من الجسد . النفس تأمر ذاتها بان تريد ولكنها لا تعمل . يا للعجب ! وما هو مصدر هذا الحدث الغريب ؟ تأمر النفس ذاتها بأن تريد؛ ولو لم تُرِد لما أمرت ؛ ولكن امرها لا ينفـّذ .

ذلك انّها لا تريد ارادة كاملة ولا تأمر أمراً كاملاً ، لكنها تأمر بقدر ما تريد؛ وبقدر ما لا تريد ، لا ينفـّذ امرها . الارادة تخلق ارادةً مشابهةً

لها كلياً ، انها تخلق نفسها ولهذا فان امرها ناقص، لا ينفذ . اذ لو كانت كاملة لما أمرت بأن تكون ، لأنها موجودة . ليست الغرابة في تجزئة الارادة فتريد في هذا الجزء ولا تريد في ذاك . انما العبرة كلهـــا في ان النفس مريضة ترفعها الحقيقة دون ان تقوى تماماً على تقويم اعوجاجها تحت عبء العادة . وعليه فاننا نجد مشيئتين ناقصتين تكمّل احداهما الأخرى .

ليخزَ من امام وجهك ، اللهمَّ ، كما خزي المهاذير الخداعون الذين يُغرون النـــاس ، كلُ من يقولون بوجود نفسين مختلفتين جوهراً ، متذرّعين بازدواجية الارادة في مذكراتها : هؤلاء يدّعون ان الواحدة صالحة والأخرى شريرة . الشر، كل الشر فيهم ؛ لأنهم يقبلون هذا الرأي الشرير ؛ ولن يصلحوا إلاّ اذا عادوا الى الصواب واتفقوا ورجـــالَ الحق لتنطبق عليهم كلمة الرسول : « كنتم حيناً ظلمة امّا الآن فانتم نور في الرب » (افسس ٥ : ٨) . وحين ارادوا ان يكونوا نوراً في انفسهم ، لا في الرب، معتقدين ان الله والنفس من طبيعة واحدة، فتكاثف عليهم الظلام وابتعدوا عنك كثيراً ، مستسلمين الى عتوِّهم الممقوت ؛ وتركوك ايها النور الحقيقي «الذي يُنير كل رجلٍ آتٍ الى العالم» اصغوا الى اقوالكم واخجلوا : « ادنوا منه واستنيروا ولا تخزَ وجوهكم » (مزمور ٣٣ – ٦) .

انا ذاتي ، قبل دخولي في خدمـــة الرب الهي ، كنت في تفكيري وتأملي ، اريد ولا اريد: انا ، انا ، نعم انا . ما قبلت قبولاً تاماً ولا رفضت رفضاً باتاً ؛ فثارت في باطني المعارك وانقسمتُ ، مكرهاً على ذاتي ؛ وكان انقسامي هذا شاهداً لآلامي دون ان يدلَّ عـــلى وجود نفس غريبة فيَّ . عنادي هو ثمرة الخطيئة الساكنة فيَّ ؛ اجل ، لقد كان ثمرةً مرةً لخطيئة ارتكبتُها حراً ، مختاراً ، لاني آدمي .

وفضلاً عن ذلك ، لو تعدّدتِ الطباعُ بتعدد الارادات لقلنا بوجود

طباعٍ لا طبيعتين في الانسان ، لو تساءل انسان وتردَّد بين حضور اجتماعهم والذهاب الى المسرح لهتفوا جميعهم قائلين : فيه ارادتان، احداهما صالحة تسوقه اليهم والأخرى شريرة تبعده عنهم . وإلاّ فما هو مصدر هذا التردُّد في الارادات المتناقضة ؟ اظن ان كلتيهما شريرة : بيدَ انهم يظنون ان الارادة التي تحمله اليهم ، صالحةٌ حتماً . لنفرض ان واحداً منا تذاكر في ما يجب ان يعمله إن حدث خلافٌ بين ارادتين واحب ان يختار بينهما : كالذهاب مثلاً الى المسرح او الى الكنيسة ؛ أيتردد جماعتنا في اعطـــاء الجواب النهائي ؟ إمَّا ان يقولوا ان الارادة الصالحة تسوقه الى الكنيسة لممارسة الاسرار والاكتفاء منها — وهذا ما لا يرضون به البتة — وإمَّا ان يقولوا ان طبيعتين شريرتين ونفسين شريرتين تتعاركان في انسانٍ واحد . وفي هذه الحال ينفون وجود الطبيعتين : الصالحة والشريرة ؛ او ان يرتدوا الى الحقيقة وينقطعوا عن كل جدل قائلين ان النفس تساير الارادتين المتناقضتين.

متى ادركوا وجود ارادتين متنازعتين في انسانٍ واحـــد ، فلا يجوز لهم اذ ذاك ان يدَّعوا بأن النزاع قائم بين نفسين مختلفتين احداهما صالحة والثانية شريرة، متباينتان جوهراً واصلاً.ايها الاله الحق انت تستقبح موقفهم وتدحض اقوالهم . لنفرض وجود ارادتين شريرتـــين في انسانٍ يتساءل ان كان يستعمل السم او المدية للقتل ؛ أيسرق هذه الدراهم او تلك ان عجز عن سرقة الكل معاً ؟ ايبتاع لذته بفاحش الثمن ام يحتفظ لنفسه بماله ؟ أيذهب الى المسرح ام الى الألعاب في حين يجـــد تسلية في المكانين ؟ أيسرق بيت قريبه في فرصةٍ سانحة ام يزني وهذا امرٌ سهلٌ لديه ؟ امورٌ يتمناها ويشتهيها وهي تنساقُ اليه في آنٍ واحد ؛ ولا يستطيع ان يقضي منها وطراً في آن واحد فتمزَّق النفس بعراكها الباطني الناشب بين ارادت اربع او اكثر بنسبة ما يتوق اليه الانسان. ومع ذلك فاولئك الاصدقاء يتجاهلون

في احاديثهم هذه الأمور الجوهرية المتباينة .

وما قلناه عن الارادات الشريرة نقوله كذلك عن الصالحة منها ؛ فأطرح عليهم السؤال التالي : أيحسن بالانسان ان يتمتع بقراءة الرسول ويفرح بتلاوة مزمور وشرح الانجيل ؟ جوابهم : انه لحسن كل ذلك ... ولكن ، ماذا ؟ ان وفّرت تلك التمارين للنفس رضىً وغبطةً ، يظل قلبنا فريسةً لنزاع مستمر بين ارادات تشدُّ به كل لجهتها دون ان نعرف اياً منها نفضّل ؛ اليس كذلك ؟ برغم صلاحها يبقى العراك قائماً بينها حتى يوحّد بينها رأي واحد يوجّه الارادة المنقسمة على ذاتها .

تلك حالنا امام الأبدية : تتقدم منا بمغرياتها السامية في حين تشد بنا الخيور الأرضية الى اسفل . النفس عينها تريد هذا الخير وذاك ارادةً ناقصة ، نصف ارادة فينشأ عن هذا العجز غمٌ وضنك يمزّقانها : الحقيقة تدعو النفس الى هذا الخير والعادة تقيّدها بذاك .

المناقشات الاخيرة

تعذّبتُ في مرضي ونقمتُ بشدة على نفسي ؛ تقلّبتُ وتململتُ في قيودي وكدت احطمها لكنني بقيت موثقاً باحد قيودها الضعيفة . وانت ، يا رب ، سلطتَ عليّ ، برحمةٍ منك ، الخوف والحياء فعذّبتني وحذرتني من سقطة جديدة قد تؤخر قطعَ ذاك القيد الواهي الضعيف وتزيده شداً وتوثيقاً عليّ .

وقلتُ في سري : الآن ، الآن ، لنتخلص منه ! واندفعت في اثر كلمتي هذه وعزمتُ ان اعمل ولكن دون جدوى . لم اسقط من جديد في لجة حياتي السابقة بل رحتُ الهث على حافتها . حاولتُ مجدداً ان اسلك السبيل القويم وكدت اصل الى مبتغاي واحصل عليه . كلاّ ، ما وصلتُ اليه ولا حصلتُ عليه ولا تناولته بيدي اذ اني بقيت متأرجحاً بين الموت

عن الموت ، والحياة للحياة . لقد كان للشر المتأصل فيَّ ، تأثيرٌ علي ، يفوق تأثير الخير الحديث العهد. وكلما اقترب زمانُ انقلابي ، كلّما اعتراني خوفٌ شديد . لا احدَ ردعني عن طريقي ولا انا تخليتُ عنه ؛ انما بقيتُ متردداً.

استوقفتني الأباطيل والشقاوات التعسة ، خليلاتي القديمات. لقد كانت تشدني سرًّا بطرف ثوبي اللحمي وتهمس في اذني قائلة : هل تطردنا حقاً؟ انتركك حقاً مذ الآن والى الأبد ؟ اصحيح انه لن يجوز لك منذ الآن والى الابد ان تعمل كذا وكذا ؟ امحُ يا ربي الرحيم ما تضمَّنته عبارات « كذا وكذا » من معانٍ وافكار .

يا لها من ادناس ويا لها من فضائح ! كنت اسمع نداءها الضعيف ؛ لم تقابلني وجهاً لوجه بل ، من الوراء ، نادتني بصوت خفيف ولمّا تهيأتُ سَعَتْ جهدها سراً كي تميل رأسي اليها فأخرتْ سعيي الى الأمام ؛ لاني تردَّدت في طردها والتحرر منها تلبية لندائك . وكانت عادتي القديمة تقول لي : اتظن انك قادرٌ ان تعيش طويلاً بمعزلٍ عنها .

ثم انخفض صوتها كثيراً فتجلّت امامي اليوم قيمةُ العفاف ومثلتْ امام وجهي وفي كل مكان خفتُ منه سابقاً ونادتني بجميع ما ملكتْ يداها من وسائل ، كلها نبلٌ وشرف ، كي اتقدم منها بلا خوف ، وبَسَطتْ يديها الورعتين الملآنتين بشتى المُثُل الصالحة ومدتهما لمعانقتي . هنـــاك كثير من الاولاد والصبايا والشبان والارامل المصونات والعذارى الطاعنات في السن ينمو فيهم العفاف ويُخصب ؛ فينجب منك ايها الرب الاله ، للسعادة ، ابناءً كثيرين ، يا من اختارك عروساً وحيداً له .

وكأني به يقولُ لي ، ساخراً ومشجعاً : « هل يمكنك انت ان تعمل ما توصَّل اليه اولئك ؟ لم يصلوا الى ما هم عليـــه بقدرتهم الشخصية بل بقوة يسوع المسيح. الرب الههم ارسلني اليهم . وانت فما بالك تتردد بين نعم ولا؟

ألقِ بنفسك بين يديه ولا تجزع فانه لا يتخلى عنك ولا يدعك تسقط . تشجع وضعْ ذاتك بين يديه فانه يعضدك ويشفيك . اذ ذاك استولى علي خجل شديد لأني من جهةٍ كنت اسمع ترهات العالم توسوس في ضميري فاقف متحيراً ، ومن جهة اخرى يعود العفاف فيقول لي من جديد : لا تُصغ الى شهواتك اللحمية ، في هذا العالم ، فتميتها . هي تقدم لك لذةً لا نسبةَ بينها وبين ما لناموس الرب الهك من ملذات. عراكٌ نشب في قلبي بيني وبين نفسي فيما كان اليبوس واقفاً الى جانبي ينتظر ، بصمتٍ، حلاً لهذه الأزمة .

واذ كنت بكليتي غائصاً في بحر من التفكير والتأمل ، تجلّت امام ناظرَيْ قلبي مصائبي وبلاياي باسرها ، محمّلةً عاصفةً مثقلةً بدموع عيني . ولكي اترك للعاصفة مجالاً لتفجير ميازيبها ، انفردت عن اليبوس ، والبكاء يستلزم خلوةً ، ورحتُ بعيداً عنه كيلا يضايقني حضوره .

عَلِم بحالي بعد ان سمعني ابكي بكاءً اجشَّ فقمتُ ، وظلّ في حيرته واندهاله ، حيث اجتمعنا سابقاً واستلقيت تحت شجرة تين ، تاركاً لدموعي العنان ففاضت غزيرة من عيني وقدَّمتها لك ذبيحة مقبولة يا رب ! وقلت لك ما معناه : حتى مَ يا رب حتى مَ تظل غاضبـــاً ؟ لا تذكر آثامنا السالفة . قلت هذا لأن آثامي ما زالت تقيّدني ، واجهشت بالبكاء وصرخت: حتى مَ يا رب ؟ اغداً ام بعد غدٍ ؟ ولماذا ، لا يكون في الحال؟ ولماذا لا اضع الآن حداً ؟

خذ ! واقرأ !

نطقتُ بهذا الكلام وبكيت بكاءً مراً ، بقلب منسحق ، فطرق اذني بغتةً صوتٌ خارجٌ من بيت جيران خيّل اليَّ انه صوت صبي او صبية يغني مردداً : « خذ واقرأ ! خـــذ واقرأ ! فامتقع لوني واصغيت بكليتي

علّني اتبيّن من خلاله لازمةً لأنشودة صبيانية معروفة فلم اذكر شيئاً ؛ ومن ثمّ حبست دموعي ونهضت لأني رأيت في ذلك الصوت نداءً سماوياً يدعوني الى ان افتح كتاب الرسول واقرأ اول فصلٍ يقع عليه نظري عفواً؛ ولقد سمعتُ في الماضي ان انطونيوس اتعظ بعبارة من الانجيل سمعها ذات يوم فطبّقها على نفسه : « اذهب وبع كل مالك واعطه المساكين فيكون لك كنز في السماء وهلمّ فاتبعني » . (متى ١٩ : ٢١) . واهتدى اليك يا رب لدى سماعه ذاك الكلام .

حل العقدة

وعدت مسرعاً الى اليبوس ، حيث تركتُ كتاب الرسول فاخذته وفتحته وقرت سراً في اول فصلٍ منــه وقع نظري عليه : « لا تعيشوا بالقصوف والسكر والمضاجع التي يُستحى منها والعهر ولا بالخصام والحسد بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تهتموا بأجسادكم لقضاء شهواتها» (رومية١٣ : ١٣). اكتفيتُ بهذا المقدار لأنه لم يعد لي حاجة الى المزيد منه ؛ وما ان انتهيتُ من قراءة هذه الأسطر حتى اشرق في قلبي شعاع طمأنينة بدّد ما كان مستولياً عليّ من دياجير الأوهام .

عند ذلك طويتُ الكتاب على اصبعي ــ لا ادري ان كنت قد وضعتها هي ام وضعتُ علامة اخرى ــ ورحتُ اقص على اليبوس ما جرى لي ؛ والهدوء مخيّمٌ على وجهي ؛ فأخذ هو بدوره يُسِرُّ اليَّ بمــا كان يخامره وطلب ان يرى النص الذي قرأته فسلمته اياه ؛ وطالعه ثم زاد دون ان اعرف التتمة القائلة : « ومن كان ضعيفاً بالايمان ، مدّوا اليه يداً »(رومية١٤ : ١) واعتبر الكلام موجهاً اليــه وهنأني على ما عزمت ان اقوم به وهو اهلٌ لذلك ، لأن سيرته افضل بكثير من سيرتي .

وفي الحال جئنا الى امي واخبرناها بما جرى فاغتبطت كثيراً وراحت تباركك يا من تقدر ان تصنع اكثر ممَّا نطلب ونتصوَّر . لقد منحتها بي اضعاف ما سألتك بدموعها وزفراتها المؤثرة . لقد رفعتني بكليتي اليك فلم اعد ابحث عن زوجة وكفرت بأباطيل العالم بعد ان وجدتني واقفاً مذ الآن على تلك « القاعدة الايمانيـــة » حيث اظهرتني لأمي ، لسنوات خلت ، واقفاً ؛ فانقلب حدادها فرحاً على قلبها اعزَّ واصفى من فرحها بحفدة لها ، من لحمي ودمي ...

الكتابُ
التاسع

صلاة الشّكر

صلاة الشكر

« ايها الرب ، عبدُك انا ، وابن امتك ؛ لقد حطمتَ قيودي فإليك اذبح ذبائح الحمد » (مزمور ١١٥ : ١٦) فليشكرك قلبي ولساني ولتقلْ كل عظامي : « من مثلك يا رب » ؟ لتقل ، هي ؛ اما انت فاجبني وقل لنفسي : « خلاصكِ ، انا هو » .

من انا ؟ وايَّ شرٍّ لم آتِهِ فعلاً او قولاً او ارادة ؟ امّا انت ايها الرب الصالح والرحيم فقد سبرت بنظرك لجة موتي ؛ ومن عمق قلبي استأصلْتَ الفسادَ فكفرتُ بكل ما كنت اريد واعتنقتُ كل ما تريد .

ولكن ، اين كانت حريتي طوال تلك السنوات ومن اية وهدة عميقة وخفية انتشلتها بلحظة كي اضع عنقي تحت نيرك العذب واقدم منكبيَّ لحملك الخفيف ايها المسيح ، يسوع ، سندي وفاديَّ؟ وسرعان ما استعذبت حرماني ملذات الأرض وقد كنت فيما مضى اخشى فقدانها ؛ اما الآن فاني افرح بضياعها .

وذلك لأنك تبعدها عني ايها العذوبة الحقة السامية وتحتل

مكانها يا احلى من كل لذة ؛ طبعاً ، لا على اللحم والدم ؛ ويا ابهى من كل نور وادنى الى القلب من كل سر واعظم من كل مجـــد ؛ لا ، لمن يبحثون عن العظمة في انفسهم ، واخيراً تحررتُ من جشع المال ومشاكله ومن الحمأة التي يتخبط فيها الانسان ومن الشهوات التي دغدغتني ، واستسلمتُ بكليتي اليك ، ايها الرب ، الهي ونوري وغناي وخلاصي .

تخليه عن تدريس الخطابة

وطاب لي ، تحت ناظريك ، ان اقطع كل علاقة بالماضي دون تشويش فاسحب لساني من سوق الكلام واتخلّى حراً عن الطلاّب الذين وضعوا كل همهم في الترّهات الكاذبة وفي معارك الساحة العامة واتخذوا كلامي سلاحاً لهم في غضبهم ، متغافلين عن شريعتك وسلامك .

ولحسن حظي بيني وبين قطاف العنب ايام قلائل فصبرت حتى ذلك اليوم ، مصمـّماً على الاّ اعود ابيع نفسي لأنك افتديتني .

هذا ما عقدنا النية عليه امامك ؛ وبقي عزمُنا خفياً ، إلاّ عن المقربين الينا من الناس ؛ واتفقنا معاً على كتمانه ، برغم انك قدمت « سهاماً حادةً وناراً آكلة » ونحن صاعدون من وادي الدموع نرتل اناشيد المراقي ضد كل لسانٍ لئيم يخالف ، متظاهراً بالنصح ؛ ويلتهم ، متظـــاهراً بالحب الشديد ، كمن يلتهم غذاءه .

بسهام حبـّك خرقت فؤادنا وحملنا كلماتك محفورة في احشائنا واما خدامك الذين نقلتهم من الظلمة الى النور واحييتهم بعد ان كانوا أمواتاً فقد كانوا في تفكيرنا بمَثَلهِم كومة حطب تحترق وتلتهم ضعفنا وتراخينا ولم نعد نشعر بوطأته تشدنا الى الدنيا بل نحسُّ بشدة حرارته التي لم يستطع اللسان الشرير ان يخمدها بل بالأحرى كان يزيدها اضطراماً .

وقد كان باستطاعة اسمك الذي قدسته في العالم بأسره ان يثني عـــلى

مقصدنا ومجرى حياتنا ؛ كنت وقعت في شرك الابهة العالمية لو لم انتظر العطلة القريبة اذ ان مهنتي عامة ومرموقة ؛ وكل تخلٍّ عنها قبل موعد العطلة القريبة يصوّب علي الانظار ويجعل الناس ينظرون اليّ نظرهم الى انسان عظيم . وما الفائدة من تعريض عواطفي للمناقشات والمهاترات وحمل الناس على التجديف « على ما نحن فيه من الصلاح » .

ضعف صحته اوجد له عذراً مقبولاً

وفضلاً عن ذلك ففي هـــذا الصيف عينه أُصبتُ بمرض رئوي نتيجة التدريس المضني فضاق صدري عن التنفس وكنت اتألم كثيراً لجرحٍ في الرئة خنق صوتي فاضطربت جداً في بدء الأمر اذ وجدتني مضطراً الى ان اتخلّى نهائيـــاً عن التدريس الى زمن هذا ان اردت الشفاء والعافية لنفسي . ولكن ما ان وطّدت عزمي على ان « أكفَّ وأعلَمَ انك الرب » ـ أنت مُدرِكٌ لذلك يا الهي ـ حتى اغتبطتُ لحصولي على عذرٍ صحيح اسكّن به غلواء الناس الراغبين فيَّ ، ضناً بمصلحة اولادهم .

وفي غمرة من السرور تحملت ما بقي من الوقت ـ لا ادري ان كان ينيف على العشرين يوماً ـ انما كنت متضايقاً رغم قبولي بهـــذا المصير ، وذلك لاني لم اعد اشعر بحب الكسب الذي كان غالباً يساعدني على تحمل اعباء الوظيفة ولو لم يأخذ الصبرُ موضع حب الكسب مني لظللت تحت وطأتها .

آه ! كم خطئت ببقائي ساعة اخرى في منبر الكذب في حين كان قلبي يرغب بكليته في ان يخدمك؛ قد يحاول احد خدامك هؤلاء ، احد اخوتي ان يبرهن لك عن رغبتي تلك ؛ انما انا فلا اناقش هذا الموضوع . وانت ايها السيد الكثير الرحمة ألم تترك لي خطيئتي وتمحها بالماء المقدس مع سواها من الوصمات الشنيعة والمميتة ؟

واصبحت سعادتنا موضوع قلق واضطراب لڤريكوندوس الذي تربطنا به صلات وثيقة حين رأى بأنه سينبذ من بيننا قريباً ؛ ومع ان زوجته مسيحية ، وهو لا يزال وثنياً، فقد كانت هي العائق الأكبر له عن اقتفاء أثرنا . والحق انه كان يأبى ان يصير نصرانياً إلاّ من حيث كان محظوراً عليه .

ومع ذلك فقد تلطّف وقدّم لنا بيته ، لنسكن فيه ما شئنا . آه ! ايها الرب ، ستجازيه حتماً عن صنعه ذاك يومَ يقومُ الأبرارُ ؛ لأنك منذ الآن منحته نصيبهم . وقد جرى ذلك في غيابنا : كنا في روما يومَ أُصيب بمرض عضال وفي اثنائه آمن واعتمد ثم غادر هذه الحياة ؛ فرحمته ورحمتنا ايضاً وإلاّ لكنا تألمنا كثيراً لفقده قبل ان يدخل مصافّ خرافك الامناء .

الشكر لك يا الهنا ، فنحن لك ؛ ودليلنا على ذلك تعزياتك وارشاداتك. ايها الواعد الأمين ، سوف تمنح فركوندوس عوضاً عن ملكه في كسيسياكوم ، حيث سكنا اليك بعيداً عن مشاكل العالم واضطراباته المسعورة ، حلاوة الربيع الدائم في جنتك يا من غفرت له في هذا العالم آثامه كلها وأحللته « بالجبل الخصب ، جبلك ، جبل الخيرات ! » (مزمور ٦٧ : ١٦) .

كان ڤركوندوس فريسة الحزن والغم وكان نبريديوس يقاسمنا غبطتنا ولم يكن نصرانياً . وقد سقط في ذلك الضلال الخطِر الذي يُريه جسد ابنك « الحقيقة » عينها ، خيالاً لا يمت الى الحقيقة بصلة . لقد بدأ يتحرّر من ضلاله ، شيئاً فشيئاً ، على الوجه التالي : غريبٌ عن اسرار كنيستك راح يبحث بنشاط عن الحقيقة ؛ وما ان ندمنا على خطايانا وتجدّدنا بالعماد المقدس حتى اصبح كاثوليكياً ممارساً لواجباته يخدمك في افريقيا بين آله وذويه بالعفة والطهارة ؛ وحمل اسرته كلها على اعتناق الدين المسيحي

فحررته اذ ذاك من هذا اللحم . والآن هوذا يعيش « في حضن ابراهيم » — اياً كان معنى هذا التعبير — عزيزي نبريديوس هناك يعيش ؛ أجل ، صديقي الذي تحرَّر فاصبح ابناً لك ؛ هناك يعيش ! واي محلٍ سواه يليق بسكناه ؟ انه يحيا في الموضع الذي باحثني طويلاً بشأنــه وانا ، الكائن الحقير ، الذي لا نور له . ولن يُدنيَ اذنه من فيَّ بل يقرب فمه الروحي من ينبوعك وينهل منه حاجته الى الحكمة وطال ما استطاع الى ذلك سبيلاً في سعادة لا حدَّ لها . لكنني اظن انه لن ينساني في سكره ، طال ما يراك انت ايها السيد يا من لا تنسانا .

تلك حالنا : نعزّي ڤركوندوس على حزنه بسبب اهتدائنا ، دون ان تشوَّه صداقتنا من جراء ذلك ، ونشجعه على الاخلاص لواجبات حالته ، اعني بذلك ، واجبات الحياة الزوجية . اما نبريديوس فقــد كنا نترقب اليوم الذي يسير فيه على خطانا ؛ ولم يكن الأمرُ صعباً عليه لقربه منا ولرغبته الملحاح في ذلك . ولكن ها ان الايام التي كانت ، بسبب ميلي الشديد الى الحرية والراحة تبدو طويلة وكثيرة ، تنقضي وتنقضي فاهتف بكل قواي : « بك نطق قلبي ، ايَّاك التمس وجهي وجهك يــا رب التمس » (مزمور ٢٦ : ٨) .

وجاء اليوم الذي فيه اتحرر حقاً من مهنة الخطابة ، وقد تحررت منها بالفكر ؛ وانتهى الأمر وحررتُ لساني كما حررت قلبي ورحتُ طافحــاً بشْراً اسبحُك وانتقلت مع عائلتي الى ذلك المسكن الريفي .

وهناك رحت استخدمُ مواهبي الأدبية في خدمتك ؛ انما بقي فيها شيء من كبرياء المدرسة ، وكنت كمن استراح بعد ان ركض طويلاً وجلس يأخذ نفَساً ودليلي على صدق قولي مناقشاتي مع اصدقائي ومع نفسي وحيداً امامك . اما ما جرى بيني وبين نبريديوس الغائب فالتحارير تشهد به .

ومن اين لي الوقت الكافي لتعداد ما اسبغته عليّ من النعم في تلك الفترة لأنني اود ان انتقل بسرعـــة الى الأهمّ ؟ انني استعيد في ذاكرتي تلك الأيـّام ؛ ويحلو لي ايها الرب ان اعترف بالاساليب الخفية التي اتخذتها كبحاً لجماحي فروّضتني وخفضت الجبال والتلالَ من تفكيري وقوّمت اعوجاجي وليّنت خشونتي واخضعت اليبوس ، اخ قلبي ، لاسم ابنك الوحيد ، سيدنا وفادينا يسوع المسيح ؛ وهو الذي كان ، يأنف من ان يرى اسم يسوع في مؤلفاتنا ، حيث كان يؤثر شذا ارز المدرسة الذي حطّمه السيد الرب على اعشاب كنيستك الخلاصية التي تقي من سمّ الافاعي.

تأثره بالمزامير

وبينا اقرأ مزامير داود ، تلك الاناشيد الايمانية والترانيم التقوية التي من شأنها ان تخفض روح الكبرياء ، كم وكم صعّدت اليك من هتافات ! واذ كنت لا ازال مبتدئاً في حقيقة حبك فقد شاطرني اليبوس ، المرشَّحُ مثلي لقبول سر العماد ، اللهوَ والمرحَ الريفي ومعنا امي ، امرأة في مظاهرها ورجلٌ بايمانها ، عجوز في رصانتها وام في حنانها ومسيحية في تقواها ! كم وكم صعدت نحوك من هتافات اثناء قراءتي المزامير وايّ حب لك متقدٍ لم اقتبس منها ؛ وتمنيت لو اني تلوتها بما امكنني من حماس ، للعـــالم بأسره لكي ادحض مزاعم الجنس البشري . ألا ينشدها الناس في كل الأرض ؟ « ومن يتوارى عن حرِّك؟ » (مز ١٨ : ٧) أوّاه ! ما كان اشد اشمئزازي من المانويين ! ومع ذلك فقد عدت اشفق عليهم لكونهم يجهلون تلك الأسرار ، تلك العلاجات ، وينقمون على ترياقٍ يعيد اليهم العافية . تمنيت لو اراهم هنا بقربي يرقبون على غير علمٍ مني ، اشارات وجهي ويسمعون نبرات صوتي اثناء قراءتي الهادئة للمزمور الرابع فيدركون تأثير ذلك المزمور عليّ : « في دعائي اجبتني يا اله بري ؛ في الضيق رحبت لي فارحمني يـــا سيدي واسمع

صلاتي ».(مزمور ٤ : ٢) فليسمعوني دون ان اعلم وإلاّ اعتقدوا ان الكلمات التي قاطعت بها كلمات المزمور، لاجلهم تلفظت بها. والحق انني ما كنت قلتها بتلك النبرة لو علمت ان الناس يسمعوني ويروني ؛ وما كانوا هم، في حالي تلك، اعتبروا كلامي، موجَّهاً لنفسي، دون سواها، بحضرتك، صادراً عن صميم قلبي .

اضطربت خوفاً ثم رجوت بحرارةٍ وغبطة رحمتك، ايها الآب . وكل ذلك بدا في عينيّ وعلى وجهي حين وجَّه الينا روحك الصالح كلامه قائلاً : « حتى مَ تظل قلوبكم مثقلةً يا بني البشر، تحبون الباطل وتبتغون الكذب » (مزمور ٤ :٣) أوَّاه ! نعم لقد احببت الباطل وابتغيت الكذب. اما انت يا رب فقد جعلتَ «صفيَّك معجزةً » اذ اقمته من الموت واجلسته من عن يمينك » (افسس ١ : ٢٠) لكي يرسل من السماء من وعد به « البارقليط ، روح الحق » لقد ارسله ولم اعرف عنه شيئاً : ارسله لأنه تمجَّد وقام من بين الأموات وصعد الى السماء. لم يعطَ الروحُ سابقاً، لأن المسيح لم يكن قد مجِّد . وها ان النبيَّ يصرخ : « حتى متى تظل قلوبكم مثقلة، تبتغون الكذب وتحبون الباطل ؟ اعلموا ان الرب جعل صفيَّه معجزةً » وهـــا انه يصرخ بنا : « حتى متى، ثم اعلموا » وانا جهلت كل شيءٍ مدة طويلة : احببتُ الباطل وابتغيتُ الكذب ولهذا اضطربت لدى سماعه متذكراً انني كنت على مثال اولئك الذين عناهم هذا التحذير ؛ وهمٌ هي الاشباح التي ظننتها حقيقة . أواه ! كم صعـَّدت من زفرات حين تذكرت ماضيَّ الاليم ؛ يا ليتَ الذين يحبون الباطل يسمعونها اليوم ويبحثون عن الكذب، علَّهم منه يخافون ؛ فيتقيـَّأون ضلالهم وتستجيبُ صراخهم لأن من يشفع بنا قد مات حقاً عنا بالجسد .

قرأت : « اسخطوا ولا تخطأوا » (مزمور ٤ : ٥) فاثرت فيَّ حقاً هذه

الكلمات ، يا الهي ، انا الذي تعلّمت ان اسخط على ذاتي بسبب ماضيَّ كيلا اخطأ فيما بعد . انه لسخطٌ شرعي ؛ لأن الطبيعة التي استخدمتني للخطيئة لم تكن طبيعة من طباع الظلمات كما يدعي من لا يسخطون البتة على انفسهم بل يدَّخرون لأنفسهم غضباً ليوم الغضب واعتلان دينونة الله العادلة » (رومية ٢ : ٥) . ليست خيوري خارجية عني ولست ابحث عنها تحت هذه الشمس بعينين لحميتين ؛ الذين يزعمون ان باستطاعتهم ان يجدوا غبطتهم ، خارجاً عنهم ، يسيرون بسهولة نحو الفناء ويضيعون في المرئيَّات والزمنيات التي لا تلمس منها افكارهم المتضوِّرة جوعاً سوى الصور . أواه ! ليتهم يتعبون من الفراغ ويقولون : « من يرينا الخير » (مزمور ٤ : ٦) فنجيبهم ، ويسمعوننا نقول لهم : طبعتَ نور وجهك علينا ايها الرب علامةً « انما لسنا النور الذي يضيء كل انسان بل بك ننير نحن الذين كنا من قبلُ ظلمة فاصبحنا بك نوراً . أواه ! ليتهم يرون في داخلهم هـــذا النور الأزلي الذي اخشى من ان اعجز عن اظهاره لهم ! ليتهم يقدمون لي قلبهم — المبعد عنك والكامن بأسره في انظارهم المحوَّلة نحو الاشياء الخارجية — قائلين : « من يرينا الخير ؟ » لأنه هناك سخطت على ذاتي ؛ اجل هناك في هذا الاختلاء السري وقد مزقني النَدَمُ ، ذبحت وضحيت فيَّ الانسان العتيق ؛ هناك ، حيث عمر قلبي الرجاءُ بك اخذت أُعِدُّ نفسي لتجديد تام ، ناجز ؛ هناك ذقت للمرة الأولى حلاوتك وهناك « انشأت فرحاً في قلبي » (مزمور ٤ : ٧) . وبعد هذه القراءة الخارجة عني المتحققـــة في داخلي ، أبيت ان اضيّع نفسي بين الخيور الأرضيـــة ، ألتهم الزمن ويلتهمني طال ما ان لي من البساطة الازلية سواها من « الحنطة » «والخمر» « والزيت » .

وصرختُ بقوة لدى وصولي الى العدد التالي القائل : « آه ! في سلامه !

آه في جوهره عينه ! ولكن ماذا يعني بقوله : « سأنام وسأذوق النوم » ومن يفكّر بمعارضتنا حين نحقق ما قد كتب : « ابتُلِـعَ الموت بالغلبة » (١ كور ١٥ : ٥٤). انك حقاً ذاك الكائن عينه، انت يا من لا تتغيَّر ؛ فيك الراحة التي تنسينا كلَّ تعب ؛ ان لا احد سواها يقيم معك ؛ ولن ابحث من ثمَّ عن سواها من الاشياء التي ليست انت ايها الرب يا من وحدك تسكنُني في طمأنينة » (مزمور ٤ : ٩) .

كنت اقرأ واتحرَّق ولم اجد السبيل الواجب سلوكُه تجاه هؤلاء الموتى الخرس الذين كنت سابقاً من مصافّهم ، انا الآفة والكلب الأعمى الهائج ضد كتبك التي تقطر عسلاً سماوياً، ومنها يسطع نورك ؛ وكنت افني ذاتي بالتفكُّر باعداء كتبك المقدسة .

ومتى استعيد في ذاكرتي كل ما جرى خلال ايام العطلة ؟ ما نسيتُ قطُّ ولن اصمت عن قساوة سوطك وسرعة رحمتك العجيبة !

واصطكَّت اسناني لشدة الألم الذي انزلته بي فقطع عليَّ الكلام وخطر ببالي ان ادعو جميع اصدقائي الحاضرين ليصلّوا اليك من اجلي يا اله كل شفاء وكتبت طلبي على لوحةٍ واعطيتهم اياه ليقرأوه وما كدنا نطوي ركابنا للتضرع اليك بتقوى حتى تلاشى الألم؛ وايّ ألم؟ وكيف تلاشى؟ عجبت من ذلك ايها الرب الهي ؛ اليك اعترف به لأنني طوال حياتي ما شعرت قط بمثل ما شعرت به آنذاك ؛ ثم احسست بتنبيهك في اعماق نفسي ، وفي غبطتي بايماني سبَّحت اسمك ؛ لكن هـذا الايمان عينه لم يطمئني الى خطاياي السالفة ولمَّا تمَّحِ بالعماد .

وفي نهاية عيد القطاف نبهت اهل ميلانو الى ضرورة تدبير تاجر كلام غيري لأولادهم بعد ان عزمت على ان اقف ذاتي على خدمتك ، فضلاً عن ان ضيقاً في التنفس والماً في الصدر يمنعاني من القيام بوظيفتي .

وأطْلَعْتُ ، كتابةً ، اسقفك القديس ، امبروسيوس ، على ضلالي السابق وعزمي الحاضر لكي يرشدني الى ما يجب عليَّ ان افضّله من كتبك كي اعدَّ نفسي بطريقة فضلى لقبول النعمة العظمى . فأشار عليَّ بقراءة النبي اشعيا الذي ، ولا ريب ، تنبأ اكثر من سواه عن انجيلك وعن دعوة الوثنيين . وبما اني لم ادركه للمرة الاولى من مطالعته اعتبرت ذاتي عاجزاً عن فهمه فتركته على ان اعود اليه حين اتعوَّد اكثر فأكثر كلمة الله .

وبعدئذٍ حانَ الوقتُ لتسجيل اسمي فتركنا الرِّيف الى ميلانو واحب اليپيوس ان يولد ولادته الجديدة معي في وقتٍ واحد وقد تزيَّا بفضيلة التواضع الموافقة كلياً لروح اسرارك وقد كان قوياً جداً في ترويض جسده حتى انه كان يسير حافياً في ايطاليا على الأرض المغطاة بالجليد ؛ ذاك لعمري عملٌ لا نظير له .

وانضم الينا اديوداتوس الفتى ، الابن اللحمي لخطيئتي الذي غمرته بنعمك فما ان بلغ الخامسة عشرة من عمره حتى فاق بذكائه الكثيرين من ذوي القدر والعلم .

بعطاياك اعترف لك ، ايها الرب الهي ، الخالق لكل شيء ؛ يا من تقدر وحدك ان تقوِّم اعوجاجنا ؛ لولا خطيئتي لما اخذ عني هذا الولد شيئاً ؟ ان كنا قد غذينا من شريعتك فلأنك ، دون سواك ، اوحيته لنا ؛ اذاً بعطاياك اعترف لك .

لي كتاب عنوانه « المعلم » يتحدث اليَّ فيه. انت تعلم ان الافكار التي اعزوها فيه الى محدثي هي منه في سنه السادسة عشرة ولي منه امور مدهشة ايضاً . كان نبوغه يوحي اليَّ شيئاً من الخوف المقدس ؛ ومن سواك نفحه بهذا الذكاء الحاد ؟

سرعان ما رفعته عن هذه الأرض؛ ان تذكرته زدت اطمئناناً اليه اذ لم

اعد اخشى شيئاً على حداثته وفتوته وضعفه البشري .

ضممناه الى جمعيتنا فكان لنـــا رفيقاً بالنعمة ؛ واحببنا ان نربيه وفق تعاليمك فقبلنا العماد وانتفى بعيداً منا وخز الضمير وقلق الحياة السالفة .

وفي تلك الايام ما شبعت قط من التأمل بمقاصدك الخفية لخلاص الجنس البشري وبعذوبتك الأخـّاذة التي تضفيها عليّ . كثيراً ما بكيت لدى سماعي ترانيمك واناشيدك والأنغام العذبة التي تتجاوب في كنيستك! ما اشد تأثيرها علي! كانت تجري الى اذني وتوصل الحقيقة الى قلبي فارتفع بعاطفة من التقوى وتتساقط الدموع بغزارةٍ على خديَّ . وكل ذلك خيرٌ لي ونعمة .

الترانيم في الكنيسة الغربية

منذ زمن يسير اتخذت كنيسة ميلانو هــذه الطريقة لتعزية المؤمنين وتشجيعهم بحيث ان اصوات الاخوة وقلوبهم ترتفع معاً بانشودة واحدة وبكل حرارة . منذ سنة ، لا اكثر ، كانت جوستين والدة الامبراطور الشاب فالنتنيان، وقد اغواها الآريون، تضطهد امبروسيوس خدمةً لأولئك الهراطقة . وكانت جموع المؤمنين تقضي الليالي في الكنيسة تستعد للموت مع اسقفها ، خادمك ؛ وكانت امي خادمتك تحتل المقــام الأول في تلك السهرات بفضل غيرتها ؛ وتقضي حياتها بالصلاة . امّا نحن وان لم نكن لنشعر بحرارة روحك فقد شاطرنا المدينة قلقها وذعرها .

وخوفاً من ان يتسرَّب القنوط الى نفوس الشعب بسبب الاضطراب والضجر اللذين استوليا عليـــه تقرَّر ان تنشد الترانيم والمزامير كما يفعل الشرقيون ولا تزال هذه العبادة مرعية منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا وانتشرت بين العدد الكبير من المؤمنين بك في العالم باسره .

وفي تلك الاثناء كشفتَ في الرؤيا للاسقف المذكور مدفن الشهيدين

جرفه و بركه اللذين قد حفظت جسديهما سنوات عدة من الفساد ولتخرجهما منه في حينه وتذل كيدَ امرأة ، هي ايضاً امبراطورة . وكشف الناس عن هاتين الجثتين ورفعوهما من تحت التراب ؛ وبينا كانوا ينقلونهما باحتفال مهيب الى كنيسة امبروسيوس شفي المصابــون بالارواح النجسة وشهد الشياطين انفسهم بذلك ؛ والافضل من هذا كله ان وجيهاً في المدينة مصاباً بالعمى منذ سنوات عدة سمع جلبة الشعب فاستقصى الخبر ؛ ولما قيل له ، الحَّ على دليله بان يقوده الى الكنيسة فمسَّ تابوت الشهيدين بمنديله ، هذين الشهيدين اللذين كانت ميتتهما « كريمة في عينيك » (مزمور ١١٥ : ١٥) ومسَح به عينيه وللوقت ابصر . وذاع الخبر في كل مكان وتعالت التسابيح والتهاليل اليك وحدَّت تلك المرأةُ من نقمتها فتوقفت عن الاضطهاد دونَ ان يهتدي قلبُها الى الايمان الصحيح .

الشكر لك يا الهي ! من اين جمعتَ ذكرياتي هذه لأعترف لك بكل تلك الأحداث التي اغفلتُها بالرغم من خطورتهـــا . وبرغم انتشار « شذا طيوبك » الفوّاح ، ما كنا نركض وراءك. وهذا هو السبب الذي ضاعف من دموعي حين كانوا يرتلون اناشيدك.زفرتُ في اثرك ولا ازال اتنهَّد حتى أُدخل ما استطعت من الهواء في هذا « المسكن العشبي » .

وفاة مونيكا

انت «يا من تسكن في البيت الواحد القلوب الموحدة» (مزمور ٦٧ : ٧) ضممتَ الينا شاباً من مدينتنا يشتغل لدى الامبراطور وقد سبقنا الى اعتناق الايمان وقبول العماد وترك الخدمة الزمنية ليعمل تحت رايتك فعشنا معاً وعزمنا على ان نظل معاً .

وكنا نبحث عن افضل طريقة نخدمك فيها فعدنا معاً الى افريقيا ولدى وصولنا الى اوستيا الى مصب التيبر ، توفيت امي .

اغفل الآن التفاصيل لأني مسرع فاقبل اعترافاتي وشكري يا الهي من اجل حسناتك التي لا عدّ لها واذا سكت عن تعدادها بلساني فاني اود ان اردّدَ ما اشعر به من عواطف تجاه خادمتك التي ولدتْني بالجسد ، لهذه الحياة الزمنية ، وبالروح ، للحياة الابدية .

ولستُ اعني مواهبها بل عطاياك لها ؛ لأنها لم تكن هي مبدأ حياتها ولا هي دبَّرت نفسها : انت خلقتها ؛ لم يعرف والداها كيف تكون ابنتهما ؛ عصا مسيحك ، اجل شريعة ابنك الوحيد هي التي علمتها مخافتك في بيت مؤمنٍ ، في عضوٍ سليمٍ من كنيستك .

وكم امتدحت غيرة امها التي ربَّتها التربية الحسنة وخصَّت بالثناء خادمةً عجوزاً حملت والدها صغيراً كما تحمل الفتيات الاطفال على ظهورهن ، فبسبب خدماتها تلك وتقدمها في السن ونبل حياتها وشرفها احلَّها اسيادُها في الأسرة محلاً مرموقاً وعهدوا اليها بتربية بناتهم فبذلت ما بوسعها لتربيتهن وكانت تؤنبهن بشدة وقساوة واخلاص حين يجب التأنيب وتهذبهن بكل فطنة وحكمة .

ولم تسمح لهنَّ بأن يتناولن شيئاً من مأكل او مشرب ، خارجاً عن المائدة حيث تتناولن مع والديهنَّ الوجبات العادية ؛ ولا الماء كانت تسمح به لهنَّ مهما اشتد عطشهن ؛ وتلافت بهذه الطريقة تسرُّب العادات السيئة اليهن وكانت تقول لهنَّ بكل صواب : « تكتفين اليومَ بالماء لأنكن لا تملكن نبيذاً ولكن متى تزوجتنَّ واصبحتنَّ سيدات في منازلكن على المؤن واقبية النبيذ تطمحن الى اكثر من شرب الماء فتستولي عليكن عادة الشرب » . وبينا كانت تقدم تارة النصائح وطوراً الأوامر الصريحة ، كانت تكبت من جماح شهوات هذه السن الطرية وتعلِّم الفتيات — حتى فيما يتعلق

بعطشهن – حسن التصرف والاعتدال فتنتزع من نفوسهن الميل الى ما لا يليق .

بيد انه، وفقاً لما اسرّت به اليّ ، انا ، ابنها ، تسرّب اليها حبُ شرب الخمر ؛ ولما كانت ابنةً عاقلة فقد كان أَهلـُها يرسلونها ، كما هي العادة آنذاك ، لتستقي الخمر من دنانه فتنزل الكوب من فوهة الدن ثم قبل ان تفرغها في الوعاء الآخر كانت تأخذ منها قليلاً بطرف شفتيها مكتفيةً بهذا النزر لأنهـــا كانت تقومُ بهذا العمل ، لا عن هوىً ، بل مدفوعة بنزوة الشباب الجامحة التي تعبّر عنها ، في الخارج ، الالعاب والشيطنات ولا يمكن ان يحدَّ منها لدى الأحداث سوى سلطة الوالدين وحزمهم .

لكن هذا التكرار المتزايد يوماً بعد يوم « لأن من يحتقر اليسير يسقط شيئاً فشيئاً » (ابن سيراخ ١٩ : ١) عوّدها ان تشرب بنهم اكواباً ملأى خمرةً صافية .

اين منها تلك العجوز الحكيمة بأوامرها الحاسمة ؟ لو لم تكن نعمتك ترعانا ، لما استطاع علاجٌ ان يشفينا من مرضنا الخفي ؟ لا ابوها ولا امها ولا مربوها كانوا هنالك ، انما وحدك يا الله ، يا من خلقتنا ودعوتنا اليك ، يا من تعرف ان تخرج حتى من العاديين خيراً لخلاص النفوس .

وماذا فعلت اذاً يا الهي ؟ وكيف عالجتها ؟ كيف عافيتها ؟ احقاً انك من نفس شخصٍ آخر اتخذت اهانة قاسية وحادة كالفولاذ الشافي المستخرج من ذخائرك الخفية لتستأصل منها بضربة واحدة الجزء الفاسد ؟ وتخاصمتْ يوماً والابنة التي كانت ترافقها الى القبو لاستقاء النبيذ فاتهمت بالاكثار من شرب الخمر فاصاب السهمُ الهدف وادركت الفتاة ما لعادتها من شناعة فكرهتها وتحررت منها .

ان كان الاصدقاءُ يفسدونك بكثرة مدائحهم فالأعداء يصلحون عيوبك

بكثرة ما يوجهون اليك من اهانات ؛ وانت لا تجازيهم على ثمرة اعمالهم لك
لكن على نياتهم السيئة . كانت تبغي تلك الخادمة من معلمتها ان تنكد
عيشها لا ان تشفيها فقامت بعملها بمعزل عن الجميع إمَّا لانهما تخاصمتا
وحدهما في مكان وزمان لا يعرفهما احد واما لأنها كانت تخاف سوء المغبَّة
ان شكت المذنبةَ متأخرةً .

امَّا انت ايها الرب سيد السماء والأرض ، يا من تستخدم لمقاصدك
اعماق الانهر ومجرى الاجيال الخاضعة في هيجانها لاتجاه معروف ، فقد
شفيت نفساً من مرضها بفضل هيجان نفسٍ اخرى؛ وكل من فكَّر بهذا
المثل لا يعزو لنفسه صلاح قريبه الذي يرغب في خلاصه .

مونيكا تكتسب ثقة زوجها

على الفضيلة والقناعة تربَّت وقد اخضعتَها انت لوالديها ؛ ولمَّا حان
وقت زواجها زفَّت الى رجلٍ خدمته سيداً وسعت جهدها لتكتسبه اليك؛
وحديثها الوحيد عنك ، هو ممارسة الفضائل ، التي جمَّلتها بهـــا فاكسبتْها
عطف زوجها واحترامه واعجابه . تحملت عيوبه باناة ولم يحدث بينهما شجار
حول هذا الموضوع ؛ وراحت تنتظر حلول رحمتك عليه لتمنحه الايمان
والعفة .

كان يمتاز بطيبة قلب لا نظير لها ؛ انما كان عرضةً لثورات غضبية
شديدة وكانت تتداركه بكلامها واعمالها في اثناء غضبه. اما اذا سكن غضبه
وعاد الى هدوئه فقد كانت تغتنمها فرصة لتشرح له ما قامت به، ان استسلم
بسرعة الى غضبه . نساءٌ كثيرات ، لأزواج اصلح خلقاً منه ، كن يحملن
في اجسادهن اثار الضرب الى حد ان بعضهنَّ كنَّ يتشوهنَّ من جرَّاء ذلك
وفي خلال احاديثهنَّ الوديـــة كن يؤثّمن ازواجهنَّ في الاساليب التي
يستعملونها : اما امي فقد كانت تؤثِّم لسانهنَّ وعن سبيل المزاح تنصحهنَّ

بأن يعتبرن انفسهنَّ جواري مذ الساعة التي يسمعن فيها قراءة عقد زواجهن ؛ وبأن يذكرن دوماً وضعهنَّ ولا يتشامخن على ازواجهن ؛ وبما انهنَّ كن يدركن تماماً شراسة خلق زوجها وصبرها عليه ، تعجَّبن كيف انهنَّ ما سمعن قط ولا أُسِرَّ اليهنَّ ان بتريسيوس قد ضرب زوجته او ان ادنى خلاف نشب بينهما ، اقلَّه يوماً واحداً. وسألنها السبب فشرحتْ لهنَّ اسلوبها الذي اشرت اليه آنفاً؛ وكانت كل زوجة تستعمل طريقتها وتشكرها عليها بعد ان تختبرها بذاتها بعكس اللواتي لم يكترثن لها فقد بقينَ عرضةً للاهانات والتحقير .

مونيكا وحماتها

في البدء تحاملت حماتها عليها بسبب تدخل الجواري ذوات النيّات السيئة ؛ ولكن سرعان ما اكتسبت محبتها وثقتها بفضل لطفها وصبرها واخلاصها الحب لها حتى ان الحماة وشت فوراً الى ابنها الألسن المفسدة التي تحاول ان تعكر صفو السلام العائلي بينها وبين كنَّتها وطلبت منه ان يقاصَّها فعمل بارادة امه واذ كان يعلّق اهمية كبرى على التهذيب العائلي وعلى حسن التفاهم بين افراد الأسرة أمر بجلد المذنبات نزولاً عند رغبة امه التي وعدت بمثل هذه المكافأة كل من تقول سوءًا في كنَّتها اعتقاداً بان ترضيها ؛ فلم تجرؤ واحدة بعد ذلك ان تقول كلمة ؛ عشن بوئام وسلام تامّين ، جديرين ، بأن نذكرهما في سياق كلامنا .

وهبتَ خادمتك الامينة التي خلقتني يا الهي ورحمتي « من احشائها ، خلقاً كريماً» ان وقع خلاف بين شخصين او تباغضا كانت تسعى جهدها لاعادة السلام بينهما ؛ ومهما سمعنا من المسبات والمطاعن التي تتقاذفها المتخاصمات المتنافرات فلم تكن والدتي تبلّغ الغائبات عن تلك الأحاديث إلاّ ما من شأنه ان يلقي الصلح والسلام بينهن ؛ وتلك المسبات، لو وصلت

الى مسامع الغائبة ، لولّدت خصاماً ثانياً وخيم العاقبة .

قد يبدو تصرف والدتي هذا ، لديَّ ، عملاً عاديـــاً ، لو لم اعرف بالاختبار العدد العديد ممَّن – لا ادري سبب اقبالهم على ارتكاب الاثم المنتشر في كل مكان – ينقلون ، الى مسامع اعداءٍ ثائرين ، اقوال اخصامهم ، وفضلاً عن ذلك لا ينقلون الكلام كما هو بل يزيدون عليه ؛ ويجدر بكل انسان يحمل هذا الاسم الاّ يفكِّر البتة باشعال نار الخصومات وتغذيتها ، ان لم يعمل جهده على اطفائها بحسن الكلام .

تلك كانت حال والدتي ؛ وانت ، استاذها ، قـــد علمتها ذلك في مدرسة قلبها الخفية .

وفي ايامها الاخيرة على هذه الارض اكتسبت زوجها اليك ؛ وما إن اصبح مسيحياً حتى زال عنها كابوس الغم والحزن الذي سيطر عليها قبل اهتدائه . لقد كانت « خادمة خدامك » وكل من عرفها سبَّحك كثيراً ، وعظمك ، واحبَّك فيها ؛ اذ كان يشعر بك حاضراً في قلبها حضوراً تثبته ثمار حياتها المعروفة بقداستها ؛ لقد تزوَّجت من رجل واحـــد ؛ ووفَّت والديها جميلهما عليها ؛ ودبَّرت بيتها بخوف الله ؛ واعمالها الحسنة ، تشهد لها .

ربَّت اولادها ثم ولدتهم ولادة ثانية حين ابتعدوا عنك . لقد تعهدتنا جميعاً بعنايتها الوالدية وخدمتنا كأن كل واحد منا ابٌ لها ، ونحن خدامك ايها الرب ؛ (محبتك هي التي سمحت لنا بان نحمل هذا اللقب) وبعد ان قبلنا نعمة عمادك رحنا نحيا من حياتها وذلك قبل ان تنام نومها الاخير .

ولمَّا دنا اليوم الذي غادرت فيه امي هذه الحياة – هذا اليوم ، انت كنت تعرفه اما نحن فنجهله – وُجدنا كلانا هي وانا وحدنا ، وذلك بتدبير منك خفي ، متكئين على نافذة يمتد منها النظر الى بستان البيت الذي كنا نسكنه . في اوستيا على التيبر بعيداً عن ضوضاء الناس نرتاح من عناء السفر

الطويل ونستعيد قوانا لمتابعته ؛ ودار الحديث بيننا بلطف فائق « فتناسَيْنا ما وراءنا وانصببنا على ما قدامنا باحثين معاً عن نور حقيقتك ، انت ، عن تلك الحياة الخالدة التي وعدتَ بها القديسين « والتي لم ترها عين ولا سمعت بها اذن ولا يمكن لقلب بشر ان يدركها » (١ كور ٢ : ٩) ونفتح بشغفٍ شفاه نفسنا على مجاري ينبوعك السماوية - ينبوع الحياة - فننهل منها بمقدار ، وتكوِّن لنفسنا فكرةً عن هذا الموضوع.

وقادنا حديثنا الى القول انه لا وجه للشبه بين ملذات حواسنا اللحمية مهما عظمت وقويَ النور الجسدي الذي تنبعث منه وافراح الحياة الاخرى وسعادتها ؛ حتى ولا يمكن ان تُذكَر مع تلك . اذ ذاك ارتقينا بحرارة نحو « الكائن » وتخطَّينا درجة درجة كل ما هو جسدي : السماء وفيها الشمس والقمر والنجوم التي تنشر على الارض اضواءها ؛ وارتفعنا ايضاً متأملين ، ممجدين ، معجبين باعمالك فينا وتوصلنا الى انفسنا ومنها الى تلك البقعة التي لا ينضب خيرها وحيث تشبع الى الأبد اسرائيل من غذاء الحقيقة ، حيث الحياة هي الحكمة ، مبدأ كل موجود في حاضره وماضيه ومستقبله ؛ وهي لم تصنع ذاتها لأنها اليومَ في الامس والمستقبل . او بالأحرى ، ليس لها ماضٍ ولا مستقبل بل وجود دائم لأنها ازلية . ومن كان او سيكون ليس ازلياً . وبينا نحن نتحدث عن هذه الحكمة ونتوق اليها ، بلغناها في هنيهة من الزمن في وثبة من قلبينا ثم تنهَّدنا تاركين هنا « هذه البواكير الروحية » وعدنا الى ضجيج فمنا ، الى حيث تبدأ الكلمة وتنتهي . وما اعظم الفرق بين كلمتنا وكلمتك ، يا ربنا ، يا من يثبت دوماً في ذاته الى الأبد دون ان يشيخ ابداً بل يجدِّد بذاته كل شيء .

كنا نقول اذاً : لو سكن صَخَبُ اللحم في انسان وسكَنَتْ صورُ الأرض والماء والهواء والسماء وصمتت نفسه فتجاوزها ، ولم يعد يفكر بها

وصمتت الاحلام والرؤى وكل لسان وكل علامة وكل ما يولد ليختني؛ اجل، لو سكن كل شيء وصمت كل شيء مماً يقول للسامعين : « نحن لم نبدع انفسنا بانفسنا انما ابدعنا ذلك الثابت الأزلي ». ثم تصمت بعد هذا القول وبعد ان تفتح اسماعها لخالقها فتكلم هو وحده ، دوّنها فسمعنا كلمته لا كلمةً من لسان كائن لحمي ولا من ملاك ولا في صواعق الغيوم ولا في لغز المثل انما لو سمعناه هو ذاته الذي نحبه في كل شيء ونسمعه دون اللجوء اليها اذ ذاك نجرّب قوانا فنرتفع الى الحكمة الأزلية الخالدة فوق كل شيء. ولو طال هذا الاتحاد وتلاشى كل ما دونها من رؤى فضبطت هذه الرؤيا وحدها عليه كل مشاعره وامتصته ولاشته في سعادة باطنية واشبهت الحياةُ الخالدةُ هذه البصيرة النفسية الخاطفة التي صبونا اليها ؛ اذ ذاك ألا تتحقق هذه الكلمة: « ادخل فرح سيدك » ومتى يكون ذلك ؟ ألا يحدث ذلك « حين نقوم كلنا ولكن لا نتغير كلنا » (١ كور ١٥ : ٥١) .

هكذا كنت اتكلم وان اختلفت الصيغة والألفاظ فقد علمتَ ايها الرب انه يوم كنا نتحدث بهذا الشكل كانت اشياء هذا العالم وملذاته تصغر لدينا وتزول . فعند ذلك قالت لي والدتي : « لا شيء يطيب لي في هذه الحياة. وما لي فيها بعد الآن؟ ولمَ انا باقية هنا؟ لا اعلم. لقد استنفدت كل آمالي الأرضية وان ما كان يجعلني اتعلق بها قليلاً هو ان اراك قبل موتي ، مسيحياً كاثوليكياً . وها اني اراك بفيض مراحم الله تقف نفسك لخدمته مضحياً بكل اطايب الدنيا . فماذا لي بعدُ ، على هذه الأرض ؟

لا اذكر الآن جيداً جوابي على كلام امي انما اذكر انها بعد خمسة ايام او اكثر من ذاك الحديث لزمت فراشها تحت تأثير الحمى؛ وفي اثناء مرضها غابت مرة عن وعيها وعمّا حولها فاسرعنا اليها ؛ ولساعتها رجعت الى نفسها فرأتنا انا واخي واقفين بقربها وقالت لنا كمن يبحث عن شيء :

« اين كنت ؟ » واذ رأت حيرتنا وارتباكنا قالت لنا : «هنا تدفنان والدتكما» فلزمت الصمت محاولاً حبس دموعي ؛ اما اخي فقد تلفظ ببضع كلمات متمنياً لها ان تموت في وطنها لا في الغربة ليخفَّ الحزن عليها . ولما سمعته امتعضت من كلامه ونظرت اليه نظرة توبيخ ولوم على تفكيره هذا ثم التفتت الي قائلة : « اسمع ما يقوله اخوك » وبعدئذ وجهت كلامها الينا وقالت : « ادفنا جسدي حيثما اردتما ولا تباليا بذلك انما لي عندكما طلب واحد وهو ان تذكراني اينما وجدتما على مذبح الرب » . قالت هذه الكلمات بصوت متقطع ثم صمتت وكان المرض يشتد عليها ويزيد من اوجاعها .

أمَّا انا ايها الاله الذي لا يُرى فقد كنت اتأمَّل بالمواهب التي تزرعها في قلوب مؤمنيك لتحصد منها العجائب ؛ فرِحتُ وشكرتُك ؛ وذكرتُ اهتمامها الجدي بدفنتها التي ارادتها وهيأت لها موضعاً قرب رفات زوجها. ما اصعب انفتاح النفس البشرية على الالهيات ! ان اتحادهما الوثيق طوال حياتهما المشتركة دفعها الى ان تضيف الى سعادتها التي انقضت بوفاته سعادة اخرى ليذكر الناس انها بعد ان اجتازت البحار قد قدِّر لها ان يمزج رفاتها برفات زوجها في مدفن واحد .

لا اذكر الوقت الذي فيه قضيت بملء رحمتك على تلك الامنية التافهة من قلبها انما افرح واعجب لأنها انكشفت لي على هذا النحو مع انها في حديثها لي على النافذة ، يوم قالت : « وماذا لي بعدُ في هذه الحياة » ؟ قد صارحتني بانها لا ترغب في ان تموت في وطنها . وعلمتُ بعدئذ من حديث لها في اوستيا ، اثناء غيابي ، مع بعض الاصدقاء كلمتهم فيه بثقة وعطف عن احتقارها للحياة الدنيا وعن محاسن الموت فتعجب هؤلاء من فضيلتها (هي من لدنك) ولمَّا سألوها عمَّا اذا كانت لا تخشى ان تترك رفاتها بعيداً عن مسقط رأسها اجابتهم : « ليس من بُعدٍ على الله ولا خوف عليه ألاّ

يعرف في آخر الزمان المكان الذي يبعثني منه » .

واخيراً وفي اليوم التاسع من مرضها خرجت تلك النفس التقية ، القديسة ، من جسدها في السنة السادسة والخمسين من عمرها والثالثة والثلاثين من عمري .

الحزن

اغمضتُ عينيها فاستولى علي حزن شديد كاد يتحول الى دموع لو لم تمتصها عيناي ، بامرٍ من ارادتي ، من ينبوعها حتى كادت تجففها. أواه! ما كان امرَّ هذا العراك عليَّ ! وحين لفظت نفسها الاخير اجهش ابني اديوداتوس بالبكاء ولكن بعد ان وبخّناه كلنا سكت هو وأسكتَ فيَّ صوتُه الخارجُ من القلب التأثر العاطفي الصبياني الذي يتحول الى بكاء لاننا رأينا مناسباً ان نحتفل بهذا المأتم بلا صراخ ولا نواح ولا بكاء لا كمن يبكون على موتاهم كأنهم ذاهبون الى الفناء التام لأن موت امي لا يدعو الى التحسر ولأنه ليس موتاً كاملاً ؛ فنقاوة حياتها خير دليل على ذلك ونحن كنا نعتقد به اعتقاداً صادقاً لا يخامره ادنى ريب .

واذاً ، فما الذي كان يعذبني باطنياً بهذا المقدار ؟ الانفصال الفوري عنها يجرحني بعد ان تعودنا ان نعيش معاً عيشة حلوة؛ ورحت اردد بغبطةٍ ما قالت في مرضها الأخير ؛ بعد ان لاطفتني مداعبةً وشكرتني على خدماتي البسيطة لها دعتني « ابنها الحنون » وكررت القول على مسمعي بعطف كلي انها ما سمعت قط من فمي كلمة جارحة او مهينة لها .

ومع ذلك ، يا الهي ، يا خالقنا فأي شَبَه بين احترامي لها وتعبدها لي. فقدتْ نفسي بموتها كل عزاءٍ فتألمتُ جداً وشعرتُ بان حياتي التي كانت متحدة بحياتها تتمزق .

ولما اوقفنا الولدَ عن البكاء اخذ افوديوس كتاب المزامير بيده وبدأ

ينشد مزموراً وكنا ومَنْ في البيت نجيبه « في الرحمة والعدل نشيدي . لك يا رب اشيد » . (مزمور ١٠٠ : ١) انضم الينا عدد كبير من اخواننا ومن النساء التقيات بعد ان سمعن بما جرى ؛ وراح ذوو الشأن يهتمون بالدفن كما هي العادة اما انا فقد انتحيت موضعاً اتقبل التعازي مع الاصدقاء الذين ابت عليهم مروءتهم ان يتركوني وحدي وكنت اقول لهم ما يناسب المقام وببلسم الحقيقة هذا كنت اخفف من وطأة عذابٍ ، انت عالم به ؛ اما هم فلا . وكانوا يصغون اليَّ بكل انتباه ويتصورونني خالياً من الحزن ! اما انا فبالقرب من اذنك حيث لا يستطيع احد منهم ان يسمعني كنت اؤنب قلبي على ضعفه واحاول ان اوقف تيَّار الألم فتوصَّلت الى غايتي رويداً رويداً لكنه كان يعيد كرَّته دون ان يفجِّر الدموع من عيني ويشوِّه وجهي . أواه ! لقد كنتَ عالماً بكل ما في داخلي . واذ كنت مكتئباً لما لهذه الامور البشرية من سلطانٍ عليَّ ، هي التي تنبثق من النظام الطبيعي ومن وضعنا الراهن فقد أذاقني المي ألماً آخر وتضاعف الحزن عليَّ .

ولما حان وقت الدفن ذهبت وعدت وما ذرفت دمعة طوال الصلوات التي رفعناها اليك ، حين كنا نقدم ذبيحة الفداء عن الفقيدة — وقد كانت جثتها قبل دفنها موضوعة بالقرب من قبرها وفقاً لعادة اهل البلاد — اجل ، ما ذرفت دمعة حتى ولا خلال الصلوات لكنني ، طوال نهاري ، كنت اشعر في داخلي بثقل الحزن عليَّ ؛ ورحت اسألك قلق البال بكل ما لديَّ من قوى أن تشفيني من وجعي فلم تصغِ الي . اعتقد انك اتخذت ذاك الموقف مني لتنقش في مخيلتي بفضل هذا البرهان الوحيد ما لوثاقات العادة من اهمية على نفسٍ اخذت تتغذى بالكلام الذي لا يغش وفكرت بالذهاب الى الحمَّامات ؛ لقد سمعت ان كلمة حمَّام « bains » مشتقة من كلمة يونانية تعني طرد الحزن من النفس. لكنني يا اب الأيتام ، اعترف

لرحمتك واقول اني بقيت بعد الحمام كما كنت سابقاً ولم افرغ منه عرق قلبي المرير ولساعتي نمت ولمّا استيقظت شعرت بان حزني قد خف كثيراً وفي سريري كنت اتذكر منفرداً الابيات الشعرية الصحيحة التي لصاحبك امبروسيوس « يا الله، ايها الخالق كل شيء والمنظم السماوات، يا من تلبس النهار نوراً بهياً والليل نوماً هنياً لكي تستعيد الاعضاءُ المنهوكةُ قواها وترجع الى عملها العادي، يا من تخفف من حمل القلوب التعبة وتبدد عنها الهم والغم.

ثم عدت شيئاً فشيئاً الى ما كنت اتأمل فيه اولاً عن خادمتك فتخيلتها عميقة في تقواك محبة عطوفة عليَّ وها اني أُحرَمُهـــا بغتةً وشعرت بحلاوة البكاء بحضرتك على امي ولها وعلى نفسي ولها ايضاً. وتركت العنان لدموعي المحبوسة فسالت على هواها وكأنها سرير مددته تحت قلبي فوجد فيه بعض الراحة وسمعتها اذناك دون سواها ولم يسمعها القادم الاول المترجم لدموعي.

والآن ايها الرب اني اعترف لك بكل هذا في كتابي؛ فليقرأه كل من اراد وليشرحه على هواه وان أثّمني احد لبكائي على امي، دقائق معدودة، امي التي ماتت لزمنٍ عن عيني، امي التي بكت سنين عديدة لأحيا لك، فاني احذِّره من ان يسخر مني او بالأحرى، فاني ادعوه، ان كان حقاً محباً، الى ان يبكي هو ذاته على خطاياي، امامك، ايها الاب لجميع اخوة مسيحك!

صلاة لاجل مونيكا

وبعد ان شفي قلبي من هذا الجرح الذي يُشتم منه ميْلٌ لحمي قوي، اسكب امامك يا الهنا من اجل امتك دموعاً جديدة، دموعاً صادرة عن نفسٍ تأثرت جداً بالمخاطر التي تحيق بكل « نفسٍ تموت في آدم ». لقد احييتهـــا بالمسيح يسوع وقبل ان تتحرر من اللحم عاشت مسبحةً لاسمك بايمانها وفضائلها؛ ومع هذا كله فاني لا اجرؤ ان اثبت بانها، بعد ان

تجددت في العماد لم تتلفظ البتة بكلمة مضادة لشريعتك . لقد قال ابنك الحقيقة عينها : « من قال لأخيه يا احمق يستحق نار جهنم » (متى ٥ : ٢٢). الويل للحياة البشرية التي يحق لها الثناء ، ان محّصتّها يـــا رب بمعزلٍ عن رأفتك ! ولأنك لا تمتحن عادة آثامنا بروح العدل والقسوة فاننا نرجو بثقة ان نحصل على موضع ما بقربك وكل من احصى امامك استحقاقاته ، لا يحصي سوى حسناتك ! آه لو ان البشر يدركون حقاً ذواتهم ، ولو ان كل من يفتخر ، بالرب يفتخر !

ولهذا اضع جانباً كل ما قامت به امي من صلاحٍ اشكرك عليـــه مغتبطاً، واتضرع اليك من اجل خطاياها، اليك اتضرع يا مجدي وحياتي واله قلبي . استجبني حباً بمن هو طبيب جراحنا ، حباً بمن علّق على خشبة الصليب ، حباً بالجالس عن يمينك يشفع بنا اليك . اني اعلم انها عملت دوماً بمحبة فتركت لمديونيها ديونهم . اترك لها ديونها ان كان عليها من ديون طوال تلك السنوات التي عاشتها بعد عمادها . اتركها لها يا رب اتركها لها ، بحقك ، « ولا تدخل معها في المحاكمة » . لتنتصر الرحمة على العدل طال ما ان اقوالك حق هي ؛ يا من تعد الرحماء بالرحمة . وهؤلاء ان كانوا رحماء فمن لدنك قد اخذوا هذه الفضيلة يا « من ترحم من ترحم وتترأف على من تترأف » (رومية ٩ : ١٥) .

اظن انك قد قبلت طلبتي انما «بتطوعات فمي ارتضِ يا رب» (مزمور ١١٨ : ١٠٨). ولما دنا يوم فراقها لم تسعَ ان تعرف ان كان سيقام لها جناز حافل ويضمَّخ جسدها بالطيوب ؛ لم تختر زمنـــاً ولا اهتمت لأن يكون قبرها في وطنها ولا طلبت منا شيئاً من هذا النوع انما سألتنا فقط ان نذكرها دوماً على مذبحك الذي خدَمْته بلا انقطاعٍ ، عالمة ان الذبيحة المقدسة توزَّع فوقه ، هذه الذبيحة التي محت الصكَّ الذي كان علينا ، وبها نلنا

النصر على عدونا الباحث عن خطايانا وعمَّا يمسكنا به ولكنه لا يجد شيئاً لدى من به انتصرنا . من ذا يجازيه عن دمه البريء ؟ من ذا يعوِّض عليه الثمن الذي به اشترانا ليخلصنا من يد عدونا ؟ ان خادمتك تعلّقت برباط الايمان في سر فدائنا هذا ولم يقوَ احد على ان يخرجها من كنفك ؛ ولا يقومنَّ بينها وبينك لا الأسد ولا التنين معترضين سبيلها بالقوة او بالخداع. لن تجاوب بان لا دَيْن عليها كيلا تقتنع بما تقول وتُقاد امام مشتكٍ محتال. لكنها ستجاوب بان ديونها قد تُركت لها من قبَل ذاك الذي لا يستطيع احد ان يردَّ اليه ما دفعه عنا مجاناً .

اذن لتسترح بسلام الى جانب زوجها الذي لم تعرف قبله ولا بعده رجلاً فخدمته بصبر قدَّمت جناه اليك اذ كانت تريـــد ان تكسبه اليك هو ايضاً . ألهم يا ربّ والهي ، خدامك اخوتي ، ألهم اولادك ، معلميَّ ، الذين اخدمهم بقلبي ولساني وقلمي ؛ الهمهم جميعاً ، وهم يطالعون هذه الصفحات ، ان يذكروا مونيكا على هيكلك ، مونيكا امتك ، وزوجها بتريسيوس اللذين بواسطتهما منحتني هذه الحياة . اما كيف كان ذلك ؟ فلا ادري . ليذكروا بعاطفة تقوية من كانوا في هذه الحياة الزائلة والديَّ واخوةً لي فيك يا ابانا في امنا الكنيسة الكاثوليكية ومواطنين لي في اورشليم السماوية التي اليها يتوق ويصبو شعبك طوال سفره ؛ منذ ذهابه حتى يوم رجوعه . وعلى هذا النحو وبفضل هذه الاعترافات والصلوات المرتفعـــة اليك تستجاب امنيتها الأخيرة اكثر مما لو كنتُ اصلي وحدي لأجلها .

الكتاب
العاشر

أمله الوحيد معرفة الله

أمل اغوسطينوس الوحيد : معرفة الله

سوف اعرفك يا من تعرفني ، سوف اعرفك كما تعرفني ؛ ادخل الى نفسي يا قوام نفسي واسكن فيها واملك عليها وحوّلها اليك ، منزّهةً عن كل عيب . ذاك هو رجائي ؛ ولذا اتكلم وبهذا الرجاء فرحت فرحاً لا يشوبه كدر. أمّا ما سواه من خيور الدنيا فبقدر ما نسكب عليه من دموع يبقى دونه قدراً وان خففنا من البكاء عليه نراه يستحق الأكثر . انت قد احببت الحق لأن من يعمل الحق يقبل الى النور ولذا فاني اريد ان اعمل الحق ، في قلبي ، امامك ، باعترافاتي هذه ، وامام الشهود الكثيرين ، بما اكتبه الآن .

وفضلاً عن ذلك ، ايها الرب ، يا من تنكشف دوماً امامه لجةُ الوجدان البشري ، ايّ شيء لم اعترف به اليك ، يظلُّ فيَّ سراً . اخفيك انت عن نفسي دون ان اقوى على اخفاء نفسي عنك . والآن وقد شهِدَتْ زفراتي بما في نفسي من كراهيةٍ لنفسي ، فقد اصبحتَ نوري وفرحي وحبي ورغبتي ؛ ولذا فاني اخجل من نفسي واطرحها جانباً ؛ وفيك ، وحدك ، ابتغي رضى نفسي ورضاك .

اظهرت لك ذاتي يا رب ، انا اياً كنت وقلت لك لأية غاية اعترف لك ؛ واعترافاتي هذه اقدمها اليك لا بألفاظٍ واصوات بل بكلام النفس ، بهتاف الفكر الذي تعرفه اذنك : ان كنت شريراً فاعترافي لك هو غمٌّ وكربٌ وكدر ، وإن كنت صالحاً فليس اعترافي تمجيــداً لنفسي ؛ لأنك انت ايها الرب تبارك البار بعد تبرره من خطيئته . وعليه ، فان اعترافي اليك يا الهي هو اعتراف صامت وغير صامت : صوتي ساكت ؛ وقلبي يصرخ ؛ وكل حقٍ اتكلم به امام الناس قد سمعته مني ولا تسمع مني إلاّ ما سبقتَ وعلّمتني اياه .

يفيد الناس من اعترافاته ان قبلوها بمحبة

ما لي وللبشر ؟ واي حاجةٍ لهم من سماع اعترافاتي ؛ وكأنهم سيشفونني من امراضي؟ يا جيلاً دفعه فضوله الى معرفة حياة الآخرين ومنعه خموله من اصلاح حياته الخاصة ! لماذا يريدون ان يعرفوني ، ويأبون ان يعرفوا ، مِنك ، من هم ؟ وكيف يعرفون ، وهم يصغون الى كلامي ؛ اني اقول الحقيقة لأنه « لا احد يعرف ما في الانسان إلاّ روح الانسان الذي فيه » (١ كور ٢ : ١١) ؟ اما ان سمعوك تتكلم عنهم فلا يستطيعون ان يقولوا : « الرب يكذب » واي فرق بين حديث المرء عن نفسه وادراكه لها ؟ من يستطيع ان يدرك ذاته ويقول : هذا غلط ولا يكون كذباً ؟ ولكن ، بما ان المحبة تصدّق كل شيء ، اقلّه ، ممن تشدهم بوثاق متين ، فاني انا ايها الرب اعترف لك كي يسمعني الآخرون الذين لا استطيع ان ابرهن لهم عن صحة قولي ؛ انما يصدقني الذين تفتح لهم محبتُهم اذانهم كي يسمعوني .

بحقك يا طبيب نفسي اشرح لي بوضوح منافع هذا العمل الذي اقوم به .

ان إقراري بالخطايا الماضية المغفورة — وقد غطيتها انت يا من اردت ان

اجد فيك سعادتي يوم غيَّرتَ نفسي ، من حالٍ الى حـــال ، بايمانك وسرك – يُحيي قاب من يقرأه ويسمعه ويمنعه من ان يستسلم لليأس ويهتف : « انا عاجز » ويوقظه على محبة رحمتك وعذوبة نعمتك التي تقوي الضعفاء وتجعلهم يشعرون بضعفهم ؛ امَّا الصدِّيقون فيطيب لهم سماع اخبار هفوات أناسٍ قد شفوا منها لأنهم يعرفون انها كانت وامَّحت .

واي فائدة لي يا رب ، يا من يعترف لك ضميري يومياً واثقاً برحمتك اكثر من وثوقه ببرارته ؟ اي فائدة لي، بحقك، قل لي، من اعترافي للناس امامك في هذا الكتاب لا بما كنت عليه بل بما انا فيه الآن ؟ لقد لمستُ فائدة اعترافاتي الماضية وتحققتُها ؛ انما كثيرون يرغبون في معرفة ما آلت اليه حالتي اثناء كتابتي اعترافاتي : فمنهم من يعرفوني ومنهم من يجهلوني ؛ لقد سمعوني او سمعوا عني ؛ لكن اذنهم ليست لاصقة بقلبي حيث انا ، حقاً ، ذاتي ؛ ويريدون كذلك ان اعترف لهم بما انا عليه في الباطن حيث لا يمكن لعينهم ولا لأذنهم ولا لعقلهم ان يصل . يريـــدون ان يسمعوني وكلهم استعدادٌ لتصديقي . وماذا يدركون فيَّ ؟ المحبة ، اصل كل صلاح ، وهي تقول لهم انني صادق في كل اعترافاتي ؛ اجل وهي تجعلهم يثقون بي.

واي فائدة يبغون منها ؟ هل يريدون ان يشتركوا معي في شكرك حين يعلمون كم قرَّبتني اليك نعمتُك ، ويُصلّوا لأجلي حين يعلمون كم يثقل عليَّ وزني ؟ لهؤلاء الناس اكشف نفسي اذ ليس باليسير ، ايها الرب الهي ، ان يشكرك عني الكثيرون ويتوسلوا اليك من اجلي . ليحب فيَّ قلبهم الاخوي ما أوصيت به ولينبذوا ما نبذت .

هذا ما انتظره من قلب اخوي ، لا من قلب غريب «ولا من بني الغرباء الذين نطقتْ افواههم بالباطل ويمينُهم ، يمين زور » (مزمور ١٤٣ : ٧) بل من قلب اخوي يفرح بي حين أُحسن ويحزن حين أُسيء ، وفي كلا

الحالين يحبُّني . اجل ، لمثل هؤلاء اريد ان اكشف نفسي ليرتاحوا الى الخير ويأسفوا للشر الذي فيَّ . فالخير فيَّ انت صنعته واعطيتنيه والشر من صنعي ومن عدلك. ليستاؤوا من هذا ويغتبطوا بذاك ولترتفع اليك من تلك القلوب الأخوية « حيث يقدّم بخورك » الأناشيد والدموع .

وانت ايها الرب يا من تلذ لك روائح هيكلك المقدس «فارحمني بحسب كثرة رأفتك » من اجل اسمك ومن حيث انك لا تتخلى عن اعمالك ، ارجوك ان تكمل فيَّ ما لا يزال ناقصاً .

هذه هي الثمرة التي ارجوها من اعترافاتي ،حيث اود ان أظهـرَ كما انا ، اليوم، لا كما كنت، بالأمس. ولا اريد ان اقوم بها امامك وحسب. بهذه الغبطة المخيفة ، وبذلك الحزن السرّي الذي يرجو ويأمل ؛ بل أمام بني البشر كلهم ، شركائي في الايمان والفرح ، وشركائي في الطبيعة ، رهينة الموت، امام مواطنيَّ المسافرين مثلي على هذه الأرض، السابقين واللاحقين والمرافقين . هم خدامك ؛ وهم اخوتي ؛ وهم ابناؤك واسيادي الذين أمرتَني بخدمتهم ان اردتُ ان احيا معك ومنك ؛ كلمتك ، الآمر ، اظهر لي عملياً الطريق؛ ولو اكتفى بالقول لوجدتُ كلامه قليلاً بالنسبة اليَّ وانا اذا بالفعل والقول اخدمهم؛ اخدمهم تحت جناحيك ولو لم التجئْ اليهم واكشف لك عن ضعفي لتعاظم الخطر . انا ولدٌ صغير ؛ لكن ابي يحيا الى الأبد ؛ وفيه اجد محامياً عني ومساعداً والذي ولدني يحميني ؛ انت خيري الوحيد ايها الكلي القدرة الساكن معي قبل ان اكون معك ؛ فالى هؤلاء الذين امرتني بخدمتهم أُظهر نفسي لا كما كنت سابقاً بـل كما انا الآن وكما سأكون من الآن وصاعداً ؛ لكني لا احكم على نفسي بنفسي .

هكذا اود ان يُصغوا اليَّ .

اغوسطينوس بحاجة الى الله لمعرفة ذاته

انت يا رب تحاكمني ؛ وان كان لا يعرف ما في الانسان الا روح الانسان ففي الانسان اشياء لا يدركها روح الانسان ؛ اما انت ايها الرب فتعرف ما فيه لأنك خلقته. وانا الحقير امامك، انا التراب والرماد، اعرف فيك اشياء لا اعرفها من ذاتي . « والآن اننا ننظر بالمرآة ، كما في اللغز ، لا مواجهة » (١ كور ١٣ : ١٢) ولهذا طال ما اني اجدُّ في السعي، بعيداً عنك ، فانا اقرب الى ذاتي ، مني اليك ؛ واعلم انك لا تقبل الفساد ؛ وحتى مَ تظل قواي صامدةً بوجه التجارب ؟ لا اعلم . واني ارجو لأنك امين ولا ترسل الينا ما يفوق طاقتنا بل تهيئ لنا في التجربة مخرجاً اميناً فتمنحنا القوة على احتمالها .

ها اني اعترف بما اعرف من نفسي وبما اجهل عنها ؛ اذ ان ما اعرفه عنها، اعرفه بفضل نورك ؛ وما اجهله فيها يظل مجهولاً حتى تتحوّل ظلماتي الى « ظُهرٍ تام » امام عينيك .

اغوسطينوس يبحث عن الله

أحبُك يا رب بضمير ثابت لا لومَ عليه. لقد فتحت قلبي بكلمتك فاحببتك . ها ان كل ما حولي ، السماوات والارض وكل ما فيها يدعوني الى محبتك ولا تفتأ تقوله لكل الناس « لئلاّ يكون لهم عذر » ستزداد رأفتك لمن ترأفت عليه ورحمتك لمن رحمته وإلاّ فالسماوات والارض تردد تسابيحك امام جماعة من الصمّ .

وماذا احب، حين احبك؟ لا احب الجمال الجسدي ورونقه الزائل ولا احب النور الساطع، الذي تعشقه عينانا، ولا انغام الاناشيد العذبة المختلفة الاصوات ولا اريج الزهور الفوّاح ولا العطور ولا الطيوب ولا المن ولا العسل ولا الاعضاء المكونة لقبلات اللحم. كلاّ لا احب شيئاً من ذلك كله

حين احب الله ، انما هناك نورٌ ، وصوت ، وشذا وقوت وقبلة احبها حين احب الهي : « هو نور الانسان الباطني وصوته وشذاه وقبلته » الذي فيَّ حيث يسطع لنفسي نور لا يحده مكان، وتتجاوب انغام تبقى على الزمن، وتفوح عطور لا تبددها ريح ، ونذوق قوتاً لا يُفْنِيه نهم، وحيث لا تشبع القبلات . ذاك ما احب ، حين احب الهي !

ومن هو هذا الاله الذي احبه ؟

ليست الطبيعة الله

سألت الأرض فقالت لي: «لستُ الهك » كذلك اجابني كل حي على سطحها ؛ سألت البحر واغواره والكائنات الحيـــة التي تسرح فيه وتمرح فاجابتني : « لسنا الهك » بحثت عنه في الأعالي » وسألت رياح الجو فاجابتني مملكة الهواء وكل ما فيها اجابني : « اناكسيمان Anaximéne يخطأ؛ لسنا الهك ».سألت السماء والشمس والقمر والنجوم فاجابت كلها : « لسنا الاله الذي تبحث عنه » اذ ذاك قلت للكائنات كلها التي تحيط بابواب حواسي : « حدثيني عن الهي طال ما لستِ الهي ، قولي لي شيئاً عنه » فهتفت جميعها بصوتها القوي: « هو خالقنا ». كان تأملي فيها سؤالاً وجمالُها جواباً .

اذ ذاك عدتُ الى نفسي وقلتُ لها: « وانت ، من انت ؟ » واجبت: « انا انسان! » في خدمتي نفس وجسد، احدهما خارجي والآخر باطني . الى ايّهما اوجه سؤالي ، عن هذا الاله الذي طال ما بحثتُ عنه بواسطة جسدي في هذه الارض حتى السماء، وحيث يمكنني ان ارسل شعاع عينيَّ هاتـــين ؟ العنصر الباطني هو الأثمن فيَّ . لأن رسل جسدي كلهم كانوا يؤدون اليه حساباً عن اجوبة السماء والأرض والمخلوقات الساكنة فيها كمن يقدم الى قاض او رئيس وكلها كانت تقول: « لسنا الله » ثم « هو خالقنا»

والانسان الباطني يدرك هذه الامور بواسطة الانسان الخارجي : انا الكائن الباطني ، انا ، انا النفس عرفت تلك الامور بفضل حواسي الجسدية . وسألت الكون بأسره عن الهي فاجابني : «لم اكن بذاتي ، بل بــــه انا كائن» .

اصحيح ان هذا الجمال العالمي ينكشف لذوي الحواس السليمة؟ولِمَ اذاً لا يحدثهم باللغة عينها؟ تراه الحيوانات ، الكبيرة والصغيرة ، ولكن لا تستطيع ان تسأله ؛ اذ ليس لها عقل يحكم على معطيات الحواس . اما البشر فانهم يستطيعون ان يسألوها كيما تصبح كمالات الله غير المنظورة منظورةً للعقل بواسطة مخلوقاته ولكنهم لفرط تعلقهم بالمخلوقات يصبحون لها عبيداً ويمنعهم هذا الاستعباد من اصدار حكمهم عليها . ولا تجيب هذه المخلوقات إلا لمن يسألها وبالوقت نفسه يصدر حكمه ؛ لا شك في انها لا تغير مظهرها ولا منطقها تجاه اثنين : احدهما ينظر والآخر ينظر ويحكم ؛ ولا تظهر بمظهر مختلف لكل منهما انما بينا تظهر متشابهة للاثنين معاً ، تلزم جانب الصمت تجاه هذا وتجيب على الآخر او بالاحرى فانها تتحدث الى الجميع ولكنهم وحدهم يفهمونها ؛ يفهمها الذين يقارنون بين الحقيقة الخارجية والحقيقة التي ينطوون عليها ، ولقد قالت لي الحقيقة : الهك ، ليس السماء ولا الارض ولا اي جرم آخر . هذا ما قالته طبيعتها ؛ ولكل انسانٍ عينان يرى بهما الجزءَ اصغرَ من الكل ؛ وانتِ يا نفسي افضل ؛ لأنك تحيين الجسم المتحد بك فتعطينه الحياة التي لا يستطيع جسم ان يعطيها جسماً آخر ؛ والهك هو ايضاً حياة حياتك .

وماذا احب اذاً حين احب الهي ؟ من هو هذا الكائن الذي يعلو نفسي ؟ اود بمساعدة نفسي ذاتها ان ارتفع اليه ؛ اجل ، سأتخطى قدرتي التي تشدني الى جسدي وتملأ بحيويتها كل ما يحيط بي لأنها لا تستطيع ان توصلني الى الهي وإلاّ لكان الحصان والبغل ، العديما الفهم يدركانه كذلك اذ ان جسديهما يعيشان بفضل تلك القوة .

بي قوةٌ لا تحيي وحسبُ بل تجعلني اشعرُ بجسدي الذي هو من صنع الرب ، انه يأمر العين بالاّ تسمع والأذن بالاّ ترى وهذه بان تسمع وتلك بان ترى ؛ وكذلك كلاً من الحواس الأخرى ، وفقــاً لمقامها ومهمّتها ؛ وبفضلها اتمم تلك الأمور واحافظ على وحدتي الروحية. هذه القوة سأتخطاها ايضاً لأن الحصانَ والبغلَ يشاركاني بها طال ما انهما يتمتّعان هما ايضاً بحسٍ جسدي .

الذاكرة

اودُّ ان اتخطى قوة طبيعتي لأرتفع تدريجياً الى خالقي واصل الى مساكن الذاكرة وقصورها الواسعة حيث الصور التي لا عدَّ لها المتخذة من معطيات الحواس المختلفة الاشكال ؛ هناك تجد كل الصور التي تتصورها حين تزيد على معطيات الحواس او تعدل منها بأي شكل كان وكذلك كل مــا استودع فيه واذّخر ، والذي لم يبتلعه النسيان ويطمره .

حين اكون هناك ادعو الي الصور التي اريدها فيتقدم بعضُها فوراً ويتأخر البعض الآخر وكأنه يرغب في ان يُنتظر ؛ او كمن يجب ان تنتزعه من خلايا خفية جداً ، ومنها ما يتهافتُ بكثرة ساعةَ تكون مهتماً بالبحث والتفتيش عن سواها فتقفز الى المقام الاول ويخيل اليك انها تقول : « اصحيح انك تبحث عنا ؟ فأطردُهَا بيد عقلي وبوجه ذاكرتي الى ان يخرج مــا

ابتغيه من بين الغيوم ويظهر لي من داخل خبائه الخفي . ومنها ما يصل اسراباً اسراباً منتظمة تلبية لندائي فتترك الأولى محلاتها كما بعدها وعلى هذا النحو تصطف في زاوية لتعود الى الظهور كلما طلبتُ اليها ذلك . هذا ما يحدث تماماً حين اسرد شيئاً من ذاكرتي .

الذاكرة الحسية

تلك فيها تحفظ ، مرتّبةً ، وفقاً لأنواعها تلك الاحساسات التي ولجت كل في مدخلها الخاص : النور والالوان والصور الجسدية تدخل كلهـــا بواسطة العين ؛ والاصوات على اختلافها تدخل بواسطة الأذن ؛ والروائح بواسطة الانف والاطعمة بواسطة الفم واخيراً يلج بواسطة حسٍّ منتشر في الجسم كله كل شعور بالخشونة والليونة ، بالحار والبارد ، بالنعومـــة او القساوة ، بالخفة او الثقل ، بالباطن او الظاهر . فالذاكرة تستقبل كل ذلك في مسكنها الرحب ، في منعرجاتها الخفية ، السرية الى حين الطلب ، والحاجة ؛ فتدخل كلّ شيء من بابه الخاص وينتظم في صف وترتيب ؛ وفضلاً عن ذلك ، فالحقائق لا تدخل على هذا النحو انما صور الحقائق الملحوظة تدخل لتبقى فيها تحت تصرُّف العقل الذي يبعثها .

وهذه الصور كيف تكوَّنتْ ؟ ومن يعرف الحواس التي تضبطهـــا وتخزنها في باطننا ؟ انني استطيع في الظلام والصمت ، ان اردت ، ان أُحييَ ، في ذاكرتي ، الألوان ؛ واميّز بين الابيض والأسود وسواهما ، ولا اخشى من ان تعكِّر الاصواتُ الصورَ التي التقطتْها عيناي ، وكأني بها تقيم هناك وتظل محتجبة الى زمن . اني ادعوهـــا حين يروقني ذلك فتأتي مسرعة وان صمت لساني وسكتت حنجرتي فاني اغني حين اريد ومع وجود صور الألوان هنالك ، فانها لا تتدخل ولا تقطع عليَّ مجرى تفكيري حين اكون منهمكاً بالكنز الآخر الذي جنيته بواسطة سمعي ؛ وعليه فاني اتذكر ،

حين أشاء ، التأثيرات التي حملتها الحواسُ الاخرى اليَّ وجمعتها فيَّ ؛ اني اميز رائحة الزنابق من البنفسج دون ان اشم زهرةً واؤثر العسل عــلى النبيذ المطبوخ والناعم على الخشن دون ان اذوق ولا المس شيئاً ؛ انما يتم كل ذلك بالتذكّر فقط .

كل هــذا يجري فيَّ ، في قَصْرِ ذاكرتي الرحب واتصرف بالسماء والأرض والبحر وكل ما جمعت عنها من ذكريات عدا ما نسيت ؛ هناك اجد نفسي واتذكرها كما اذكر الاعمال التي قمت بها والزمان والمكان والعواطف التي شعرت بها آنذاك ؛ هناك محصور كل ما اذكره بفضل اختباراتي الشخصية او بفضل ايماني الشخصي ؛ ومن هذه الكثرة ذاتهــا اتخذُ صوراً تارةً هذه وطوراً تلك ؛ وهي صور الاشياء التي اختبرتها بنفسي او التي آمنت بها استناداً الى ذلك الاختبار ؛ اني اصلهــا بالماضي واعدُّ ايضاً للمستقبل اعمالاً واحداثاً واماني ، وكل ذلك يتمُّ وكأنه حاضر امامي واقول في ثنايا فكري الرحبة المليء بصور اشياء كثيرة عظيمة : سأعمل هذا وذاك «واستنتج من كل ذلك تارة هذا وطوراً ذاك» ليت هذا الأمر يحدث او ليت ذاك ! « معاذ الله من كليهما ! » هكذا كنت احدث نفسي . وبينا انا على تلك الحال كانت تفاجئني صور الاشياء الخارجــة من كنز الذاكرة عينه لأنني بدونها قد لا استطيع ان اتحدث عنها .

عظيمة هي يا الهي قدرة الذاكرة : اجل ! عظيمة حقاً ! انها لمعبدٌ رحبٌ لا حدَّ له ؛ ومن الذي اجتازه من اوله حتى آخره ؟ انها لقوة من قوى عقلي ، لاصقة بطبيعتي لكني لا ادرك تماماً من انا لأن العقل لا يدرك ذاته ؛ وعليه ، فالى اين يذهب ما لا يستطيع ان يستوعبه العقل ؟ هل يظل فيه ام خارجاً عنه ؟ ولكن كيف لا يستطيع ان يضبطه ؟ تجاه هذا الامر يعتريني العجب والخوف .

ويذهب الناس الى التمتّع بقمم الجبال وامواج البحر الطاميـــة ومجرى الانهر الواسع وشطآن المحيط المتعرجة ودورات الكواكب ؛ ولا يهتمون بانفسهم ولا يعجبون لكوني اتكلّم عن كل هذه الامور دون ان اراها بعيني ؛ مع اني قد لا اتكلم عنها لو ان الجبال والامواج والانهر والكواكب التي اراها والمحيط الذي اعرفه بالسمع لم ارها في ذاكرتي بنفس الكبر الذي تراها عيناي به في الخارج . بيد اني يوم رأيتها بعيني لم استطع ان أعيها لأنها ليست فيَّ بل لي منها صور فقط واحتفظت من كل واحدة بذكرى لشعورٍ مادي لا اقوى على الافصاح عنها .

الذاكرة العقلية

لذاكرتي قوة شاملة تتعدى الحقائق المعروفة لأنها تستوعب ايضاً كل ما علمتني اياه العلوم الحرة بقدر ما لا ازال اذكره ؛ وموضوع منعزلٌ في مكان داخلي ليس مكاناً حقاً. وتلك ليست صوراً بسيطة بل معارف وعلوم فيَّ . وما هو الأدب والنقد وانواع الاسئلة ؟؟ – كل ما اعرفه عن تلك النصوص لا يبقى في ذاكرتي على مثال صورة احتفظ بها وحدها تاركاً في الخارج ما ترمز اليه– هي ليست كالصوت الذي يضجُّ ثم يمرُّ، كالصوت الذي يخلف بعده في الاذن اثراً له ويترك الانسان في وهم وكأنـــه لا يزال يسمعه بينا هو قد صمت – وهي ليست كالرائحة التي بمرورها واندثارها في الهواء تصيب حاسة الشم التي تنقل الى الذاكرة صورة عنها يمكن استرجاعها ؛ ولا كالطعام الذي ينقطع الشعور به في المعدة ويظل في الذاكرة ؛ ولا كالشيء الذي نشعر به مادياً فتتصوره ذاكرتنا بعد ذهابه. ان هذه الحقائق لا تصل الى الذاكرة انما تضبط الذاكرة بسرعة مدهشة صورها فترتبها وكانها في بيوت الى ان تستخرجها بطريقة عجيبة .

ولكن حين اسمع بوجود ثلاثة انواع من الاسئلة : هل هذا موجود ؟

ما هو جوهره ؟ وما هي صفاته ؟ احفظ جيداً صورة النبرات التي تتركب منها الالفاظ وادرك ان هذه النبرات قد اجتازت الفضاء مصحوبة بضجة وانها قد انقطعت عن الوجود انما لم اصل الى ما ترمز اليه تلك النبرات اياً كان حسي الجسدي وما وجدتها قط الا في عقلي ولقد احتفظت بها في ذاكرتي لا بصورها .

ومن اين دخلت اليَّ ؟ لتقلْ لي لو استطاعت ! تنقَّلْتُ بين ابواب لحمي فلم اجد باباً واحداً قد دخلتُ منه. وعليه تقول الاعين : « ان كانت ملونة فنحن اوصلناها » وتقول الآذان « ان كانت ذات صوت فنحن نبهنا الى وجودها » ويقول الانف : « ان كانت ذات رائحة فنيَّ مرت » والذوق يقول ايضاً : « ان لم تكن ذات طعم فعبثاً تسألونني عنها » ويعلن الحس قائلاً : « ان لم يكن لها جسد فما لمستها ؛ وطال ما اني لم المسها فما نبهتُ اليها » .

من اين ؟ وكيف دخلت اذاً الى ذاكرتي ؟ لا اعلم . حين ادركتها لم اقبلها استناداً الى رأي آخرين ؛ بل عرفتها في فكري وفيه ايضاً ادركت صحتها وسلمتها اليه كنزاً استخرجها منه حين يروقني ذلك؛ لقد كانت فيه قبل ان ادركها انما لم تكن في ذاكرتي . اذاً ، اين كانت ؟ ولكن كيف عرفتها حين قدموها اليَّ وهتفت : « اجل ، هذا صحيح ! » لانها كانت في ذاكرتي منسيةً مدفونةً في اعماقٍ خفية بعثتها منها الى حيِّزِ التفكير بفضل الدروس .

فبعد هذا الدرس الدقيق نجد ان حفظ تلك النصوص التي لا نجمع صورها بواسطة الحواس بل نراها في ذواتنا بدون صور كما هي في الواقع ؛ يقوم بضبط الاقسام المبعثرة بلا نظام في الذاكرة وابقائها تحت تصرفنا في ذاكرتنا حيث كانت مخفية، منسيةً، شرط ان تتقدم بسهولة من عقلنا حين

يجهد نفسه كالمعتاد بحثاً عنها .

تتضمن ذاكرتي عدة نصوص مماثلة لها ؛ قد وجدناها ووضعنا يدنا عليها (هذا التعبير قد استعملته) وهذا يعني الحفظ والمعرفة . ان امتنعت عن اثارتها في زمن قصير ، تهافتت من جديـــد الى اللجة وتبعثرت في اشد المساكن خفاءً ؛ اذ ذاك على الفكر ان يكتشفها من جديد ويستخرجها ثانية من مكانها -- اذ ليس لها موضع آخر -- ويجمعها لكي تصبح معرفتها ممكنة؛ وإلاّ لزم ان يجمع شملها بعد ان تبعثرت؛ ومن هنا جاءَ هذا التعبير : (cogo et cogito) ان كلمة فكر طالب بها العقل لمصلحته الخاصة واصبح هذا التجمُّع الذي يحدث في العقل هو ذاته ما يسمونه التفكير .

وتتضمَّن الذاكرة المحاضر وسُنَنَ الاعداد والقياسات التي لا تحصى ، لا ينطبع فينا شيءٌ من كل هذا بواسطة الحواس الجسدية لان ليس لهـــذه النصوص لون ولا صورةٌ ولا رائحة ولا يمكن ان تقع تحت الحواس . انني ادرك نبرات الكلمات المشيرة اليها في الحديث ؛ ولكن شتان ما بين الكلمات والأشياء . فللألفاظ اليونانية نبرة وللاتينية اخرى والنصوص ليست يونانية ولا لاتينية ولا تختص البتة بلغة ؛ لقد رأيت خطوطاً كخيط العنكبوت دقةً رسمها فنانون ؛ لكنها خطوط العلوم الرياضية وليست صورة لما ارتني اياه عيني الجسدية ؛ يدركها حقاً ، كل مَنْ ادركها في ذاته ، دون اللجوء الى الواقع : بفضل حواسي الجسدية ادركت الاعداد المحصاة كلها انما بخلاف ذلك هي الاعداد المحصية التي ليست صورة للاولى ولذا فوجودها مطلق : سيهزأ بي كل من قرأ كلماتي هذه ولم يرها ؛ وانا سأشفق عليه في ضحكه عليَّ .

احتفظ في ذاكرتي بكل هذا واذكر ايضاً كيف ادركته ؛ لقد سمعت عدة اعتراضاتٍ ضد هذه الحقائق الجلية ، واستوعبتهـــا ذاكرتي ؛ ومهما

كانت خاطئة فاني لا ازال اذكرها كما لا ازال اذكر تنقلي بين تلك الحقائق والمناقضات الواهية التي اقاموها ضدها؛ وبفضل عمليتين مختلفتين ارى اني الساعة اقيم تمييزاً من جهة ومن جهة اخرى اتذكر اني اقمت هذا التمييز بالتفكر به مراراً . اذكر اني ادركت مراراً هذه الامور ولذا احتفظ بهذا الشيء في ذاكرتي لأتذكر فيما بعـــد اني ادركته اليوم . واذكر اني تذكرت وان كنت في المستقبل اذكر اني استطعت ان اتذكر الساعة فيكون ذلك بفضل قوة ذاكرتي .

تتضمن تلك الذاكرةُ تأثرات النفس ؛ لا كما هي في النفس ساعة تحس بها النفس ؛ بل بطريقة مختلفة تتجاوب مع طبيعة الذاكرة عينها .

اذكر انني كنت فيما مضى مسروراً ، لا هذه الساعة ، وحزيناً لا هذه الساعة ؛ وانني خفت في ذلك اليوم لا هـــذه الساعة ؛ وان الرغبة المنقضية تعود الى الذاكرة دون ان اشعر بها الآن واحياناً اتذكر بغبطةٍ حزني وبحزنٍ اتذكر فرحي .

لا استغرب التأثرات الطبيعية لأن الجسم شيء والنفس شيءٌ آخر ؛ ولا عجب في ان اتذكر بفرحٍ المآً جسدياً مخالفاً للنظام الأدبي . الذاكرة هي العقل ذاته ؛ وحين نعهد الى شخصٍ القيام بمهمة معيَّنة لا يجوز له ان ينساها ، نقول له : « انتبه جيداً لهذه المسألة » وعندما ننسى شيئاً نقول : « ما خطر ببالي ... وهذا غاب عن فكري » اننا نعني حقاً هنا بالبال او بالفكر ، الذاكرة .

وطال ما ان الأمر على هذه الحال فكيف يغتبط فكري وتغتمُّ ذاكرتي حين اتذكر بسرور كآبتي الماضية ؟ اغتباط فكري دليل على ان الفرح مقيم فيه فكيف لا تغتم ذاكرتي والحزن مقيم فيها ؟ هل هي مستقلة عن الفكر ؟ ومن يجرؤ على هذا القول ؟

لا ريب في ان الذاكرة للنفس كالمعدة للجسم وانما الفرح والحزن كطعامٍ حلوٍ او مرّ لها ؛ فعندما تنتقل هذه التأثرات الى الذاكرة فكأنها تنتقل الى المعدة وتقيم فيها دون ان يكون لها ايُّ مذاق .

انه لمن المضحك القبولُ بوجهٍ للشبه بين هـــذه الامور مع ان الفرق بينها بسيط ! من ذاكرتي استخرج يقيني حين اقرُّ بوجود ميول اربعة : الشوق ، والفرح والخوف والحزن . وكلما تحدثت عنها قسمتُ كلا منها الى فروع متناسبة فاحددها واستخلص كل ما اقوله عنها ولا اشعر في داخلي بأي خوف منها حين استعيدها في ذاكرتي لانها موجودة قبل ان اتذكرها واناقشها ؛ ولهذا بفضل الذكريات استطعت ان استخرجها .

وكما ان الطعام بفضل الاجترار يعود من المعدة الى الفم كذلك تعود هي من اعماق الذاكرة ؛ ولكن لِمَ لا يشعر من يناقشها بعذوبة الغبطة ومرارة الحزن في فم فكره ؟ اجل ، لِمَ لا يشعر بها من يتذكرها ؟ ايرتكز الخلاف في انتفاء وجه للشبه كامل بين شيئين؟ ومن ذا يتكلم بطيبة خاطر عنها ان كان يحزن ويفرح كلما تلفَّظ بها ؟؟

لولا فكرة الشعور الناجم عن تلك الصور في ذاكرتنا،القائم الى جانب نبرات الكلمات الملائمة للصورة المنطبعة فينا بواسطة الحواس لما كنا نتكلم عنها . انه لشعور وافكارٌ لا تلج الينا من باب الجسد بل ان النفس عينها التي اختبرت هذه الميول قد شعرت بها ووكلتها الى الذاكرة ؛ اللهم إلا اذا كانت الذاكرة نفسها قد سجلتها بدون هذه الاستنابة .

أيتمُّ هذا بدون الصور ؟ إنه لأمرٌ يصعب البت فيـــه . الفظ كلمة حجر، شمس، بينا لا شمس ولا حجر حاضران امام حواسي وبالتالي فانَّ ذاكرتي تحتفظ بلا شك بالصورة تحت تصرفي . اتكلم عن الالم الجسدي وهو لا يحضرني لأني لا اتألم بـــه . بيدَ انني لو لم اكن اتصوره امامي

بذاكرتي لما ادركت ما اتكلم عنه ولما قدرت ان اميّزه في حديثي من اللذة. اتلفظ بكلمة صحة وانا بملء صحتي فتكون حالتي هذه حاضرة لي. بيدَ انني لو لم اكن محتفظاً بالصورة في ذاكرتي لما كنت تذكرت مطلقاً معنى هذه اللفظة . اما المرضى فحين يسمعون حديثاً عن الصحة لا يفقهون شيئاً لولا احتفاظ ذاكرتهم بهذه الصورة رغم حرمان جسدهم من تلك الحقيقة .

أعد الاعداد المحصية وها هي في ذاكرتي لا في صورها وحسب بل في ذاتها . اسمي صورة الشمس فتحضرني هي في ذاكرتي لا صورةً خيالية بل الصورة عينها التي تجيب ندائي . اسمّي الذاكرة واعرف ما اقول ؛ ولكن من اين لي ان اعرفها الا من الذاكرة نفسها؟ أبصورتها الذاتية هي حاضرة امام ذاتها ؟ ام بغير حقيقتها ؟

ولكن ! حين الفظ كلمة نسيان واعترف بالوقت عينه بما الفظ هل استطيع ان اعرف ان كنت أذكره ؟ انا لا اقول شيئاً عن جرْس هـــذه الكلمة بل عن معناها. ان نسيتُ الشيء قصرتُ عن معرفة جَرْسه . وحين اتذكر الذاكرةَ تَحضُرُني . وحـــين اتذكر النسيان يحضرني النسيان والذاكرة كلاهما معاً بالتساوي تحضرني الذاكرةُ التي بفضلها اتذكر ، ويحضرني النسيان الذي اذكره . ولكن ما النسيان ؟ عيبٌ في الذاكرة ! ؟ وكيف يمكن ان يكون حاضراً لكي اذكره طال ما اني منذ وجوده لا استطيع ان اتذكره ؟ على اننا ان احتفظنا في ذاكرتنا بما نتذكره، ان كنا من جهة لعجزنا عن تذكر النسيان، نعجز تماماً عن ادراك كنه هذه اللفظة حين نسمعها فلأن الذاكرة احتفظت بالنسيان . هو حاضر وإلا نسيناه ولكن ما إن يَحضُرْ حتى ننسى .

انستنتجُ ممَّا تقدم ان النسيان حاضر في ذاكرتنا حين نتذكره بصورته وحسب ؛ لانه لو كان حاضراً بالذات لجعلَنا ننساه ؟ ومن يحل هـــذه

العقدة ؟ من يقوى على جلاء غوامضها ؟

اني ايها الرب استنفد قواي لفهم هذه المعضلة ؛ اجل ، لفهم نفسي ، استنفد قواي ؛ انني ، لنفسي ، ارضٌ وعرة شاقة لأننا في الوقت الحاضر لا نستقصي الارجاء السماوية ولا نقيس المسافة الفاصلة بين الكواكب ولا نبحث عن سنن التوازن الأرضي لأني انا اتذكر ، اي عقلي . ولا غرابة في ان اجد بعيداً عني كل ما ليس انا ؛ ولكن ، هل اقرب اليَّ من ذاتي ؟ إني عاجزٌ عن فهم جوهر ذاكرتي مع اني لا أستطيع ان اسمّي نفسي . وماذا اقول طال ما اني متأكدٌ من تذكُّر النسيان ؟ أأقول إن ما اذكره ليس في ذاكرتي ؟ ام اقول اذا كان النسيان في ذاكرتي فلكي لا انسى ؟ وفي كلا الحالين امرٌ مستحيل !

وما هو رأيك في هـذا الحل الثالث القائل : تبقى صورة النسيان في ذاكرتي لا النسيان ذاته حين اتذكره ! اجل حين تنطبع صورةُ شيءٍ في الذاكرة فمن الضروري ان يسبقها حضورُ الشيء عينه ، الذي عنه تخرج الصورة وتبقى في الذاكرة . اني اتذكر قرطاجة والامكنة التي فيها عشت وصور الاشخاص الذين التقيتهم وكل ما احسست به وعرفته وكذلك اذكر الصحة والألم الجسدي ، ولدى حضور كل هذه الاشياء الجليّة احتفظت منها ذاكرتي بالصور ، مرخصةً لي بالتأمل فيها وهي حاضرة ؛ وبترددادها في ذهني ، غائبةً ، حين اريد ان اتذكرها .

وعليه فعندما تحتفظ الذاكرة بصورة النسيان لا بالنسيان عينه يسبق حتماً هذه العملية حضورٌ له كي تؤخذ صورتُه . ولكن لو كان حاضراً كيف تستطيع الذاكرة ان تسجِّل صورته عليها لأن النسيان لمجرد وجوده يمحو كل رسم وتخطيط ؟ ولكن مهما بلغ هذا الامر من الغموض والتعقيد فانا واثقٌ ، على كل حال ، من انني اذكر النسيان ، هذا الهادم ، لكل تذكار .

عظيمة هي قدرة الذاكرة ! ان عمقها ، يا الهي ، وتشعبها اللامحدود يلقيني في خوف مقدس وهذا هو انا ! مَنْ انا اذاً يا الهي؟ ما هو جوهري؟ حياةٌ متقلبة ، متعددة الاشكال ، ومتسعة الى حدٍ غريب .

في ذاكرتي حقول ومغاور وكهوف لا عدَّ لها ؛ فيها الكثير الكثير من مختلف الاشياء التي تقيم فيها إمَّا بصورها كما هي الحال للأجسام واما بذواتها كما هي الحال للعلوم واما بشكل معارف ومعلومات كما هي الحال لعواطف النفس وشواعرها التي تحفظها الذاكرة ؛ بينا النفس لا تشعر بها مع ان كل ما في الذاكرة هو في العقل ايضاً . اتنقل في هذا الميدان من محل لآخر واطير من هنا الى هناك واوغل فيه ما استطعت ! عظيمةٌ هي قدرةُ الذاكرة وعظيمةٌ هي قدرة الحياة لدى الانسان الذي لا يحيى الا ليموت !

وما العمل يا حياتي الحقة ، ويا الهي ! سأتخطى قدرتي هذه المعروفة بالذاكرة سأتخطاها لأطير اليك ايها النور العذب ! وماذا تقول لي ؟ ها اني استعين بنفسي لأرتقي اليك ايها الساكن فوقي في الأعالي ؛ فأتخطى كذلك قوتي هذه المعروفة بالذاكرة توّاقــاً اليك من حيث يسهل عليَّ ذلك ؛ واعانقك من حيث يمكنني ذلك . الذاكرة موجودة لدى البهائم والطيور ؛ وإلا لما عرفت اعشاشها والكثير من عاداتها المعروفة . وهذه العادات عينها تفرض وجود الذاكرة لديها . سأتخطى الذاكرة لأبلغ الى من ميـّزني عن الحيوانات وجعلني احكم من طيور السماء . سأتخطى الذاكرة اليك ، ولكن اين أجدُك ؟ ايها الاله الصالح حقاً ، والعذوبة التي لا يشوبها كدر ، اين اجدك ؟ ان وجدتك خارجاً عن ذاكرتي ، نسيتُك وكيف اجدك ان لم اتذكرك ؟

ان المرأة التي ضيعت الدرهم وراحت تبحث عنه وقنديلُها بيدها ما

كانت وجدته لو لم تتذكره. لو وجدته ولم تتذكره لما كانت عرفته. اني اذكر باني بحثت عن اشياء مفقودة ثم وجدتها واعرف جيداً انني اذ كانوا يطرحون علي السؤال اثناء بحثي عنها: « هل هذا أم ذاك؟ » كنت اجيب بالنفي حين لم يقدموا لي ما ابحث عنه. لو لم اكن متذكراً الشيء المفقود، اياً كان، لكانوا قدموه لي وما كنت وجدته لأني لا اعرفه وتلك هي حالُ من يبحث عن شيء مفقود يجده. عندما يغيب شيءٌ عن عيوننا لا عن ذاكرتنا – اعني شيئاً مادياً، حسياً – تظل صورته عالقة في داخلنا ونظل نبحث عنه الى ان نعيده الى ناظرينا وحين نجده نتعرف اليه بفضل تلك الصورة الداخلية. وفضلاً عن ذلك لا نقول اننا وجدنا شيئاً مفقوداً الا اذا عرفناه حقاً والمعرفة تفرضُ اننا نتذكره اذ انّه غاب عن عينينا وظل في ذاكرتنا.

وبعد؟ حين تضيّع الذاكرة شيئاً كما هي الحال لدى نسياننا شيئاً ومحاولتنا ان نتذكره فاين نبحث عنه ان لم يكن في الذاكرة عينها؟ان قدمت الينا شيئاً عوضاً عنه نبذناه الى ان يحضر مطلوبنا؛ وحين يصل اخيراً نهتف: هوذا، هوذا! » فلو لم نعرفه، لما هتفنا؛ ولكي نعرفه، يلزمنا ان نتذكره؛ والواقع هو اننا نسيناه.

ايجوز لنا ان نقول: لم يفتنا تماماً ما ضيعناه وبفضل الجزء الذي بقي تحت تصرفنا رحنا نبحث عن الآخر؛ لأن ذاكرتنا شعرت بانها عاجزة تماماً عن ان تتصوّره بكليته كما تعودت ذلك وكانها وقدحُرِمتْ هذه العادة واصبحت عرجاء، فراحت تطالب بالعضو الناقص؟

ذاك ما يحدث لنا حين نفكر بشخصٍ او حين ننظر اليه؛ ويظل اسمه غائباً عن بالنا؛ ونبحث عن اسمه حتى اذا ما خطر لنا اسمٌ سواه لا نقرنه بشخصه؛ اذ لا ذكر لهذا القران في عقلنا. ونطرحه جانباً الى ان

يحضر اخيراً الاسم المعروف الذي لا يمكن ان نطمئن الى سواه. ولكن من اين يخرج هذا الاسم ، ان لم يكن من ذاكرتنا ! وعندمـــا نعرفه بفضل مساعدة الآخرين ، فمنها ايضاً يخرج ؛ وهو ليس جديداً الينا لنثق به ؛ كلا اننا نتذكَّره ونصرح به علناً ؛ لو انه امّحى تماماً منا لما كان ممكناً ايقاظ اي ذكرٍ له فينا . كل من تذكر انه نسي شيئاً اقرَّ بانه لم ينسه بكليته والشيء المفقود لا نبحث عنه إلا اذا بقينا نذكره جزئياً .

وعليه ، فكيف ابحث عنك يا الهي؟ حين ابحث عنك انت ، يا الهي ، عن السعادة ابحث ! يا ليتني ابحث عنك لكي تحيا نفسي ؛ لأن جسدي يحيا بنفسي ونفسي بك ! كيف يمكنني منذ الآن ان ابحث عن السعادة طال ما اني لا املكها ولا قلت ولا اضطررت الى القول : « حسبي انها هناك » وكيف ابحث عنها؟ أبالتذكُّر؟ كأني بعد ان فقدتُها بقيتُ ذاكراً لنسياني ؟ وما السعادة ؟ شيءٌ يريده الجميع ويتوقون اليـــه . فأين عرفوه ليريدوه ؟ واين رأوه ليحبوه بهذا المقدار ؟ لا شك اننا له مالكون : ولكن كيف ؟ لا اعلم . هناك مقياس للسعادة ومن حصل عليه حصل على السعادة ! اناس يعرفون السعادة بالأمل ؛ فهم لا يعرفون منه سوى كمية اقل مما للذين قد حصلوا عليه الآن انما لا يزالون اوفر حظاً ممن لا يعرفون السعادة لا بالواقع ولا بالأمل وهؤلاء المحرومون يعرفون شيئاً من السعادة ؛ وإلاّ لما تاقوا بارادة صادقة الى السعادة . اجل ، انهم يعرفونها ولكن ، كيف ذلك؟ لا اعلم. لا اعلم كيف يعرفونها ؛ وان ما يشغل بالي هو ان اعرف ان كانت هذه المعرفة متركِّزةً في الذاكرة : ان كانت فيها كنا سعداء . أكلُّ واحدٍ منا سعيد أمْ ذلك الانسان الاول وحده الذي ارتكب الخطيئة وبه متنا ومنه ولدنا في الشقاء ؟ لا اريد ان ادرس هذه المسألة في الوقت الحاضر ؛ انما ابحث عما اذا كانت فكرة الحياة السعيدة موجودة في الذاكرة. اذا كنا لا

نعرفها فلا يمكننا ان نحبها ؛ والواقع هو اننا ما نكاد نسمع بها حتى نعترف كلنا بأننا الى المسمَّى نتوق ؛ وجرس اللفظة لا يغري الرجل اليوناني الذي يسمعها باللاتينية ولا يتحرك له شعور لأنه لا يفقه شيئاً مما يجري ؛ اما نحن فاننا نشعر باللذة ذاتها التي يشعر بهـا هو عندما يسمعها باليونانية لأن المسمَّى بحدّ ذاته ليس لاتينياً ولا يونانياً ويحلم به اليونان واللاتين وكل الناس اياً كانت لغتهم . انه لشيءٌ يعرفه الجميع ولو قـدر لنا ان نسألهم سؤالاً واحداً : أيرغبون في السعادة ؟ لأجابوا بالاجماع ودون تردُّد ، نعم . فلو لم تكن ذاكرتهم محتفظة ببعض الشيء من هذه الحقيقة التي يصبون اليها لكان اجماعهم مدعاةً للشك .

وهذا التذكار ، أهو ممَّا يبقى في بال من رأى قرطاجة ؟ كلا : ليست السعادة جسماً ولا يمكن ان تقع تحت النظر .

أهو ممَّا يبقى في ذاكرتنا عن الأعداد؟ كلا ، لأن من يعرف الاعداد لا يتوق الى ان يحصل عليها ، بيد ان معرفتنا للسعادة تدفعنا الى حبها ونتوق اليها لنصير سعداء .

أهو ممَّا نحتفظ به من قواعد الفصاحة ؟ كلا ، لأنه متى سمع الانسان هذه اللفظة وان لم يكن فصيحاً يفكر بالفصاحة عينها ؛ وعديدون هم الذين يتوقون اليها – ممَّا يدل على المامهم بها . وبالحواس الجسدية عرفوا فصاحة الآخرين وذاقوها وتمنوا لو يتمتعون بها وهذا دليل على معرفتهم الباطنية لها ولو لم يذوقوها لما تمنّوا ان يصبحوا هم ايضاً خطباء. امَّا السعادة فلا نستطيع ان نكتشفها لدى الآخرين بحسنا الجسدي .

اهو من نوع ذكريات الفرح ؟ قد يكون ؛ اتذكَّر ، في الحزن ، فرحي كما اني في الشقاء افكر بسعادتي ؛ ولكن فرحي لا يقع تحت الحس : ما رأيته ولا سمعته ولا شممته ولا تذوقته ولا لمسته قط بل في نفسي اختبرته

عندما فرحتُ وبقيت معرفتي به مرتبطةً بذاكرتي كما اتذكرها تارة مكرهاً واخرى مغتبطاً وفقاً لمختلف الاشياء التي بواسطتهـــا اتذكر كيف اتتني . حدث لي ان شعرت بنفسي في ظروف مخجلة لا يمكنني ان اذكرها اليوم دون كراهية وخوف . واحياناً لاسباب شرعية وشريفة يرافقني تذكارها مع الأسف . ولما كانت تلك الاسباب تمنع عني احياناً كنت اتذكر فرحي الماضي حزيناً ، كئيباً .

جميع الناس يتوقون الى السعادة

ولكن اين ومتى عرفت بالاختبار سعادتي لأذكرها واحبها واتوق اليها ؟ وهذا لا يختص بي وحدي ولا بنخبة ضئيلة لأننا كلنا ، اجل كلنا ، نريد ان نكون سعداء . ان معرفة مضطربة لا توحي الينا بهذه الارادة الثابتة . وماذا يعني هذا القول : سلوا رجلين ان كانا يريدان ان يحملا السلاح ؛ قد يجاوب احدهما بالايجاب والآخر بالنفي . ولكن سلوهما ان كانا يريدان السعادة فيجيبا كم بلا تردد هذا اجلُّ ما نصبو اليه . وان كان احدهما قد حمل السلاح والآخر رفض فرغبةً في السعادة ؛ هذا يختار هذه الحالة وذاك تلك وكلاهما يتفقان على هذه النقطة وهي سعادتهما كما قـــد يتفقان في جوابهما لمن يسألهما ان كانا يرغبان في السرور . هذا السرور عينه هو ما يسميانه سعادة : الهدف الوحيد الذي يتوق اليه كل انسان بطريقته الخاصة حصولاً على الفرح بانه لم يعرف السرور فاننا نجده في الذاكرة ونعرفه حين نسمع لفظة سعادة .

السعادة بالله : غبطة بالحقيقة

حاشا لقلبي ، حاشا لقلب عبدك الذي يعترف لك ايها الرب ان يفكر بان كلَّ سرور يصيّره سعيداً ! هناك غبطة لا توهب للاشرار ؛ بل للذين

يخدمونك حباً بك وانت هو تلك الغبطة . والسعادة هي ان يفرح الانسان بك ولاجلك وبسببك ؛ اجل، تلك هي السعادة ولا سعادة إلاّها وكل من يتصورون سعادة سواها يسعون في اثر فرح مخالفٍ للحقيقة ؛ ومع ذلك نجد دوماً شكلاً للفرح لا تفتأ ارادتهم تجدُّ في اثره .

اليس من الثابت ان الجميع يطلبون السعادة لأن من لا يبحثون عن فرحهم فيك – يا من انت وحدك الحياة السعيدة – لا يبغون منـــه الحياة السعيدة ؟ او انهم لا يبغونها كلهم ولكن كما ان الجسد يشتهي ما هو ضد الروح والروح ما هو ضد الجسد فهم لا يعملون ابداً ما يريدون ويسقطون الى ما يقدرون عليه ويرضون به طال ما ان ما لا يقدرون عليه لا يريدونه بارادة قوية حصولاً عليه .

اني اسألهم جميعاً : اين يؤثرون فرحهم ؟ أفي الحقيقة ام في الكذب ؟ لا يترددون طويلاً في ان يفضلوا الحقيقة على ان يثبتوا رغبتهم في السعادة .

وعليه فالفرح الناتج عن الحقيقة سعادة ؛ لأنه الفرح الآتي منك ايها الحقيقة عينها يا الهي ونوري وخلاص وجهي يا الله : بلى ، كلهم يريدون هذه الحياة السعيدة ، هذه الحياة وحدها السعيدة ، كلهم يريدونها وهذا الفرح كلهم يريدونه .

عرفت كثيرين يريدون ان يخدعوا الآخرين ولم اجد واحداً يريد ان يخدع نفسه وانى لهم هذه الفكرة عن الحياة السعيدة ، إلاّ من الينبوع عينه الذي استقوا منه الحقيقة ؟ وايضاً انهم يحبون الحقيقة طال ما لا يريدون ان يكونوا مخدوعين واذ يحبون الحياة السعيدة التي ليست الا الفرح الناتج من الحقيقة فمن الطبيعي اذاً ان يحبوا الحقيقة ايضاً . ولو لم يكن في ذاكرتهم ذكرٌ لها لما احبوها .

ولِمَ لا يجدون فيها فرحهم ؟ ولِمَ لا يكونون سعداء ؟ لأنهم منهمكون

كثيراً باشياء واشياء تجعلهم أشدَّ تعاسة ممَّا يوفر لهم من السعادة هذا التذكار الواهي . « لا يزال لدى النــاس نور خفيف » فليمشوا ، آه ! فليمشوا « لئلاّ يدركهم الظلام » !

ولِمَ تولّد الحقيقة البغضاء ؟ ولِمَ يرون في من يبشرُ بها باسمك عدوًّا بينا يحبون الحياة السعيدة التي ليست سوى الفرح الناتج من الحقيقــة ؟ حب الحقيقة ، بلغ حداً جعلَ من يحبون مــا ليس حقيقةً يريدون الحقيقة موضوعاً لحبهم . وبما انهم لا يرضون بان يخطئوا ، لا يرضون بأن يُكشَفَ ضلالُهم . ولهذا فانهم يبغضون الحقيقة ، حباً بما يظنونه حقيقةً . هم يحبون نورها ويكرهون تأنيباتها ؛ وبمــا انهم لا يرضون الخطأ لأنفسهم ويريدونه لسواهم ، يحبونها حين تنكشف لهم ويبغضونها حين تكشف عن مخبآتهم؛وهذا هو عقابها المنتظر : يأبون ان تكشف عنهم ،ومع ذلك تكشف عنهم ، وتظل محجوبة .

اجل ، هذه هي حال القلب البشري ! إنــه اعمى وكسول ، حقير وقبيح ويريد ان يبقى خفياً ؛ ولا يرضى بان يظل شيء مخفياً عنه ؛ فلا يستطيع ان يخفى عن نظر الحقيقة بينا الحقيقة خارجة عن مدى نظره . وبرغم شقائه يفضل ان يجد فرحه في الحقيقة لا في الكذب ؛ وسيكون سعيداً بلا ضوضاء ولا عراقيل وسيتمتع بالحقيقة وحدها ، مصدر كل حقيقة .

الله هو خيرنا

هاك مسافات ذاكرتي التي اجتزتها باحثاً عنك يا الهي وما وجدتك خارجاً عنها. كلا لم اجد فيك شيئاً إلاّ وتذكّرته مذ اليوم الذي فيه تعلمت ان اعرفك. فمنذ ذاك الحين لم أعدْ أنساك. وحيث وجدت الحقيقة وجدت

الهي الحقيقة عينها، ومذ عرفتُ الحقيقة ما عدت نسيتها . ولهذا منذ عرفتك لا تزال ثابتاً في ذاكرتي، فيها اجدك حين اتذكرك واغتبط بك. تلك هي سعادتي وهبتنيها برحمتك ، نظراً لحقارتي .

ولكن في اي مكان من ذاكرتي تقيم يا رب ؟ اجل ، اين تقيم ؟ ايَّ مسكن جعلت لك فيها ؟ واي معبد انشأتَ لذاتك فيهـــا ؟ لقد اوليتَ ذاكرتي شرف الاقامة فيها ولكنني أتساءل عن الجزء الذي فيه تسكن . وعندما ذكرتك ارتفعت فوق جميع اجزاء ذاكرتي التي يشاركني فيها الحيوان وما وجدتك قط بين صور الاشياء الجسدية ، وانتقلت الى حيث وضعت عواطفي فلم اجدك ثم ولجت الى المقام المحفوظ للعقل في ذاكرتي (الروح يذكر نفسه) ولكنني لم اجدك وذلك لأنك لست صورة جسدية ولا عاطفة كائن حي كالفرح والحزن والرغبة والخوف والذكريات والنسيان الخ... كما وانك لست العقل بل رب العقل والهه . كل مـــا سبق ذكره يبقى عرضة للتغيير اما انت ايها الأزلي فانك تبقى فوق جميع تلك الاشياء. ولقد تنازلت وسكنت في ذاكرتي منذ عرفتك .

ولماذا ابحث عن الموضع الذي فيه تقيم كأن ذاكرتي تتضمن امكنة يتميز بعضها عن بعض ؟ من الثابت لدي انك تسكن في ذاكرتي لأني اذكرك مذ اليوم الذي فيه عرفتك وفيها اجدك حين ابحث عنك .

ولكن اين وجدتك فعرفتك ؟ قبل ان اعرفك لم تكن في ذاكرتي . ولكن اين وجدتك فعرفتك ان لم اكن قد وجدتك في ذاتك فوقي ؟ لا مسافة بيننا وبينك . ان ذهبنا اليك او ابتعدنا عنك فلا مسافة بيننا . انت الحق وفي كل مكان تقيم لتجيب من يستشيرونك وفي الوقت ذاته تستجيب جميع الطلبات المرفوعـــة اليك . انت تجيب بوضوح ولكنهم لا يسمعونك جيداً . انهم يستشيرون في ما يريدون ولكنهم لا يسمعون دوماً ما يريدون .

اما الخادم الممتاز فهو الذي لا يهتم لأن يسمع منك ما يريد بقدر ما يهتم لأن يريد ما يسمع منك .

لقد احببتك متأخراً ايهـــا الجمال القديم ، الحديث ، اجل ، متأخراً احببتك ! انت كنت في داخلي وانا خارجاً عن نفسي ! وفي الخارج بحثتُ عنك طويلاً وثبتُ في قباحتي نحو الجمالات التي كونْتَها . انت كنت معي وانا لم اكن معك ؛ واستوقفتني بعيـــداً تلك الاشياء التي لولا وجودها فيك لما كان لها وجود . دعوتني وصرخت بي فانتصر صوتك على صممي وسطع نورك فبدَّد عماي وفاح اريجك فتنشَّقتُه وها انني اليك اتوق ، وذقتك فجعت وعطشت اليك ومسستني فاتقدت شوقاً الى سلامك .

حين اتحد بك ، بكليتي ، افقد كل شعورٍ بالألم والتعب ؛ وتمتلئُ حياتي منك وتصبح حياة صحيحة ! أنت تخفف عن كاهل من تملأه وانا الآن لست ممتلئاً ؛ ولهذا فاني اثقـِّلُ على ذاتي. ان افراحي التي ابكيها تقاوم احزاني التي بها اغتبط ؛ ولمن النصر ؟ لا اعلم ...

أواه ! ترأف عليَّ ايها الرب ، انا الفقير ! انظر الى قروحي فها هي مكشوفة لديك ؛ انت الطبيب وانا المريض ، انت الرحيم وانا الشقيّ ، أليست حياةُ الانسان على الارض امتحاناً ؟ ومن يبغي المشاكل والصعوبات ؟ تأمر الانسان بان يتحمَّلها لا بأن يحبُّها . لا احدَ يحب ما يتحمَّل وان احبَّ ان يتحمَّل . وان اغتبط الانسان بحملـــه فيظل يفضل ألاّ يتحمل شيئاً .في ضيقي ابغي سعادتي وفي سعادتي اخاف من الضيق؛ وهل من حل وسط بين هاتين الحالتين حيث لا تكون حياة الانسان تجربة ؟ الويل لعُسرِ العالم . اجل الويل له اولاً وثانياً ، بسبب الضيق الذي يخشى عليه منه والقـِدَم الذي يفسد الغبطة به . الويل للعسر في العالم ؛ والويل له مرّة واثنتين وثلاثاً بسبب الميل الـــذي يظل في قلب الانسان نحو السعادة ؛

وبسبب تجاربه القاسية والاخطار التي تعترضُ صبر الانسان ! اليست حياة الانسان على الأرض تجربةً لا تنقضي ؟

رجائي كله في رحمتك الواسعة هبْ ما تأمر به ومر بما تريد . تأمرنا بالعفة كما قال احدهم : « ولما علمتُ بأني لا اكون عفيفاً ما لم يهبني الله العفة وقد كان من الفطنة ان أعلم ممن هي هذه الموهبة » (الحكمة٨ : ٢١). العفة تعيد تركيبنا ، العفة تقودنا من جديد الى الوحدة التي خسرناها يوم تبعثرت قوانا . قلَّ ما يُحبُّك من يُشرك في حبك آخر لأنه لا يحبك من اجلك . ايها الحب الذي يشتعل دوماً ولا ينطفىء ابداً ؛ يا الهي ، ايتها المحبة أشعلني ! تأمرني بالعفة : هبني ما تأمر به ومر بما تريد .

تأمرني حقاً بأن اتنزه عن شهوة الجسد وشهوة العين وطمع العالم .

الشهوة الجسدية

لقد حرَّمت كل علاقة زواجية غير شرعية ؛ واما الزواج وان كنتَ قد أذنت به فقد اظهرته دون حالة اخرى ؛ وبنعمتك اخترت تلك الحالة قبل ان اصبح الموزع لسرك ؛ بيد ان صُوَرَ تلك الملذات لا تزال حية في ذاكرتي وعنها تكلمتُ طويلاً . عاداتي الماضية ثبتتُهـــا في ذاكرتي ان استيقظتُ تقدمتْ مني ضعيفة ، شاحبة اللون وان رقدتُ هيَّجتْ فيَّ اللذة والرضى وأوهمتني بأني آتٍ الفعل عينه . تأثيرها قوي على نفسي وان كانت كاذبة ، تؤثر على جسدي هذه الرؤى الوهمية فتنال مني نائماً ما لا تستطيع الحقائق الجلية ان تناله مني مستيقظاً . هل أنا غيري ايهـــا الرب الهي ؟ خلافٌ شديدٌ بين البرهة التي استسلم فيها لسلطان الكرى وتلك التي اعود فيها الى اليقظة . واين هو العقل الذي يساعدني في يقظتي على مقاومة تلك التصورات ولا يدعني اتراجع امام هجماتها الحقيقية ؟ هل يُطبق مع جفني ؟ هل ينام مع الحواس ؟ نقاوم غالباً في نومنا ولا ننسى مقاصدنا الثابتة ونظل

بها متمسكين ولها امناء ؛ ونرفض كل لذة مماثلة ! فمن اين لنا ذلك ؟ ومع ذلك كله فالبون شاسع لأنه عندما تضعف مقاومتنا نجد في يقظتنا راحة ضميرنا فنشعر اننا لم نعمل نحن ما جرى فينا فأسفنا له اشد الأسف ؛ بل لقد حدث على رغم منا .

اليست يدك ايها الكلي القدرة يا الله قادرة على ان تشفي نفسي من جميع اسقامها وتطفئ بكثرة رحمتك، نزوات نفسي ، في اثناء الرقاد؟ انت تفيض دوماً ، يا رب ، نعمك علي لكي تتحرر نفسي من دبق الشهوة وتتبعني اليك ولا تثور مذ الآن ضد ذاتها ولا تتم في نومها هذه الحركات المخجلة المحطة التي تهز جسدي بصورها الحسية ولا تعود ترضى بها البتة .

لا تجربني يا رب بتجربة كهذه — وان ضعيفة واهية تقدر ارادتي ان تسكتها بعد رقادٍ نقي طاهر ولا تجعلها سبباً لايقاظ اللذة فيَّ ، لا في حياتي الحاضرة ولا في المستقبلة وطلبي هذا، بسيط بالنسبة اليك ايها الكلي القدرة « يا من تقدر ان تستجيب لنا اكثر مما نسأل وندرك » .اما الآن فقد قلت، لربي العطوف، ضعفي، مبتهجاً برعدةٍ بمواهبه وباكياً على ما فيَّ من عيوب ونقائص ؛ وارجو ان تكمل فيَّ مراحمك فأحصل على السلام التام فيك باطناً وظاهراً عندما يُبتلع الموت بالغلبة .

ولي من نهاري ضنك آخر فهل يكتفي الله به؟ نجدد بالأكل والشرب، ما نفقد كل يوم من قوانا الجسدية حتى تهلكَ الطعامَ والمعدةَ وتشبعني منك شبعاً غريباً وتُلبسَ هذا الجسدَ الفاسدَ ما لا يفسد البتة .

شهوة الاكل والشرب

اجد لذتي اليوم في سدّ الحاجة الضرورية؛ واجاهد ضد هذا الميل فيَّ لئلاّ اسقط في فخاخه ؛ انها لحربٌ يومية ؛ سلاحها الصوم ؛ به اروّض جسدي واستعبده ؛ وبالشهوة اطرد اوجاعي : الجوع والعطش ؛ هي

تحرق وتقتل كالحمى ان لم تعالجها بالاطعمة ولكن كما ان هذا العلاج هو دائماً تحت تصرفنا بفضل هداياك المقوية التي وضعتها في خدمة ضعفنا ماءً وسماءً وارضاً هكذا فالملذات آفةٌ علينا .

علمتني ان لا آخذ الأطعمة إلاّ علاجاً ؛ ولكن عندما انتقل من هذه الحاجة المؤلمة الى لذة الشبع اتعرّض في طريقي لخطر الشهوة. فالانتقال من الحاجة الى الشبع لذة وليس لي سواها بلوغاً الى حيث تفرض عليّ الضرورة ذلك ؛ من يأكل ويشرب ويحافظ على حياته ويصحب هـــذه الضرورةَ لذةٌ خطرةٌ تحاول دوماً ان تسبقها وتنتزع لها مني ما اريده واصرح به حفاظاً على صحتي .

ويختلف القياسُ في الحالين ، ان ما يكفي الصحة لا يكفي اللذة ؛ وقد نتساءل غالباً عمَّا اذا كانت الحاجةُ الطبيعيةُ تستلزم شبعاً ضرورياً ام هي الشهوة الحسِّية تطالب بذلك ، عن رياءٍ وخبث ، خدمةً لها . ان نفسنا التاعسة قد وَجَدَتْ غبطتَها في هذا الشك وسُرَّت لانها لقيت عذراً جوهرياً في صعوبة معرفة الكمِّية اللازمة للمعيشة ولحفظ الصحة . تتذرَّع الشهوة بمستلزمات الصحة لتستوفي حقها شيئاً فشيئاً ، وانا احاول يومياً ان اقاوم تلك التجارب وادعوك لمساعدتي واعرض لك مشاكلي المعقَّدة في تفكيري الحالي الغامض .

واسمع صوت الهي يأمرني قائلاً : «لا تثقلوا قلوبكم بالسكر والشراهة». بعيد هو السكر عني ولن تسمح له رحمتك بالدنو مني ؛ اما الشراهة فقد ولجت الى بيت خادمك . ابعدها عني برحمتك ! لأنه لا احد يمكن ان يكون عفيفاً ما لم يهبه الله العفة . صلينا فاعطيتنا الكثير وكل ما وهبتنا قبل ان نصلي فضلٌ من لدنك وان كنا نؤدي عنه الحساب فهذا ايضاً فضلٌ منك. انا ما سكرت قط ولكني اعرف سكارى ارتدوا الى الصواب بفضلك.

ان كان بعض الناس اليوم غير ما كانوا عليه بالامس فهذا من صنيعك وان لم يكونوا اليوم ما لم يكونوا بالأمس ، فهذا ايضاً من صنعك ، وان عرف هؤلاء واولئك لمن يعود الفضل فهذا ايضاً منك .

سمعت منك كلمة اخرى : « لا تكن تابعاً لشهواتك بل عاصِ اهواءك » (سفر يشوع بن سيراخ ١٨ : ٣٠) وبفضل نعمتك سمعت ايضاً كلمة اخرى فاحببتهـا كثيراً وهي : « إن اكلنا ، لم نزدَدْ وان لم نأكل لم ننقص » (١ كور ٨ : ٨) يعني انني لا اصبح غنياً في تلك الحال ولا فقيراً في هذه . وهذه كلمة ثالثة : « تعلمت ان اكون قنوعاً بنصيبي واعرف ان اتضع واعرف ان أرغـد واستطيع كل شيء في من يقويني » (فيليبي ٤ : ١١) « ذاك هو جندي المعسكر السماوي يختلف عنا نحن التراب ! ولكن اذكر ايها الرب اننا تراب» وانك من هذا التراب خلقت الإنسان فضاع ثم وُجد ولم يجد فيه الرسولُ قوته لأنه لم يكن سوى تراب مثلنا . ان روح إلهـامك هو الذي املى عليه الكلمات التي احبها : « اقدر على كل شيء في من يقويني » قوّني لكي اقدر ؛ هبني ما تأمر به ومرني بما تريد. الرسول يعترف بانه نال كل شيء منك وحين يفتخر ، بالرب يفتخر . اني اسمع آخر يسأل قائلاً : ابعد عني ملذات البطن. حلٌ واضح اذاً ايها الاله القدوس ؛ انك انت تعطي عندما يحدث ما تريد ان يحدث .

علّمتني ايها الاب الصالح « ان كل شيء نقي للانقياء ولكن يسيءُ الانسان الذي يسبب شكاً بطعامه » (رومية ١٤ : ٢٠) . « ان كل ما خلقته حسن ولا شيء مرذول ممّا يُتناول بشكر » (١ تيمو ٤ : ٤). « وان الطعام لا يقربنا الى الله» (١ كور٨ : ٨) وانه لا يحكم علينا احد في المأكول والمشروب » (كولو ٢ : ٦) « وان من يأكل لا يحتقر من لا يأكل ومن لا يأكل لا يدين من يأكل » (رومية ١٤ : ٣) . ذاك ما تعلمته والشكر لك

عليه والمجد لك يا الهي ويا معلمي يا من اسمعت اذني وانرت قلبي. خلصني من كل تجربة. انا لا اخشى نجاسة الطعام بل الشهوة النجسة اياها اخشى؛ وانا عارف انك سمحت لنوح بأن يتناول من كل لحم يؤكل وان ايليا استعاد قواه لمّا تناول اللحم وان يوحنا في نسكه العجيب لم يتنجس من الحيوانات، من الجراد الذي كان يأكله ولكني اعلم كذلك ان عيسو وقع فريسة ميله الجامح الى طبخة عدس وان داود أنّب نفسه التي اشتهت الماء وان ملكنا تجرّب لا تجربة لحم بل خبز. والشعب ذاته في الصحراء استحق التوبيخ؛ لا، لأنه اشتهى اللحم، بل لأنه من جراء تلك الرغبة، تذمّر على الرب.

في غمرة هذه التجارب اجاهد كل يوم ضد تجربة الاكل والشرب التي تختلف تماماً عن لذة الشهوة الجسدية التي يستحيل استئصالها تماماً والانقطاع عنها مذ الآن كما صنعت بلذة الاكل والشرب. يلزمني مهدئ لحنكي اضبطه احياناً واحياناً اترك له العنان. ولكن ايها الرب من ذا يقدر ان يضبط نفسه دوماً ضمن حدود الحاجة؟ وهذا، ان وُجِد، يكون عظيماً ويمجد اسمك! اما انا فلست ذاك الانسان، انا خاطئ امجّد اسمك؛ ويتوسل اليك عني، انا الخاطئ، ذاك الذي قهر العالم واحصاني بين اعضاء جسده المريضة لان عينيك نظرتا الى عيوبه وفي سفرك كُتِبتْ جميع الاكوان.

شهوة الشم

العطور المغرية لا تؤثر علي: ان غابت، لا ابحث عنها؛ وان حضرت فلا احتقرها؛ انما اظل دوماً على اهبة الاستغناء عنها؛ ولعلني على خطأ أوهم نفسي بغير الحقيقة. انني اشكو من ظلام عميق فيَّ يخفي عني استعداداتي الصحيحة؛ فحين يتساءل عقلي عن قواه الذاتية لا يثق

بذاته لأن خفاياه محجوبة عنه حتى يكشف له عنها الاختبار ؛ وعليه فلا يجوز لأحد ان يعتبر نفسه في سلام طوال حياته الحاضرة وهي «تجربة دائمة». من كان شريراً واصطلح يبقى عرضة للسقوط في الشر والعكس بالعكس. رجاؤنا الوحيد وثقتنا الوحيدة ووعدنا الصادق هو رحمتك يا الله.

شهوة السمع

اقتسرتني شهوات السمع واخضعتني لها بقسوة ولكنك فككت قيودها وخلصتني منها. بذا اليوم اعترف لك، اصغي بشيءٍ من الغبطة والانشراح الى الانغام التي تحييها كلماتك على صوت مغنٍ شجيٍّ مهذب، بيد انني لا استسلم اليها بكليتي لئلاّ يصعب عليَّ مفارقتها ساعة اريد. حين اقبلها واقبل الافكار التي تحييها فيَّ تطالبني بمقامٍ لها في قلبي لائقٍ بها، انما بعد لأي احتفظ لها بالمقام المناسب، ويُخيَّل اليَّ انني غالباً ما اغالي في اكرامها واعرف جيداً ان تلك الكلمات المقدسة المغنّاة على تلك الانغام تشعل فيَّ نيران التقوى والتديُّن اكثر من ذي قبل لأن احساسات النفس تجد كل واحدة منها نغمها الخاص في الصوت وفي الغناء، وتجد نوعاً غريباً من التجانس الخفي ؛ لكن لذة الحس التي لا يجوز للانسان ان يتساهل معها تخدعني غالباً حين ترفض الحساسيةُ المرافقة للعقل ان تتبعه ومع ان وصولها مرهون بالعقل وحده، تحاول ان تتقدم عليه وتقوده : ذاك هو موطن الخطأ فيَّ دون ان اعلم ؛ ولا ادركه إلاّ بعد فوات الاوان.

واني اغالي احياناً في اجتناب تلك المفاجآت وخطإي ينتج من قساوةٍ غير عادية فأحياناً اود بكل قواي ان اتحاشى، حتى في الكنيسة، الانغامَ الشجية كمزامير داود اذ يخيَّل الي ان اسلوب اثناسيوس اسقف الاسكندرية اقرب الى الحقيقة وفقاً لما قيل لنا اذ كان يأمر بان تتلى القاءة بصوت مستطيلٍ لا ترنيماً.

مع اني حين اتذكر الدموعَ التي كانت تذرفها عيناي لسماعي ترانيم الكنيسة في عهدي الأول بالإيمان الذي عاد فعاش ، واليوم اتأثر بالكلام المُلقى اكثر مما اتأثر بالاناشيد ، ولا سيما حين يكون الصوت نقيـاً صافياً يستطيل ، وفقاً للاصول ، ادرك من جديد فائدة ذلك المشروع .

وعليه اتأرجح بين خطر اللذة الحسية وأثرها الجلي الواضح المؤدي الى الخلاص وقبل ان اصدر حكماً مبرماً استحسن الغناء في الكنيسة ؛ وتساعدُ الاسماعُ المشنَّفةُ النفسَ المتقلبة في ضعفها على الارتفاع الى تقوى مقبولة ؛ وعلاوة على ذلك فحين أتأثر بالأناشيد اكثر من الكلام المنشد، فذلك خطأ مني ؛ اقر بانه يستوجب الندامة وافضل ان لا اسمع الترنيم .

ذاك ما كنت عليه ! اذرفوا الدمع معي واذرفوه عليَّ يا من تشعرون في قلوبكم بالعواطف الفاضلة التي منها تخرج الاعمال الصالحة ؛ لأنكم انتم الغرباء عنها لا تهتمون لها اما انت ايها الرب الهي فاصغ اليَّ وارمقني بنظرك ؛ انظرني وارأف بي واشفني . لقد اصبحت لذاتي ، تحت ناظريك لُغْزاً وهذا هو ضعفي .

تبقى شهوة عيني الجسديتين . يجب عـلى اذني هيكلك التقيتين ، الشقيقتين ان تصغيا الى ما سأعترف به الآن ، اذ ذاك انتهي من تجارب الشهوة اللحمية التي تحيط بي من كل جانب ، برغم زفراتي وشوقي الحار الى ان اتلبس بمسكني الذي في السماء .

شهوة العينين

تهوى عيناي الصورَ الجميلةَ المختلفة والالوان الساطعة الحديثة ويا ليتها لا تأسر نفسي لتظل اسيرةً لله وحده : هو خلق هـذه الاشياء الوافرة الجمال ولكنه هو وحده خيري ، لا هي . طوال النهار وطوال يقظتي لا تنفك تُغريني ولا تترك لي راحة ؛ هذه الراحة التي تمنحنيها الاصوات الشجية

والعالم بأسره عندما يسكت كل شيء لا تعطينيها سلطانة الالوان نفسها ، هذا النور الذي يغمر كل ما نراه ينساب اليّ في نهاري بألف شكل وشكل وان كنت عنه منهمكاً بأشياء اخرى فيداعبني ويدخل اليّ بقوة حتى لو حرمت منه في الحال شعرت بشوقٍ وحاجة اليه وان طال الحرمان القى نفسي في غمٍ شديد .

ايُّها النور الذي رآه طوبيا لمَّا فقد عينيه الجسديتين وراح يعلّم ابنه على طريق الحياة ويتقدمه فيها سائراً بخطى المحبة التي لا تضيع البتة ؛ ايها النور الذي رآه اسحق لما استحق بالرغم من الحجاب الثقيل الذي اسدلته الشيخوخة على عينيه الجسديتين ، لا ان يبارك اولاده بعد معرفتهم بل ان يعرفهم وهو يباركهم ! ايها النور الذي رآه يعقوب لما خانه نظره لكبر سنه فالقى اشعة قلبه النيّر على ذريات الشعب المقبل المجسَّم في بنيه فوضع يديه على حفدته من ابنه يوسف ، وضع يديه بشكل صليب لا كما اراد ابوهم الذي لا يرى الاشياء الا من الخارج ؛ بل وفقاً لفطنته الباطنية ! ذاك هو النور الحقيقي الصحيح : انه واحد ولا يؤلف مع من يحبونه ويريدونه سوى شخص واحد .

اما هذا النور المادي الذي كنتُ اتحدَّثُ عنه فانه يفيض على الحياة عذوبةً خطرة تُفرِحُ عشّاقَ العالم العميان ؛ واما الذين يعرفون ان يمجدوك بسببه ، ايها الاله الخالق لكل شيء ، فيجمعون اشعته في الأناشيد التي يرفعونها اليك بدل ان يقعوا تحت نير عبوديته في سُبات أنفسهم . هكذا اريد انا ان اكون ؛ اني اقاوم مغريات العين لئلاّ تتعثّر بها رجلاي السائرتان في طريقك وارفع اليك عينيّ اللاحسيتين لكي تخلّص من الشبكة رجليّ . انت يا رب لا تنفك تخلصهما لانهما غالباً ما تشدان فيها ؛ انت لا تنفك تخلصني وانا تستوقفني في كل برهة الفخاخ المنصوبة لي في كل مكان

« لانك يا حافظ اسرائيل لا تنام ولا تَوْسنُ » (مزمور ١٢٠ : ٤) .

كم اضاف الناس من مغريات على ما يسحر النواظر بواسطة الفن في شتى مواضيعه ؛ كالتفنن في الملابس والاحذية والاواني وما اليها من مختلف الاشياء كاللوحات والرسوم التي ليست ضروريةً للاستعمال العادي ولا تتلاءم والتقوى ! هؤلاء يتمسَّكون في الظاهر باعمال ايديهم وفي الباطن يتخلَّون عن خالقهم ويهدمون ما حقَّق فيهم من معجزات .

اما انا يا الهي ومجدي فاني في ذلك ايضاً اجد نشيداً ارفعه اليك وذبيحةَ شكرٍ اقدِّمها لمن ضحَّى في سبيلي ؛ اذ ان الجمالات التي تنتقل من نفس الفنانِ وتتجسم صوراً بين يديه ، صادرةٌ عن ذلك الجمال الأوحد الذي يسمو فوق نفوسنا واليه تتوق نفسي ليل نهار ؛ المبدعون للجمال الخارجي والباحثون عنه يستقون منه وحده مبدأ القبول به ، لا طريقة استعماله ، بما يليق ويحسن . ومع ان الطريقة موجودة فيه فلا يعرفون ان يشاهدوها والا لما ذهبوا الى ابعد مما هم فيـــه بل احتفظوا بقواهم لأجلك بدلاً من ان يضيّعوها في اثر ملذات فارغة .

انا الناطقُ بهذه الحقائقِ والمشاهدُ لها بوضوح ادع قدميَّ تتعثران في شباك الجمالات وانت تخلصني منها ايها الرب ؛ اجل انك تخلصني منها « لان رحمتك امامي في كل حين » ؛ في شقائي استسلم اليها فتنجيني منها بواسطة رحمتك ، تارةً ، على غير علمٍ مني ، وذلك على اثر سقطة خفيفة ، وطوراً بوجعٍ عندما يكون التصاقي بها شديداً .

وهنا نوع من التجربة جديد اشد خطراً وتعقداً من غيره ؛ عدا شهوة اللحم القائمة على لذة حيوانية لجميع الحواس ، والتي يعتادها العبيد المبتعدون عنك ، في النفس نوعٌ آخر من الشهوة ؛ سبيلها على الحواس الجسديــة ذاتها ترتكز على اختبارٍ يكون اللحم فيه اداة لا على غبطة لحمية. كل ذلك

فضولٌ وبطلان يتلبسان بالمعرفة والعلم . ولكن بما انها من حيث الجوهر قابلية المعرفة وبما ان للعين بين الحواس اهميةً اولية للمعرفة فقد سميت في كلام الله « شهوة العين » .

مهمة العين ، النظر ؛ ولكننا نستعمل هذه الكلمة لسواها من الحواس ؛ فعندما نستعملها لا نقول « اسمع كيف يبرق » ولا « شمَّ كيف يلمع » ولا « ذق كيف يسطع » ولا « جسَّ كيف يشرق ». ان لفظة نظر تناسب كل هذه التأثرات ولهذا نقول : « انظر هذا النور (هذا من خصائص الاعين وحدها) وهذا الصوت وهذا الطعم وهذه الخشونة وهذه الرائحة ! »

لذلك قلت : كل اختبار عن طريق الحواس هو شهوة العين ؛ مهمةُ النظر منوطةٌ بالعين اصلاً ؛ ولكنَّ الحواسَ الاخرى تستخدمُ هذه الحاسةَ بالمقارنة عندما تتقصىَّ شيئاً لتدركه .

نميّز من خلال ذلك بوضوح نصيب اللذة ونصيب الفضول من حيوية الحواس . اللذة تبحث عن الجمال ، وعن التناسق ، وعن الشذا الطيب ، وعن الذوق الحسن ، وعن الملمس الناعم ؛ وقد يبحث الفضول عن اشياء اخرى مضادة امتحاناً وادراكاً ؛ ويكره استباق عاطفة مزعجة .

ما هي اللذة في تأمل الشلو ؟ ومع ذلك يتهافت الناس الى مشاهدته فيعتريهم الاصفرار والوجوم ويخافون من ان يروه في الحلم كأن احداً قد دفعهم في اليقظة الى رؤيته او اندفعوا اليه على امل ان يروا فيه قَبَساً من الجمال .

وتلك هي حال الحواس الاخرى لكنني لا اريد ان اتمادى في الحديث عنها . ان مرض الفضول هو الذي يثير في المشاهد اشياءَ عجيبة ؛ فيدفعنا الى ان نتحرّى اسرار الطبيعة الخارجية الخفيــة التي لا تنفع الناس البتة وحيث لا يفتش البشر الا عن معرفتها ؛ وهي ، من حيث الغاية عينها ،

توحي الينا بفضلِ علمها الذري بأن نستخدم اساليب السحر . وهي التي تضع لله تجاربَ في الديانة ذاتها عندما يطلب الناس منه علاماتٍ وعجائبَ لا حباً بخلاص الآخرين بل رغبةً في رؤيتها والتمتع .

في هذه الغاية الشاسعة الملأى بالمخاطر والأشراك كم اقتطعت من قلبي ورميت بعيداً عنه بفضلك انت يا من اعطيتني القدرة « يا اله خلاصي » . ومع ذلك في وسط هذه العواطف الكثيرة ، المتنوعة ، التي ترنُّ يومياً حول حياتي ، متى اجرؤان اقول نعم ؟ متى اجرؤ ان اقول ان انتباهي ونظراتي وفضولي لا تتأثر البتة بتلك الأشياء ؟؟

بلى ؛ لم يبقَ لدي رغبة في حضور الألعاب المسرحية ولا عُنيت بمعرفة مجرى الكواكب ولم تسأل ابـــداً نفسي الخيالات ؛ واني لأكره التمارين الأثيمة ولكن كم من مكايد يحيك لي العدو ليغويني يا الهي – يا من وحدك يجب ان اخدمك ، انا عبدك الحقير – فأطلب منك اعجوبة؟ استحلفك بحق مليكنا . بحق وطننا النقي الطاهر ، اورشليم ، بأن تبعد عني الرضى الأثيم الذي ابتعد عني اليوم ؛ ليبتعد عني الى الابد والى الأبد ! اذا ما تضرعت اليك لخلاص شخص آخر والحت فإنك تعطيني وستعطيني دوماً ان اعمل ارادتك بملء رضاي اياً كانت تلك الارادة .

ولكن كم من دقائق بسيطة لا اهمية لهـــا تحاول كل يوم ان تجرّب فضولنا ! ومن يستطيع ان يحصي سقطاتنا ؟

كم مرةٍ ، بعد ان تنازلت فاصغيت الى اخبار ملفقة غير مقبولة رحتُ فاصختُ اليها كيلا اشكك الضعفاء ؟ لم اعـــد اذهب الى السيرك لأرى كلباً يطارد ارنباً ؛ انما لو رأيت ، اثناء مروري في حقل ، هذا المشهد لكنت أخِذت به ولربما شغلني عن تأمل عميقٍ لكنه لن يميلَ عن طريقه ، هذا الحيوانُ ، الذي يحملني بل ان قلبي يطارده . وان لم يكن مشهدُ ضعفي هذا

لا يدعوني الى الانقطاع عمّا ارى والى التأمل بفكرةٍ ارتفعُ بها اليك او احتقر ذاك المشهد واتجاوزه لبقيتُ كالابله هناك مشدوهاً .

وماذا اقول عندما اكون في بيتي فارى ضبّاً يصطاد ذباباً او عنكبوتاً يخيط نسيجه فخاً للحشرات ؟ ألا يستوقفني هذا المشهد ؟ مهما بلغت هذه الحشرات من الصِّغَر فالأمر هو هو ؛ ومن هذه الحال انتقل الى تسبيحَتِكَ ايها الخالقُ العجيب المنظِّم لكل شيء ؛ لكنني لم الهُ بهذه الامور لكي اصل الى هذه الغاية . النهوض السريع شيء وعدم السقوط شيءٌ آخر .

امتلأتْ حياتي من امثال هذه الامراض ولم يعد لي من املٍ الا في رحمتك الواسعة ؛ لأن قلبنا يُضيف عدة شقاوات من هذا النوع ويحملُ في ذاته الكثير من الحماقات التي تقطع علينا غالباً صلاتنا وتشوّشها . وبينا نحاول تحت انظارك ان نرفع الى اذنيك صوتَ قلبنا ، تنصبُّ علينا تلك الافكارُ التافهة ولا اعرف مصدرها الجدي وتمنعنا حالاً من ذلك العمل.

أنعتبر ايضاً تلك النقائص من بين التوافه التي يجب اغفالها ؛ ام هناك شيءٌ آخر يدعوني الى الرجاء وهو رحمتُك المعروفة طال ما انك بدأت تعمل من اجل هدايتي ؟ ما هو قياس هذا التحول فيَّ ؟ انت تعلم ! لقد بدأتَ فشفيتَني من نهم الانتقام لتساعدني على التحرر من جميع معاصيَّ وتشفي امراضي وتخلّصَ حياتي من الفساد وتكللني بالرأفة والرحمة وتشبع رغبتي من خيراتك يا من اخضعت كبريائي بمخافتك وعوّدت عنقي ان ينحني تحت نيرك . الآن احمل نيرك واستعذبه حسب وعدك الذي حققته . لقد كان عذباً ولم اعرفه بلْ كنتُ اخشى ان انحني تحته .

كبرياء الحياة

ولكن قل لي ايها الرب يا من لك وحدك القوة وما تكبرت انت المعلم الحقيقي وما اخذت العلم قط عن احد ، هل تحرَّرتُ انا ايضاً — ان كان

ممكناً التحرر في هذه الحياة من هذا النوع الثالث من التجارب الذي يقوم على احترام الناس للانسان فيرى في ذلك غبطةً زائفة ! مـــا احقر الحياة واتعسها ! أفٍ لسبب حقيقي يجعل الناس يكرهونك ولا يخشونك عن احترام. ومن جهتك فانك تصمد بوجه المتكبرين وتمنح نعمتك للمتواضعين وتُـرعِـد على اطماع الناس فترتجف الجبال في اساساتها .

في المجتمع واجباتٌ تأمرنا بان نفرض خوفنا الاحترامي ومحبتنا عـــلى الناس ولكن عدوّ سعادتنا الحقة يستحثنا ويزرع طريقنا فخاخاً بقوله « براڤو » « عظيم » ! فيقبل جوعُنا هذه الخدعات ويؤخذ في احابيلها ونحن غافلون . يريد منا الا نربط في المستقبل غبطتنا بالحقيقة ؛ بل بنفاق البشر ؛ ونتعود ان نفرض محبتنا واحترامنا لا بسببك بل بمعزلٍ عنك وان نشابهه ، لا حباً باتحادٍ في محبته بل اشتراكاً بعذابه . انه قد قرّر ان يبني بيته على ريح الشمال حتى نخدم في الليل وفي البرد، المقتدي بك، الملتوي، الاثيم .

اللهم ، اننا قطيعك الصغير فعاملْنا كخاصّتك، ابسط علينا جناحيك واسترنا تحت كنفك؛ كن مجدنا فيحبنّا الناس فيك وفينا يخشون كلمتك. من طلب مجد الناس ، برغم توبيخك ، لا يجد حماية من الناس له في يوم الدينونة ولا ينجو من شجبك اذ ليس المنافق يفتخر بشهوات نفسه ولا صانع الاثم يباركه الرب بل يمدح الرجل لهِبـَةٍ وضعتها فيه . ولو ان هذا الرجل فرح بهذا المديح اكثر من فرحه بالهبة التي سببت له ذاك المديح فانك تلومه ؛ حينذاك يفضّلُ المادح على الممدوح لأن الاوّل رضي بعطية الله والثاني آثر عطيةَ الانسان على عطيّةِ الله .

تلك هي التجاربُ التي تحيق بنا كل يوم ولا تزال ؛ ولسان البشر هو كل يوم لنا بمثابة أتُّون من الامتحانات وانت تأمرنا بضبط النفس فاعطني

ما تأمر به ومر ما تريد! انت عالم بزفرات قلبي المتصاعدة اليك وبالدموع الغزيرة التي تسكبها عيناي؛ لا ادرك جيداً نسبة تطهُّري من ذاك الوباء؛ لا ازال اخشى ميولي الخفية، المكشوفةَ لديك والمحجوبة عن عيني. لقد بدأت ارى جلياً فيَّ انواعَ التجارب الأخرى لكني لم اتوصل الى ادراكها. ان نظرتُ الى ميولي اللحمية ونزواتي الفضولية الباطلة التي ابعدتُ نفسي، الى حدٍّ ما، عنها، ادركتُها طال ما اني فارغٌ منها إما بفضل ارادتي واماًّ لأنها غريبة فأتساءل اذ ذاك واقيس الكدر المستولي عليَّ لفقدها.

ويسعى المرء وراء المال اشباعاً لاحدى هذه الشهوات او لاشباع اثنتين او ثلاث معاً. ولو انه في حال حصوله عليها لم يدرك إن كان يحتقرها باطنياً، ام لا، يظل قادراً على التخلي عن سبيل اختبار قواه. امّا المدائح فلكي نتجرَّد منها ونمتحن ذواتنا تجاهها، ايجب علينا ان نعيش عيشة الاشرار الهالكين لكيلا يبقى احدٌ ممن يعرفُنَا إلا وكرهنا؟ وهل من قولٍ او فكرٍ اشدَّ حماقةً من هذا؟ ولكن ان كان الثناءُ يرافق ضرورةً، الحياة والأعمال الصالحة فمن الواجب ايضاً ان نتمسك به كما بالحياة عينها. انما لا اعلم كيف اتحمل حرماني من خيرٍ الا لدى ضياعــه؛ أبشيء من الكدر ام من اللامبالاة اتحمَّله؟

وماذا اقول لك في اعترافاتي ايها الرب عن ذلك النوع من التجارب؟ أأعترف بالغبطة التي اجدها في المديح أم بأن الحقيقة تؤثر علي اكثر من المديح؟ لو خُيِّرت بين ان اكون مجنوناً، تائهاً في ضلال شامل عرضة لمدائح الناس، او متمسكاً بالحقيقة تمسكاً شديداً فأنال بالتالي من الجميع اللوم جزاء هذا الموقف الذي اتخذته، لعرفت اذ ذاك كيف اختار؟ آنف من ان يزيدني فرحاً وسروراً ثناءٌ يأتيني من غريبٍ على عملٍ صالحٍ قمت به. اجل، ان ذاك المديح يزيده كما ان اللوم يخفف منه.

وحـــين اضطرب لرؤيتي شقاوتي تلك ، اشعر بمعذرةٍ تنساب الى فكري ؛ وانت وحدك يا الله تعرف قيمتها لكنها تتركني متقلقلاً ؛ لم تأمرنا فقط بالتعفف اي بما يجب ان يتنزه عنه حبنا بل امرتنا بالعدل الذي يبين له السبيل الواجب سلوكه ؛ ولم ترد ان يكون حبنا مقتصراً عليك وحدك بل امرتنا ايضاً بأن نحب قريبنا ، وعليه يُخيَّل الي غالباً انني اغتبط لنجاح قريبي وللآمال التي يبشر بها حين ارضى عن ثناءٍ مصدره العقل والمعرفة . والعكس بالعكس فانني اكتئب عندما اسمعه يوجه لومه ضد امور لا يفهمها او ضد ما هو حسن وصالح .

وقد اتأثر كذلك من الثناء الموجه الي تقريظاً لما لا ارضى عنه في نفسي ويعطون لأمور ثانوية ، قليلة الاهمية ، مركزاً يفوق مركزها الاصلي ؛ ولكن من اين لي ان اعرف ان عـــاطفتي تلك ليست متأتية عن كوني آبى ان اكون على خلافٍ في الرأي حول ذاتي مع مادحي لا لأني تأثرت من مصلحته بل لأنني اشعر بغبطة عظمى حين يشاطرني الغير فرحي بالخير الذي فيَّ ؟؟ انا لا احس بمديح الناس لي عندما لا يكون مديحهم مطابقاً لرأيي الخاص عن نفسي إمَّا لأنهم يقرظون فيَّ ما لا ارضى عنه وامَّا لأنهم يغالون في تقريظ ما لديَّ من حسنات عادية . وبالتالي ، ألست حول هذا الموضوع في ريبةٍ من امري ؟

وها اني ارى فيك ايها الحقيقة ان منفعة قريبي لا منفعتي الخاصة توجب علي القبول بالتقريظ الموجه اليَّ ؛ لا ادري ان كنت قد بلغت الى هذا الحد ؛ اعرفك انت من هذه الناحية اكثر من نفسي . ارجوك يا الهي بأن تكشف لي عن خفايا نفسي لكي اقدر ان اعترف بجراح نفسي لأخوتي الذين يريدون ان يصلّوا لأجلي. اعطني ان استجوب نفسي بدقة. ان كانت منفعة القريب تتحرك فيَّ عندما يمدحونني فلماذا لا اتأثر بالتوبيخ

الظالم الموجه الى قريبي كما لو كان موجهاً اليَّ واكثر ؟ ولمـــاذا اشعر بفظاعة الاهانة الموجهة الي ولا اتأثر من الاهانة عينها توجه ظلماً وبحضوري الى شخص آخر ؟ ألا ازال اجهل هذا الأمر ؟ وهل يجب علي ان استنتج ، من كلّ ذلك ، انني اخـــدع نفسي وأَخونُ بحضرتك الحقيقة « بقلبي ولساني » ؛ أَبعِدْ عني يا رب هذا الجنون ، لئلاّ « تصبح اقوالي دهنَ اثمٍ لرأسي » .

« إني بائس ومسكين » (مزمور ١٠٨ : ٢٢) ولا صلاحٍ فيَّ إلاّ حين اكره نفسي وابكي في الخفية ، باحثاً عن رحمتك حتى اعوِّض عن كل نقائصي وأضع لها حداً ، خدمةٌ للسلام ، الذي لا تعرفـــه عين الجاهل المتكبر ! ان الكلام الذي ننطق به والاعمال العلنية التي نقوم بها وما يعقبها من حب للثناء والمديح تضع على سبيلنا تجربةٌ خطرة ، دعايةٌ لشخصيتنا واستجداء لتصفيق الاكف : انها لتجربة قائمة برغم انتقادي لها وبما أني انتقدها ايضاً لا تزال ثابتة . غالباً ما يبحث الانسان ، بداعي الكبرياء ، عن الشرف ، في احتقاره للمجد الباطل ، ولكن الحقيقة هي ان الانسانَ لا ينالُ الكرامة لمجرد احتقارهما اذ ان افتخارَه دليلٌ واضحٌ على سعيه وراءها.

في باطننا ، اجل ، في باطننا تجربةٌ ، اخرى ، شريرة ، من النوع عينه ، تجعل الراضين عن انفسهم في حالة كبرياء طامية ولو لم يرضَ عنهم الغير ولم يعملوا جهدهم لاسترضائهم ؛ ومهما اعجبوا بانفسهم فانت تكرههم حين يتبادلون التهاني بما ليس صلاحاً كأنه صلاح ؛ ولا سيّما حين ينسبون اليهم الصلاح الذي يصدر عنك او حين يقرون بخيراتك فيعزونهـــا الى استحقاقاتهم الشخصية . واذا ما نسبوا ذلك الى نعمتك لا يشركون الغير بغبطتهم بل يبعدونهم عنها. في وسط هذه المخاطر والتجارب انظر الى قلبي القلق ؛ أشعر باني عرضة دوماً لجراح جديدة وان كنت تشفيها في الحال .

ايها الحقيقة متى انقطعت عن السير الى جانبي تعلمني ما يلزمني ان اسعى وراءه وما اتجنبه فأطلعك ما استطعت على آرائي الوضيعة واطلب مشورتك ؟

بفضل حواسي قطعت العالم الخارجي وتأملت في حياتي الجسدية وفي حواسي . ثم ولجت الى اعماق ذاكرتي ، الى تلك الخفايا الكثيرة الملأى بغرائب الاشياء المحفوظة وتأملتها منذهلاً : بدونك ما استطعت ان اميّز بينها ولكنني لم ارك في كل ذلك .

استعرضت تلك الاشياء بكاملها واجتهدت أن اتميّزها جيداً واعطي كلاً منها قيمتها الحقة سائلاً ما اتاني منها عن طريق الحواس ، شاعراً بسواها وقد اندمجت بي هنا اتفحص واعدُّ الاعضاء الرسل وهناك في مخازن الذاكرة الرحبة اقلب بين يدي بعض الاشياء مدّخراً هذه وعارضاً تلك فأنا لم اجد ذلك كله وفي اثناء البحث الذي قمت به انا او القدرة التي لي لم تكن انت : انت النور الدائم الذي اخذت رايه حول كيان هذه الاشياء ونوعها وقيمتها واصغيت الى ارشاداتك واوامرك — ولا ازال على هذه الحال التي اجدُ فيها متعةً خاصة ؛ وحين تسمح لي اعمالي الضرورية ببعض الفراغ ، اتخذ من تلك المتعة ، حمىً لي ؛ وفي كل تلك الاشياء التي استعرضها طالباً مشورتك ، لا أجد لنفسي مكاناً آمن لها منك : هناك تجتمع عواطفي المبعثرة دون ان يبتعد عنك شيءٌ مني واحيانـاً تدعوني الى اختبار الكمال في الاحساس الشخصي حتى اذا ما بلغ اوجه قطع كل صلةٍ بيني وبين الحياة الدنيا . ولكن سرعان ما اسقط من جديد في الأرضيات وعبودياتها الحقيرة فتجرني عاداتي الى اللجة وتقيدني ؛ فأبكي حيث لا ينفع البكاء لأني مقيد جيداً ؛ فيثقل علينا حمل السعادة ! فلا اريد ان اكون حيث استطيع وحيث اريد

ان اكون فلا استطيع فَيا لَـها من تعاسة مزدوجة !

لذلك تكلمت عن اوجاع خطاياي تحت اشكال الشهوة الثلاثـة والتمست يمينك كي تخلصني يوم شاهدت بهاءك بالرغم من الجرح الذي بقلبي وصدّني نوره فهتفت : « من ذا يستطيع الوصول الى هنا ؟ » اني انقطعت من امام عينيك » انت الحق المالك على كل شيء وانا في بخلي كنت اود الاّ اضيعك وان اسيطر بالوقت عينه على الكذب وهكذا لا احد يود ان يكذب حتى يفسد عليه كذبُهُ معرفةَ الحقيقة ؛ ولهذا ضيّعتك يا من لا ترضى بان يجمعك انسانٌ والكذبَ في حوزته .

من لي بانسانٍ يصالحني معك؟ هل ألجأ الى الملائكة؟ وما هي الوسيلة؟ وما هي الاسرار التي استعملها ؟ لقد سمعت ان كثيرين عملوا واجتهدوا كي يصلوا اليك بوسائلهم الخاصة ولكن دون جدوى ، وجرّبوا هذه الطريقة فانزلقوا وسطا عليهم ميلٌ شديدٌ للرؤى العجيبة الغريبة وكانت الاوهام مكافأتهم العادلة .

بحثوا عنك في العلم الباطل الذي انتفختْ به صدورُهم ، صلفاً، بدل ان يقرعوها ندماً وجذبوا اليهم عن طريق التشابه الفكري « قوى الجو »التي اصبحت شريكة لهم ومعواناً في التكبُّر وخدَعَتْهُم باساليبها السحرية وعبثاً فتشوا عن وسيطٍ ينقيهم ؛ فوجدوا الشيطان الذي يتحول « الى ملاك نور » وبما انه لم يكن لابساً الجسد فقد أمال اليه جسدهم المتكبر .

لقد كانوا خطأةً مدعوِّين للموت ؛ اما انت ايها الرب يا من سعوا بأنفة كي يصالحوك فانت غـير مائت ولا اثم عليك. من صفات الوسيط الضرورية بين الله والناس ان يكون مشابهاً لله ومشابهاً للناس لأن من شابه الناس وحسب كان غريباً عن الله ومن شابه الله وحده كان غريبـاً عن الناس وما استطاع ان يقوم بمهمة الوسيط ؛ لكن ذاك الوسيط الكاذب

الذي سمحت له بتدبير خفي ان يخدع الناس المتكبرين يشترك بواحدة مع البشر وهي الخطيئة . كان يتمنى على ان يظهر مشابهاً لله ولما لم يكن لابساً الجسد المائت فقـــد اظهر نفسه كمن هو غير مائت ولكن بما ان الموت هو « ثمرة الخطيئة » فقد شارك الناس بما كان له ولهم حكماً بالموت الأبدي .

ان الوسيط الحقيقي الذي شئت برحمتك الخفية فارسلته واظهرته للبشر كي يتعلموا منه التواضع ، ان هذا الوسيط بين الله والناس، الانسان يسوع المسيح ظهر بين الخطأة المعدّين للموت والبار الذي لا يموت مائتاً كالبشر، باراً كالله : وبما ان الحياة والسلام هما مكافأة البرارة فقد اهلك ببره الذي يوحّده بالله موت الأئمة المبررين الذين احب ان يقاسمهم هذا النصيب ؛ وهو الذي تحدّث عنه للقديسين في الايام الماضية حتى يخلصوا لمجرد الايمان بآلامه العتيدة كما خلصنا نحن بالايمان ، بآلامه التي تحققت وبقدر ما هو انسان ، هو وسيط ؛ لانه بصفته كلمةً مساوياً لله ، لدى الآب ، وبالوقت عينه ، الهاً واحداً فلا يمكن ان يكون وسيطاً .

كيف احببتنا ايها الاب الصالح يا من لم تشفق على ابنك بل سلّمته عنا نحن الخطأة كيف احببتنا نحن الذين من اجلنا « لم يعتدَّ مساواته لله اختلاساً بل اطاع حتى الموت موت الصليب، حرٌ وحده بين المائتين يقدر ان يضع نفسه وان يأخذها امام عينيك ظافراً وضحيةً – ظافراً لأنه ضحية – امام عينيك ، كاهناً وذبيحة من اجلنا – كاهناً لأنه ذبيحة . ونحن الذين كنا عبيداً جعلنا لك أولاداً ذاك المولود منك وجعل نفسه عبداً لنا. لي الحق بأن اوطد منه رجائي : ستشفي كل امراضي بواسطته ، هو الجالس على يمينك والمتوسل اليك عنّا . وإلاّ لاستولى عليَّ القنوط وما اشد امراضي واوفرها ! أواه ما اشدها واوفرها ! واقوى منهـــا العلاج الذي منك . لو لم

يتجسد ابنك ويحمل فيما بيننا لكنا اعتقدنا ان كلمتك ابعد من ان تتحد بالانسان ولكان استولى القنوط علينا .

فكرت بخطاياي فانسحقت ورزحت تحت شقاوتي ففكرت بالعيشة المتوحدة واختمرت الفكرة في رأسي لكنك منعتني عنها وطمأنتني بكلماتك هذه : « ان المسيح قد مات عن الكل كيلا يحيا الاحياء لانفسهم بل للذي مات من اجلهم وها اني التي عليك ايها الرب همومي وانت تَعُولُني واريد ان ادرك عظمة شريعتك . انت عارف بجهلي وضعفي فعلّمني واشفني . ان هذا الابن الوحيد الذي اختبأت فيه كل كنوز الحكمة والعلم اشتراني بدمه. ليخرس المتكبرون ولينقطعوا عن ذمّي لأني افكر بثمن فدائي كله واشربه واوزعه وانا الفقير ارغب في ان اشبع منه كالجائعين الذين يشبعون ؛ فيمجد الله الباحثون عنه .

استغاثة بالله
في اداء رسالته الجديدة

اتجهل ، يا رب ، والازلية ملكٌ لك ، ما اقوله لك ام انك في الزمن ، ترى ما يحدث ؟ ومــا النفع اذاً من سرد اخباري الكثيرة مفصّلةً ؟ طبعاً ؛ لا لكي تعلمها مني ؛ بل ، لكي اوقظ في قلبي وقلوب قارئيها عاطفةً فنهتف بصوتٍ واحد : « عظيم هو الرب وكثير المدح » (مزمور ٩٥ : ٤) لقد قلتُ وأقولُ الآن ايضاً : اقوم بهذا ، حبــاً بمحبتك . نصلي ، مع ان الحقيقة تقول : « ابوكم عالمٌ بما تحتاجون اليه قبل ان تسألوه » (متى ٦ : ٨) . وبينا نعترف لك بحقارتنا وبمراحمك علينا ، نفتحُ لك قلبنا لتتمّ لنــا الخلاصَ الذي باشرتَه فننجو من شقائنا ونجدَ سعادتنا فيك يا من دعوتنا الى ان نكون مساكين بالروح ، ودعاءَ ، حزانى ، جياعاً وعطاشاً الى البر ، انقياء القلوب وفاعلي السلام .

اخبرتك عن عدة امور اردتها وفعلتهــا لأنك امرتني بالاعتراف اليك يا ربي والهي «انك صالحٌ والى الأبد رحمتُك» (مزمور ١١٧ : ١) .

ولكن من اين لقلمي ان يحصيَ جميــعَ ارشاداتك

وتخويفاتك وتعزياتك وتوجيهاتك التي دفعتني الى ان ابشّر بكلمتك واوزّع سرّك على الشعب المسيحي ؟ من اين لـه ان يحصيَ ذلك كلّه بدقة ؟ كل هنيهة من الزمن عزيزةٌ عليَّ جداً .

منذ القِدَم تحرّقتُ شوقاً الى التأمّل بشريعتك والاعتراف لك بعلمي وجهلي وبالأنوار الأولى من الإشراق الذي غمرتَني به ، وبما لا يزال بي من ظلمات حتى يُبتلع ضعفي في قدرتك . وآنف من ان تستهلك اشغالٌ اخرى ساعات الفراغ التي تبقى لي بعد الترويح الضروري عن النفس والعمل العقلي وخدمة الآخرين عن واجبٍ او تلقائياً .

اغوسطينوس يستغيث بالله في أداء رسالته الجديدة

« اللهم اصغِ الى صلاتي » واقبل برحمتك طلبتي التي تشتعل حرارتها حباً لاخوتي وخدمةً لذاتي. قلبي يقول لك ذلك. هبني ان اقرّب ، ذبيحةً لخدمتك ، قلبي ولساني ؛ محتاجٌ انا وفقير ، « وانت غني لكل من يدعوك » (رومية ١٠ : ١٢) . انك تهتم بنا يا من لا همَّ لك . نقِّ شفتيَّ من كل وقاحة ونفاق باطني وظاهري . اجعل كتبك لي لذة نقية صافية فلا اجد فيها ضلالاً لي وللآخرين . اللهمَّ أصغِ اليَّ وارحمني يا نوراً للعميان وقوةً للضعفاء ؛ بل يا نوراً للاصحاء وقوة للاقوياء ملْ الى نفسي وأصغِ اليها انها تناديك من الأعماق ، ان لم تكن اذناك حاضرتين في الاعماق فالى اين نذهب ؟ ومن ندعو ؟

« لك النهار ولك الليل » (مز ٧٣ : ١٦) والأوقات تطير وفقاً لأوامرك. تكرّم علي بالوقت الكافي كي اتأمل اسرار شريعتك ؛ ولا تغلقها بوجه من يقرعون بابك. لم تأمر سدىً بكتابة هذه الصفحات العديدة العجيبة ؛ أليست تلك الغابات مأوى اميناً للظباء تسرح فيها وتمرح ؛ ترعى فيها وتنام وتجتر . اللهمَّ كلّمني واكشف لي عن هذه الصفحات . انني اغتبط بكلمتك ؛

اجل ، اغتبط بها فوق كل شيء . اعطني ما احب لأنني احبه ؛ لأنك انت وهبتني المحبة ؛ فلا تتخلَّ عن عطاياك ولا تحتقر عشبك الظمآن؛ اودُّ لو اعترف لك بكل ما وجدتُ في كتبك ؛ لأسمع صوت تسابيحك وابشر بك واحدث بعجائب ناموسك مذ اليوم الذى فيه صنعت السماء والأرض المملكة الأزلية التي تقاسمك اياها مدينتُك المقدسة !

ارحمني يا رب واستجب لي . انا لا اشتهي شيئاً ممَّا في الأرض ، لا الذهب ولا الفضة ولا الحجارة الكريمة ولا الرياش الثمين ولا المجد ولا المناصب الرفيعة ولا الملذات الجسدية ولا شيء ممَّا يطلبه الجسد طوال سفره على هذه الأرض لأن هذا كله يزاد لنا حين نطلب « ملكوت الله وبرَّه » (متى ٦ : ٣٣) .

انظر اللهم الى طلبي ؛ وها هوذا : « لقد حدثني الاثمة عن ملذاتهم ولكنها منافيةٌ لشريعتك يا رب ؛ وطلبتي متأصلة في ناموسك ؛ انظر يا رب ، انظر وتطلَّع وحبِّذ واجعل لي حظوةً امامك تحت نظر رحمتك فينفتح لي ، وانا الطارق ، هيكل كلماتك . استحلفك بابنك سيدنا يسوع المسيح الجالس عن يمينك، ابن الانسان، الذي أقمته وسيطاً بيننا وبينك؛ وبه رحتَ تبحثُ عنا يومَ لم نعد نبحث عنك ، بحثت عنا لنبحث عنك! باسم هذا الكلمة الذي به صنعتَ الكائنات كلَّها وانا منها ؛ وباسم هذا الابن الوحيد الذي به دعوتَ جمهور المؤمنين الى التبني وانا منهم ؛ وباسم هذا الجالس عن يمينك الذي يشفعُ بنا والمكنون فيه جميع كنوز الحكمة والعلم » (كولو ٢ : ٣) ارجوك يا الله . عنه ابحث في كتبك لأن موسى كتب عنه : هذا ما قاله هو ؛ وهذا ما قالته الحقيقة .

هبني ان افهم واسمع كيف خلقت في البدء السماء والأرض . موسى كتب هذا ؛ اجل كتبه وذهب ؛ مرَّ من هنا — حيث انت — لينتقل اليك ولم يعد اليومَ امامي . لو كان هنا لتمسَّكت به وسألته واستحلفته باسمك ان يكشف لي عن هذا السر واستمعت الى كلماته الخارجة من فمه . لو تكلم العبرية لما وصلت كلماتُه الى فكري ولكانت طرقت اذني سدىً . ولو تكلم اللاتينية لفهمت كلامه . ولكن ، كيف اقدر ان اعرف ان كان يقول الحق ؛ وإن عرفتُه ، فهل منه اعرفه ؟ كلاّ في باطني ، في المسكن الخفي من فكري تقول لي الحقيقة — وهي ليست عبرية ولا يونانية ولا لاتينية ولا بربرية — ولا تحتاج الى فم ولسان ومقاطع كلام : « بالصواب ينطق » وانا كذلك بكل ثقة وإيمان اقول لخادمك : « بالصواب نطقت ! »

انما لا استطيع ان اطرح عليه سؤالاً بل ايّاك ايها الحقيقة اسأل يا من كنت ملأه حين قال بأنه يملك الحقيقة ؛ اللهم ايّاك اسأل ؛ امحُ مآثمي واجعلني افهم ما اعطيت خادمك ان يقول .

السماء والأرض مخلوقتان

ها ان السماء والأرض ، وقد وجدتا ، تهتفان قائلتين : « خلقنا ، خلقنا ، » لأنهما تتغيران وتتبدّلان ؛ كل كائن غير مخلوق ليس فيه اليومَ شيءٌ لم يكن فيه بالأمس ؛ وإلا ، لتغيّر وتبدّل .

وها انهما تهتفان بانهما لم توجدا بذاتيهما : « خُلِقْنا فوُجِدْنا ؛ وما كنا قبل وجودنا ، كأننا صنعنا انفسنا » . اما ذاك الصوتُ الذي به تنطقان فهو هذا المشهد الذي تعرضانه بجلاءٍ امامنا .

لقد خلقتهما انت يا رب : انهما جميلتان لانك جميل ؛ وصالحتان لأنك صالح ؛ وموجودتان لانك موجود مع ان ليس لهما جمالُك وصلاحُك

ووجودُك عينه ايهـــا الخالق ؛ كما وان قيس جمالها وصلاحها ووجودهما بجمالك وخيرك ووجودك وجدتا عاريتين من ذلك كله .

ادركنا هذا الأمر ؛ فشكراً لك ؛ ان قارنا بين معرفتنا ومعرفتك وجدنا معرفتنا جهلاً تاماً .

ولكن كيف صنعت السماء والأرض وما هي الآلة التي استخدمتها في عملك هذا العظيم ؟ لست كالفنان الذي ينحت ، على هواه ، جسماً بجسم ثانٍ مطبّقاً في الخارج الصورة التي تكوِّنها عينه الباطنية – فمن اين له تلك القدرة ان لم تكن انت قد خلقتها له ؟ – ونراه يفرض تلك الصور على مادة سابقةٍ لوجودها استولى عليها كالتراب مثلاً والصخر والخشب والذهب... الخ . وعليه من اين له تلك المواد كلها لولاك ؟ انت تهب الفنان جسماً ؛ وتهبُه نفساً تأمر على اعضائه وعلى المادة التي يشتغلها وعلى الموهبة الفنية التي تريه في باطنه ما يجب تحقيقه في الخارج وعلى الحواس الطبيعية التي يستخدمُها لتحقيق ما يريدُ من نفسه في المادة عينها ثم يخضع لحكم العقل ما قد صنع ليرى إن كان حسن الصنع مطابقاً للحقيقة .

كلُّ هذا يمجدُك يا خالق الكل ؛ وانت فكيف صنعته ؟ اللهم كيف صنعت السماءَ والأرض ؟ طبعاً ، لا في السماء ولا على الارض صنعتهما ؛ لا في الجو ولا تحت المياه الداخلة ضمن نطاق السماء والارض. وانت لم تصنع الكون في هذا الكون اذ لم يكن مكان ولا امكن ان يكون قبل ان يُخلَقَ. لم تستعمل يداك شيئاً لتكوين السماء والأرض ؛ فمن اين اتتك هذه المادة التي لم تكن تخلقها والتي منها خلقت كل شيء ؟ واي موجود لا يدين لك بالوجود ؟

قلت اذاً كلمتك ، فكانت الاشياء ؛ وبكلمتك خلقتها .

وكيف نطقت ؟ أعلى مثال ذلك الصوت الآتي من السحابة ؟ « هذا

هو ابني الحبيب ؟ » دوّى ذلك الصوت ثم توقّف ؛ وابتدأ ثم انتهى ؛ دوّت نبراته ثم صمتت اولاً فثانياً فثالثاً وعلى هذا النحو حتى آخر مقطع حيث ساد السكوت . من الأكيد الواضح انه حركةٌ لمخلوق ، لعضوٍ زمني استخدمته مشيئتك الازلية . ان هذه الكلمات المصوغة لبرهــةٍ من الزمن قصيرةٍ وصلت بواسطة الأذن الخارجية الى العقل المفكر الذي يصغي باذنه الباطنية الى كلمتك الازلية ؛ فشبّه العقل تلك الكلمات التي دوّت هنيهةً بازلية كلمتك الصامتة وقال في نفسه : « غريبة ، اجل غريبة هي تلك الكلمات ؛ انها تفوق ادراكي ؛ ولا وجود لها طال ما انها تهرب وتنقضي بينا كلمة الله ثابتة فوقي الى الابد .

ان كنت قد اوجدت السماء والأرض بكلماتك الحية الزائلة ؛ ان كنت قد خلقتها هكذا فذاك يعني انه قبل ان تكون السماء والأرض كان عنصر مادي اهتزت حركاته في الزمن فَتَنَقَلَتْ في الزمن ، تموُّجاتِ ذلك الصوت في الزمن . قبل ان تكون السماء والأرض لا وجود لجسم مادي . ان كان شيءٌ من ذلك فمن الثابت انك خلقته دون اللجوء الى صوت ذي مقاطــع متتابعة لينقل الصوت ونبراته المتتابعة آمراً السماء والأرض ان تكونا لأن لا وجود بواسطة كهذه الا اذا خلقتها . ولكن اي كلمة استعملت حين خلقت الجوهر الذي استخدمته لتركيب تلك الكلمات ؟

هكذا تدعونا الى معرفة كلمتك الاله مثلك يا الله المنبثق منك منذ الازل دون ان يكون بينكما نظام متتابع كالمقطع الــذي يعقب الثاني في الكلام ؛ كلاّ ؛ في الوقت عينه قبل كل شيءٍ ومنذ الأزل وإلاّ لكان الوقت وكان التغيير وما عادت الازلية حقاً ولا الخلودُ خلوداً حقاً .

اني لعالمٌ بهذا يا الهي وشاكرٌ لك ؛ اقر امامك بانني عــالم يارب ويشاركني في معرفته ويباركك كل من لم يتنكر في قلبه للحقيقة الخالدة .

اننا نعلم يا رب ، اجل ، اننا نعلم ان شيئاً يموت حين يبطل ان يكون بعد ان كان ؛ وانه يولد حين يكون بينما لم يكن في السابق . كلمتك ازلي لا يقبل شيئاً ولا يخلفه شيء ؛ ومع كلمتك هذا الازلي تقول للازل ما تقول ويكون كل ما تأمره بان يكون ، بالكلمة تخلق لكن المخلوقات التي صنعتها بكلمةٍ منك لا تقبل كلُّها الوجود معاً كما لا تقبل الوجود منذ الازل .

ولم هذا كله ايها الرب الهي ؟ انني أُدركه بمقدارٍ واقصر عن شرحه . هل لكل موجود بدايةٌ ونهايةٌ اذ لا يبدأ ولا ينتهي إلّا حين يدرك العقل الأزلي الذي لا بداية له ولا نهاية انه يلزم لهـــذا الموجود ان يبدأ او ان ينتهي ؟؟ وهذا العقل هو كلمتك ، هو البدء لأنه يكلمنا . وعلى هذا النحو كلمنا في الانجيل بصوتٍ لحمي ودوَّت في الخارج كلمته في آذان البشر كي يؤمن به كل من بحث عنه في باطنه ويجده في الحقيقة الازلية حيث المعلم الصالح الاوحد يعلّم جميع تلاميذه .

هناك ، يا رب ، اسمع صوتك يقول ان المتكلمَ معنا حقاً هو هـــذا الذي يعلّمنا ؛ ومن لا يعلّمنا ، وان تكلَّم ، لا يتكلّم من اجلنا . وعليه من ذا يعلّمنا سوى الحقيقة التي لا تتغيّر ؟ والحقيقة غير الثابتة لا تعلّمنا إلاّ بمقدار ما تقودنا الى الحقيقة الثابتة حيث ننتصب امامها ونصغي اليها ونأخذُ عنها المعرفة الحقة ؛ اذ ذاك نشعرُ بفرحٍ عظيم لدى سماعنا صوت العروس (الختن) يعيدنا الى المصدر الذي منه أتينا وهو « المبدأ » لاننا لولا ثباته لما عرفنا في ضلالنا ان نعود الى حيث يجب . وحـــين نعود عن ضلالنا نعرف طبعاً اننا نعود وذلك بفضل تعليمه لأنه « المبدأ » وهو يتكلم معنا .

اللهم في « هذا البدء » خلقت السماء والأرض ، بكلمتك ، بابنك ، بقدرتك ، بحكمتك وبحقيقتك وما اعجبك متكلماً فصانعاً ومن يقوى على

فهم هذه الاعجوبة ؟ ومن ذا يحكيها لنا ؟ وما هو هذا الذي يضيءُ لي على مراحل ويضرب قلبي ولا يجرحه؟ ما اشد تأثري وما احرَّ حبي : يشتد تأثري كلما ازددت بعداً عن هذا المجهول ؛ وعظيم هو حبي بقدر ما ادرك مشابهتي له فيه الحكمة تضيءُ لي من وقت لآخر فتمزق غيمي ليغطيني من جديد، حين تخور قواي ، بظلمات من الشقاء ثقيلة لأن قوتي وَهَنَت في ضيقي فعجزت عن تحمُّل خيري عينه الى ان تمتدَّ رأفتُك يا رب فوق كل مآثمي وتشفي امراضي جميعها . سوف تفتدي من الفساد حياتي وتكلّاني بالرحمة والرأفة وتشبعُ شهوتي من خيراتك لأن شبابي يتجدَّد كالنسر. اننا بالرجاء نخلص وبصبرٍ ننتظرُ مواعيدَك وليسمع من استطاع كلمتك الباطنية؛ اما انا فأهتف واثقاً مؤمناً بكلامك ، قائلاً : « ما اعظم اعمالك يا رب ، لقد صنعتَ جميعها بالحكمة » (مزمور ١٠٣ : ٢٤) . حكمتك هي البدء « وفي هذا البدء صنعت السماء والأرض » .

لقد طغى منذ القديم جهلُ القائلين لنا : « وماذا صنع الله قبل ان يخلق السماء والأرض ؟ » ثم يُردفون : « ان كان بطَّالاً ، لا عمل له ، فلِمَ لم يبق على مدى الازمان ، منقطعاً كما في السابق عن كل عمل؟ وان حدث فيه شيء جديد وارادة جديدة لخلقٍ جديد فهل يبقى مجالٌ للتحدُّث عن ازلية حقيقية حيث تنشأ ارادةٌ جديدة ؟ والحق ان مشيئة الله ليست خليقة بل كائنة قبل كل خليقة وبدونها وبدون وجودها السابق لا مجال للخلق لأن مشيئة الله قائمة في جوهره عينه ؛ لو كان جوهر الله يتجدد بحيث ان ما لم يكن ، يصبح موجوداً ، فلا يمكننا ان نعتبره ازلياً . ولو ان الله اراد الوجودَ منذ الأزل للخليقة ؛ فلِمَ لا تكون الخليقة ذاتها ازلية ؟

جميع الناطقين بهذا الكلام لا يزالون يجهلونك يا حكمة الله ونور العقول؛ لا يزالون يجهلونك كيف تصنع مـــا تصنع فيك وبك . يودون ان يدركوا

جيداً طعم الأزلية لكن قلوبهم فاسدة تتقلب بين الماضي والمستقبل .

من ذا يقدر ان يضبط هذه الفكرة ويجمّدها فتقف قليلاً وتدرك قليلاً بهاء الأزلية الثابتة ، الأبدية ، ويقارن بينها وبين حركة الزمن الدائمة فيجد ان لا وجه للشبه بينهما وان الزمن مهما طال فطوله منوط فقط بتتابع الحركات التي لا تستطيع ان تتوسّع معاً بيدّ ان الازل لا يتضمن البتة تتابعاً ! بل كل شيء فيه حاضر بآنٍ واحد بعكس الوقت . ويجد ان المستقبل يطرد الماضي ويتبعه وانهما كلاهما يستمدان كيانَهما من الحاضر الأزلي . ومن ذا يضبط فكرَ الانسان فيوقفه ليتأمل كيف ان الأزل ثابت وليس فيـــه مستقبل ولا ماض بل هو الذي يضع للمستقبل وللماضي حداً .

أتقدر يدي على ذلك ؟ ام هل لكلمتي — وهي لفمي بمثابة يد — ان تحقّق اعجوبة كهذه ؟ اليك جوابي على من يسأل قائلاً : « ومــاذا كان يصنع الله قبل ان يخلق السماء والأرض؟» لن اجيب عليه بهذا الرد المضحك تحويلاً للسؤال المحرج : « كان يُعدُّ جهنم للذين يحاولون ان يدركوا اسراراً كتلك الاسرار » انا لن اجيب هكذا لأن الجد شيء والمزح شيءٌ آخر ولهذا اؤثر ان اقول : « لا اعلم » حين لا اعلم ؛ بـــدلاً من ان اسخر ممن يستوضح عن مشكلة معقّدة واثني على من يعطي جواباً مغلوطاً .

انما اقول انك انت الهنا خالق الكل وان كانوا يعنون بلفظة « سماء وارض » كل مخلوق ؛ فاني اتجاسر واقول : «قبل ان يخلق اللهُ السماءَ والأرض لم يعمل شيئاً ؛ وإلاّ لكان كل ما يعمله مخلوقاً ؟ ليتني ادرك ما اريد ان ادركه لمنفعتي الخاصة بنفس الثقة التي بها ادرك انه لم يكن ادنى مخلوق قبل ان تكون الخليقة .

ولكن اذا كان احد العقول السطحية التائه بين الصور التي يصنعها لنفسه عن الازمنة الماضية يتعجب منك ايهـــا الاله القدير خالق الكون

ومثبته ، انت الصانع السماء والأرض ، تبقى عاطلاً عن العمل اجيالاً طويلة قبل القيام بهذه المهمة العظيمة فاننا نسأله ان يخرج من نومه ويدرك ان تعجُّبَه لا يرتكز على الحقيقة .

كيف استطاعت اجيال عدة ان تنقضي ولمّا تَخلُقْها وانت الصانع المبدع ؟ هل كان وقت قبل ان ترسمه ؟ وكيف ينقضي هذا الوقت ان لم يكن موجوداً ؟

وعليه ، طال ما ان الازمنة منك وحدك تستمد وجودها ، فلو قدرنا وجود زمن سابق لخلقك السماء والارض فلِمَ يدعون انك كنت اذ ذاك عاطلاً عن العمل اذ ان ذاك الوقت هو ايضاً من صنعك وما امكن ان يكون وقت قبل ان تصنع انت الزمن ! وبالعكس فلو لم يكن وقت قبل السماء والأرض فلِمَ يسألون عن نوع عملك « آنذاك » . حيث لا وقت ، ولا « آنذاك » .

كلا ؛ انت لا تسبق في الوقت الزمن وإلاّ لما استطعت ، ان تتقدم الازمنة لكنك تتقدم الازمنة الماضية على مدى ازليتك الدائمة الوجود وتعلو فوق الازمنة المستقبلة لانها مستقبلة وما ان تُقبل هذه حتى تنقضي ؛ بيد انك « باقٍ كما انت وسنوك لا تنقضي » . سنوك لا تروح ولا تجيء بيد ان سنينا نحن تروح وتجيء حتى تأتي كلها . سنوك تدوم كلها لانها دائمة حقاً ؛ فلا تروح امام وجه رفيقاتها التي تصل؛ لأنها لا تنقضي ؛ اما سنونا نحن فلا تحضر كلها إلا بعد ان تنقضي كلها : « سنوك مثل يوم واحد ويومُك لا يتجدد كل يوم ؛ انه « اليوم » وهذا اليوم لا يترك محله للغد كما انه لا يعقب الأمس . يومك هو الأزل . وايضاً فإنك وَلَدْتَ كائناً مساوياً لك في الازلية وقد قلت له : « انني اليومَ ولدتك » . انت قد

صنعتُ كلَّ الازمنة وانت فوق الازمنة ومن المستحيل ان لا يكون وقتٌ في زمنٍ من الدهر .

وعليه فلا يوجد وقت لم تصنع فيه شيئاً لأنك صنعت الوقت عينه وليس من وقت يتساوى معك في الأزلية لأنك دائمُ الوجود ولو كان الوقت دائم الوجود لبطل ان يكون وقتاً .

فما هو الوقت اذاً ؟ ومن يقدر ان يشرحه بايجاز وسهولة ؟ ومن ذا يقدر ان يكوِّن عنه فكرة واضحة يعبِّر عنها بالألفاظ ؟ هل نجد في احاديثنا فكرة ندركها ادراكاً صحيحاً وتكون اكثر التصاقاً بنا من فكرة الوقت ؟ في حديثنا عنها نفهم عفواً ما نقول وكذلك حين يتكلم آخر عنها .

فما هو الوقت اذاً ؟ ان لم يسألني احدٌ عنه ، اعرفه ؛ امَّا ان اشرحه ، فلا استطيع . ومع ذلك ، اؤكد بجسارة ، انه ، لو لم يكن شيءٌ ينقضي ، لما كان وقت يمضي ؛ ولولا الماضي لما كان مستقبل ولولا الماضي لما كان حاضر .

وما هما هذان الوقتان الماضي والمستقبل ؟ الماضي مضى والمستقبل آتٍ ، والحاضر لو بقي دوماً حاضراً دون ان يتلاشى في الماضي لبطل ان يكون وقتاً ولكان ازلاً . وبالتالي ان لزم للحاضر ، كي يكون وقتاً ، ان يتلاشى في الماضي فكيف نقدر ان نثبت وجوده هو ايضاً طال ما ان علة وجوده الوحيدة هي ان لا يكون . وفي الواقع ، ان حقَّ لنـــا ان نقول ان الوقت موجود فلأنه يسير نحو اللاوجود .

ومع ذلك فنحن نتكلم عن وقت طويل وآخر قصير ؛ ولا نقول ذلك الا عن الماضي والمستقبل . فالماضي الطويل والمستقبل الطويل بالنسبة الينا هو مائة عام مثلاً إما في الماضي وامّا في المستقبل والماضي القصير والمستقبل القصير هو على ما اظن عشرة ايام انقضت وعشرة تقبل . ولكن كيف

يمكن ان يكون طويلاً او قصيراً مـا ليس موجوداً لأن الماضي مضى والمستقبل لم يأتِ بعد ؛ فلا يجوز اذاً ان نقول « ان الزمان طويل » بل لقد « كان الماضي طويلاً » وسيكون المستقبل طويلاً .

ايها الرب ، انت نوري ؛ ألا تسخر حقيقتك في هذا المجال ايضاً من الانسان ؟ وهذا الوقت الطويل ، اطويل هو في ماضيه ام في حاضره ؟ لم يكن باستطاعته ان يُعتبر طويلاً الا حين كان اهلاً لذلك وحين ينقضي يترك الوجود : اذاً ، لم يكن باستطاعته ان يعتبر طويلاً لأنه راح بالتمام من الوجود .

وبالتالي فلا يجوز لنا ان نقول «كان الماضي طويلاً » لأننا لن نجد فيه شيئاً طويلاً ؛ وطال ما انقضى فلم يعد له وجود . بل فلنقل «كان الحاضر طويلاً » هو طويل لكونه حاضراً ولكونه لم يَضِـعْ في اللاوجود ؛ وعليه فقد كان شيئاً ما يستطيع ان يكون طويلاً. ولكن ، ما ان انقضى ، حتى بطل فوراً ان يكون طويلاً لانه لم يعد موجوداً .

ولننظر ايتها النفس البشرية فيما اذا كان باستطاعة الحاضر ان يكون طويلاً لأنك أُعطيتِ ان تدركي مداه وتقيسيه . فما هو جوابك ؟

هل مائة سنة وقت طويلٌ ؟ تأملي فيما اذا كانت مائة سنة حاضرة ! لو افترضنا ان السنة الاولى منها هي في طريق الانقضاء واعتبرناهـا حاضرة فالتسعة والتسعون الباقية هي مستقبلة وبالتالي لا وجود لها والآن ها هي الثانية تبدأ فيكون ان واحدة انقضت واخرى حاضرة والباقية لا تزال في حيِّز المستقبل ، اياً كانت السنة التي نستحضرها من بين هذه السنوات المائة نجد ان ما سبقها اصبح ماضياً وما سيتبعها سيكون مستقبلاً وبالتـالي فمن المستحيل ان تكون المائة سنة حاضرةً بالوقت عينه .

وتأملي الآن ان كانت السنة التي نحن بصددها حاضرةً . ان كانت

في شهرها الاول اعتبرنا الاشهر الاخرى مستقبلاً ؛ وان كانت في شهرها الثاني دخل الشهر الاول منها في الماضي وبقيت الاخرى مستقبلاً وهكذا فلا يمكن ان تكون السنة الحالية حاضرةً . وبما انها ليست حاضرةً بكليتها فليست حاضرةً بصفتها سنةً لأن كل سنة تتألف من اثني عشر شهراً وكل شهر يعتبر حاضراً طال ما هو في طور الانقضاء، وما عداه، ماضٍ او مستقبل . ومن ثمَّ لا يمكننا ان نسمي هذا الشهر حاضراً بل يوم منه فقط . فان كان اليوم الاول ، فما عداه مستقبل ؛ وان كان الأخير ، فما عداه ماضٍ ؛ وان اتخذ يوماً متوسطاً وجدناه بين ايامٍ ماضية واخرى مستقبلة .

ذاك اذاً هو الوقت الحاضر .الوحيد الذي يستحق ان يسمّى «طويلاً» وهو ما يكاد ينحصر في نهارٍ واحد . وزد على ذلك فان اردنا ان ندقّق في درس هذا النهار وجدناه غير حاضرٍ بكليته فساعات النهار والليل اربع وعشرون : وهي بالنسبة الى الاولى مستقبلة والى الأخيرة ماضية. اما الساعة المتوسطة فلها سابقات ولها لاحقات . والساعة عينها مؤلفة من اجزاء هاربة فكل ما ينفصل عنها يمضي وما لا يزال فيها مستقبل . لو تصورنا نقطة في الزمن لا تتجزأ لاستطعنا ان نسميها حاضراً ولكانت سريعة الانتقال من المستقبل الى الماضي حتى لا نستطيع ان نعطيها مدى اذ لو كان لها بعض المدى لتجزّأ هذا المدى الى ماضٍ ومستقبل بيدَ ان الحاضر لا مدى له .

فاين الوقت الذي اتصف بالطول ؟ اهو المستقبل ؟ ولكننا عن المستقبل لا نقول إنه طويل اذ لا حاضرَ منه موجود يمكن ان يكون طويلاً بل نقول عنه « سيكون طويلاً » ولكن متى يكون ؟ ان كان لا يزال في الحاضر مستقبلاً فلا يمكن ان يكون طويلاً اذ هو غير قابل حتى الآن، الطول. اذا لم يكن طويلاً إلاّ بانتقاله من المستقبل الذي لم يأتِ بعد الى الوجود ومن

ثم يصبح حاضراً وبالتالي قابلاً للطول ، فها ان الحاضر عينه يصرخ بنا وها اننا قد سمعناه الساعة يقول انه لا يستطيع ان يكون طويلاً ! !

اننا نرى يا رب اقسام الزمن ونقارن بينها ونصف هـــذا بالطول وذاك بالقصر كما اننا نقيس طول هذا وذاك وقصرهما ونقارن بينهما ونجيب بان هذا يساوي ضعفي ذاك او ثلاثة اضعاف منه او بالأحرى يساويه بكل بساطة لكننا لا نقيس الزمن إلا في اثناء مروره حين نقيسه بادراكنا له . وهل يمكن ان يقاس الماضي الذي انقضى او المستقبل الذي لم يأتِ إلا اذا افترضنا ان للعدم مقياساً؟وعليه فحين يمر الزمن يمكن ان ينقضي ويقاس، ولكن بعد فواته يستحيل كل قياس لأنه يصبح لا موجوداً .

ابحث ايها الاب ولا اؤكد ؛ ساعدني يا الهي وارشدني .

من يجرؤ ان ينكر علي ثلاثة اوقات ، كما تعلّمنا احداثـــاً وعلمناه الصغار ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ؛ الحاضر وحده موجود لان الاثنين الآخرين غير موجودين ؟ وهل يجب ان نقول انهما موجودان وان الحاضر يخرج من مخبأ سري ومن مستقبلٍ ينتقل الى الحاضر وان الحاضر كذلك ينتقل الى مخبأ سري حين يصبح ماضياً ؟ ان الذين تنبأوا عن المستقبل ، اين رأوه ان لم يكن موجوداً ؟ لا احد يقدر ان يرى ما ليس موجوداً ؛ وكل الذين يروون الماضي هل يستطيعون ان يكونوا محقين في اخبارهم ان لم يتخيّلوا الأحداث التي يسردونها ؟ ان كان الماضي عدماً ومطلقـــاً فمن المستحيل مشاهدته ؛ اذاً الماضي والمستقبل هما موجودان .

اسمح لي يا رب أن اتوسع في بحثي ، أنت ، رجائي ، ولا تدع شيئاً يعرقل سعيي . ان كان المـــاضي والمستقبل موجودين فاني اودُّ لو اعرف مكانهما ؛ وان استحالت عليّ معرفةُ ذلك فاني اعرف ، انى حلاّ ، انهما حاضرٌ ، لا ماضٍ ولا مستقبل ؛ لأنه ان كان المستقبل فيه مستقبلاً فلا

وجود له وان كان الماضي ماضياً فلا وجود له . فاذاً ، انى كانا ، ومهما كانا فلا وجود لهما الا بصفتهما حاضراً . حين نسرد قصَّةً ماضية لا تصدر عن ذاكرتنا الحقائق عينها التي لم يعد لها وجود ، بل الألفاظ المنبثقة من الصور التي نسجناها لأنفسنا عن تلك الحقائق اذ حين تجتاز حواسّنا تترك في فكرنا ما يشبه آثار اقدام وهكذا فان حداثتي التي لم يعد لها وجود انتقلت الى ماضٍ قد تلاشى مثلها ؛ ولكن حين اتذكّرها واتحدث عنها ارى صورتها في الحاضر اذ لا تزال في ذاكرتي .

أتلك هي حال من يخبر بالمستقبلات ؟ وهل تدرك النفس مسبَّقاً الصور الموجودة لأشياء لا وجود لها؟ هنا اعترف لك يا الهي بتقصيري عن فهم هذه الامور. انما اعرف اننا عادةً ما نتأمل في اعمالنا المستقبلة ؛ فالتأمل يتم في الحاضر بينا الاعمال تظل في اللاوجود لأنها مستقبلة . ولكن عندما نباشر تنفيذها حينذاك فقط يدخلُ العملُ في الوجود وينتقل من المستقبل الى الحاضر .

اياً كان نوع هواجس المستقبل فلا طاقة لنا إلا على معرفة الحاضر بيد ان الحاضر ليس مستقبلاً بل حاضراً وحين يقول الناس انهم يرون المستقبل فلا يعنون بهذا القول انهم يرون الاشياء عينها التي لا وجود لها ، اي المستقبلة ، انما قد يَرَوْن عِلَلَ الاشياء وبوادرها الموجودة امام اعينهم فتساعد العقل على ادراك المستقبل والتكهن به . وهذه الافكار موجودة ولهذا يراها المتكلّمون عن المستقبل في انفسهم .

اريد ان اقدم هنا شاهداً حياً من كثيرين .

اتأمل الصباح الباكر وابشر بطلوع الشمس القريب . فالذي اتأمله ، حاضرٌ ، والذي ابشّر به مستقبل ؛ فليست الشمس مستقبلاً لأنها موجودة بل طلوعها هو المستقبل لأنه لم يأتِ بعد ؛ بيد ان هذا الطلوع عينه لو لا

الصورة التي ارتسمت عنه في ذهني لما استطعتُ ان ابشّر به. وهذا الفجر الذي اراه في السماء ليس هو طلوع الشمس وان سبقه ولا الصورة المتكوِّنة عنه في ذهني ؛ بل اني اراهما كليهما كأنهما حاضران ولهذا ابشِّر بقرب طلوع الشمس .

وعليه فالمستقبل ليس حاضراً ؛ وان كان هكذا فلا وجود له وان لم يكن موجوداً فلا يمكن ان يُرى بل يبشَّر به بفضل الحقائــق الحاضرة الموجودة والملحوظة .

اما انت يا معلِّم مخلوقاتك كلها، فكيف تعلِّمُ النفوسَ معرفة المستقبل؟ انت علَّمتها لأنبيائك. اجل، كيف تعلِّم معرفة المستقبل يا من لا مستقبل لك ؟ او بالأحرى كيف تعلّم من المستقبل ما هو الآن حاضر ؟ لا جدل في انه لا يمكن للانسان ان يتعلّم ما ليس موجوداً . اعترف بأن اسلوبك يخفى على نظري الضعيف. انه لأقوى مني ؛ وانا لا اقوى بنفسي على التطلع اليه انما بنعمتك اقدر ان ارتفع اليه ، حسب مواعيدك يا ضياءً عذباً لعيني نفسي .

من الثابت الواضح لديَّ الآن ان لا وجود للمستقبل ولا للماضي . وخطأ نقول بوجود ثلاثة ازمنة : الماضي والحاضر والمستقبل . وقــد يكون الاصح ان نقول : في الكون ازمنةٌ ثلاثة : حاضر الماضي وحاضر الحاضر وحاضر المستقبل وهذه الطرق الثلاث موجودة في عقلنا ولا ارى لها وجوداً الا فيه . فحاضر الاشياء الماضية هو الذاكرة وحاضر الاشياء الحاضرة هو الرؤية المباشرة وحاضر الاشياء المستقبلة هو الترقُّب (الانتظار) وليسمحوا لي بأن أرى وفقاً لهذه التعابير ثلاثة ازمنة ، اجل ، ثلاثة .

وليقل سواي : « يوجد ثلاثة ازمنة « ماضٍ وحاضر ومستقبل » طال ما ان هذه العادة المؤسفة تكرَّست ؛ اجل ليقلْ سواي ذلك ؛ امَّا انا فلا

اقاومُ ولا انتقدُ شرطَ ان يدركوا معنى كلامهم وألاّ يتصوّروا ان المستقبل اصبح حاضراً وان الماضي لا يزال حاضراً ؛ من النادر جداً ان نعبّر دوماً بالايجاز ؛ فان معظم تعابيرنا مغلوطة ومع ذلك فهي تفي بالمرام .

قلت اذاً ، اننا نقيس الوقت في اثناء مروره فنؤكد ان هذه البرهة من الزمن هي ضعف تلك او انها تساويها طولاً وندرك اذ ذاك النسبة القائمة بين اجزاء الزمن .

وعليه فاننا كما قلت نقيس الزمن في اثناء مروره ولو سئلت : « من اين لك معرفة ذلك ؟ » لأجبت : « من قياسنا له لأننا لا نقيس الا الموجود ، والمستقبل كالماضي لا وجودَ لهما الآن . ولكن كيف نستطيع ان نقيس الحاضر طال ما لا امتداد له؟ لا يقاس الا اثناء مروره وحين يمر يستحيل قياسه لأنه لا يعود قابلاً للوجود .

من اين يأتي الوقت ؟ اين يمر ؟ والى اين ؟ في اثناء قياسنا له ؟ من اين ؟ ان لم يكن من المستقبل ؟ اين يمر ، ان لم يكن في الحاضر ؟ والى اين ان لم يكن نحو الماضي ؟ يصدر عمّا لا حضور له فيقطع ما لا امتداد له ليتلاشى في ما اصبح عدماً .

هل نقيس شيئاً سوى الزمن في حقبة محدودة ؟ عندما نتكلّم عن حقبات بسيطة ، ومزدوجة ومثلثة ومتساوية وعمّا يشابهها نتحدث عن حقبات زمنية . ففي اي مدى نقيس الزمن الذي يمر ؟ افي المستقبل الذي منه يأتي ليمضي ؟ لكنّ ما لا وجود له لا يقاس . افي الحاضر الذي يمر فيه ؟ لكن ما لا مدى له يستحيل قياسه . افي الماضي حيث يتلاشى ؟ لكن كيف يقاس ما لم يعد له وجود ؟

يتحرق عقلي لمعرفة هذا اللغز المعقّد ! ايها الرب الهي الآب الكلي الصلاح لا تغلق عني معرفة هذه الامور العادية والغريبة بوقت واحد ؛

دعني ادركها ولتشرق عليها اشعة رأفتك ايها الرب . بمن استعين لمعرفتها ؟ لمن اقر بجهلي فينفعني اكثر منك يا من لا تستطيع ان تشجب الغيرة الوقّادة القوية التي اضعها لمعرفة كتبك المقدسة ؟ هبني ما أحب لأنني احب ولأنك انت قلت بأن احب . نعم ، يا ابتِ ، امنحني هذا السؤال يا من لا تعرف حقاً ان تعطي ابناءك سوى العطايا الصالحة . اعطنيه لأني صممتُ ان ادرك ذلك لكنه عسيرٌ في عينيَّ الى ان تفتح عقلي عليه ، اتوسل اليك في المسيح باسم قدس الاقداس كيلا يقاوم احدٌ سعيي « وها اني آمنت ولهذا تكلمت » ان رجائي في حياتي هو ان اتأمّل نعيم الرب ولقد صنعت منذ القديم ايامي وها هي تمضي وكيف لا ادري .

عن الوقت نتكلم ايضاً وايضاً ونقول : « كم من الوقت تكلّم هذا الانسان ؟ » « وكم وقت استلزم القيام بذاك العمل ؟ » وكم لي لم ارَ هذا الشيء ؟ وهذا المقطع الكلامي يتطلب ضعف الوقت الذي يتطلبه التلفظ بذاك المقطع القصير . كل هذا نقوله ونسمعه فيفهمنا الآخرون ونفهمهم . لا شيء اصفى واكثر استعمالاً ولا شيء اكثر غموضاً منه في حياتنا اليومية .

لقد سمعت احدهم يقول لحكيم ان الوقت ليس سوى حركة الشمس والقمر والكواكب فما استحسنت كلامه . وان كان الأمر كما يقول فلِمَ لا يكون الوقت حركة الاجرام كلها ؟ فلو ان كواكب السماء انقطعت عن المسير وظلَّ دولاب خزّان يدور فكيف ، ان صحَّ زعمهم ، نستطيع ان نقيس دوراته ونثبت انها متساوية البعد او التتابع ؟ تارة تسير ببطء وطوراً بسرعة ! ام كيف نعرف ان بعضها اطول من البعض الآخر ؟ وحين نشير الى هذه الأمور ، ففي الزمن نشير اليها ! ألا نجد في هذه الالفاظ مقاطع طويلة وقصيرة لأن هذه تتجاوب في مدى وقتي اقصر والعكس بالعكس؟

اللهمَّ هب الناس ان يعرفوا ولو قليلاً ما هو خاص بالاشياء الصغيرة

والكبيرة . نجد في السماء علاماتٍ من كواكب ومشاعل سماوية تدل على الفصول والايام والسنين . وهذا امر لا شك فيه . وانا لا ادّعي البتــة ان الدورة التي يُتمها هذا الدولاب الخشبي تعني اليوم كما وان حكيمنا يتيه في الضلال ان انكر وجود الزمن في هذه الدورة .

ان ما ابغي معرفته هو جوهر الوقت وطبيعته الخاصة ، هذا الوقت الذي نقيس بفضله حركات الاجرام ويساعدنا على ان نقول مثلاً ان هذه الدورة تساوي اثنتين من تلك، والنهار لا يقاس بالوقت الذي تقضيه الشمس فوق الكرة الارضية من حيث تميز الليل من النهار بل هو ايضاً تلك الدائرة التي ترسمها الشمس من الشرق الى الشرق واننا لنقول لقد انقضت ايام كثيرة وهذه الكثرة من الأيام تتناول الليالي التي لا تحصى منفردة. وعليه فان كان النهار يتم بدوران الشمس الكامل من المشرق واليه فاني اود لو اعرف فيما اذا كان دورانها يؤلف النهار ام زمان دورانها او كلاهما معاً .

إن كان النهار بداية فالنهار قائم حتى ولو بقي للشمس ساعة من الزمن لاكمال دورتها. أهو اذاً مدة دورانها؟ في هذه الحال يبطل ان يكون النهار نهاراً اذ من شروق الشمس الواحد الى شروقها الآخر لا تزيد المدة عن ساعة واحدة ويلزم لتكوين النهار ان تستعيد الشمس اربعاً وعشرين مرة دورتها . هل هو الحركة ومدى الحركة ؟ ولكن لا يمكننا ان نسمي نهـــاراً الساعة التي تتم فيها الشمس دورتها ولا المدة التي تتراوح بين الصباح وذاك الذي يعقبه .

لن اسأل مذ الآن عن « النهار » بـــل عن الوقت الذي نعتبره قياس الدورة الشمسية. ألا نقول ان الشمس اجتازت هذه الدائرة بمدى من الوقت لا يتجاوز نصف مداه الاعتيادي ان اكملته بحقبة من الوقت تساوي الثنتي عشرة ساعة؟واذا قارنت بين هاتين الحقبتين ثبت لنا انهما كالبسيطة بالنسبة

الى المزدوج في حال اتخاذ الشمس في سيرها من المشرق واليه وقتاً بسيطاً ومزدوجاً .

لا يقولن لي احد من بعدُ : « الزمن هو حركة الاجرام السماوية » حين توقفت الشمس عن السير امام صلاة رجل ليفسح المجال امـــام نصر يكتمل ، ظلت ثابتة لا تتحرك اما الوقت فقد تابع سيره اذ ان المعركة بدأت وانتهت في الوقت اللازم لها .

وعليه فإني ارى ان الوقت نوعٌ من الامتداد ؛ وهل هذا صحيح ام وهم وخيال ؟ انت وحدك ايها الحقيقة تكشفه لي .

أتأمرني بالقبول حين يقولون ان الزمن هو حركة جرم ؟ كلاّ ، حقاً ! من الصحيح ان لا حركة للمادة إلا في الزمن ؛ هذا امر افهمه جيداً وانت قلته لي ! ولكن لا اقبل ان تكون هذه الحركة زمناً وانت لم تقلها لي ! حين يتحرك جرمٌ أقيس بالزمن مدى حركته منذ ان بدأ يتحرك حتى يتوقف ؛ فاذا لم اكن شاهداً على بدء الحركة فيه واذا مـــا ظل يتحرك دون ان ارى ساعة يتوقف عن الحركة فمن المستحيل عليَّ ان اقيس هذا المدى الا مذ اخذت اراه يتحرك الى حين انقطعت عن رؤيته . وان كانت مدة رؤيتي له طويلة فلا اقدر إلاّ ان اؤكد ذلك دون المزيد من الايضاح لأن كل تحديد واضح يتضمن تشبيهاً نعلن بواسطته ان مدة هذا هي ضعف ذاك والعكس بالعكس . ان توصَّلْنا الى ان نركّز في الزمن نقطـــة الانطلاق للحركة التي سيَّرت جرماً والهدفَ الذي يصل اليه ، نستطيع اذ ذاك ان نثبت المدة الزمنية التي اتخذها للانتقال من هذه النقطة الى تلك .

ولا يغربنَّ عن بال احد ان حركة الجرم شيء وقياس مدة الحركة شيء آخر . ومن ذا لا يدرك اذ ذاك معنى الوقت ؟ غالباً ما يسير جرمٌ تحت تأثير حركة فوضوية وغالباً ما يظل واقفاً . فبالوقت نقيس حركته وثباته.لقد

بقي هذا الجرم ثابتاً في مكانه طوال الوقت الذي ظل به متحركاً او ضعفه او ثلاثة اضعافه . وعليه فالوقت اذاً ليس حركة الاجساد .

واني اعترف لك يا رب ؛ لا ازال اجهل ماهية الوقت ؛ واعترف لك ايضاً ـ اعرف انني اتكلم في الزمن وانني منذ زمن طويل اتكلم عن الوقت وان هذا الزمن الطويل طويلٌ بحكم مدة قـد انقضت ولكن من اين لي ان اعرفها طال ما اني اجهل ماهية الوقت ؟ ألأني اعجز عن التعبير عما اعرف؟ افٍ لي أنا الذي اجهل ما لا اعرف ! من الواضح لديك يا الهي انني لا اكذب : لساني مرآة لقلبي . اضئ اللهم سراجي ويا رب أنر ظلمتي .

ان نفسي تعترف لك اعترافاً صحيحاً عندما تعترف لك بأنهـا تقيس الزمن . وهكذا ايها الرب الهي فاني اقيسه دون ان اعرف ما اقيس! اقيس حركة الاجسام بواسطة الزمن، ولكن ، والزمن عينه، الا اقيسه ؟ هل اقدر ان اقيس حركة جرمٍ ومداها والوقت اللازم للانتقال من نقطة الى اخرى، ان لم اقس الزمن الذي تجري فيه هذه الحركة ؟

وبمَ اقيس الزمن؟هل اقيس بزمن اقصر زمناً اطول كما نقيس بالذراع لوحة؟وعلى هذا النحو يظن الناس اننا نقيس الطويل من الاوقات بالقصير معلنين ان الاول هو ضعف الثاني كما نقيس القصائد بعدد ابياتها وهذه بتفاعيلها وهذه بمقاطعها والمقاطع بطويلها وقصيرها دون ان يجري قياسها على القرطاس وإلا صرنا كمن يقيس مدى فضائياً لا زمنياً . ولكن عندما نلفظ الكلمات نقول : « هذا النشيد هو طويل لكونه مؤلفاً من هذا العدد من الابيات ؛ ونقول: هذه الابيات هي طويلة بالنسبة الى عدد مقاطعها؛ وهذا المقطع طويل لأن لفظه يستلزم ضعفي ما يستلزم القصير » .

وفي هذا ايضاً لا نصل الى قياس ثابت للزمن لأن بيتـاً من الشعر

نلفظه على مهل يستلزم ضعف الوقت الذي يستلزمه شعر طويل نسرع في القائه » . وما قلناه الآن ينطبق تماماً على النشيد والتفعيلة والمقطع .

رأي اغوسطينوس الخاص بالزمن

أستنتجُ مما تقدم ان الزمن امتداد لما اعرف ؛ أوَعَجَبٌ ان يكون امتداداً للروح ؟ اسألك يا الله ان تقول لي كيف اقيس حين اقول ان هذا الزمن اطول من ذاك او حين اقول عن صواب : هذا الزمن يساوي ضعفي ذاك؟ اقيسُ الزمن واعرف ذلك تقريباً، لكنني لا اقيس البتة المستقبل لانه مستقبل ولا الماضي الذي فات . فماذا اقيس اذاً ؟ هل أقيس الزمن اثناء مروره واترك الماضي ؟ وماذا قلت في ما سبق ؟

الحّي يا نفسي واسكبي امامه قلبك لأن الله معتصمٌ لنـــا « هو الذي خلقنا ولم نخلق انفسنا » حدّقي بنظرك حيث يبزغ فجر الحقيقة .

اليكَ صوتاً بشرياً يجلجل ؛ دوّى اولاً فثانياً ثم انقطع...ساد الصمت ومضى هذا الصوت ولم يعد له وجود. قبل ان يدوّي كان في المستقبل وما امكن قياسه اذ لم يكن موجوداً ؛ ولا الآن يمكن قياسه اذ قد انقضى . كان قياسه ممكناً في اثناء دويّه لأنه كان قابلاً لكل قياس مع انه لم يكن ثابتاً بل يروح ويجيء، وقد تكون هذه الحركة فيه هي التي تجعله قابلاً لأن يقاس اذ بينا يمر ، يمتد على مدى من الزمن يساعد على قياسه طال ما ان الحاضر خالٍ من كل امتداد .

وعليه فان تمكننا من قياسه في هذه المرحلة وقعنا في افتراضٍ آخر : صوت ثانٍ يدوّي ، يدوي ولا يزال ولا يفتأ يدوي بدون انقطاع . نقيسه في اثناء دويّه لآنه حين ينقطع عن الدوي يمضي ويصبح من المستحيل قياسه . فلنعمل على قياسه وعلى ضبط مداه ؛ بيدَ انه لا يزال يدوي ولا

يمكن ان يقاس الا من اوله منذ ان أخذ يدوي حتى انقطاعه عن الدوي. كل مدى يقاس من اوله حتى آخره، ولهذا نقول عن حق: ان كل صوت لا يزال قائماً يستحيل قياسه ولا يمكن قياسه لا من حيث الطول ولا من حيث القصر اذ لا يمكن ان نقيسه بشبيه له بسيطٍ او مزدوج الخ... ولكن حين ينقطع هذا الصوت عن الدوي لا يعود موجوداً . فما هي الطريقة اذاً كي نقيسه؟ بيد اننا نقيس الزمن لكن، لا الذي لم يأت، ولا الذي مضى، ولا الذي له بعض الامتداد ولا ما لا حدود له ؛ اننا لا نقيس الحاضر ولا الماضي بيدَ اننا نقيس الزمن ! ! !

«يا رب يا خالق كل شيء» بيت من الشعر يتركب من ثمانية مقاطع فيها يتناول الطويل والقصير . الأربعة القصيرة هي الاول والثالث والخامس والسابع وهي بسيطة بالنسبة الى الاربعة الطويلة ؛ الثاني والرابع والسادس والثامن ؛ كل مقطع طويل يستلزم ضعف الوقت الذي يستلزمه القصير انني اتلفظ به واثبت صحة كلامي . حواسي تشهد بذلك وبمقدار ما اثق بشهادتها اقيس مقطعاً طويلاً بواسطة قصير وادرك ان الطويل يساوي ضعفي القصير. ولكن لا يدوّي مقطع الا بعد الثاني: لو ان القصير الاول والطويل الثاني فكيف احتفظ بالقصير واتخذه مقياساً للطويل طال ما ان الطويل لا يأخذ يدوي الا بعد ان ينتهي القصير من دويه ؟ وهل اقيس الطويل الحاضر عفواً طال ما لا استطيع ان اقيسه الا بعد ان ينتهي ؟وحين ينتهي لا يعود له كيان .

فماذا اقيس اذاً ؟ اين المقطع القصير الذي اقيس به؟واين هو الطويل الذي اقيسه ؟ كلاهما دوّى ثم راح ؛ مضيا ولم يعد لهما وجود . مع ذلك اقيسها واجيب بملء الثقة التي قد تمرَّست نوعاً ما بها بان هذا قصير وذاك مزدوج ، من حيث الزمن ؛ ولا استطيع ان اقول ذلك الا لانهما انقضيا

واكتملا ولا اقيسهما طال ما انهما انقضيا بل ما بقي منهما محفوراً بشدة في ذاكرتي .

فيك يا عقلي ، اقيس الزمن . كلاّ ، لا اناقض نفسي بنفسي ! وانت ايضاً لا تناقض ذاتك في خضم تأثيراتك الصاخب؛فيك اردد واقول اقيس الزمن . ان التأثير الذي تتركه فيك الاشياء الزائلة يبقى رغم ذهابها : هو اقيسه حين يكون موجوداً ولا اقيس الحقائق التي اوجدته ثم انقضت. هو الذي اقيسه حين اقيس الزمن ؛ وعليه فامّا ان يكون زمناً او لا .

ولكن ، حين نقيس الصمت ونقول لقد دام هذا الصمت بنسبة ذاك الصوت ألا نحاول جهدنا ان نقيس هذا الصوت كأنه لا يزال يدوي لكي نجدِّد في مجال الزمن مسافات هذا السكوت ؟ نردد بالفكر دون ان نستعين بنبرة صوتية او بحركة شفهية اناشيدَ وابياتاً شعريـــة وخطباً ؛ ونقدر حق قدرها النسبة الموجودة في حركاتها وعلاقات مداها المتبادلة بصورة مطلقة كأننا نلقيها يصوت عال . ان اراد شخص ان ينطق بصوت عـــال محدداً مسبَّقاً في نفسه طول الصوت ويتأمل طوله بصمت ويسلّم هذ الحساب الى ذاكرته وحينذاك فقط يُخرج صوتاً لا يدوّي إلا في الوقت المحدَّد سابقاً . ولكن ماذا اقول ؟ لقد دوَّى هذا الصوت وسيدوّي ايضاً : لأن ما انقضى منه قد دوّى وما بقي سيدوّي وعلى هذا النحو يكتمل في حين تنقل العمل الحاضر المستقبل للماضي الذي يتضخَّم بكل ما يخسره المستقبل الى يومَ ينفذ المستقبل فيصبح كل شيء ماضياً .

ولكن ، كيف يستطيع المستقبل ان ينقص ويتلاشى طال ما لا وجود له ؟ ام كيف يتضخم الماضي وهو ماضٍ لم يُعد له وجود ؛ ان لم يكن بالفكر حيث تمر كل المراحل وتتعايش عمليات ثلاث : الانتظار والانتباه والتذكار ؟ » يمر امام الانتظار موضوع الانتظار ويتحول الى ذكريات .

من ، يا ترى ، يُنكِرُ ان المستقبل لم يبدأ في حين ان انتظار المستقبل قائم في الفكر ؟ من يرتاب في ان الماضي مضى في حين ان تذكار الماضي لا يزال عالقاً في الفكر؟ من ينكر ان الحاضر لا ممدود طال ما أنَّه نقطة من الزمن هاربة ؟ انما الباقي هو الانتباه الذي يقود نحو اللاوجود الاشياء التي سوف تمر فيه . وعليه ليس المستقبل طويلاً اذ لا وجود له ؛ والمستقبل الطويل هو ذاك الانتظار للمستقبل الذي يظنّه الانسان طويلاً ؛ ليس الماضي طويلاً اذ لا وجود له ؛ والماضي الطويل هو تذكار الماضي الذي يتصوره طويلاً .

ها اني اودُّ ان انشد قطعة حفظتها عن ظهر قلبي : وقبل ان ابدأ بانشادها يتوجه انتظاري الى القطعة بكاملها ولكن حين ابدأ بكل ما يذهب منها الى الماضي يتطلّع ايضاً الى ذاكرتي ويصبح نشاطي بين وجهتين تتنازعاني : نشاطي هو ذاكرة بالنسبة الى ما قلت وهو انتظار بالنسبة الى ما سأقول ؛ ومع ذلك يظل انتباهي حاضراً اذ بـه ينتقل ما لم يحضر بعد الى ما لم يعد موجوداً . وبمقدار ما تتوسع هذه الحركة تكتنز الذاكرة ممَّا يخسره الانتظار الى ان يأتي على آخر سهم في جعبته ؛ اذ ذاك يكمل العمل وينتقل الى الذاكرة.وان ما يحدث لمجموع النشيد يحدث لكل جزءٍ من اجزائه ، ولكل مقطع من مقاطعه . وتلك هي الحال في كل عمل اوسع مجالاً ؛ ليس هذا النشيد سوى جزء ضئيل منه ؛ وكذلك تعد اعمال الناس في حياة الانسان اجزاءً منها ؛ وفي تاريخ الشعوب تعـد حياة الفرد جزءًا من الكل .

التأمل الاخير ، النهائي

ولكن « رحمتك اطيب من الحياة » (مز ٦٢ : ٤) وها هي حياتي هباءٌ منثور » ويمينك عضدتني (مز ١٧ : ٣٦) بسيدي ابن الانسان الوسيط

بين وحدتك وكثرتنا – الوسيط بشتى الاشياء والوسائل – كما ادرك به من ادركني لأجله »ثم اوحِّد ذاتي المتحررة من الايام الماضية واتعلَّق بوحدتك « ناسياً ما ورائي» مطمئناً الى المستقبل الآتي ، مهتماً فقط بالاشياء الحاضرة اجاهد بكل قواي من اجل الحصول على اكليل الدعوة السماويـــة حيث اسمع صوت تسابيحك واتأمل بفرحك الذي لا يأتي ولا يزول .

والآن « لقد فنيتْ اعوامي بالتأوه » (مز ٣٠ : ١١) وانت يارب ، يا عزائي ، انت ازلي ، يا ابي. امَّا انا فقد افنيت حياتي في الزمن الذي لا يزال مغلقاً عليَّ . ان افكاري وحياة نفسي تتمزق من جراء هـــذه التقلبات الصاخبة وستظل على تلك الحال الى ان تتطهَّر وتذوب في نار محبتك حينذاك اختني فيك بكليتي .

وفيك اقف واثبت في حقيقتك كأنها قالب صُنع لأجلي واخلص من اسئلة الناس الذين يريدون بدافعٍ من فضولهم الأثيم ان يشربوا اكثر ممـــا باستطاعتهم ويسألونني قائلين : وماذا عمل الله قبل ان يخلق السماء والارض؟ وايضاً : « كيف فكَّر بأن يعمل شيئاً طال ما انه لم يعمل البتة شيئاً سابقاً؟ »

هبهم يا رب ان يفكروا ملياً بما يقولون وان يدركوا ان كلمة « البتة » لا تعني شيئاً حيث لا مكان للزمن . من قال عن شخصٍ انه ما عمل قط شيئاً عنى انه ما عمل شيئاً في اي زمان . هبهم ان يدركوا انه لم يكن زمنٌ قبل الخليقة ليكفوا عن هذه الحماقات وامثالها وليوجهوا تفكيرهم نحو ما «هو قدامهم » وليفهموا جيداً انك سابق للازمنة ، خالقها كلها ، وان لا زمان ولا خليقة ، وان كانا فوق الازمنة إلاّ ليأخذا من ازليتك .

ايها الرب الهي كم هي عميقة اسرارك وبعيدة الغور وكم ابتعدتَ عنها من جرَّاء آثامي ! اشفِ عينيَّ وافتحهما على فرح نورك ! حقاً ، لو وجدنا عقلاً عالماً بدقائق الامور مدركاً لشؤون الماضي والمستقبل كما أَدرك انـــا

قطعة موسيقية واسعة الشهرة لحاز اعجاب الناس واحترامهم ولما فاته شيءٌ من الاجيال الماضية والمستقبلة ؛ كما هي حالي عندما انشد نشيداً فأعرف اين انا من اوله وآخره . حاشا لي ان اعتبر معرفتي هذه مماثلة لمعرفتك، للماضي والمستقبل ، يا مبدع الكون وخالق النفوس والاجساد . عجيبة هي معرفتك وخفيةٌ ولا نسبة بينها وبين معرفتنا ! حين نُنشِدُ لحناً معروفاً او نسمع آخر ننتظر الانغام الموسيقية المقبلة ونتذكر التي مرّت وهذا ينشئ فينا عواطفَ مختلفة وينبّه الحواس كلها. بيدَ انه لا شيء من هذا كله يصل الى ازليتك التي لا تتغير ، الى ازليتك الصحيحة يا خالق العقول وكما انك عرفت « في البدء » السماء والأرض دون ان يطرأ تغيير على معرفتك كذلك خلقت في البدء السماء والأرض دون ان يتبدّل شيءٌ في عملك .

فليسبحك المدركُ لهذه الامور وغير المدرك لها ! آه ! عظيم انت يا من تسكن مع المتواضعي القلب !

لأنك تحيي ارواح المتواضعين وتحفظ من السقوط اولئك المرتفعين بك !

الكتاب
الثاني عشر

شَــرْح مَقاطِع مِن كتَاب سِفــُـرالتكوين

يَحـَارُ قلبي في فاقة هذا العمر ، يا الله ، عندما تقرع بابه كلمات كتابك المقدس ؛ لأن الثرثرة ضعفٌ في العقل البشري والبحث عن شيء ينتج الثرثرة بعكس الحصول عليه ؛ ويستلزم وقتاً اطول مما يستلزم الحصول عليه ؛ واليد يضنيها الضرب اكثر من الدفاع ؛ لقد وعدتَ يا الله ، ومن ذا يقدر ان يفسد علينا وعدك القائل : « ان كان الله معنا فمن يقدر علينا ؟ » (رومية ٨ : ٣١) « سلوا تعطوا ؛ اطلبوا تجدوا ؛ اقرعوا يفتح لكم لأن من يطلب يأخذ ومن يسأل يجد ومن يقرع يفتح له » . (متى ٧ : ٧) .

تلك هي مواعيد الحقيقة، من ذا يخشى غشاً من قبلها ؟

لساني الحقير يعترف لعظمتك، يا خالق السماء والأرض، يا خالق السماء التي أراها ، ويا خالق الارض التي اطأهـــا بقدمي . منها اخذتَ التراب الذي فيَّ ؛ اجل ، انت صنعتها .

ولكن اين هي سماء السماوات التي قيل عنها ايها الرب على لسان صاحب المزامير : « سماء السماوات للرب والأرض

جعلها لبني البشر » ! ؟ (سفر التكوين ١ : ٢) . اين هي هذه السماء التي لا نراها ؟ هذه السماء التي كل ما سواها ارضٌ . عالمنا المادي قائم على ارضنا هذه : وان لم يكن جميلاً فقد اخذ نصيبه من مظاهر الجمال . لو قيست سماءُ ارضنا بسماء السماوات لظلّت ارضاً . ويحق لنا اذاً ان نسمي هذين الجرمين « ارضاً » بالنسبة الى السماء العجيبة المختصة بالسيد الرب وحده .

لقد كانت هذه الأرض « خربة خاوية » لقد كانت غمراً خالياً من النور لا شكل له ولذلك أمليتُ هذه الكلمات : « وكان ظلام على وجه الغمر » (سفر التكوين ١ : ٢).ولكن ، ما الظلام ان لم يكن فقدان النور؟ لو وُجد النور ، ولم يغمر العالم بضيائه ، فاين يكون ؟ بما ان النور كان مفقوداً فالظلام نور ؛ وهيمن الظلام في غياب النور كما يهيمن السكوت التام في غياب الحركة ؛ وكل من قال بفقدان الحركة قال بملكوت السكوت .

لقّنتَ ، يا رب ، هذه الامور ، نفسي ، فراحت تعترف لك ؛ اليس كذلك ؟ افهمتني يا رب انه قبل ان تأخذ هذه المادة شكلها ، اخذت منك هذا الشكل وتحلّت بهذه الميزات ؛ أنها كانت محرومة من اللون والشكل والجسم والروح ؛ اليس كذلك ؟ لم تكن عدماً مطلقاً بل كانت ما لا جسم له ولا شكل !

وكيف نعطي عنها بطيئي الفهم ، فكرةً ، ان لم يكن بواسطة الكلام المألوف؟ وهل في الكون اقرب من الأرض والنور الى ما لا شكل له ؟ مخلوقات حقيرة لا تقاس بالمخلوقات الرفيعة السامية الجميلة البهية.وما يمنعني من القول ان هذه المادة التي لا شكل لها قد جعلتها بلا جمال ثم منها خلقت جمال الكون . هذه هي التي اسماها الناس في الأرض قاطبة « خربةً خالية ».

وعليه ، عندما نحاول ان نعرف مدى ما يستطيع العقل البشري ادراكه

من هذه المادة حين يقول في نفسه : « ليست صورةً يستطيع العقل ان يفهمها ، كالحياة والعدل ، طال مـــا هي مادة الاجسام وليست صورة حسية طال ما ليس في اللامرئي واللاشكلي ما يجعلها اهلاً لذلك. فينحصر اذ ذاك نشاط التفكير البشري في معرفتها ، عن طريق جهلها ، او في جهلها عن طريق معرفتها .

امَّا انا ، ايها الرب ، فان لزمني ان اعترف لك بلساني وقلمي ، اعترف لك بكل ما علمتني عن هذه المادة ، كنت فيما مضى اذا سمعتُ باسمها لا افهم شيئاً عنها ؛ واتصورها تحت عدد ضخم جداً من الاشكال المختلفة ولكني في الواقع ما قدرت ان اتصورها . ففي مخيلتي مزيج من الصور الشنيعـــة القبيحة ؛ ومع ذلك فهي صور ؛ بيدَ اني سميتُ خاوياً خالياً هذا الجرم لا ، لأن ليس له شكل ، بل لأنه يتلبَّس بشكل غريب عنه ، عجيب ، يلبلبل حواسي وقلب رأساً على عقب ضعفي البشري .

لم يكن ما تصورته ذا شكل لا بالنسبة الى عـــدم وجود اشكال بل بالنسبة الى صور اكثر جمالاً ؛ والمنطق الصحيح يقول لي ان اردتُ ان اتصور كائنا لا شكل له البتة بأن اجرِّده تماماً من بقايا الشكلية العالقة فيه ؛ لكنني لم انجح وبقيتُ ميالاً الى الاعتقاد بان ما لا شكلَ له عدم ؛ ولم اتصوَّر شيئاً متوسطاً بين الشكل والعدم لا يكون شكلاً ولا يكونُ عدماً ، كائناً ، لا شكل له ، قريباً جداً من العدم .

ومنذئذٍ انقطع عقلي عن سؤال مخيلتي الملأى بصور الاشكال الجسدية التي كان يغيِّرها ويبدِّلها على هواه ؛ صوَّبتُ اهتمامي نحو الاجساد عينها ورجعت اتأمل اكثر فاكثر بهذا التقلُّب المستمر من حال الى حال ، فظننت ان هذا الانتقال من شكل الى آخر غير صادر عن عدمٍ مطلق بل عمَّا لا شكل له .

ولم اكتف بالظن بل اردت ان ادركه حقاً : وان كنت الآن اعترف لك بصوتي وقلمي بما افضتَ عليَّ من انوار لادراك هذه المسألة فأي قارئ لكلماتي يثابر عليها حتى النهاية ؟ ومع ذلك لن ينقطع قلبي عن تسبيحك وعن انشاد نشيد المجد بسبب هذه الامور التي كشفتها لي ولا يعرف كيف يعبر عنها .

ان وضع الاشياء القابلة التغيير يؤهلهـــا لكل الاشكال التي تأخذها تدريجياً الاشياء المتغيرة ! ما هو اذاً ؟ هل هو روح ام جسد ؟ هل هو كيفية الروح ام الجسد ؟ لو استطعنا ان نقول مثلاً : « لا شيء فيه بعض الشيء » او « عدمٌ موجود » لأعطيته هذا التحديد . ومع ذلك فكل ما هو قابل للظهور بشتى انواع الصور والاشكال التي نعرفهـــا ، اهلٌ لأن يكونَ له بعضُ الوجود .

وفي كل حال اين مصدرها ؟ ان يكن منك يا مصدر كل موجود ! بقدر ما يكون الشبه بينك وبين المخلوقات ضعيفاً بقدر ذلك هي بعيدة عنك .

وعليه ايها الرب يا من لا يتغير بتغيُّر الاحوال بل يثبت ابداً ، ودوماً ، ايها القدوس القدوس القدوس الرب الاله الكلي القدرة ، يا من في البدء المنبثق منك وبحكمتك المولودة من جوهرك قد خلقت من العدم .

خلقت السماء والأرض ولم تخرجهما من جوهرك وإلاّ لكانتا متساويتين لابنك الوحيد ومتساويتين لك ؛ ولكان ظلمٌ بأن مـــا لا ينبثق منك جاء متساوياً لك. خارجاً عنك لا شيء ابدعتهما منه ايها الثالوث الأحد والوحدة الثلاثية . لهذا صنعت من لا شيء السماء والأرض ، هذه العظمة وهـــذه الحقارة ؛ لأنك كلي القدرة ولأن جودتك ترتضي باعمال الصالحات كالسماء الفسيحة الواسعة الارجاء والأرض الضيقة ؛ كنت موجوداً والى جنبك كان

العدم ؛ ومن هذا العدم صنعت السماء والارض وخلقتهما كلتيهما احداهما قريبة منك والاخرى قريبة من العدم ؛ لا احطّ من هذه ، ولا ارفع من تلك ، إلاّك .

سماء السماوات لك يا الله ؛ والارض التي اعطيتها بني البشر كي يروها ويلمسوها كانت غير ما هي عليه الآن ؛ لم تكن تقع تحت الحواس ولم يكن لها شكل — بل لجة عميقة مغمورة كلياً بالظلام : « وكان الظلام يرفرف فوق الغمر » مما يدل على انها كثيرة العمق. لأن لجة المياه التي نراها اليوم تقبل في عمق اعماقها نوعاً من الضياء تستنير به الاسماك والحيوانات التي تزحف في اللجج . كل ذلك كان شبيهاً بالعدم لأنه لم يكن له شكل بل معدٌّ لأن يأخذ شكلاً .

انت اذاً ايها الرب كوّنتَ العالم من مادةٍ لا شكل لها ؛ اخرجته من العدم لتعمل منه ما هو شبيه بالعدم ؛ ومنه اتيت بالعجائب المذهلات لنا نحن بني البشر . ما اعجب هذه السماء ، وهذا الفلك المبسوط بين الماء والماء الذي كوّنته بكلمةٍ منك في اليوم الثاني بعد ان خلقت النور ، اذ قلت : « فليكن » وكان ! هذا الفلك سميته سماءً : سماء هذه الارض وسماء هذا البحر ، كونتهما في اليوم الثالث باعطائك شكلاً ظاهراً للمادة التي لا شكل لها وهي المخلوقة قبل كل الايام . لقد خلقتَ سماءً ، قبل بدء الايام ، بيد انها سماء سمائنا هذه ؛ لأنك « في البدء خلقت السماء والأرض » .

امّا ارضنا هذه التي خلقتها ، فقد كانت مادة لا شكل لها ولا تقع تحت نظر ؛ لا نظام فيها ، والظلام يرفرف فوق الغمر . ومما لا يرى ومما لا نظام فيه ولا شكل له ، مما هو قريب جداً من العدم اردت ان تكوّن هذا العالم المضطرب المتقلقل ، حيث التقلُّب يرينا الوقت ويجعلنا نُقيسه . يتركب الوقت من حركات الاشياء ، من تقلُّبات الظواهر وتطوراتها القائمة

على هذه المادة الأرضية اللامرئية التي سبق الكلامُ عنها .

ولهذا حـــين اعلّم انك « في البدء خلقتَ السماء والارض » لا يقول الروح ، معلمُ خادمك ، كلمةً عن الاوقات ولا عن الايام ؛ ذلك لان سماء السماوات التي خلقتها في البدء شبيهة بمخلوقٍ عاقلٍ غير مساوٍ لك في الأزل ، ايها الثالوث ، انما يشاركك في الازلية . ان سعادة هذا المخلوق ، المتأمل فيك، تحد مما هو قابل للتبديل فيه ولمجرد تعلقه بك منذ فجر الخليقة حتى اليوم ارتفع فوق تقلبات الزمن الهاربة .

اما فيما يختص بلاشكلية هذه الارض الخاوية الخالية فانك لم تحصها في نظام الايام ؛ وحيث لا شكل ولا نظام فلا مجيء ولا ذهاب وحيث لا مجيء ولا ذهاب فلا ايام ولا تطورات زمنية .

ايتُها الحقيقة ، يا نور قلبي ، لا تدعِ الظلام يحدثني ! انحدرت اليه فأظلمت عيناي ؛ بيد اني من قعر هذه اللجة ، اجل من قعر هـــذه اللجة همت بحبك ؛ وفي ضلالي ذكرتك وسمعت صوتك يدعوني من الوراء للرجوع فلم اتبينّه جيداً لضجيج اميالي الصاخبة ؛ والآن ها اني اعود سباحة ، مخنوق الانفاس ، الى مياهك الحية ! لا يبعدني عنها احد بل سأشرب منها واحيا وارجو الأ احيا لذاتي ! لقد اسأتُ التصرف في حياتي بسبب خطيئتي وكنت لنفسي موتاً! فيك، اعود الى الحياة؛ علمني وفقهني لأنني مؤمن بكتبك ؛ وكلماتُها أسرارٌ عميقة .

لقد هتفتَ يـــا رب بصوتٍ قوي في اذن نفسي وقلتَ انك ازلي ، وسرمدي وحدك ، طال ما لا يطرأ عليك اي تغيير لا شكلاً ولا حركة ؛ وطال ما لا تتغير مشيئتك مع الزمن لان كل ارادة دائمـــة التطوّر ليست ازلية؛وانا متيقّن من هذه المشيئة بحضرتك.لتكن ارادتك نيّرةً لي واجعلني اطمئن عن حكمة الى وحيك في ظل جناحيك .

وكذلك لقد قلت ايضاً بصوتك القوي في اذن نفسي ، يا رب ، انك خلقت كل شيءٍ وكل جوهرٍ وأوجدته ؛ وان لم يكن له وجودك ؛ كل شيء يصدر عنك الا العدم ، وحركة الارادة التي تبتعد عنك ايها الكائن لتلجأ الى كائنات حقيرة : ذلك لأن هذه الحركة هي ضعف وهي خطيئة ؛ لا خطيئة تؤذيك وتشوّش النظام في ملكك لا من علٍ ولا من اسفل ؛ انها لحقيقة جليّة بحضورك ؛ اجعلها يا رب نيّرةً لي ، اكثر فأكثر ، وثبتني بحكمةٍ في وحيك تحت ظل جناحيك .

لقد قلت ايضاً بصوتك القوي في اذن نفسي ان تلك الخليقة التي تجد فيك وحدك لذتها وتغتبط فيك بطهارةٍ دائمة دون ان تتنكر لطبعها الذي لا يثبت على حال ليست مثلك ازلية . لقد تعلقت بك من كل نفسها وفي حضورك الدائم لا تنتظر مستقبلاً ولا تنظر الى ماضٍ دخل في عـــالم الذكريات ولا الى تطورات ولا الى امتداد في الزمن .

لو انها وجدت هذه الخليقة لكانت سعيدة بالتعلق بسعادتك، مغتبطةً في مسكنك الأزلي ، قابلة لانوارك دارسة ذاتك ! انا لا اجد افضل لأن يدعى « سماء السماوات التي للرب » من بيتك هذا الذي يتأمل خيراتك دون ان تجره سقطةٌ خارجاً عنك ؛ ومن هذا العقل الصافي النقي المتحد برباط السلام الوثيق مع هذه الارواح القدوسة القاطنة في مدينتك السماوية وفوق سمائنا .

لتدرك اذ ذاك كلُّ نفس – اجل ، لتدرك كلُّ نفسٍ ابتعدت عنك اثناء سفرها على هذه الارض ان كانت عطشى اليك «ان دموعها اصبحت لها خبزاً » وقيل لها كل يوم اين الهك ؟ « ان سألتك واحدةً واياها التمست ان تقيم ببيت الرب جميع ايام حياتها » (مزمور ٢٦) . وحياتها هي انت ، ايامك هي ازليتك وسنوك لا تنقضي لانك انت ثابت الى الأبد.وعليه

فاني اكرر القول ؛ لتدرك كل نفس ، ان استطاعت ، كم تسامت ازليتك فوق الازمنة ؛ ومسكنك هذا الذي لم يبعده عنك اي سفر ، وان لم يكن مساوياً لك في الأزل ، لم يتعرَّض لتطورات الزمن ، بفضل اتحاده الوثيق والثابت بك .

تجلت لي هذه الحقيقة بحضرتك فزدها نوراً لي يا رب وثبتني في وحيك بحكمة تحت ظلّ جناحيك .

لا ادري ما هي المادة اللاشكلية الموجودة في تقلُّبات الاشياء التابعة للعالم الاسفل ! ولكن ما عدا الاحمق الذي يستسلم لأهوائه الوهمية ، من ذا يقول انه لو ابطلنا كل شكل وابقينا عـــلى تلك المادَّة اللاشكلية مصدر تقلبات الاشياء ان لا شكليتها كافية لأحداث تطورات الزمن . إن هذا لمستحيلٌ ؛ اذ لولا تبدل الحركات ، لما كان الزمن وحيث لا شكل ولا صورة ، لا تغيير ولا تبديل !

بعد التمحيص العميق؛وبقدر ما تسمح لي يا الله وتدعوني الى ان اقرع بابك وتفتح لي حين اقرع ، اجـــد في خليقتك شيئين لم تخضعهما لسنَّة الزمن وان كانا غير متساويين لك في الأزل : احدهما كاملٌ الى حد ولا يفتأ يتمتع بك ولا يطرأ عليه ادنى تبديل ؛ لا يتغير مع انه قابل التغيير ، يتمتع بأزليتك وبثباتك ؛ والآخر لا شكل له ولا يستطيع ان ينتقل من شكل الى آخر لا من حيث الحركة ولا من حيث السكون ولا تأثير للزمن عليه بيد انك لم تدعه في هذه اللاشكلية لأنك منذ البدء خلقت «في البدء» السماء والأرض اللتين تكلمتُ عنهما سابقاً .

انما لم تكن الارض مرئيةً ولا خاضعة لنظام بل كان الظلام يرفرف على الغمر . بهذه الكلمات يشير الكتاب المقدس الى فكرة اللاشكلية كي يكسب تدريجاً الافكار التي لا يمكنها ان تتصور ان الحرمـــان المطلق ،

شكلاً ، لا يعني حتماً العدم . من هذه اللاشكلية خرجت السماء الثانية ، الارض المحسوسة ، المرتبة تحت نظام ، وجمال المياه وكل ما خُلِق وفقاً لما جاء في الكتاب في ايامٍ محدودةٍ من تاريخ الخليقـة . كل ذلك خاضع للزمن بحكم التطور النظامي للحركات والاشكال .

اللهمَّ ، حين أسمع كلمات كتابك : « في البـدء خلق الله السماوات والارض وكانت الأرض خربةً خالية وعلى وجه الغمر ظلام » ولا ارى ذكراً لليوم الذي فيه خلقت هـذه الاشياء ادرك حقاً انها تعني سماء السماوات ، السماء العقلية حيث يتمتع الفكر بامتياز يخوِّله ان يعرف في آنٍ واحد لا تدريجاً ، لا « باللغز » ولا « كما في المرآة » بل كلّيّاً ، بوضوح تام ، ووجهاً لوجه ؛ وان يعرف لا تارةً هذا وطوراً ذاك بل معاً وفي آنٍ واحد دون تعاقبٍ في الزمن ؛ اني اعرف ان تلك هي حالُ الارض الخربة الخاوية غير الخاضعة لسنن الزمن التي تستطيع وحدها ان تقدِّم مرة هذا واخرى ذاك لأنه حيث لا شكل ولا صورة لا يمكن التحدث عن « هذا وذاك » .

حين يقول كتابك دون توضيح اليوم : « في البـدء خلق الله السماء والأرض » يعني هذين الشيئين : احدهما متناسق منذ البدء والآخر خالٍ خاوٍ ، السماء – سماء السماوات – ويشير حالاً الى الأرض التي يريدها ؛ وكما انه يعيّن اليوم الثاني لخلق الفضاء المدعو سماءً يلمّح الى السماء التي سبق وتكلم عنها دون ان يعيّن اليوم .

ما اعجب واعمق الكلام الذي به توحي الينا بهذه الامور ؛ انه لا يكشف لنا الا عن ظواهر الامور وها هو يبتسم لنا كما للاطفال . انما عجيبٌ هو هذا العمق وغريبٌ يا الله ! ولا نستطيع ان ننحني عليه دون ان تعترينا قشعريرةٌ مقدسة فيها احترام وفيها خوف ومحبة . اني أُبغض كثيراً اعداء

كلامك و لِمَ لا تقتلهم بحدّ سيفك البتار فتقضي عليهم جميعاً ؟ ! آه ليتهم يموتون عن ذواتهم ليحيوا من اجلك !

بيدَ انه لا يخلو الأمر من وجود اناس معجبين بكتاب سفر التكوين فيحترمونه ويقولون لي : « لم يرد الروح القدس بهذه الكلمات التي املاها الله على موسى عبده ذاك المعنى الذي استنتجوه . كلا ، كلا لم يرد ان يقول ما تدعيه انت بل ما نحن بذاتنا نعرف ان نعلنه :

هوذا جوابي لهم يا ربنا ويا ايها الحَـكَم بيننا .

وهل تتهمون بالخطأ ما هتفت به الحقيقة ، بصوتها العالي ، في اذني الباطنية ، عن ازلية الخالق الحقة ، وعن سرمدية جوهره ، وعن الوحدة الذاتية القائمة بين ارادته وجوهره ؟ وهو ما يجعله ثابتاً في ارادته غير متنقل تارةً بين هذا وطوراً بين ذاك . مشيئته هي هي ثابتـــة لا تريد تارة هذا وطوراً ذاك ؛ تنبذ ما تنبذ وتريد ما تريد والا كانت متغيرةً والمتغيِّرُ لا يستطيع ان يكون ازلياً : والحال ان الله ازلي .

وهل تتهمون بالخطأ ما افضت به الى اذني الباطنية وهو ان انتظـــار المستقبلات يصبح رؤية مباشرة عندما تحضر ، وتصبح تلك الرؤيةُ ذكرى عندما تمر وتنقضي ؛ وهل تتهمون بالخطأ ان كل نشاط عقلي يتغير ، لا يثبت على حال ، وان ما لا يثبت على حال ليس ازليــاً ؟ والحال ان الّهنا ازلي . اني أجمع هذه الحقائق واحزمها وأرى ان الهي ، الله الازلي ، قد خلق العالم بفعل ارادةٍ قديمة وان علمه لا يقبل شيئاً ممَّا ينقضي .

ما رأيكم انتم ايها المضادُّون لرأيي ؟ اكلُّ ما قلتهُ خطأ ؟ كلا ، كلا ! وهذا هو جوابكم ! ولكن ما الأمر ؟ هل من الضلال القول أن كل طبيعة متكاملة وكل مادة قابلـــة للشكل لا تستمد جوهرها الا ممن هو الجمال الاسمى والكائن الاسمى ؟ ــ نحن لا ننكر هـــذا ايضاً ــ واذن ؟ هل

تنكرون وجود خليقة سامية تتعلق بحب نقي طاهر ذلك الاله الحق والأزلي الحق حتى انها — ودون ان تكون متساوية له في الازلية — لا تميل عنه البتة الى تطورات الازمنة المختلفة بل ترتاح الى مشاهدة حقيقته الواحدة ؟ وكما انها تحبك بكل الحب الذي تطلبه ، يا الله ، هكذا انت تظهر نفسك لها فتكتفي بك ولن تنقطع عنك الى ذاتها . ذاك هو مسكن الله المتسامي عن كل ما هو ارضي وجسدي، وان سماوياً . هذا المسكن هو روحي صِرْفٌ يشترك بازليتك لأنه باقٍ بدون وصمة الى الأبد « انت اسَّسته الى الابد والى ابد الابدين ووضعت شريعةً ازلية » (مزمور ١٤٨ : ٦) بيد ان هـــذه الشريعة ليست مساوية لك في الازل : انها مخلوقة ولها بداية .

لا شك اننا لا نجد زمناً قبل هذه الحكمة «لان الحكمة خلقت قبل كل خليقة» وبالطبع نحن لا نتكلَّم عن الحكمة التي انت ابوها يا الهنا والتي هي مساويةٌ لك في كل شيء حتى في الازلية، والتي بها كوِّن كل شيء وهي « المبدأ » الذي منه كوِّنت السماء والارض . بل نتكلم عن هـــذه الحكمة المخلوقة، من هذه الطبيعة العقلية التي استمدت نورَها من النظر الى نورك — وان تكن خليقة ، فهي ايضاً حكمة . ان الفرق بين النور المضيء والنور الذي يعكس ضياء سواه هو عينه قائم بين الحكمة الخالقة والحكمة المخلوقة وهو عينه قائم بين البر الذي تبرّر والبرارة المتكونة من العدالة : .. السنا نحن ايضاً برَّك . الم يقل احد خدامك : « لكي نصير برَّ الله فيه » (٢ كورنتس ٥ : ٢١) .

فاذاً هناك حكمة كوِّنت قبل المخلوقات كلها ؛ كونتْ نفساً ناطقة ، عاقلة في مدينتك المقدسة ، امنا ، المدينة العلوية حرةً وخالدةً في السماء — وما هي هذه السماوات سوى سماء السماوات التي تمجدك ، هذه « السماء » التي للرب ؟ — وللمرة الثانية اقول ، لا شك ، اننا لا نجد زمناً قبل هذه

الحكمة ، المخلوقة الأولى ؛ تسبق خلق الزمن ، انما تسبقها ازليةُ خالقها ذاته منه خرجت، لا بحسب الزمن – إذ لم يكن له وجود – بل انها كائن مخلوق .

على هذا النحو تصدر عنك يا الهنا وتظلُّ مختلفةً عنك جوهراً وكياناً ، مع اننا لا نجد اي زمن قبلها وفيها لانها تنعم بامتياز مشاهدة وجهنا الدائمة ولا تحيد عنه ولهذا لا تخضع لأدنى تغيير ولا لأي تبديل انما فيها قبولٌ للتغيير قد يؤدي بها الى الظلمات والى البرد بمعزل عن ذاك الحب العظيم الذي يشدها اليك ويهيىء لها ، من لدنك ، ظهراً ابدياً من النور والحرارة .

ايها المسكن المنير ، الساطع ، لقد احببت جمالك وموضع محل مجد سيدي، خالقك وضابطك . اليك اتوق في سفري على هذه الأرض واسأل صانعك ان يضبطني انا فيك ايضاً لأنه هو ايضاً صانعي « كالنعجة الضالة تهت » لكني ارجو العودة اليك على اكتاف راعيَّ الذي بناك .

وما رأيكم ايها المخاصمون لي يا من تعتبرون موسى خادماً وفياً لله وكتبه معجزات الروح القدس ؟ أليس هذا هو بيت الله ، وان لم يكن مساوياً له في الأزلية فله في السماوات نوعٌ خاصٌ من الازلية حيث تبحثون باطلاً عن تطورات الزمن ولا تجدونها ؟ ذلك تسامى فوق كل مساحة ، فوق كل مدى هارب من الزمن ؛ خيره الوحيد هو اتحاده الوثيق بالله الى الأبد . – ويجيبون : لا شك في ذلك – حينئذ اقول : ما رأيكم في كل ما صعَّده قلبي من هتافات الى الله بينا يسمع في باطنه « صوت المجد » ؟ فهل تجدون مأخذاً في كل ذلك ؟ هل تأخذون علي اعتقادي بلاشكلية المادة التي لا أثر للنظام فيها اذ لا شكل لها؟ ولكن حيث لا نظام فلا زمن يتطور ؛ فهذا الشبيه بالعدم يصدر ، ولا مندوحة ، طال ما ليس عدماً صرفاً ، عن مصدر كل كائن مهما كان كيانُه هزيلاً . وانتم تقولون ايضاً ، نحن لا نشكُّ في ذلك.

اللهم اني لا اريد ان اتحدث بحضرتك إلاّ الى من يقبلون بكل ما اوحت به حقيقتك من اثباتات باطنية عقلية ؛ اما الذين لا يقبلون بها فلينبحوا ما طاب لهم الى ان يصابوا بالصمم وسأحاول ان اقنعهم بتهدئة اعصابهم وبفتح ابواب قلوبهم لكلمتك؛ إن ابـوْا وَصَدّوني؛ استحلفتك اللهم بألاّ تدير وجهك عني وتسكت ؛ بل فلتتكلم حقيقتك في قلبي اذ ليس لي سواك للنطق بهذا الكلام، ثم ادع الآخرين خارجاً ينفخون في الغبار ويعمون ابصارهم؛ اعود الى باطن نفسي السري وارتل لك ترانيم الحب واصعّد في اثناء سفري على هذه الارض تنهدات لا توصف وذكرُ اورشليم يملأني وقلبي مرتفع نحوها ، نحو اورشليم وطني وامي ونحوك انت يا مليكها ويا منيرها واباهــا ووليّها وعروسها ولذتها النقية وغبطتها القوية وخيرها الذي لا يوصف، الذي يحتوي الكل لأنك وحدك الخير الاسمى والحقيقي ! ولن اتخلى عنك حتى توحدني بعد تفككي طويل وتصلحني بعد خللٍ كثير وتقبلني في سلام هذه الام العزيزة ؛ حيث بواكير عقلي ومبعث يقيني ؛ لأقيم فيه الى الأبد يا الهي ورحمتي !

اما الذين يقبلون بصلاح تلك الحقائق كلهــا ويدعون الى احترام كتابك المقدس صنيعة موسى التقي ، والى الخضوع للسلطة السامية ؛ ثم يعارضوننا في احد المبادئ فاني اقول لهم : « اللهم ، انت كن حكماً بين اعترافاتي واعتراضات هؤلاء ! »

ويقولون : « ذاك كله صحيح ؛ انما موسى كان يعني خلافه حين يقول بوحي من الروح القدس : « في البدء خلق الله السماء والأرض » . (سفر التكوين ١ : ١) . كلا ، لم يعنِ بكلمة السماء هــذا الجوهر الروحي او العقلي الذي يشاهد دوماً وجه الله ولا عنى بكلمة ارض « هيولى » — اذاً، ماذا عنى من خلال قوله ؟ » — ما نقوله نحن يوافق فكرته الحقة وتصريحاته

الواضحة » . — ثم مـــاذا ؟ — « بكلمة السماء والارض عنى اولاً وبطريقة موجزة كل هذا العالم المنظور لكي يفصِّل فيما بعد هـــذا المجموع واحداً واحداً ويحصي الايام وفقاً لنظام يضعه الروح القدس . لقد كان الشعب الذي يوجه اليه موسى كلامه شعباً غليظ الرقاب ، شعباً شهوانياً ، ولهذا لم يستطع موسى ان يقدِّم له من اعمال الله الا ما كان يقدر ان يراه » .

بيدَ انهم يوافقونني على ان هذه « الارض اللامنظورة » « اللامنظمة » وهذه « اللجة المظلمة » التي منها خرج تدريجياً هذا العالم المنظور كما يعرفه الجميع وترتَّب وفقاً لعمل الايام قد تكون تلك المادة الهيولية التي قـــد تكلمت عنها آنفاً .

ولكن ! اليس من يقول ؟ « من هذا الحجم اللامنظَّم الكثير الغموض اخذنا فكرة عن كلمة « السماء والأرض » اذ منها خلق واكمل هذا العالم المنظور مع كل موجوداته — وتعود الناس تسميتها سماءً وارضاً .

الا يقول آخر : اليس من الصواب ان تسمى الطبيعـــة المنظورة واللامنظورة سماءً وارضاً ؛ وبالتالي فالخليقة بأسرها التي كوِّنت في «الحكمة» اي في « البدء » تدرك من خلال هذه الكلمات ؟ . وبما ان الخلائق باسرها خرجت ، لا من جوهر الله ، بل من العدم ؛ وبما انها ليست على مثال الله بل ان فيها مبدأ يقبل التغيير ، اكانت ثابتة عـــلى مثال بيت الله الأزلي ام متغيرة كنفس الانسان وجسده فان المادة المشتركة بين هذه الاشياء كلها منظورة ام لا ، هيولية ، وقابلة لكل شكل ؛ التي تكونت منها السماء والارض اي المخلوقات المنظورة واللامنظورة ، معنيَّة بهذه الكلمات « ارض لامنظورة ولا منظمة » « وغير مظلمة »؟ انما يجدر بنا ان نميِّز وندرك من خلال هذه الكلمات « ارض هيولية لا منظمة » المادة الجسمية السابقة لتعيين الشكل ومن خلال « اللجة المظلمة » المادة الروحية التي لم تضبط سائليتها (ميعانها)

اللامحدودة ولم يخترقها نور الحكمة .

ولرب آخر يشاء ان يقول : « حين نقرأ ان الله خلق في البدء السماء والارض » لا نفهم بالسماء والارض الكائنات المنظورة واللامنظورة التي تكونت واكتملت بل محاولة خلقٍ ناقصة للاشياء ومادةً معدةً لقبول كل شكل وكل خلق لانها تحتوي بشكلٍ غامض لا تتميز فيه الصفات والاشكال الجواهر التي اذ يقبل كل منها ميزاته الخاصة يدعى هذا سماءً لأنه روحي ؛ وذاك ارضاً لأنه جسدي .

اني اسمع واحِّص هذه الاعتراضات كلها ولا اريد ان اماحك بسبب مفردات « لان هذا لا ينفع شيئاً وانما يهدم السامعين » (تيمو ٢ : ١٤) بل بالعكس فالوصية صالحة للبنيان حين تستعمل كما يجب لأن غايتها المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وايمان « لا رئاء فيه » (١ تيمو ١ : ٥) ومعلمنا عرف ان يوجز الناموس والانبياء بوصية مزدوجة وطال ما انني اعترف بها بحمية ، يا الهي ، يا نوراً لعيني في الظلام ، ماذا يهمني من هذه الكلمات التي لا مجال للشك في صحتها ؛ وان أوّلها الناس على هذا النحو او على ذاك ؟ اجل ، ماذا يهمني ان كان آخر يقول ان معنى الكاتب المقدس الصحيح هو عكس ما أُومن به انا؟ اننا جميعاً نقرأ الكتاب المقدس ونحاول ان نفهمه وندرك نيّات من نقرأه ؛ واذ نومن بصحة ما يقول لا نفترض انه قال ما نعرف انه خطأ او نعتقد انه خطأ . وبما ان كلاً منا يجتهد لادراك فكرة الكاتب المقدس الصحيحة فاين هو الشر يا نور جميع العقول السليمة اذا كنا نؤمن بمعنى تظهره انت لنا صحيحاً حتى ولو لم تكن هي فكرة الكاتب الواقعية الذي دون ان يفكِّرَ مثلنا ، لم يفكر بغير الصحيح ؟

حقاً ، يا رب ، انك صنعت السماء والأرض وحقاً ان البدء هو حكمتك التي بها كوّنت كل شيء ؛ وأن عالمنا هذا المنظور مركب من جزءين عظيمين

وبهاتين الكلمتين نوجز كل ما خلقت وكوّنت ؛ حقاً ايضاً هو ان كل كائن، قابل للتغيير، يوحي لعقلنا بفكرة عن شيءٍ لا شكل له، يستطيع ان يأخذ شكلاً ويتناول ايضاً التحول والتغيُّر ؛ والحق هو ان لا اثر لتطورات الزمن على من كان متحداً اتحاداً وثيقاً بصورة ثابتة حتى ولو كانت غير ثابتة فهو لا يتغير . الحق هو ان هذه الهيولى التي تشبه العـــدم لا تخضع لتطورات الزمن ؛ والحق ان المادة التي منها يتركب شيءٌ تستطيع ان تحمل، وفقاً للعادة الجارية ، اسم الشيء الذي يتفرّع منها . والحق انه بين كل المخلوقات لا شيءَ يقارب الهيولى كالأرض والسماء ؛ والحق ان كل كائن مخلوق وكل كائن يمكن ان يخلق ويكون، هو من صنعك؛ لأن كل شيء يصدر عنك. والحق ان كل مكوّن ،مما لا صورة له،لا يكون له في البدء شكل ، ثم يأخذ شكله .

من كل ما تقدَّمَ ذكرُه من حقائق لا يشك فيها اولئك الذين اعطيتهم النعمة كي يشاهدوها بعينهم الباطنية ويؤمنوا ايماناً ثابتاً ان موسى خادمك قد تكلَّم وفقاً لروح الحق يختار احدهم حقيقة واحدة ويقول : « في البدء خلق الله السماء والارض هذا يعني ان الله كوّن بكلمته المساوية له في الأزل العالم العقلي والعالم الحسي او عالم الروح وعالم المادة » . ثم يقول الثاني : في البدء خلق الله السماء والأرض ، هذا يعني ، ان الله بكلمته المساوية له في الازل صنع العالم المادي كله بما فيه من كائنات معروفة وجلية امام اعيننا » . والثالث يقول : « في البدء خلق الله السماء والأرض يعني ان الله بكلمته المساوية له في الأزل صنع المادة الهيولية من الخليقـــة الروحية والجسدية . والرابع يقول : « في البدء خلق الله السماء والأرض اي ان الله بكلمته المساوية له في الازل صنع المادة الهيولية من الخليقة الجسدية حيث تختلط السماء والأرض اللتان نراهما اليوم في الكون ، كل واحدة بصورتها

الجلية المحدودة » . والخامس يقول : « في البدء خلق الله السماء والأرض اي في بدء عمله ، صنع الله المادة الهيولية التي كانت تغلّف بصورة غامضة السماء والأرض اللتين كونتا منها وظهرتا اليوم بكل تفاصيلها مع كل الكائنات عليهما » .

وعلى هذا النحو ايضاً شرح الكلمات التالية ومن بين طرق فهمها المختلفة، الصحيحة ، هذا يختار طريقته ويقول : « كانت الأرض لامنظورة ، والظلام يخيم على الغمر » اي ان هذه المادة الجسدية التي خلقها الله هي المادة الهيولية اللامنظمة المظلمة التي منها تتكون الاشياء الجسدية » . وآخر يقول : « كانت الأرض خالية خربة ، خاوية والظلام يخيم على الغمر اي ان المجموعة المسمّاة السماء والأرض هي المادة الهيولية المظلمة التي منها تُستخرج السماء المادية والأرض المادية بما عليهما من كائنات محسوسة ملموسة » . والثالث يقول : « الأرض خاوية خالية والظلام يخيم على الغمر » يعني ان هذه المجموعة المسماة السماء والأرض هي المادة الهيولية المظلمة التي منها تخرج السماء العقلية المدعوة سماء السماوات والأرض ، هذه الطبيعة المادية، بما فيها السماء المادية ؛ وبكلام آخر هذه التي منها يخرج كل مخلوق جسدي وروحي » . وآخر يقول : « الارض الخاوية الخالية والظلام المخيّم على الغمر « هي هذه الهيولى التي سمّاها الكتاب باسم السماء والأرض وهي كانت سابقاً موجودة ؛ هي التي سمّاها الكتاب خاويةً خالية وغمراً مظلماً ؛ ومنها خلق الله السماء والارض ، المخلوقات الروحية والجسدية». ثم يقول آخر : « الارض الخاوية الخالية والظلام المخيم على الغمر تعني المادة الهيولية التي قال عنها الكتاب ان الله سبق فصنع منها السماء والأرض اي هذا الجرم المادي في الكون المركب من جزءَين عظيمين ، الأعلى والاسفل ؛ بما عليهما من مخلوقات تقع تحت حواسنا » .

وعلى هذين الرأيين الأخيرين نستطيع ان نقدم الاعتراض التالي: « ان لم تُرِد ان تسمي المادة الهيولية سماءً وارضاً فهناك اذاً شيء لم يخلقه الله، انما استعمله ليصنع منه السماء والأرض ؟ لا يخبرنا الكتاب المقدس ان الله خلق تلك المادة إلا اذا ادركنا بانه عبَّر عنها بكلمتي « السماء والأرض » او بكلمة « الأرض » فقط حين قال: «في البدء خلق الله السماء والأرض».

امَّا فيما يلي قوله « بان الارض كانت خاوية خالية » في حين كان يروق الكتاب المقدس بان يسمي بهذا الاسم المادة الهيولية فلا نستطيع ان نفهم من خلال ذلك الا المادة التي خلقها الله هناك حيث منذ البدء قال: «صنع السماء والارض » وقد يجيبنا محبذو ذينك الرأيين الأخيرين - او على الاقل احدهما - « نحن لا ننكر ان هذه المادة الهيولية هي من صنع الله مصدر كل خير حق. نحن نعتبر المخلوق والمكون، خيراً سامياً انما لا ننكر ان ما هو قابل للخلق والتكوين خيرٌ ايضاً؛ انما خيرٌ ادنى من الاول؛ اما فيما يتعلق بصمت الكتاب المقدس عن خلق الله لتلك الهيولى فهناك اشياء اخرى عديدة لا نجد لخلقها ذكراً في الكتاب المقدس كالكاروبيم والساروفيم مثلاً والعروش والسادات والملوك والسلاطين الذين يميِّز فيما بينهم الرسول فيما هم جميعاً مخلوقات الله ان اردنا ان نجمع كل شيء تحت هذه الكلمات: « صنع السماء والارض » فماذا نقول اذ ذاك عن المياه التي يرفرف عليها روح الله ؟ وان سميناها « ارضاً » فكيف نسميها مادة هيولية طال ما ان للمياه التي عليها، هذا الجمال الرائع ؟ ولو قبلنا لها بهذا الاسم فلماذا يقول الكتاب ان الفضاء قد كوِّن من هذه المادة الهيولية وسمي سماءً ولا يذكر خلق المياه لانها ليست اقل رواءً ولا شكلاً من هذه المياه التي نراها تجري بانسجام كلي ؟ وهل قبلت جمالها حين قال الله: « فلتجتمع المياه التي تحت السماء ». وبهذا التجمع تكوَّنت ؟ ولكن ان صح هذا الزعم فماذا نقول اذاً عن المياه

التي فوق السماء ؟ طال ما لا شكل لها فلا تستحق هذا المحلّ الشريف ولا نجد في الكتاب المقدس ادنى ذكرٍ للكلمة التي كونتها .

وعليه فهناك اشياء لا يذكر الكتاب المقدس حرفاً عن خلقها مع انها موجودة حقاً ولا مجال لأن يشك فيها عقلٌ رصين وايمان صحيح ؛ وكل من تجرأ فقال عن هذه المياه انها متساوية بالازليـــة بحجة ان سفر التكوين لم يذكر تاريخ تكوينها فقد ضيَّع حقاً كل استقامة في التعليم؛ ولماذا لا نفهم على نور الحقيقة ان هذه المادة الهيولية التي يسمّيها الكتاب المقدس خاويةً خالية ، وغمراً مظلماً ، قد استخرجها الله من العدم وليست مساوية له في الازل حتى ولو لم يذكر الكتاب المقدس تاريخ خلقها ؟ »

انني اصغي الى هذه الآراء المتباينة وأزنها بميزاني الوضيع الذي بـــه اعترف لألهي وان كان عالماً به ؛ وأُلحَظُ نشوءَ نوعين من الخلاف حول شهادةٍ قائمة على علامات يؤديها تراجمة اهلٌ للتصديق : النوع الاول يحمل على حقيقة الاشياء عينها والنوع الثاني يحمل على نية من يؤديها ؛ ولهذا فالبحث فيما يتعلق بالخليقة عن حقيقة الخليقة عينها ، شيء؛ والبحث عمَّا اراد موسى ، ذاك الخادم العجيب لايمانك، ان يقوله، من خلال كلامه، الى من يقرأه او يصغي اليه ، شيءٌ آخر .

في الصعوبة الاولى ، ارجو ان يبتعد عني كل من يتخذون التعاليم الخاطئة كحقائق اكيدة ! وفي الثانية ارجو كذلك ان يبتعد عني كل من يقبلون بأن يكون موسى قد قال اشياء خاطئة ! لكني اود ان اتحد بك يا رب وابتهج فيك مع من يتغذّون من حقيقتك في كمال حبهم ؛ لنقترب معاً من كلمات كتابك ولنبحث فيها عن فكرتك في فكرة خادمك الذي كان بريشته مترجماً عنها ؟

ومع ذلك ، فمن منّا ، في خضمّ هذه الامكانيات العارضة للباحثين

عن ادراك معنى كلماتك الصحيح ، يستطيع ان يفاخر بانه فهم فكرتك فهماً جيداً ليقول : « ذاك ما اراد موسى قوله ، وذاك هو معنى نصه » . واثقاً كل الثقة ، من ان هذا النص صحيح اياً كانت نية موسى بالذات !

هاءنذا يا رب هاءنذا عبدك انذر لك في هذا الكتاب ذبيحة اعترافاتي واسأل رحمتك القوة لايفاء هذا النذر واؤكد بثقة كلية بانك خلقت كل شيء بكلمتك الازلية ، خلقت المنظور وغير المنظور ؛ ولكن هل لي ان اقول بنفس الثقة ان تلك كانت نية موسى حين كتب : « في البدء خلق الله السماء والأرض؟ » ان كان الاثبات الاول اكيداً بالنسبة اليّ على نور حقيقتك فهل لي ان اقرأ بثقة مماثلة، في فكره، نيته الحقة في تعابيره تلك؟».

بقوله « في البدء » يعني « ببدء الخليقة بالـــذات » وبكلمتي « السماء والأرض » يقصد الطبيعة الروحية والجسدية ، غير المتكاملة ، التي لا تزال في دور التحضير اللاشكلي . ارى ان لهذين الشرحين حظاً متساوياً من الحقيقة ؛ ولكني لا ادرك جيداً ما ذهبت اليه فكرة موسى من خلال ذاك التعبير . ومهما يكن من امره ، واياً كان المعنى الذي توخّاه في كلامه ، اهذا ام ذاك ام اي معنى آخر ، لم آتِ على ذكره ، فاني لواثق من ان هذا الرجل العظيم رأى الحق وعبّر عنه بما يناسب ويليق .

ولا يزعجنّني احد بقوله : « لم يعنِ موسى بقوله ذاك ما تقوله انت بل ما اؤكده انا ، اياه اراد » . ومن اين لك معرفة فكرة موسى الحقـــة حتى تشرحها على هذا النحو ؟ » اذ ذاك علي ان اجيب بكل اناة بما اجبت به آنفاً على ان اتوسّع في عرض حججي وبراهيني ان كان خصمي صعب الاقتناع . امّا اذا قالوا لي : « لم يعنِ موسى من خلال قوله ذاك ما تقوله انت بل ما اؤكده انا اياه اراد موسى » دون ان يجادلوا في صوابية هذا الرأي او ذاك فاني اسألك يا حياة المساكين، يا الهي، يا من لا يعرف المناقضات،

ان تُمطرَ في قلبي ندىً مهدِّئاً لكي اقوى على تحمل جماعة من هذا النوع !
يحدثوني بهذا لا لأنهم رجال تقوى وورع ؛ ولا لأنهم أبصروا الحقيقة في قلب عبدك بل لأنهم متكبرون. لا يدركون شيئاً من فكرة موسى ولا يحبون سوى افكارهم ؛ لا لأنها صحيحة بل لأنهــا لهم ومنهم. وإلاّ لكانوا يحبّون افكار الآخرين المصيبة ، كما احب انا اقوالهم حين يقولون حقاً لا لأنهم هم يتكلمون بل لانها هي الحقيقة. ويكفي ان تكون احدى فِكَرهم صحيحة كيلا تعود ملكاً لهم ؛ لكن ان احبوها لكونها صحيحة اصبحت لي كما هي لهم لكونها خيراً مشتركاً بين جميع الذين يحبون الحقيقة .

وبالتالي حين يقولون ان فكرة موسى الحقة ليست ما أنسبه اليه بل تلك التي يفترضونها فيه ؛ اشمئز من ادعائهم هذا وانبذه ؛ ولو قدَّرنا انهم مصيبون فجسارتهم تلك تقوم على الوقاحة لا على العلم ، وعلى الكبرياء لا عــلى الحَدَس في معرفة المستقبل .

ولذا فان احكامك مخيفة يا رب ! حقيقتك ليست ملكاً لي ولا لهذا او لذاك بل هي ملكٌ لنا جميعاً ؛ انت تدعونا بصراحـــة الى الاشتراك بها وتحذِّرنا بشدة لئلاّ نجعلها ملكاً خاصاً بنا ؛ وإلا حُرمناها. كل من يحاول ان يحتفظ لنفسه بهذا الخير الذي جعلته مشتركاً بين الجميع ويستملك ما هو للجميع ينقطع عن هذا الخير المشترك لينكفئ على ما هو لذاته منتقلاً من الحق الى الكذب « لان من تكلم بالكذب فانما يتكلم بما هو له (يوحنا ٨ : ٤٤) .

يا الهي ، ايها القاضي العظيم ، انت هو الحق عينه ، اسمع ، اجل اسمع ما اقول لهذا المشوش ؛ انني امامك اتكلّم وامـــام اخوتي الذين يستعملون الشريعة بحق ويوجهونها الى غايتها ، الى «المحبة» ، اسمع وانظر ، ان شئت ، الى ردّي عليه .

وهذه هي كلماتي الاخوية المسالمة التي اودُّ ان اوجهها اليكم : « حين نرى كلانا ان قولي حق ، قل لي، اين نراه ؟ من الثابت انني لا اراه حقاً فيك ولا تراه حقاً فيَّ بل نراه كلانا في الحقيقة الازلية المتسامية فوق عقولنا. ان اتفقنا على هذا النور الذي من الرب الهنا فلِمَ نتنازع حول الفكرة التي لقريبنا مع اننا لا نستطيع ان نراها كما نرى الحقيقة الازلية ؟ لو فرضنا ان موسى تراءى لنا قائلاً : « هذه هي فكرتي » لما رأينا كلمته بل لكننا آمنَّا بها . فلنحذر اذاً من ان « ينتفخ احد على صاحبه من اجل احد فوقَ ما كُتِبَ عليكم » (١ كور ٤ : ٦) . ولنحب الرب الهنا « من كل قلبنا ومن كل نفسنا ومن كل عقلنا ونحب قريبنا كنفسنا » (متى ٢٢ : ٣٧) . ان كنا لا نؤمن ان موسى ،في كل كتبه، فكَّر بهاتين الوصيتين، ننسب الى الرب كذبة اذ نعزو الى روح خادمه عكس ما فرض عليه . ولكن ، بينا نستطيع ان نستخرج من تلك الكلمات مجموعةً كبيرة من الافكار الصحيحة انظروا الى الحماقة والجسارة اللتين تجعلانهم يؤكدون ان موسى لم يقصد سوى تلك الفكرة دون سواها وقد يتوصلون الى الحاق الأذى من جراء مشاحناتهم الفاسدة بتلك المحبة، الغاية الوحيدة،التي من اجلها ينطق بتلك الكلمات التي نحاول ان نشرحها .

ومع ذلك، اللهم ، يا من تعظمني حين اتواضع ، يا راحتي من تعبي ، يا من تصغي الى اعترافاتي وتغفر لي خطاياي ، طال ما انك تأمرني بأن احب قريبي كنفسي ، فاني لا اصدق ان موسى خادمك الامين قد نال منك نعماً اقل مما تمنيت واشتهيت انا ذاتي لو اني ولدت في عصره ودعوتني الى ان اخدمك بقلبي ولساني وانشر بين الناس هذه الكتب التي ستحمل الخلاص بعد اجيال واجيال لجميع الأمم وتوطد في العالم كله نفوذها

وسلطانها على كل تعاليم الكذب والكبرياء .

لو كنت موسى لأردت ــ السنا جميعنا من جبلة واحدة : « من هو الانسان حتى تذكره ؟ » (مزمور ٨ : ٥) ــ اجل لو كنت موسى وامرتني بكتابة سفر التكوين لأردت منك تعبيراً قوياً واسلوباً انشائياً لا يستطيع احدٌ ممن يعجزون عن درك سر الخلق ، ان يرفض فيه اقوالي لكونها فوق متناوله ؛ ومن يستطيعون ان يفهموه ، ان يجدوا حالاً في كلمات خادمك الوجيزة ، الحقائق كلها التي يكتشفونها بفضل تأملاتهم . واخيراً لو وجد واحدٌ بفضل نور حقيقتك تأويلاً آخر فاني اودُّ لو يجده ايضاً في تلك الكلمات عينها .

وكما ان الينبوع في حوضه الضيق هو اشدُّ غزارةً ويروي بفضل السواقي المنبثقة منه ارضاً اكثر اتساعاً لا يقوى عليها كل واحد من المجاري التي تسقي مجموعة من المناطق ، كذلك فان قَصَصَ ناشر كلمتك معين الشروح الكثيرة في المستقبل ، يُجري بكلمات وجيزة في غاية البساطة ، نهراً من الحقيقة الصافية ، ينهلُ منه كلُ انسانٍ على طريقته ، ما امكنه من الحق ، ليتوسّع به بعدئذ في تعاريجَ كلامية طويلة .

بين من يقرأون او يسمعون هذه الكلمات نجد اناساً يتصورون الله انساناً او شكلاً له جسمٌ فيه قدرة لا متناهية قد احدثت بفضل قرار فجائي جديد ، وخارجاً عنها ، او على مسافة منها ، الأرض والسماء ، الجرمين العظيمين احدهما من فوق والآخر من تحت ، يحتويان كلاهما جميع الكائنات. وهؤلاء حين يسمعون الكلمات التالية : « قال الله » ليكن هكذا ! ــ فكان . يتصورون كلمات تبدأ وتنتهي ؛ تسمع نبراتها حيناً ثم تختفي ؛ وما ان يختفي صوتها حتى يظهر الكائن الذي تدعوه الى الوجود ؛ وان كان لديهم من تفسير آخر فانه موسومٌ بطابعٍ ملازمٍ للمفاهيم البشرية .

اولئك ، لا يزالون « اطفالاً » لا سبيل لهم الى الافكار الروحية وطالما ان ضعفَهم محمولٌ على هذا الكلام الساذج الوضيع كما في احشاء أمٍ فان مسكن خلاصهم يرتفع بفضل الايمان الذي به يعتقدون ، عن ثقة ، انّ الله هو الذي خلق الكائنات كلها التي تؤثر باختلاف اجناسها على حواسهم.

أمّا ان ازدرى احدهم ، عن ضعف وكبرياء ، ضرورة اقوالك ونزح عن العش الذي فيه نشأ ، فسيسقط المسكين ويا للأسف ! ارحمه ايها الرب الاله ولا تدع المارة يدوسون بارجلهم هذا الفرخ ولمّا ينبت له ريش ؛ بل ارسل ملاكك فيعيده الى عشه حتى يتعلّم ان يطير !

بينهم من لا يعتبرون اقوالك عشاً بل خميلة وارفة الظلال ، يتنقلون فيها فرحين ، ناظرين الى ثمارها ، باحثين عنها ، ضاربينها بمناقيرهم طروبين .

حين يقرأون او يسمعون سفر التكوين يرون ان الأزمنة كلها ، من ماضية ومستقبلة ، تخضع لك ايها الثابت الازلي الدائم وانه لا يمكن لخليقة زمنية إلا ان تكون من صنعك ؛ ان ارادتك المماثلة لك في كل شيء قد خلقت كل شيء دون ان يطرأ عليها اي تغيير او يحدث فيها اي قرار جديد ؛ انك خلقت كل شيء ، ولم تخرج لذلك صورةً لك من ذاتك بمثابة شكل لكل كائن ، بل من العدم اخرجت الهيولى الذي لا شبه البتة بينك وبينها انما كانت قابلةً لشكل يكون على صورتك ومثالك ، برجوعها اليك ايها الكائن الأحد ضمن نطاقٍ سابق التنظيم ، موضوع لكل كائن وفقاً لنوعه . مذ الآن اصبحت جميع المخلوقات صالحة تماماً ، أثبتتْ حولك ام ابتعدتْ عنك ، بعض الشيء ، من حيث الزمان والمكان ، فعملت وتطورت مع الزمن .

يرون هذا كله ويفرحون به على نور حقيقتك ، بقدر ما يسمح لهم ضعفهم على هذه الارض... هذا يتأمل هذه الكلمات « في البدء خلق الله »

ويعني بالبدء « الحكمة » لأنها هي ايضاً تتحدث الينا وذاك يكبّ على دراستها فيفهم بالبدء بدء الخليقة ويتساوى امام ناظريه التعبيران التاليان : « في البدء خلق الله » و « اولاً خلق الله » وبين من يدركون بكلمة البدء ان الله خلق بحكمته السماء والأرض نرى هذا يزعم أنّ السماء والأرض هما المادة القابلة للتنظيم ، اي مادة السماء والأرض المخلوقة وذاك يعتقد انها الجواهر المكوّنة والمتنوّعة ؛ وآخر يريد بكلمة السماء الطبيعة المكوّنة ، الروحية ، والأرض الطبيعة الهيولية المادية .

وينشأ الخلاف عينه في التأويل لدى من يفهمون من كلمات السماء والأرض المادة التي لم تزل بدون شكل ، اي التي استخدمت لتكوين السماء والأرض : هذا يجد فيها المصدر العام لجميع المخلوقات الحسية والمتعالية عن الحس وذاك يعتبرها مصدر الجرم الحسي ، الجسمي الذي كان يحتوي في احشائه الواسعة ، الكائنات المنظورة ، الواقعة تحت حواسنا .

وهناك ايضاً خلافٌ في التأويل لدى من يرون في المقطع عن السماء والارض كلاماً عن المخلوقات المنظمة المرتبة في امكنتها : هذا يفكر بالعالم المنظور واللامنظور وذاك يفكر فقط بالعالم المنظور حيث نشاهدُ السماء منيرةً والأرض مظلمةً مع ما فيهما من كائنات .

اما من يتخذ الكلمات « في البدء خلق الله » بمعنى « اولاً خلق الله » فلا يعتمد مرجعاً، قصد البقاء في الحق، سوى ان يفهم « السماء والأرض » بمعنى مادة السماء ومادة الأرض، اي مجموعة المخلوقات الجسدية والروحية؛ لأنه لو عنَى من خلال ذلك مجموعة منظمة لحقّ لنا ان نطرح عليه السؤال التالي : « اذا كان الله قد صنع هذا اولاً فماذا صنع بعدئذ؟ » وطال ما انه يفترض خلق كل شيء فلن يجد شيئاً جديداً وسيمتعض من نفسه حين يقول : « ماذا تعني « اولاً » ان لم يعقبه شيء ؟ »

إنْ ظن ان الله كوّن المادة الهيولية اولاً ثم اعطاها شكلاً فهــذا امرٌ معقول شرط ان يدرك ايـًّا له الأسبقية ، من حيث الازلية والزمن والافضلية والاصل . قلت ، من حيث الازلية ، مثلاً الله سابق لكل شيء ؛ من حيث الزمن ، مثلاً : الزهرة تسبق الثمرة ؛ من حيث الافضلية ، مثلاً : الثمرة هي افضل من الزهرة ؛ من حيث الأصل : الصوت يسبق الغناء .

الثانية والثالثة من هذه الامور الاربعة تُدرك بسهولة كلية ، بخلاف الاولى والرابعة . نادرة جداً اللهم وصعبةٌ هي رؤية ازليتك ومشاهدتها لأنها في ذاتها ثابتة ، لا تتغير ، تبدع ما يتغيّر وتأخذ الأسبقية عليه . واي عقل ثاقب يدرك بسهولة اسبقية الصوت على الغناء ! من الصحيح ان الغناء هو الصوت المنظم ، على ان الشيء يمكن ان يكون قبل ان ينظّم انما اللاموجود على الاطلاق لا يمكن ان ينظّم. وهكذا فالمادة سابقة الوجود لما يؤخذ منها دون ان يكون لهذه الأسبقية دورٌ ايجابي في الخلق ولا اسبقية زمنية لاننا لا نبدأ نعطي اصواتاً لا نظام لها ولا ترتيب ولا شأن للغناء فيهـا ثم نكيّفها بعدئذ ونصوغها غناءً كمن يشتغل الخشب او الفضة ليعمل منهما خزانة او اناءً . ان هذه الموادّ سابقةٌ في الزمن للأشياء المستخرجة منها انما ليس الامر كذلك في الغناء : حين نغني نسمع صوت الغناء ، ولا نجــد اولاً صوتاً مشوشاً ثم غناءً منسقاً لأن الصوت يتلاشى حين يظهر للوجود ولا مجال لاعادة جمعه وتنسيقه . الغناء مجموعة اصوات ، مادته الصوت ، واذا ما اخذ الصوت صورة اصبح غناءً . ولهذا ، وفقاً لما سبقتُ فقلت ، فان الصوت كمادة ، سابق للغناء الذي هو صورة . وهذه الأسبقية ليست لهــا قدرة الخلق لان ليس الغناءُ من صنع الصوت ، اذ ان الصوت عطية عضوٍ في الجسم الى نفس المغني كي تعمل منه بدورها غناءً ؛ وليست زمنية اذ ان الصوت والغناء توأمان في الزمن ؛ وليست اسبقية من حيث الافضلية اذ لا

تفضيل للصوت على الغناء لأن الغنـــاء صوت مجَلبَبٌ بالجمال . وليست اسبقية في الأصل لأن الغناء لا يأخذ صورته ليصبح صوتاً بل الصوت ليصبح غناءً .

من استطاع ان يدرك فليدرك من خلال هذا المثل انَّ مادة الكون قد أُبدعت اولاً وسميت السماء والارض لأنهما منها قد كوِّنتا ؛ بيد انها لم تخلق اولاً من حيث الزمن اذ لا وجود للزمن إلا مع الاشياء التي تكوَّنت. لم تكن لهذه المادة صورةٌ ولم تظهر في الزمن الا مع الزمن عينـــه . ومع ذلك فلا نستطيع ان نقول عنها شيئاً ان لم نخوِّلْها ما يشبه الأسبقية الزمنية مع كونها ادنى حقاً وواقعاً . أليس من اخذ صورة افضل ممن لا صورة له ؟ ومن الضروري ان تكون ازلية الخالق سابقة لها كي يكون جوهر الاشياء المخلوقة مخلوقاً من العدم .

ازاء هذا التباين في الآراء الصحيحة ، من حق الحقيقة عينها ان توفّق بينها ؛ وهلاّ يرحمنا الله كي «نستعمل الناموس بمقتضاه وفقاً للمحبة الصافية ، غاية الوصية » (١ تيموتاوس ١ : ٨) .

وعليه لو سئلت عن رأي موسى من بين هذه الآراء كلها ولم اعترف بجهلي لكنت نسيت اللغة الصحيحة التي استعملتها في اعترافاتي ؛ ان ما اعرفه هو ان هذه الآراء صحيحة إلا فيما يختص بالنظريات الفظَّة التي قلت رأيي فيها ، كاملاً ، ومن شاركوهم فيها اشبهوا « اولاداً صغاراً » للرجاء الصالح لا يخيفهم كلامٌ من كتابك مهما بلغ من القداسة في بساطته ومن غنى المعاني في ايجازه واقتضابه .

أمَّا نحن الذين نرى الحقيقة ونعلنها في تلك النصوص فيلزمنا ان نتحابَّ ونحب الهنا ، ينبوع الحقيقة ، ان كنا حقاً عطاشاً الى الحقيقة عينها لا الى الاكاذيب ، هلمَّ نكرِّمْ خادمك ، موزعَ كتابك هـــذا ، الممتلئْ من

روحك ولنعتقد جيداً انه يوم دوّن كتابه ما اوحيت به اليه كان يهدف الى الأفضل من الحقائق المنيرة والثمار المفيدة .

وعليه حين يأتيني من يقول: « لقد فكّر موسى بكل شيء على مثالي » وآخر : « كلاّ ، بل بالعكس فكرته هي فكرتي » . اجيب بروح اكثر تديناً وتقوى : » ولمَ لم يفكر بكلتا الفكرتين ان كانتا حقاً صحيحتين ؟ » ولو رأينا في كلامه معنى ثالثاً ورابعاً واكثر طال ما ان هذا المعنى صحيح فلمَ لا نعتقد ان موسى رأى كل هذه المعاني وهو الذي وبواسطته قد كيّف الله الكتب المقدسة وفقاً لعقول قارئيها الذين يجدون فيها اشياء متنوعة ، وصحيحة ؟

امّا انا فاني اصرّح علناً ومن صميم الفؤاد: لو رشّحوني الى اعلى مرتبة في السلطة وكان عليّ ان اكتب ، لكتبت بطريقة يسهل معها على كل قارئ ان يجد في كتاباتي صدى افكاره الصحيحة عن الاشياء عينها بدل ان اضع لها معنى واحداً واضحاً ينفي سواه من المعاني وان لم يكن فيها خطأ فادح ... اللهم سألتك ان تحفظني من الجسارة لئلاّ اظن ان رجلاً عظيماً كهذا كان محروماً من هذه النعمة ! اجل، ان موسى، كاتباً، فكّر بكل الحقائق التي استطعنا ان نكتشفها في كلامه ؛ وتصوّرها امامه كما فكّر بكل تلك التي يمكن ان نجدها فيه ولم نتوصّل حتى الآن الى اكتشافها .

اخيراً يا رب ، يا من لست لحماً ودماً بل الهاً ، ان لم يرَ الانسان كل شيء فهل يمكن لروحك القدوس « الذي يهديني في ارض الاستقامة » ان يجهل شيئاً ممّا عزمتَ ان توحي به الى القراء في المستقبل من خلال تلك الكلمات حتى ولو لم يدرك رسولك من معانيها المتنوعة سوى المعنى الواحد ؟ وان صحَّ القول فالمعنى المقصود كان ولا شك اسمى من سواه . افصح لنا ايها السيد عن هذا المعنى عينه وعن اي معنى آخر صحيح ؛ ثم نسألك ،

اكشفتَ لنا عن المعنى الذي فهمه خادمك ام عن غيره ، ان تغذينا لئلاّ نكون العوبة بين يدي الضلال .

انظر اللهم الى ما كتبت ؛ اجل انظر الى ما كتبت حول هذا المقطع القصير ! هل أقوى، ان سلكت هذا الطريق ، وهل يكفيني الوقت لدرس جميع كتبك ؟

اسمح لي ان اوجز اعترافاتي حول هـــذا الموضوع اكثر فاكثر وان اختار معنى عرفت بايعاز منك انه حقيقي ، اكيد وجيد ، من بين تلك المعاني العديدة التي تتهافت عليَّ واسألك ان تسم اعترافاتي بالأمانة حتى اذا ما لقيت فكرة مترجمك استطيع ان اعبر عنها جيداً وأصلَ الى غايتي التي اتوخاها في جهادي ؛ وإلاّ فهبني ان اقول ما تقصده انت من تلك الكلمات ؛ ولأنك لموسى ايضاً قلتَ ما تريد .

فعل الشكر

فعل الشكر

اللهمّ ، يا رحمةً لي ؛ خلقتني ولم تنسَ من نسيك ، ادعوك بنفسي التي هيأتها ووضعتَ فيها شوقاً الى قبولك ؛ لا تهمل اللهمّ من يدعوك الآن وقد الححتَ عليه وألحفتَ بألف شكل وشكل ، قبل ان يدعوك ، لأن يسمع صوتك البعيد ويرفع لحاظه اليك ويناديك يا من ، انت ، كنت تدعوه اليك .

يا رب ، لقد غفرت آثامي كيلا تقاصّني بسبب اعمال يديّ اللتين ابعدتاني عنك ولم تنتظر اعمالي الصالحة حتى تكافئ من صنعته يداك ، انا خليقتك . انت سابقٌ لي في الوجود ؛ وما هو حقي عليه حتى اوجدتني ؟ وُجدتُ بنعمةٍ منك سابقة لهذا الكل الذي صنعتَني ، ولهذا الكل الذي منه صنعتني . لم تكن ، انت ، محتاجاً اليّ ، ولستُ انا ذاك الخير الذي تحتاج الى مساعدته ، يا ربي والهي . خِدْمتُكَ واجبةٌ عليّ ؛ لا ، لأن العمل يضنيك ولا ، لأن قدرتك ، بدون خدمـــاتي ، ناقصة ؛ ولا ، لأنك كالأرض ، ان لم تزرعها ، تظل بوراً . كلاّ . عليّ ان اخدمك واكرّمك لكي احصل على سعادتي يا من خلقتني للسعادة .

من ملء جودتك يستمد المخلوقُ وجودَه ليصبح ذاك الخير الذي لا نفيد منه شيئاً . ليس مساوياً لك ، وان انبثق منك ، طال ما يستطيع ان تخلّى عنك .

ما هي الفائدة التي جنيتها من خلق السماء والأرض في البدء ؟ اني اسأل الطبيعة الروحية والجسدية التي ابدعتْها حكمتُك ؛ اسألها عن حقها عليك الذي يجعل حكمتك مسؤولة عن عيوبها ونقائصها في الروحيات والجسديات وعن كل فوضوي « ثائر » ضدك . الروحي ، وان لم يتخذ صورة ، افضل من جسديٍّ ذي صورة . الكائن الجسدي ، وان لم يتخذ صورة ، افضل من العدم. وبدون كلمتك لا يمكن لهذه الكائنات ان تأخذ صورة وشكلاً . لو لم تدعُها كلمتك الى وحدانيّتِك وتُعطِيها شكلاً من يدك ، ايها الخير الاسمى ، لبقيتْ محرومةً من كل شكل وصورة . هل استحقت منك تلك المخلوقات ، فأعطيتها الوجود اللاشكلي ؟

ما هو فضل المادة الجسدية عليك حتى اعطيتهــا الوجود « اللاشكلي » الذي لولاك لما استطاعت اليه سبيلاً ؟ ما هو فضلها قبل وجودها ؟

ما هو فضل المخلوقات الروحية البدائية في ظلامها ، الشبيهة بالغمر ، البعيدة جداً عنك قبل ان تدعوها الكلمة الى الكلمة عينهــا التي ابدعتها وانارتها باشعتها حتى صيّرتها نوراً ، شبيهاً بصورتك ، وغيرَ مساوٍ لها .

ما اعظم الفرق بين وجود الشيء ووجودِه جميلاً ! وإلاّ لانتفى القبحُ عن كل شيء !

كذلك هي الحال في المخلوقات الروحية : ما اعظم الفرق بين ان تحيا هذه المخلوقات وان تحيا بحكمة ! وإلاّ لكانت الحكمة ملازمةً لكل روح .

من الأفضل للروح ان يستمسك دوماً بك لئلاّ يخسر بابتعاده عنك النورَ الذي حصل عليه يومَ اتجه نحوك ؛ وإلاّ اصبحت حياته غمراً مظلماً .

لنا ، نحن الخلائق الروحية ، روحٌ . هَجَرْنا نورَك فاصبحنا ظلمةً في هذه الحياة ؛ وها اننا نتضايق في ما بقي لنا من ليلنا هذا ، منتظرين اليوم الذي نصبح فيه براً بابنك الوحيد « مثل جبال الله اذ كنا احكامَك مثل غمر عظيم » (مزمور ٣٥ : ٧) .

امّا قولك في بدء الخليقة « ليكن نور فكان نور » فاني افهمه فهماً صحيحاً عن الخليقة الروحية التي كانت حياةً يشع عليها نورك. ولو لم تكن نوراً لما استأنست بضعفها. ولقد اصبحتْ نوراً بتأملها النورَ المشعّ واتحادها الوثيق معه. ان حياتها السعيدة منةٌ منك ونعمة ؛ تتغيّر الى افضل، وتتجه نحو من لا يطرأ عليه ادنى تبديل او تغيير ، لا من حيث الخير ولا من حيث الشر الذي فيه . انها تتجه اليك وحدك ايها الكائن الأحد الذي لا فرق لديه بين حياةٍ وحياة سعيدة ، يا من هو لنفسه موضوع **السعادة** .

وهل تحتاج الى شيء كي تكون سعيداً ، ايها الكائن بذاته؟ **انت كائن** بذاتك ، أكانت هذه المخلوقات ام ظلت بدون صورة ؟ كونتها ، لا عن حاجة ، بل بملء جودتك وصلاحك اعطيتها الوجود واوجبتَ عليها شكلاً ولم تَزِدْك كمالاً أو فرحاً. كان روحُك القدوس يرفرف فوق المياه، لا عليها. قالوا : ان الروح القدس مستقرٌ عليها . لهذا سيجعل مقامَهم فيه . ان مشيئتك التي لا تقبل فساداً ولا تغييراً ، المكتفية بذاتها ، هي اسمى من الحياة التي خلقتها؛ لديها لا تتساوى الحياة والحياة السعيدة لأنها تحيا سابحةً فوق الظلمات . انما يلزمها ان تتجه نحو خالقها وتزداد حياةً على مقربةٍ من ينبوع الحياة لترى النور في نورها وتجد الكمال والضياء والسعادة .

يبدو الثالوث لغزاً امامي : انت يا الهي آب خالق السماء والأرض في

بدء حكمتنا . وحكمتنا هـــذه ، حكمتك المولودة منك ، المساوية لك في الأزل ، هي ابنك . تكلمتَ طويـــلاً عن سماء السماوات ، عن الأرض اللامنظورة واللامنظمة « وعن غمر الظلام » وقلت : لقد فُرِضَ على الخليقة الروحية المائعة ، المتأرجحة التي لا شكل لها ، ان تتجه نحو خالق الحياة حتى تستمد حياتها وجمالها من نوره وتتكون فيما بعد ، بين الأرض والماء ، سماءٌ لتلك السماوات .

وباسم « الله » هـــذا بلغتُ الآب المبدع لكل شيء وباسم « البدء » بلغت الابن الذي به خلق كل شيء واستناداً الى ايماني بالثالوث الالهي رحت ابحث عن الثالوث في مذهلاتك المقدسة فوجدت ان روحك كان يرفرف فوق المياه اذ ذاك توصلتُ الى الثالوث ، يا الهي ، الى الآب والابن والروح القدس ، خالق كل مخلوق .

ولِمَ اضع بقربك قلبي ايها النور الحقيقي؟بدِّد منه الظلام كيلا يلقنني علوماً باطلة وقل لي، بحقك، بحق امنا ومحبتها، قل لي، بحقك لماذا ذكرت روحك في كتابك بعد ان ذكرت السماء والأرض اللامنظورة واللامنظمة ؛ وبعد ان ذكرت الظلام الذي يرفرف على الغمر ؟ ألـكي يصحَّ عنه كلام « كان يرفرف فوق » هذا الذي لا يمكن ان يُذكر الا بعد ذكر العنصر الذي نستطيع ان نتصوَّره فوقه؟لا رفرف الروح فوق الآب ولا فوق الابن . ولولا ذكر الكتاب لهذا ، لحدَثَ خطأ في قوله « يرفرف » . حقٌّ له ان يبدأ فيشير الى ما كان يرفرف الروح فوقه لأن ذكره استلزم كلمة « يرفرف » وإلا فلماذا صوَّره بشكل آخر ؟

ليدرك عقلياً ، مذ الآن ، من استطاع ، كلام رسولك : « ان المحبة أُفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي أُعطيَ لنا » (رومية ٥ : ٥) .

هو يعلمنا الروحيات ويرشدنا الى طريق المحبة الأفضل ويحني ركبته امامك عنا لندرك سموَّ علم محبة المسيح .

سامٍ ، منذ البدء ، ولهذا كان يرفرف فوق المياه .

ولكنْ ، لمن اقول ؟ وكيف اعبّر عن ثقل الشهوة اللحمية التي تجرُّنا الى اسفل اللجة ؟ كيف اعبّر عن المحبة التي تحملنا ، بالعكس ، الى الأعالي بفضل نعمة الروح القدس الذي كان يرفرف فوق المياه ؟ الى من اتحدث عن هذا الثقل ؟ وبأي كلام ؟ أنغوص في اللجة ثم نعوم على سطحها ؟ لا مجالَ هنا للتكلُّم عن غوصٍ وعوم لأن هذا التشبيه قد يكون، في آنٍ واحد، مطابقاً للواقع ومخالفاً له. ان عواطفنا واحساساتنا وعقلنا الفاسد يجعلُنا نرزحُ تحت ثقلِ الهموم المسيطرة علينا ؛ اما قداستُك فانها ترفعنا ، الى فوق ، بسبب تعلقنا الشديد بالطمأنينة التي نستمدها من فوق كي ترفع قلوبنا اليك ، حيث كان روحك يرفرف فوق المياه . سنبلغ الراحة التامَّة يوم تجتاز نفسنا تلك المياه الوهمية .

ليكن النور

الملاك سقط والنفس البشرية سقطت ايضاً ؛ فتكاثف الظلام الذي كان مزمعاً ان يغمر اللجة الحاوية لكل المخلوقات الروحية . ولو لم تقل منذ البدء « ليكن النور » ؛ ولو لم يكن النور » ويُخضِعْ لك ، خضوعاً اعمى ، الارواحَ المنتشرةَ في مدينتك السماوية فيضمنوا سلامهم في روحك المتسامي فوق كل ما يتغير ، الثابت ابداً ، لكانت سماءُ السماوات عينها غمراً مظلماً بيدَ انها الآن « نورٌ بالرب » .

تجاه هذه العقول القلقة التي سقطتْ فتعرَّتْ من ثوب نورك وانكشفتْ عن ظلامها ، تشهدُ بالجودة ، التي اليها رفعت المخلوق العاقل ، الذي لا راحة له ولا سعادة ، خارجاً عنك . وان كانت سعادتُه فيك ، وحدك ،

فهذا دليلٌ على انه لا يكتفي بذاته. انت، اجل انت يا الهنا تضيءُ ظلامنا وتكسونا بنورك ، فيصبح ظلامنا كالظُهر في النهار .

هبني ذاتك يا الهي وعدْ الي فاني احبك ! قوِّ حبي ان كان ضعيفاً . انا لا اعرف ان اقيس حبي ولا اعرف ما ينقصه ليكون كاملاً وتهفو حياتي اليك وتعانقك ؛ ولن تنقطع عنه الى ان تستتر في ستر وجهك . الشيءَ الوحيد الذي ادركه هو اني لا اجد الا ضيقاً، خارجاً عنك، ضيقي خارجي وباطني .وكلُّ ما عداك من غنى وثروات ، فقر وفاقة .

ألم يكن الآب والابن يرفرفان فوق المياه ايضاً ؟

من شبهها بجرمٍ سابح في الجو أخطأ في تعبيره ضد الروح القدس. اما ان كان يقصدُ من ذلك التعبير ان يُظهر مجد اللاهوت الخالد متجلياً فوق عوارض هذه الدنيا ، فالآب والابن والروح هم جميعاً فوق المياه .

ولكن ، لماذا لا يتكلَّم الكتاب عن روحك ؟ ولمَ حين يتكلم عنه ، عن مكانه يتكلَّم، عن ذاك المكان الذي لا نظيرَ له؟لقد قيل عنه، وحده، انه « هبةُ الله » فيها نجد الراحة وفيها نجد ذواتنا لأن راحتنا هي محل اقامتنا.

الى ذاك الملجأ نرتفع بالمحبة؛ واليه كذلك عن ابواب الموت يرفع روحك القدوس حقارتنا. راحتنا، ارادةٌ صالحة. كل جسمٍ بحكم ثقله يأخذ محله . لكن الثقل لا يهوي بالجسم حتماً الى القعر بل الى محله: النار ترتفع والحجر يسقط وكل منهما يسير بحكم ثقله باحثـاً عن محله . الزيت المُراق في الماء يأخذ محلَّه فوق الماء ؛ والماء المسكوب في الزيت يأخذ محله تحت الزيت وكل منهما يخضع لوزنه النوعي ويحتل مكانه . ما ليس في محلـه يظل ، مضطرباً، قلقاً، الى ان يجده ويقيم فيه. حبي هو وزني وهو الذي يحملني . ان هبتك تشعل فينا ناراً ترفعنا : نحترق ونصعد ؛ نرتقي سلَّم النفس وننشد مزمور المراقي. نارُك، نارُك الخيِّرة تلهبنا فنروح ونصعد الى سلام اورشليم.

وما اعظم فرحي حين اسمع : « الى بيت الرب نذهب » هناك تُعِدُّ لنا «الارادة الصالحة» مكاناً وهناك ننال امنيتنا الوحيدة بأن نبقى فيه الى الأبد.

سعيدٌ هو المخلوق الذي لم يعرف سوى هذه الحالة وإلاّ اختلف وضعاً: بفضل هذا الصوت: « ليكن نور « فكان نور ». رفعته هبتك المتعالية فوق عوارض هذا العالم ساعةَ تكوينه ، اننا نميّز بين زمنٍ ، فيه كنا ظلاماً ، وآخر ، اصبحنا فيه نوراً ؛ امّا بشأن هذا المخلوق فان الكتاب يشير الى ما كان مزمعاً ان يصير اليه بدون النور الالهي ويزيح الستار عن التموجات الظلامية ليبرهن عن العلّة التي كانت سبب وجوده ، على خلاف غيره ، فوجهته نحو النور الأبدي وجعلتـــه هو ايضاً نوراً . فليفهم من استطاع وليسألك الفهم يا الله ! لِمَ اتضايق ؟ أأنا هو النور الذي ينير كل انسانٍ آتٍ الى العالم » ؟ (يوحنا ١ : ٩) .

من ذا يدرك الثالوث الكلي القدرة ؟ ومن ذا لا يتكلّم عنه في كلامه عنه ؟ قلَّ ما نجد نفساً تدرك انها تتكلّم عنه في كلامها عنه . الناس يتجادلون ويماحكون انما لا يقدر احدٌ منهم ، خلا قلبه من السلام ، ان يتمتع بتلك الرؤيا .

ليت الناسَ يدركون في انفسهم ثلاثة امور تختلف كليّاً عن الثالوث : اشير عليهم بذلك ليتأملوا فيها مراراً ويدركوا انهم بعيدون جداً عن فهم سر الثالوث الأقدس .

وهذه الثلاثة هي : الوجود والمعرفة والارادة : انا موجود ، وانا اعرف ، وانا اريد . اني اعرف واريد ؛ واني اعرف اني موجود واني اريد ؛ واريد ان اكونَ وان اعرف .

حياتنا مرتبطة بشدة بهذه الامور الثلاثة : حياةٌ واحدةٌ وعقلٌ واحد وجوهرٌ واحد . ما من احد يقدر ان يميّز حقاً بينها . فليفهم من استطاع !

وليقف كلٌ امام نفسه متأملاً فيها ثم فليجبني بما يرى فيها !!!!

لو قدِّر لنا ان نجد وجهاً للشبه بينها ونعبِّر عنه فلا يظنَّنَّ احد أننا بلغنا باب الحقيقة الثابتة المهيمنة على هذه الأشياء: انها لحقيقةٌ لا تعرف تغييراً لا في كيانها ولا في معرفتها ولا في ارادتها. هل يمكن ان ينشأ الثالوث عن وجود هذه الاشياء الثلاثة في الله ؟ ام ان هذا الثالوث يقوم في شخص الهي ويلتقي في كل واحد من هؤلاء الثلاثة ؟ والاندماج هذا يتحقق بمعجزة في بساطة كلية هي بنفس الوقت كثرة لأن الثالوث غاية في ذاته وهذه هي علةُ وجوده ؛ انه يعرف ذاته ويرتضي دوماً عظمة وحدانيّته الثابتة. ومن ذا يقدر بسهولة ان يكوِّن لنفسه فكرةً عن هذا السرّ ؟ من يجد كلاماً للتعبير عنه ؟ من ذا يجسرُ ان يصوغ فكرةً عنه بشكلٍ من الاشكال ؟

توغّلْ في اعترافك يا ايماني وقلْ لربّك : « قدوس قدوس قدوس ، ربي والهي ! » باسمك اعتمدنا ايها الآب والابن والروح القدس وباسمك نعمِّد ايها الآب والابن والروح القدس لأن الله خلق بيننا بواسطة مسيحه « سماءً وارضاً » اعني الروحانيين والجسدانيين في كنيسته ... قبل ان تقبل ارضنا صيغةَ التعليم كانت لا منظورةً ، غيرَ منظمة ؛ وكنا مغمورين بظلمات الجهل. لقد عاقبتَ الانسان بسبب خطيئته واحكامك هي غمرٌ عظيم.

وبما ان روحك كان يرفرفُ فوق المياه فانك لم تهملْ برحمتك شقاوتنا بل قلت : « ليكن النور » وتوبوا فقد اقترب ملكوت الله — توبوا « وليكن نور » ولقد ذكرناك في باطن نفسنا القلق يا رب ، على ضفاف الاردن ذكرناك وعلى الجبل المساوي لك علواً ذكرناك ؛ لقد تنازل الينا فكرهنا ظلماتنا وتطلّعنا اليك فشاهدنا النور. لقد كنّا ظلاماً أمّا الآن فنحن نورٌ بالرب.

نحن نور بالايمان لا بالنظر «لأننّا بالرجاء خلصنا والرجاء الذي يـُرى ليس رجاءً» . غمرٌ ينادي غمراً على صوت خرّاراتك » (مزمور ٤١ : ٨) . ان الذي قال « وأنا لم استطع ان اكلمكم كالروحيين بـــل الجسديين » (١ كور ٣ : ١) لا يعتقد انه اصاب الهدف لأنه « ينسى ما وراءه ويتوق الى ما قدامه » وينوء تحت حمله ونفسه العطشى الى الله ، الى الاله الحيّ ، تشتاقُ ، الى ينابيع المياه الحية فيصرخ : « متى اصل اليها ؟ » يتوق الى السُكنى في خبائك ، في السماء ؛ ويلقي بهـــذه الكلمات الى الغمر الأسفل قائلاً : « لا تتشبهوا بهذا الدهر بل تجدّدوا بعقولكم » (رومية ١٢ : ٢) ولا تكونوا اطفالاً بعقولكم بل كونوا اطفالاً في الشر كي تكونوا كاملين بعقولكم... ايها الغلاطيون الاغبياء من الذي سحركم ؟ ليس هذا صوته بل صوتك ؛ انت ارسلتَ من علوِّ سمائك روحك القدوس بقوة هذا الصاعد الى السماء ليفتحَ خرّارات مواهبك نهر غبطة يـُبهج مدينتك يا الله .

على تلك المدينة يتحسّر صديق الختن ، حاملاً في باطنه بواكير الروح القدس . « انه يتحسّر ويبكي منتظراً فداءه ودخوله في مصافِّ الابناء . يبكي عليها لأنه عضو في الكنيسة ، عروس الختن . وفي سبيلها يسعى جهده لأنه صديقُ الختن ويضحّي في سبيلها ، لا حباً بمصلحته الشخصية ؛ وعلى صوت خراراتك غمرٌ ينادي غمراً فيندفع حماساً وتعتريه المخاوفُ . وكما اغوت الحيةُ حواءَ بمكرها فانه يخشى عـــلى نقاوة ختننا من ان تفسدها وتضيعها عقلية الضعفاء ؛ وهذا الختن هو ابنك الوحيد . انه لنورٌ ساطعٌ بهيٌ نراه كما هو ؛ اني اضع حداً لدموعي ، خبزي اليومي ، ليل نهار ، وهم يسألونني : « اين الهك ؟ »

واهتف مثلهم : « اين انت يا الهي ، اين انت ؟ » استريح قليلاً حين

أُفيض نفسي عليَّ في غناء العيد ، غناء الفرح والتسبيح لكنها تظلُّ حزينة اذ تسقط من جديد وتصبح غمراً او بالأحرى حين تشعر بانها لا تزال غمراً فيقول لها ايماني ، ايماني الذي اشعلته في الليل امام قدميَّ : « لم تحزنين يا نفس وتضطربين ؟ » ضعي رجاءك بالرب ؛ كلمته سراج لقدميك ؛ توكلي عليه واثبتي حتى يمرَّ الليل ابو الكفرة وينقضي غضب الرب الذي كنا اولاده يوم كنا ظلمةً... اننا نسحب في جسدنا هذا المائت بالخطيئة آثار الظلام ولا تزال فينا الى ان يبدِّدها نسيم النهار . توكلي على الرب . منذ الصباح الباكر ، أنتصبُ واقفاً لمشاهدة خلاص وجهي ، الهي ، الذي يحيي اجسادنا الميتة بالروح القدس الحالّ فينا الذي يحمله بلطف فوق امواج غمر حياتنا الباطنية . اخذنا منه في سفرنا على هذه الارض عربوناً حتى نصبح في المستقبل نوراً، فخلصنا بالرجاء وبدل ان نكون ابناء ليلٍ وظلمة ، اصبحنا ابناء نورٍ ونهار .

لا يستطيع احد سواك ان يميز فيما بيننا وبينهم يا من تفحَصُ قلوبنا وتدعو النور نهاراً والظلمة ليلاً. ومن يميّز هذه الامور سواك؟ اي شيءٍ لنا ولم نأخذه منك ؟ لقد جبلتنا نحن آنية الكرامة من الجبلة عينها التي منها صنعت آنية الهوان .

ومن سواك يا الله قد بسط فوقنا فلكاً من السلطان في كتابك الالهي ؟ « السماوات تُطوى كدرج » وهي مبسوطة فوقنا مثل جلدٍ . حظوة كتابك الالهي اسمى من كل ذلك، منذ ان رقد بالموت اولئك الذين استملناه منك على ايديهم . انت عالم، يا رب، انت عالم كيف كسوتَ الناس جلوداً؛ لقد اصبحوا للموت بعد خطيئتهم . كجلدٍ بسطت فلك كتبك المقدسة ووحيك المتساوي ابداً في الحق جعلته فوقه على ايدي اناس يموتون.ولكن، امتد بعد موتهم هيكل هذا السلطان فوق من كانوا تحت ، بشكل جميل

رائع لم يعرف مثيلٌ له في حياتهم . وذلك لانك لم تكن قد بسطت السماء كجلدٍ ولا اذعتَ في المسكونة خبر موتهم .

هل لنا ان نرى السماوات يا رب وهي صنع اصابعك ؟ بدِّدْ من امام عيوننا السحابة التي لففتَها بها. فيها شهادةٌ منك ، شهادةٌ تعطي الاطفال حكمةً : أقِمْ لك تسبحةً يا الله ، اقم لك تسبحة من فم اولئك الاطفال ، الذي لا يزالون على الثديّ. اننا لا نجد كتاباً يُضمحل الكبرياء ككتابك. ويقضي على الخصم قضاءً مبرماً وعلى المحامي الذي يرفض مصالحتك ويدافع عن خطاياه وزلأته. كلاّ يا رب ، كلاّ ، لا اعرف اقوالاً ، خارجاً عن كتابك ، بهذا الصفاء والطهر ، لا اعرف كلاماً اقوى من كلام كتابك على انتزاع الاعترافات مني واحناء عنقي ، تحت نيرك وحملي على القبول بخدمةٍ مجانية . هل لي ان ادركها يا اباً صالحاً ؟ ! اني لك خاضعٌ ومطيع ؛ امنحني تلك النعمة يا من رسَّختَ كلماتك وثبّتَّها في النفوس المطيعة !

أظنُّ ان فوق هذا الفلك مياهاً أُخرى ، مياهاً ابدية لا يشوبها فسادُ الأرض ! لتسبّح لاسمك اجواقُ الملائكة في العلى ، لأنَّها ليست بحاجةٍ الى مشاهدة هذا الفلك ولا الى تعلُّم كلامك بالقراءة! انهم دوماً يشاهدون وجهك وفيه يقرأون مشيئتك الابدية ، دون اللجوء الى مقاطع كلامية ، متتابعة في الزمن : قراءة واختيار ومحبة ! يقرأون دوماً ويبقى ما يقرأون : يقرأون مقاصدك الازلية ويختارونها ويحبونها . لا يُغلَق هذا الكتاب ولا يُطوى لأنك انت كتابهم الى الأبد . فوق هذا الفلك وضعتَهم وجعلتَهم ارفع شعوب الارض الضعيفة ليرفعوا لحاظهم الى كتابك ويُدرِكوا رحمتَكَ التي تبشرُ في الزمن بخالق الازمنة « لأن الى السماء رحمتك والى الغيوم امانتك » . الغيوم تزول والسماء باقية . المبشِّرون بكلمتك ينتقلون من هذه

الحياة الى اخرى وكلمتك تنتشرُ بين الشعوب حتى آخر الاجيال . « السماء والارض تزولان وكلامك لا يزول » . يُطوى هذا الجلد وييبس ما تحته من عشب ويزول رونقه ، امـّا كلمتك فثابتة الى الأبد . انك تظهر لنا كما باللغز ، في السحب ، في مرآة السماء لا كما هي ؛ لاننا وان كنا ابناءً اعزاءً لابنك فلا ندرك جيداً سرّ مصيرنا . من خلال برقع جسده رآنـا ولاطفنا واشعلنا بنار حبه؛ فرحنا نعدو في اثر شذا طيوبه . انما حين يظهر ، نصير شبيهين له اذ نراه كما هو في الحقيقة . امتيازنا على سوانا هو بان نراه كما هو ، يا رب ؛ لكننا لم نحصل لحد الآن على هذا الامتياز .

الوجود المطلق لك وحدك ؛ والمعرفة الصحيحة المطلقة هي ايضاً لك وحدك ؛ ثابتٌ انت لا تتغير في كيانك وفي معرفتك ومشيئتك ، كيانك يعرف ويريد ارادةً ثابتة ؛ معرفتك ثابتة وارادتك قائمة وانت تعرف معرفةً ثابتة. ليس عدلاً ان يعرف المخلوقُ المتغيّرُ النورَ الأزليَّ كما يعرفُ ذاتـه. نفسي امامك ارضٌ لا ماءَ فيها : لا تستنير من ذاتها ولا من ذاتها ترتوي. بل بقربك، ينبوعُ الحياة ، وفي نورك نجدُ النور .

من ذا الذي جمع المياه المرة الى موضعٍ واحد ؟ للجميع غايةٌ واحدة : سعادة زمنية ، ارضية ؛ وفي سبيلها يعمل الجميع اعمالاً مختلفة . من سواك يا رب أمر المياه بان تجتمع في موضع واحد واليابسة بأن تبدو ظمأى اليك؟ البحر بحرُك وانت خلقته . بيديك كوّنتَ هذه اليابسة لأن ليس البحرُ مجموعة الارادات بل مجموعة المياه . اميال النفوس الشريرة انت تقمعها وتضع لها حدوداً لا يحق لها ان تتخطاها ؛ تأمر الامواج بان تتحطم فوق بعضها بعضاً ؛ وهكذا فانك تدبّر البحر وفقاً لنظام ملكك الشامل .

اما النفوس العطشى اليك ، المائلة امامك التي فصلتها عن سواهــا وجعلت لها غايةً وميزتها عن البحر فانك من مياهٍ عذبةٍ ،خفية ، ترويها ، نفسنا الخاضعة لناموس الرب الهنا تنبت اعمال الرحمة « بحسب صنفها » كالمحبة ومساعدة القريب في ضيقه ؛ نفسنا تحمل بذور هذه المؤاساة لانها تشبه هذا القريب ؛ ان شعورنا بشفائنا يجعلنا نرأف بمن هم في الضيق ونهبُّ لاغاثتهم ومساعدتهم كما نود لو يساعدنا الآخرون ان وُجدنا في ضيق مماثل. ولا يجوز ان تقتصر هذه المساعدة على التوافه - كالعشب الخفيف - بل تتناول حمايته ومساندته بقوة وجرأة - على مثال الشجرة المثقلة بالثمار - انتزاعاً لمظلوم من يد قوي مستبد، وتأميناً لملجأ له ، ودعماً للعدالة والمساواة .

ايها الرب ، لقد تعودت ان توزّع الفرح والقوة ؛ هب الأرض ان تنبت الحقيقة والعدل من علو سمائك عــلى جميع الناس وان تظهر النيّرات في الفلك ! لنقتسمْ قوتنا مع الجائع ولنأوِ المشرّد تحت سقفنا وهو الذي لا مأوى له ؛ ولنكسُ العريان ونحترم جميع ابناء جلدتنا !

إن اعطت ارضنا ثماراً كتلك الثمار ، انظر اليها وقل : « حسن » وليشرق نورُنا في الزمن المقبول فنرتفع بفضل اعمالنا الصالحة مهما كانت ضئيلةً الى مشاهدة كلمة الحياة فنظهر حينذاك كالنيّرات في العالم « ملازمين لفلك كتابك المقدس » .

وحيث نستطيع استناداً الى تعاليمك ان نميّز بين ما هو للعقل وما هو للحس ، بين الليل والنهار ؛ بين النفوس التي اختصت بمـــا للعقل والتي اختصّت بما للحس . ولم تعد وحيداً كما كنت قبل تكوين الفلك ؛ لأنك تفصل في سرك بين النور والظلمة . الروحيون انفسهم يعملون في صفوفهم في هذا الفلك ، بعد ان شملت نعمتك الكون بأسره . فوق الأرض يسطعون

ويفصلون بين الليل والنهار ويسجّلون الوقت لأن القديم قد ولّى وتجدَّد كل شيء واصبح خلاصنا ادنى الينا من يوم ٍ مضى وآمنّا فيه . لقد اتى الليل وحان النهار . ببركتك تتوّج السنة ، وترسل فعلتك يحصدون لك ما زرعه آخرون ؛ وترسل كذلك فعلةً منهم يزرعون زرعاً آخر لا يستحصد الا في نهاية العالم .

طلبات البار تستجيبها ؛ وسنيّه تباركها ؛ وانت كما انت الى الأبد وسنوك التي لا تنتهي ، تشبهُ الأهراءَ المعدَّةَ للسنين القادمة .

الحكمة اسمى من العلم

بحكمك الازلي تفيض على الارض خيرات السماء في حينها. من روحك القدوس وهبت البعض كلام الحكمة « وذاك هو النيّرُ الأكبر » المعدُّ لمن يفرحون بنور حقيقةٍ ساطعة فرحهم بفجر نهار طالع ؛ ووهبت البعض الآخر كلام المعرفة « وذاك هو النيّر الأصغر » ولسواهم اعطيت الايمان وقدرة الشفاء والمعجزات والنبوءات وتمييز الارواح ومعرفة الألسن . جميعها مواهب تشبه الكواكب اذ هي من صنع عقل واحد يعطي مواهبه كلاً حسب مشيئته ويسطع نور هذه الكواكب لامعاً على طريق الكل .

بيد ان كلمة المعرفة الحاوية لجميع الحقائق السرية التي تتبدل كالقمر مع الزمن وتلك التي ذكرتها سابقاً وشبهتها بالنجوم تختلف بشدة عن نور الحكمة الساطع ، ببهجة النهار الطالع ، حتى انها اصبحت غسقاً . ومع ذلك ، لا تزال ضرورية لمن لم يستطع خادمك ان يكلمهم كالروحيين بل كالجسديين ، خادمك الذي يبشر بالحكمة فقط بين الكاملين .

لا يجوز ان يُهمَل الانسان الجسدي الذي لا يزال طفلاً بالمسيح ، يقتات بالحليب ، حتى يصبح اهلاً لقبول غذاء اشدّ وتنفتح عيناه على نور الشمس بل ليقنع في ليله بنور القمر والنجوم .

ذاك هو تعليمك ، ايها الحكمة الساميـــة ؛ في كتابك ، الذي هو فلكك ، اعطيتناه لنميّز كل شيء بنظرة خفية وان تكن خاضعة للعلامات والازمنة والايام والسنين .

اغتسلوا اولاً وتطهـَّروا وأزيلوا شر اعمالكم من امام عيني ليظهر اليبس؛ تعلـَّموا الاحسان وأنصفوا اليتيم وحاموا عن الأرملـــة تنبت الارضُ عشباً يغذي واشجاراً تثقل بالثمار . تعالوا نتحاجّ يقول الرب حتى تشع النيرات في الفلك وتنيرَ الارض .

سأل ذاك الغني ، يوماً « المعلمَ الصالحَ » عمَّا يجب ان يعمله ليرث الحياة الأبدية ؛ فأجابَ المعلمُ الصالحُ الغنيَّ الذي كان يظنه انساناً ــ بيدَ انه صالح لكونه الهاً ــ وقال : ان اردت ان تبلغ الحياة ، احفظ الوصايا وطهـِّر نفسك من مياه الخبث والشر المريرة : لا تقتل ، لا تزنِ ، لا تشهد زوراً ولا تسرق اذ ذاك يبدو لك اليبس فيولـّد فيه احترام الوالدين ومحبـــة القريب . امَّا الغني فقال : هذا كله حفظته . ولكن ، ان كانت ارضهُ طيبةً فمن اين تأتيها الاشواك ؟ استأصل اشواك البخل الكثيفة ، بعْ مقتناك واعطهِ المساكين تكثر ثمارك ويصبح لك كنزٌ في السماء . ثم اردف السيد قائلاً : ان اردت ان تكون كاملاً فاصطحب اولئك الذين كلـَّمهم ، بكلام الحكمة ، السيدُ الذي يعرف كيف يهب الليل والنهار ؛ اصطحبهم لتتعرف اليهم ؛ ومتى تعرفت اليهم يصبحون لك كواكب في الفلك . ان لم يكن قلبك معهم يستحيل عليك ان تصاحبهم ولن يكون قلبك الا حيث يكون كنزك . تلك كانت اقوال المعلم ؛ بيدَ ان الحزن شمل اليبس بأسره فاختنقت الكلمة بالأشواك .

وانتم ايها المختارون ، يا ضعفاء العالم ، يا من كفرتم بكل شيء في سبيل الرب ، اقتفوا آثاره وأخزوا الاقوياء سيروا بفرحٍ وراءه وليسطع نوركم في

الفلك فتذيع السماواتُ مجده وتميز نور الكاملين، الذين هم دون الملائكة، عن ظلام الصغار الذين لا يزال باب الرجاء مفتوحاً امامهم. ليسطع نوركم في الارض كلها وليذع النهار الساطع بالشمس للنهار، كلام الحكمة؛ وليذع الليل لليل في ضوء القمر كلام المعرفة. لا يؤثّر ظلام الليل بسنى القمر والكواكب البهية؛ ولا يأخذ الليل نصيبه منه إلا بمقدار. وكأني بالرب قد قال: «لتكن النيرات في فلك السماء» فحدث فجأة صوت من السماء كصوت ريحٍ شديدة وظهرت السنةٌ نارية انقسمت وحلّت على كلٍ منهم» وسطعت في السماء نيرات كانت لها كلمة الحياة. ايتها النيران المقدسة ويا ايتها النيران العجيبة اسرعي الى كل مكان! انتِ للعالم نور ولستِ تحت مكيال لأن من لزمتهِ ارتفع ورفعك معه. روحي في كل مكان واظهري امام كل الشعوب!

ليحبَلِ البحر ويلد اعمالك؛ لتفِضِ المياهُ زحّافاتٍ ذاتِ انفسٍ حية لأنك حين ميّزت الغث من السمين اصبحت فم الله القائل: لتفضِ المياه، لا نفساً حيةً تكون من صنع الأرض، بل زحافاتٍ ذات الانفس الحية وطيور الجو. اللهم، الزحّافات هي اسرارك التي جرت بفضل قديسيك مع امواج تجارب هذا الدهر لتغمر الشعوب بمياه العماد الذي يُمنَح باسمك.

وحدثت بعدئذ عجائبُ مذهلةٌ تشبه حيتان البحر وحلّقت كلمات رسلك فوق الأرض، في فلك كتابك؛ ورعى سلطانُ كتابكِ طيرانهم في جميع الاجواء التي اختاروها اذ أنّ صوتهم في كل قولٍ وكلام. ذاع صوتُهم في الارض كلها وكلامهم الى اقاصي المعمور وتكاثر كلامهم ببركةٍ منك يا الله.

أكاذبٌ انا في قولي ام اني لا اميّز بين الاشياء في فلك السماء والاعمال

المادية القائمة في البحر المضطرب تحت فلك السماء ؟ كلا ! هناك اشياء معينة لا يطرأ عليهـــا تبديل في المعنى ولا تزداد عدداً من جيل الى جيل كأنوار الحكمة والعلم مثلاً ؛ وأخرى تمتُّ بصلة وثيقة الى النظام المادي وهي كثيرة ومتنوعة ؛ تزداد ولا شك وتتكاثرُ ببركةٍ منك يا الهي يا من تعوّض عن ضعف حواسنا التي يستولي القرفُ عليها بسهولة، فتظهر حقيقة واحدة امام العقل باشكال متنوعة واساليب ماديّةٍ ملموسة .

ذاك ما افاضَتْه المياهُ بفضل كلمتك تلبيةً لحاجة الشعوب الذين اضحوا غرباء عن كلمتك الازلية . لانجيلك يعود الفضل الوحيد ؛ مياهك فجرت هـــذه الفيضانات من احشائها وبسبب مرارتها وركودها تدخلت كلمتك فأخرجتهم منها .

اعمالك جميلة واجمل من كل ذلك هو انت يا خالق كل شيء . لولا سقوط آدم لما اخرجت مياه الاوقيانوس المرة من احشائه، اي هذا الجنس البشري بما فيه من فضولٍ متأصل وكبرياء عاتية وقلق مستمر ؛ فلم يضطرَّ ناشرو كلمتك ان ينقلوا الى قلب الميـــاه اعمالك وكلماتك العجيبة بواسطة اعمال ماديّةٍ محسوسة . على هذا النحو أفهم الزحّافات والطيور . والناس الذين تقدّسوا وفقهوا تلك الرموز لن يتجاوزوا الاسرارَ المادية التي استعبدتهم إلاّ اذا ارتفعت نفوسُهم الى الحياة الروحية وتاقتْ ، بعـــد سماعها الكلمةَ الاولى ، الى كمالٍ ارفع .

بفضل كلمتك ، لا بفضل لجج البحر العميقـــة الغور ، افاضت الأرضُ المميّزة، عن المياه المرة، النفسَ التي تحيا حقاً الى جانب الزحّافات ذات الأنفس الحية .

لم تعد تلك النفس بحاجة الى العماد ، الضروري للوثنيين ، كما كانت بحاجة اليه يومَ كانت مغمورة بالمياه . ما إن وضعتَه شرطاً اساسياً للدخول

حتى اصبح السبيل الوحيد الى ملكوت السماء . ولم تعد تطلب عجائب ، دعماً لايمانها ؛ انها تؤمن قبل ان ترى علامات ومعجزات لأنها ارضٌ وفيّةٌ مفصولة عن اثم مياه البحر المر . « إنّ فالألسنة آيةٌ للكفرة لا للمؤمنين » (كور ١٤ : ٢٢) . انت رسّخت الارض على المياه ولم تعد بحاجة الى الطيور التي خلقتها بكلمتك من المياه . على لسان رسلك ارسل اليها كلمتك . نحن لا نستطيع إلاّ ان نذيع اعمالهم ؛ وانت تكمّل فيهم ما يعملون ، اي النفس الحية .

تفيض الارض النفس الحية لأن الارض هي السبب الذي يخلق النفس على الارض ؛ والبحر يفيض الزحّافات ذات الانفس الحية وهو علّة الطيور تحت قبة السماء التي لا تحتاج الارض اليها وان كانت تأكل السمكة ، التي تُصطاد من اعماق البحار ، على المائدة التي هيأتها امام اعين المؤمنين لانها من الأعماق اصطيدت لتغذية اليابسة . الطيور ذاتها هي من البحر وان تكاثرت فوق الارض. ان كان الكفر البشري سبباً للبشارة المسيحية الاولى فالمؤمنون يزدادون بها بركة ومنها ارشاداً يوماً بعد يوم . من الأرض خرجتِ النفسُ الحيّةُ والكفرُ في هذا العالم لا يفيد منه سوى المؤمنين فتحيا نفوسهم من اجلك بعد ان ماتت في الملذات ، اجل في الملذات المميتة ، يا ربّنا ، يا لذةً حيةً للقلوب النقية .

دع عبيدك يعملون على هذه الارض خلافاً لما في مياه الكفر ، وهم الذين استخدموا عظة وكلاماً يقوم على العجائب وعلى الآيات السرية والالفاظ الخفية التي تدعو الجهل الى التأمل يومَ لم يكن يعطي سوى الخوف والانذهال من وحي الآيات الخفية . على هذا النحو دخل جميع بني آدم الى حظيرة الايمان . طوالَ غيابهم عنك ينسونك ويصبحون غمراً . هب يا رب عبيدك ان يعملوا على ارض يابسة مفصولة عن لجج

الغمرِ العميقةِ الغور وان يصبحوا بحياتهم امام اعـين المؤمنين مُثُلاً تُحتذى

اذ ذاك يُصغون، حباً بالعمل لا بالاصغاء. «اطلبوا الله تحيَ نفوسكم». ستنبت الارض نفساً حية؛ لا تتشبهوا بهذا الجيل بل ابتعدوا عنه لان حياة النفس في ابتعادها عمّا يثير فيها شهوةً قتّالة. احذروا صولـة الكبرياء الوحشية وملذات الشهوة الناعمة ومظاهر العلم الكاذبة كي تجعلوا من الحيوان البري بيتياً وتروّضوا البيتي منها وتصيّروا الافاعي غير مؤذية. نزواتُ النفس البشرية صورٌ رمزية؛ اما نزوات النفس الميتة ففي رهبة غرف الموتى وفي ملذات الشهوة الشريرة وسمّ الفضول. النفس الميتة لا تخلو من الأميال. بابتعادها عن ينبوع الحياة موتٌ لها؛ حينذاك يلمها العالم عـلى طريقه فتتخذ لها منه قاعدة لسلوكها.

اللهم ان كلمتك هي معينُ الحياة الابدية التي لا تزول؛ ولذا فانّك تحذرُنا من الابتعاد عنه قائلاً لنا: «لا تتشبهوا بهذا الدهر» (رومية ١٢ : ٢) الى ان تُنبِتِ الارضُ التي ارتوتْ من ينبوع الحياة، نفساً حية ونقيةً تظهر امام كلمتك بهمّة من كرزوا بانجيلك، نفساً تقتفي آثارَ من اقتفوا آثارَ مسيحك وبهذا المعنى نفهم التعبير القائل: «حسب صنفهـا» اذ ان الصديق يقتدي بطيبة خاطر، بصديقه. وقال الرسول: «كونوا مثلي فاني مثلكم» (غلاطية ٤ : ١٢). لن يبقى موضع في النفس الحية إلا لكل حيوان صالح عذب الاخلاق. أَلم تقل في تعليمٍ لك: «يـا بنيَّ اقضِ اعمالك بالوداعة فيحبك الانسان الصالح» (سفر يشوع بن سيراخ ٣ : ١٩). والحيوانات البيتية تصبح صالحة: ان اكلتْ، لا تشكو من الشره وان لم تأكل لا تشكو من الجوع. تنتقى الافاعي الصالحـة من سمٍ يؤذي ولو كانت تحتفظ بقدرتها وحذرها وتنقطع عن الدوران في الطبيعة؛ وان طافت

فلكي ترتفع بواسطة المخلوقات الى الازل الذي يستطيع العقل ان يدركه : كل حيوانٍ يبتعد عن السبل المميتة يحيا ويصلُح ويصبح للعقل خادماً .

يا الهنا وخالقنا، تتحرَّر اميالنا التي كانت سبب هلاكنا في حياة اثيمة، من كل محبة دنيوية فتصلح نفسنا وحياتها وتحيا حقاً اذ ذاك يتمُّ قولُك على لسان رسولك : « لا تتشبهوا بهـذا الدهر » (رومية ١٢ : ٢) وتتمُّ كذلك وصيتُك القائلة : « بل تجدَّدوا في عقولكم » . انك لم تقلْ : « تجدَّدوا بحسب صنفكم » كمن يلزمهم ان يقتدوا بمن سبقوهم او ان يحيوا وفاقاً لمثالٍ بشري اكمل . انت لم تقلْ : « ليكن الانسان بحسب صنفه » بل قلت « لنخلق الانسان على صورتنا ومثالنا » لنكون مدركين لمشيئتك .

ان المبشِّرَ بكلمتك الذي يَلِدُ ببشارتك ابناءً ويريد ان يكون لــه اطفالٌ يغذيهم بالحليب كمرضعٍ تحتضن بنيها، كان يهتف قائلاً : «تحوَّلوا بتجديد عقولكم لتدركوا مشيئة الله الصالحة المرضية ، الكاملة » (رومية ١٢ : ٢) . انت لم تقلْ : « ليكن الانسانُ » بلْ « لنعمل الانسانَ » ... لا « بحسب صنفه » بل « على صورتنا ومثالنا » . كل من تجدَّد بالروح فرأى وأدركَ حقيقتَنَا لا يَحتاج الى من يرشدُه كي يعملَ بحسب صنفه بل يُدرك ، من نفسه وبفضل تعاليمك ، مشيئتَك وكلَّ ما هو صالح ومرضيٌّ وكامل . انت تُرشِدُه – وقد اصبح اهلاً لذلك – كي يرى ثالوث الوحدة ووحدة الثالوث . ولذا قلت بصيغة الجمع : « لنصنع الانسان » ثم، بصيغة المفرد : « على صورة الله » وعلى هذا النحو يتجدد الانسان لمعرفة الله ، على صورة خالقه . الروحُ يحكُم في كل شيء ، من كل مـــا يقتضي حكماً ، ولا احدَ يحكم فيه .

« الروح يحكم في كل شيء » اي انه مسلَّط على البحر وسمك البحر وطيور السماء وعلى الحيوانات الداجنة والبرية ؛ مسلَّطٌ على الارض كلها

وما يدب على سطحها من زحافات . يمارس هذا السلطان بقوة عقله . وبقوة عقله يدرك « روح الله » . وفضلاً عن ذلك كله « كان الانسان في كرامةٍ فلم يفهم ؛ فماثل البهائم وتشبَّه بها » (مزمور ٤٨ : ٢١) .

انّا لنجد في كنيستك ، بجودةٍ منك ، وقد خلقتنا واصلحتنا ، فئتين من المخلوقات : فئة الآمرين بحسب الروح وفئة الخاضعين لهم بحسب الروح. خلقت الكائن البشري « ذكراً وانثى » وبفضل نعمتك الروحية « لا ذكر ولا انثى ، لا يهودي ولا يوناني ، لا عبدٌ ولا حر » الرؤساء الروحيون والمرؤوسون الخاضعون يحكمون روحياً دون ان يصل حكمهم الى الافكار التي تسطع في الفلك ولا يحق لهم ان يحكموا على سلطة سامية كتلك ، ولا على كتابك المقدس مع ما في بعض مقاطعه من غموض . نُخضِعُ له فكرنا وبقوةٍ نومن ان الذي لا يزال فهمُه مغلقاً علينا ، حقيقي وصحيح. على كل روحي تجدَّد بمعرفة الله ، على صورة خالقه ، ان يحفظ الشريعة ولا يحكم فيها ؛ وليس له ان يقسم الناس فئتين ، روحيين وجسديين اذ ما من احدٍ سواك يا الهي يقدر ان يميّزهم بحدة نظره طال ما ان اعمالهم الظاهرة وثمارهم لا تخولنا معرفتهم . امّا انت يا رب فقد عرفتهم ونظمتهم وفي مقاصدك الخفية دعوتهم قبل ان تبدعَ الفلك . مهما بلغ سموُّ الانسان روحياً فانه لا يحكم في شعوب الأرض الصاخبة «ومن اين له ان يدين الذين في الخارج؟» (١ كور ٥ : ١٢) طال ما انه يجهل الذين يخرجون ليذوقوا عذوبة نعمتك والذين يمكثون في مرارة الكفر الأبدية ؟

ان الانسان الذي خلقته « على صورتك » لم ينلْ سلطاناً على نيّرات السماء ولا على السماء الخفية عينها ، ولم ينلْ سلطاناً على النهار ولا على الليل اللذين دعوتهما الى الوجود قبل السماء ولا نال سلطاناً على المياه التي يسمونها بحراً . يمتد سلطانُه على سمك البحر وطير السماء وكل حيوان وعلى الارض

بأسرها مع ما يدب على سطحها .

يحكم الانسان فيستحسن الصالح ويستقبح الطالح في اسرارك التي تعلّم من راحت رحمتُك تبحث عنهم في قعر المياه ، او في العيد الذي فيه تقدّم طعاماً للارض المؤمنة ، تلك السمكة ، التي اصطيدت في اللجج ؛ يستحسن الصالح ويستقبح الطالح في الكلام والخطب الخاضعة لسلطان كتابك والمحلّقة كالعصافير تحت قبة السماء ، عنيتُ بها الشروح والدروس والمناقشات والبركات والتوسلات النافذة من الشفاه آياتٍ بيّنات يجيب عليها الشعب آمين ! ينطق المرءُ بهذا كله ليعوّض عن اللجة التي يتخبّط فيها العالم وعن الجسد الأعمى الذي لا يدرك الفكرة الخالصة بل يستعمل اصواتاً ونبرات تؤثّر على السمع . عن المياه تصدر الطيور المتكاثرة على الارض .

والروح يحكم كذلك فيستحسن الصالح ويستقبح الطالح في اعمال المؤمنين واخلاقهم وصدقاتهم التي تعتبَر للأرض ثماراً : انه يحكم في النفس الحيّة التي روّضت العفةُ والصومُ والتأملاتُ التقوية اميالها بمقدار ما تسمح له الحواس الجسدية ؛ وبكلمةٍ ، يستطيع ان يحكم حيث لـه ان يُصلح ويُحسّن .

ولكن ، ما هذا ؟ وما السر ؟ انك ، يا رب ، تبارك البشر « لينموا ويكثروا ويملأوا الأرض » . ألا ترمي من خلال ذلك الى ان تقدم لنا موضوعاً للتفكير ؟ وإلاّ لِمَ لم تبارك النور الذي سميته نهاراً والفلك والنيّرات والكواكب والأرض والبحر ؟ خلقتنا يا الهي على صورتك واختصصت الانسان بهذه البركة بيد انك شملت بهـا ايضاً سمك البحر وحيتانه لتنمو وتكثر وتملأ مياهه كما شملتَ بها طيور الجو لتتكاثر على الأرض . ويبدو لي انك جعلتها شاملة لكل الاجناس التي تتوالد كأشجار الكون ونباته وحيوانه ... لكنك لم تقل للنبات والشجر والحيّات ... انمي واكثري ...

حتى ولو كانت تنمو بالتوالد كالسمك والطير والناس وتحافظ بهذا الشكل على اصنافها .

وماذا اقول ايتها الحقيقة ، يا نوري ؟ جملةٌ لا معنى لها ، ولا اهمية ! حقاً يا أب كل تقوى ! معاذ الله ان اتوقف على مثل تلك الفكرة ! فان لم أُدرك معنى تلك الكلمة ارجو ان يفيد منها على قدر طاقتهم ، من هم اشد ذكاءً مني .

اقبل اللهمَّ اعترافي امامك ؛ لا اقدر ان اصدّق انك عبثاً نطقتَ بهذا الكلام ؛ ولن اسكت عمّا تثيره فيَّ قراءةُ هذا المقطع من افكار صحيحة ؛ ولِمَ لا اشرح نصوص كتابك بحسب معانيها المجازية كما انا عازمٌ عليه؟ كل فكرةٍ يلدها العقل بشكل معيَّن تأخـــذ لكي تظهر ، الف صورةٍ مادية كما ان العقل يدرك بألف شكل فكرةً واحدة ، ارتدت صورة واحدة من هذا النوع . تأمل ، مثلاً ، فكرة « محبة الله » « ومحبة القريب » بأية رموز ولغات واساليب لا يعبَّر عنها حسياً .

وعلى هذا النحو تنمو وتتكاثر فيضانات المياه الحية !

اليك هذا ايضاً يـــا من تقرأ اعترافاتي : كلام الكتاب المقدس ذو الشكل الواحد والصوت الواحد يقول : « في البدء خلق الله السماء والأرض ». شروحه تختلف وتتنوع بمعزل عن كل خطأ وريـــاء باختلاف الآراء الصحيحة وتنوعها ؛ اليس كذلك ؟

وعلى هذا النحو تنمو وتتكاثر الذريات البشرية !

لو تأملنا جوهر الاشياء عينه ، لا من حيث المجاز بل من حيث الواقع الحقيقي لوجدنا ان كلمتي : « انموا واكثروا » تلائمان كل حيٍ ، ابن زرع ؛ ولو اخذناه بمعناه المجازي — وفيه ، اظن ، نية الكاتب المقدس الحقة التي لا تحصر بركة الله بالحيوانات المائية والبشر — لوجدنا «ربوات»

من المخلوقات الروحية والزمنية (السماء والارض) والنفوس الصديقة والشريرة (النور والظلمة) والاتقياء الذين سلمونا الشريعة في الكتاب (كما في الفلك القائم بين الماء والماء) ومجتمع الشعوب المر (البحر) واعمال الرحمة في الحياة الدنيا (الأغراس البذرية والاشجار المثمرة) والنعم الروحية المعطاة لخير الانسان (نيرات السماء) والاميال الخاضعة لنظام (النفس الحية) .

اننا نجد في هذه الامور المتنوعة كثرة وخصباً ونمواً ؛ لكننا لا نجد نمواً وتكاثراً قائمين على المبدأ القائل : لشيءٍ واحد اساليب متعددة يُعرض بواسطتها ؛ ولأشكال متعددة عرض واحدٌ ما عدا الصور الحسية المادية والنظريات العقلية .

الرموز الصور ، ذريات افاضتها المياه حتماً ، بسبب انغماس جسدنا في لجة الخطيئة ؛ أمّا النظريات العقلية فذرّيات بشرية ، افاضها خصبُ عقلنا : هذا هو رأينا .

اننا نعتقد انك قلت للمياه وللبشر : « انموا واكثروا » اذ يبدو لي انك وهبتنا القدرة والقوة لنعبّر بطرق مختلفة عن فكرة واحدة ونفهمَ ، على الف وجهٍ ، كلاماً واحداً فيه بعض غموض ؛ وتفيض بهذا الشكل « مياه البحر » التي يستوجب تحريكُها شروحاً متنوعة ؛ ثم تفيض الأرض ذرياتٍ متتابعة لأن عطشها الى الحقيقة يكشف عن جفافها في حين ان العقل مسيطر عليها .

اقول واكرر يا ربي والهي ما توحي الي تتمّة كتابك المقدس من افكار ؛ سأقولها بجرأة لأنها حق ؛ وحق تمليه عليَّ ؛ ولن اقوله إلا بوحيٍ منك ايها الحقيقة عينها في حين ان كل انسان كاذب . الكذاب ينطق بما في باطنه اما قائل الحقيقة فلن يتكلم إلا منك .

لقد اعطيتنا غذاءً « كلَّ عشب يُبزر بزراً على وجه الأرض كلها

وكلَّ شجرٍ فيه ثمرٌ يبزر بزراً » (سفر التكوين ١ : ٢٩) . ولم تهب هذا الغذاء لنا وحدنا بل اعطيته ايضاً جميع طيور السماء وبهائم الأرض وحيّاتها ومنعتَه عن سمك البحار وحيتانها .

ثمار الارض صورة ترمز الى اعمال الرحمة التي تقدمها الأرض لنا من خصبها في سر هذه الحياة ؛ على مثل هذه الارض سكبتَ رحمتك ، سكبتَ رحمتك على بيت اوناسيفورس الوَرِع الذي شجَّع بولُسَك فلم يخجل من قيوده . وهكذا كانت مواقف الاخوة الذين من مكدونيا وقـــد بادروا الى بولس فقدموا له حاجته ؛ وذاك ايضاً حصادٌ طيّب استثمروه. وشكا بولس بعض شجرات لم تعطه ثمراً فقال : « منذ دفاعي الاول لم اجد معيناً بل تركني جميعهم . لا تحاسبهم اللهمَّ على عملهم هذا ! ان الثمار تعود لمن علمونا تعليماً عقلياً لندرك اسرارك الالهية وهذا هو حقهم علينا لأنهم بشر ؛ اجل ، انه لحقٌ لهم علينا لكونهم « نفوساً حيةً » تقدِّم لنا امثلة عديدة ، مختلفة في ضبط النفس . حقهم ، كحق طيور السماء علينا ، لأنهم علةُ تكاثرِ البركاتِ على وجه الأرض التي تردِّد اصواتهم .

من اقتات بتلك الثمار ، ذاق غبطةً لا يعرفهـــا اولئك الذين « جعلوا بطونهم الهتهم » كما لا يعرفها مقدِّمو الثمر لأن الثمر ليس بما يعطون بل بالنية التي تدفع الى العطاء .

غبطة الرسول الذي كان يخدم الهه ولم يخدم بطنـــه ، غبطةٌ اعرف مصدرها . نعم اني لأراه واشاطره تلك الغبطة : لمدة وجيزة قدَّم له ابفروديتوس هدايا الفيلبيين ففرح ؛ واني لأعلم سبب فرحه . فرحه قوتٌ له ولهذا قال : « لقد فرحت في الرب فرحاً عظيماً بأنه الآن أخيراً قد ازهر اعتناؤكم بي وقد اعوزتكم الفرصة » (فيليبي ٤ : ١٠) . لقد اصيبوا بضنى شديد وقرف وما عادوا يحملون « ثمرة الاعمال الصالحة » واذ رآهم يزهرون

مجدداً ، لا من اجله ، فرح فرحاً عظيماً بعد ان شاهدوا فقره ، ثم تابع قائلاً : « ولست اقول ذلك عن احتياج فاني تعلمتُ ان اكون قنوعاً في كل حالاتي ، اعرف ان اعيش بفاقة وان اعيش برغـــد ؛ قد ألفتُ في كل مكان وكل شيء ان اشبع واجوع وان ارغد وان أعوز . اني استطيع كل شيءٍ بالذي يقوّيني » (فيليبي ٤ : ١١–١٣) .

فما هو مصدر غبطتك ايها العظيم بولس ؟ بمَ تفرح وتقتات ايها الرجل المتجدد بمعرفة الله على صورة خالقه » (كولو ٣ : ١٠) نفساً حية تضبط ذاتها ولساناً ذا جناحٍ يذيع الاسرار الالهية . لأمثال تلك النفس يُعدُّ ذلك القوت. ومن يغذيك ؟ الفرح ؟ فلنصغ الى التتمة : « غير انكم قد احسنتم اذ شاركتموني في مضايقي » (فيليبي ٤ : ١٤) . فرحه وغذاؤه معاملة حسنة يلقاها منهم لا محاولةً للتخفيف من حزنه . اليس هو القائل : « في الضيق فرَّحت قلبي » . يعرف ان يعيش بفاقة وان يتحمَّل الجوع فيك يا من تقوِّيه « وتعملون انتم ايضاً يا اهل فيليبي انه في ابتداء البشارة حين خرجت من مكدونية لم تشاركني كنيسةٌ من الكنائس في عطاءٍ او اخـــذ إلا انتم وحدكم . فانكم بعثتم اليَّ في تسالونيكي مرةً بل مرتين بما احتاج اليه » (فيليبي ٤ : ١٥) . ان الرسول يبتهج حين يراهم يعودون اليوم الى ذلك السلوك الحسن ويزدهرون كحقلٍ تجدَّد خصبُه .

هل بمصلحته فكَّر حين قال : « انكم بعثتم الي بما احتاج اليه » ؟ ابهذا يفرح ؟ كلاّ . وكيف نعرف السبب ؟ نعرفه من قوله : انا لا ابحث عن العطيَّة بل عن الثمرة .

منك تعلَّمت يا الهي ان اميّز بين العطية والثمرة . فالعطية هي هـــذا الشيء عينه الذي يقدمه لنا من أحب ان يساعدنا في ضيقنا كالمال والأكل والشرب والكساء والمسكن وكل عونٍ يقدمه لنا . امَّا الثمرة فهي ارادة المعطي

الصالحة المستقيمة . لم يقل المعلم الصالح : « من يقبل نبياً » فقط بل ، « باسم نبي » ولم يقل كذلك : « من يقبل صديقاً » فقط ، بل : « باسم صديق » وذاك هو الشرط الأساسي لنيل اجر الانبياء والصديقين . ان المعلم الصالح لم يقل : « من اعطى كأس ماءٍ بارد الى احد تلاميذي هؤلاء الصغار » فقط ، بل « شرط ان يكون تلميذاً » « الحق الحق اقول لكم فان اجره لن يضيع » . قبول نبي وصديق واعطاء كأس ماء بارد الى تلميذ ، تلك هي العطية . والقيام بهذا العمل لأنهم انبياء وصديقون وتلاميذ ، تلك هي الثمرة . بمثل تلك الثمرة قاتت ارملةٌ رجلَ الله ايليا ؛ وبما انه رجل الله قدمت له قوتاً. الطعام الذي كان يقدمه له الغراب ، عطية ؛ هكذا اقتات ايليا الجسدي ، جسدياً لا باطنياً ، من هذا الطعام الموفَّر له ، وإلا لكان هلكَ بجسده .

أودُّ لو اقولُ الحقيقة كاملةً بحضرتك حين يحاولُ جهلةٌ ، كفرة ، لا مجال لاكتسابهم الى الايمان إلا بواسطة هذه الاسرار العجيبة المذهلة التي ترمز اليها الأسماكُ والحيتان ، ان يقدموا مساعدة مادية في حياتنا هذه او ية مساعدة اخرى دون ان يدركوا الداعي لهذا السلوك الذي يسلكونه والغاية التي اليها يتوقون. الحق انهم لا يُعطُون ادنى غذاء حقيقي ولا يمكن لاولئك ان يقبلوه منهم : لأنهم لا يقومون بهذه الاعمال المقدسة عن نيــة صالحة مستقيمة ولا اولئك يجدون فيها ثمراً . النفس لا تتغذى الا بما دو فرح لها وحيتان البحر وسمكه لا يتغذى الا بما تنبته الأرض بعد انفصالها عن مياه البحر المرة وتقيتها منها .

ورأيت ، اللهمَّ ، ما صنعته فاذا هو حسن ونرى نحن ايضاً ما صنعته فنجده حسناً وحين قلت عن كل طائفة من مخلوقاتك « لتكن » فكانت ، رأيت فاذا كل مخلوق فيها حسن . لقــد ورد في كتابك سبع مرات انك

رأيت ما صنعته حسناً وفي الثامنة رأيتَ ان ما صنعته ليس حسناً وحسب بل هو ممتاز . اذا نظرنا الى كل شيء فيها بمفرده وجدناه حسناً وان نظرنا اليها مجتمعة وجدناها حسنة وممتازة . ان الجسم المركب من اعضاء جميلة اجملُ من كل عضوٍ بمفرده وان كان ذاك العضو جميلاً ، لان الأعضاء متناسقة فيما بينها .

وبحثت ملياً لأرى اذا كنتَ ، سبع مرات او ثماني ، رأيتَ ان اعمالك حسنة فارتضيت بها ، فلم اجد فيك نظرةً الى الأشياء خاضعةً للزمن افهم من خلالها كم مرة رأيت اعمالك ولهذا صرخت قائلاً : ايها الرب ألا يقول كتابك الحق الذي تمليه انت ؟ أليس كتابك الحقيقة عينها ؟ ولِمَ تقول لي ان نظرتك الى الاشياء، لا تخضع لحكم الزمن، في حين يقول لي كتابك انك يوماً فيوماً رأيت ان ما صنعته حسن ، فأحصيت ذلك وعرفته ؟

هاك ما اجبتني به ، يا الهي ، بصوت قوي ، صارخاً في اذن عبدك الباطنية، محطّماً صممي ومنادياً: يا رجل، كلام كتابي، كلامي ؛ كتابي يتكلم في الزمن وكلامي خارج الزمن، لأنه ثابت معي في ابدية تشبه ابديتي. واني ارى ، ما تراه ، بروحي ، واقول ما تقوله ، بروحي ، لكنك ترى ما تراه وتقول ما تقوله ، في الزمن ، وانا كلاّ .

ايها الرب الهي، لقد سمعت والتقطت عن شفاهي نقطة من عذوبة حقيقتك وادركت ان اعمالك لا تروق جميع الناس الذين يزعمون انك صنعت ما صنعت مرغماً كالسماء وترتيب الكواكب فيها فلم تخرجها منك بل اوجدتها قبلك يدٌ اخرى واقتصرتْ مهمتُك على جمعها وإعدادها وتنسيقها لتبني منها بعد هزيمة اعدائك اسوار عالمنا هذا؛ ورميت من خلال هذا البناء العظيم الى ان تحتفظ بهم في عبوديتهم وتمنعهم من ان يثوروا عليك من جديد. انت لم تخلُق ولم تنسّق الاجسام اللحمية ، مثلاً ، ولا الحيوانات

الصغيرة وكل ما له اصول في هذه الأرض . كل مخلوق كوّنه روح عدو وطبيعة أخرى لم تصنعها ، تعاديك في اسفل اجزاء الكون .

هذا ما يراه اولئك الحمقى الجهلــة لأنهم لم يدركوا اعمالك بواسطة روحك ولا فيها عرفوك .

كل من يرى الموجودات بروحك ، ترى بهم انت. وحين يراها حسنة فانت تراها حسنة وحين يروقه شيءٌ حباً بك فانت تروقه في ذاك الشيء عينه ؛ وما يروقُنا في روحك ، يروقُك فينا « لأنه مَنْ مِن الناس يعرف ما في الانسان إلا روح الانسان الذي فيه ؟ هكذا لا يعلم احدٌ ما في الله الا روح الله . ونحن لم نأخذْ روح العالم بل الروح الذي من الله لنعرف ما انعم الله علينا به من العطايا » (١ كور ٢ : ١١–١٢).

ولهذا أتسامحُ مع نفسي واقول : حقاً ، لا يعرف احدٌ ما في الله الا روح الله ؛ فكيف نعرف اذاً انفسنا « ما انعم الله بــه علينا من العطايا » اليك الجواب الذي تلقيته : « ان ما نعرفه بروحه ، روح الله وحده يعرفه » ولقد قيل بحقٍ لمن كانوا يتكلمون تحت تأثــير روح الله : « لستم انتم المتكلمين » (متى ١٠ : ٢٠) . ونستطيع ان نقول بحقٍ لمن يعرفون بروح الله : « لستم انتم العارفين » وبالتالي لمن يرون تحت تأثير الروح القدس « لستم انتم الرائين » ... اننا بروح الله نرى هذا حسناً ؛ وأحرِ بالله ان يراه حسناً .

من الناس من يعتبرون شراً مــا هو حسن ، وهم الذين تكلّمنا عنهم سابقاً . ومنهم من يعتبرون حسناً ما هو حسن وكثيرون منهم يروقُهم صنعُ يديك لأنه حسن ؛ لكن لا تروقهم انت في مخلوقاتك ويؤثرونها عليك . ومنهم من يحكم بصلاح هذا الشيء او ذاك ؛ الله يحكم بصلاحه لأنه موضوع الحب في مخلوقاته بيد ان هذا الحب لا يؤكـد إلا تحت تأثير الروح الذي

اعطاناه الله «لأن محبة الله قد افيضت في قلوبنا بقوة الروح الذي اعطيناه» (رومية ٥ : ٥) وبقوة الروح عينه نرى كل موجود لأنه صادرٌ عمَّن ليس له وجود عادي ، لأنه الوجود المطلق .

اشكرك يا ربي لأنني ارى السماء والارض ، جميع مخلوقاتك السفليـــة والعلوية او بالأحرى الروحية والمادية. ان ما يزيّن هذه الأجزاء التي تكوّن منها ، متحدةً ، الكون او بالأحرى جميع المخلوقات ، هو ذلك النور المخلوق المفصول عن الظلمة. انني ارى الفلك ، هذا القائم بين المياه الروحية السامية والمياه المادية السفلى ، المولود البكر للعالم ؛ اني ارى هذا الفضاء الواسع المدعو سماءً ، ملعب طيور الجو ، القائم بين المياه المتصاعدة بخاراً لتتساقط ندىً في الليالي الصافية وماءً يجري على الأرض . اني ارى جمالَ المياه المتجمعة في قعر البحار وجمال اليابسة التي تتعرّى تـــارة وطوراً تنتظم لتلد النبات والشجر . ارى النيّرات تسطع فوق رؤوسنا والشمس تقضي للنهار حاجته وارى القمر والنجوم تعزي الليل – تلك هي مقاييس الازمنة وعلاماتها – ارى العنصر الرطب مليئاً بالأسماك والحيتان والطيور لأن كثافة الهواء النوعية التي تحمل الطيور في طيرانها تستند في كيانها الى الميـــاه المتبحرة . ارى سطح الأرض يعج بالحيوانات الوحشية وارى الانسان المخلوق على صورتك ومثالك يمارس سلطانه على الحيوانات العجماوات بفضل ما بينك وبينه من شَبَه ، اي بفضل عقله وذكائه. ارى في نفس الانسان عقلاً يأمر وطاعةً تنقاد لأوامره ؛ وارى كذلك في المرأة المخلوقة بطبيعتها للرجل عقلاً كعقل الرجل وان كانت بحكم جنسها خاضعةً للجنس الآخر . وارى ان الاندفاع وراء العمل خاضع للعقل كي يأخذ منه توجيهاً افضلَ واكثرَ انضباطاً .

هذا ما رأيته ؛ ورأيت ان كل عمل من اعماله حسن وان مجموعها ممتاز .

جميع مخلوقاتك تسبِّحك ونسبِّحك نحن ايضاً . يــا ليتنا نحبك كي تسبحك خلائقك . لخلائقك في الزمن بداية ونهاية ، شروق وغروب ، تقدم وانحطاط ، جمال وقبح ، صباح ومساء ؛ يمر كل شيء لديها تارةً خفية وطوراً علناً .

من العدم خلقتها ؛ ولم تخلقها منك ولا من خليقةٍ غريبة عنك، مخلوقةٍ قبلك في الزمن بل من مادةٍ معدَّة للخلق خلقتها بنفس الوقت الذي فيه خلقتَ تلك الاشياء ونقلتها بطرفة عين من المرحلة اللاشكلية واعطيتها شكلاً وصورة .

تختلف مادة السماء والأرض عمَّا يظهر منهما للخارج . من العدم المطلق ابدعتَ المادة ومن الهيولى اخرجت الشكل وتم كل ذلك في آنٍ واحــد واتخذت المادةُ شكلَها بسرعة كلية .

وتأملنا الحقائق الروحية التي صوَّرتها بحسب اعمالك وصفاتها ورأيناها حسنة ، واحدةً واحدة ؛ وفي ابنك الوحيــد ، كلمتك ، رأينا السماء والأرض ، رأينا رأس الكنيسة وجسمها ، وقد اعددت كل هذا قبل الزمان دون ان تحتاج الى صباح ومساء . وحين بدأت تحقِّق في الزمن ما اعددته منذ الأزل ، اظهاراً لمقاصدك الخفية وتنظيماً للفوضى التي كنا فيها بسبب خطايانا المتراكمة علينا التي كانت تشدُّ بنا اكثر فاكثر وتبعدنا عنك الى لجة الظلام حيث يرفرف روحك القدوس ليمد لنا يد المساعدة ، اذ ذاك برَّرتَ الخطأة وميزتهم عن الكفرة وثبتت سلطان كتابك بين اولئك الذين لم يُخضعوا كبرياءهم إلاّ امامك وامام السفليين الخاضعين لهم .

جمعت الكفرة في جسد واحد واحببتهم بروح واحدٍ ، اظهــاراً لارادة المؤمنين الصالحة المثقَّلة باعمال الرحمة اولئك الذين وزعوا مقتنياتهم على الفقراء في سبيل السماء .

لقد اشعلت في الفلك بعض النيّرات ــ كان قديسوك الحائزين كلمةَ

الحياة ، الملآنين من مواهب الروح ، يسيطرون بما لهم من بهاء وسنى — ثم ابدعت ، من المادة الجسدية ، الأسرار والعجائب الظاهرة والاصوات المبشرة بفلك كتابك لتبهر الشعوب الوثنية بخاتم ايمانك . وكان كل ذلك ينابيع بركة ينهل منها مؤمنوك انفسهم . وبعدئذ اظهرت نفوس مؤمنيك الحية بقوة العفة وكل ميلٍ صالح وجددت عــلى صورتك ومثالك النفس التي خرجت عن طاعة الجميع الا عن طاعتك انت ولم تعُد بحاجةٍ الى ان تقتدي بسلطان بشري . اخضعتَ النشاط الفكري للعقل كما اخضعت المرأة للرجل، وشئت لكل المؤمنين ، وهم ضرورةٌ لا غنى عنها في ايصال المؤمنين الى الكمال ، لا بل امرتهم بتقديم المساعدات الزمنية لاخوتهم ، واوصيتهم بالمحبة التي هي مفيدة للجميع .

انت ترى تلك الاعمال فتجدها حسنة وتراها فينا لأنك اعطيتنا الروح القدس كي نستطيع نحن بدورنا ان نراها ونحبك فيها .

هبنا سلاماً يا من وهبتنا كل شيء ؛ هبنا سلام الراحة وسلام السبت والسلام الذي لا يغرب ! كل شيء جميل او ممتاز ينقضي حــين يبلغ حدّه وسيكون له مساءٌ كما كان له صباح .

لكن ، لن يكون لليوم السابع مساءٌ ولن يكون له غروب لأنك قدسته ليبقى الى الأبد . والراحة التي اخذتها في اليوم السابع بعد ان انهيت جميع اعمالك « الممتازة » (وان كنت قد حققتها براحة تامة) هي علامة يذيعها صوتُ كتابك . ونحن كذلك ، حين ننتهي من اعمالنــا التي لن تكون ممتازة الا بقدر ما تسمح لنا بذلك ، سوف نرتاح فيك ، في سبت الحياة الابدية وترتاح انت فينا كما تعمل فينا اليوم، سوف تكون راحتنا راحةً لك فينا كما ان اعمالنا هي اعمالك التي تجري بواسطتنا . العمل والراحة ثابتان لديك يا رب . انت ترى في الزمن ولا تعمل في الزمن لكنك تضع حــداً

لنظرتنا في الزمن وتضع حداً للزمن عينه وللراحة في نهاية الزمن .

نرى جميع ما خلقته لأنه موجود ؛ وهو موجود لأنك تراه ؛ اننا بحواسنا نشعر بوجوده وبعقلنا نرى صلاحه . امـــا انت فقد رأيت كل شيء لما رأيت وجوده ضرورياً .

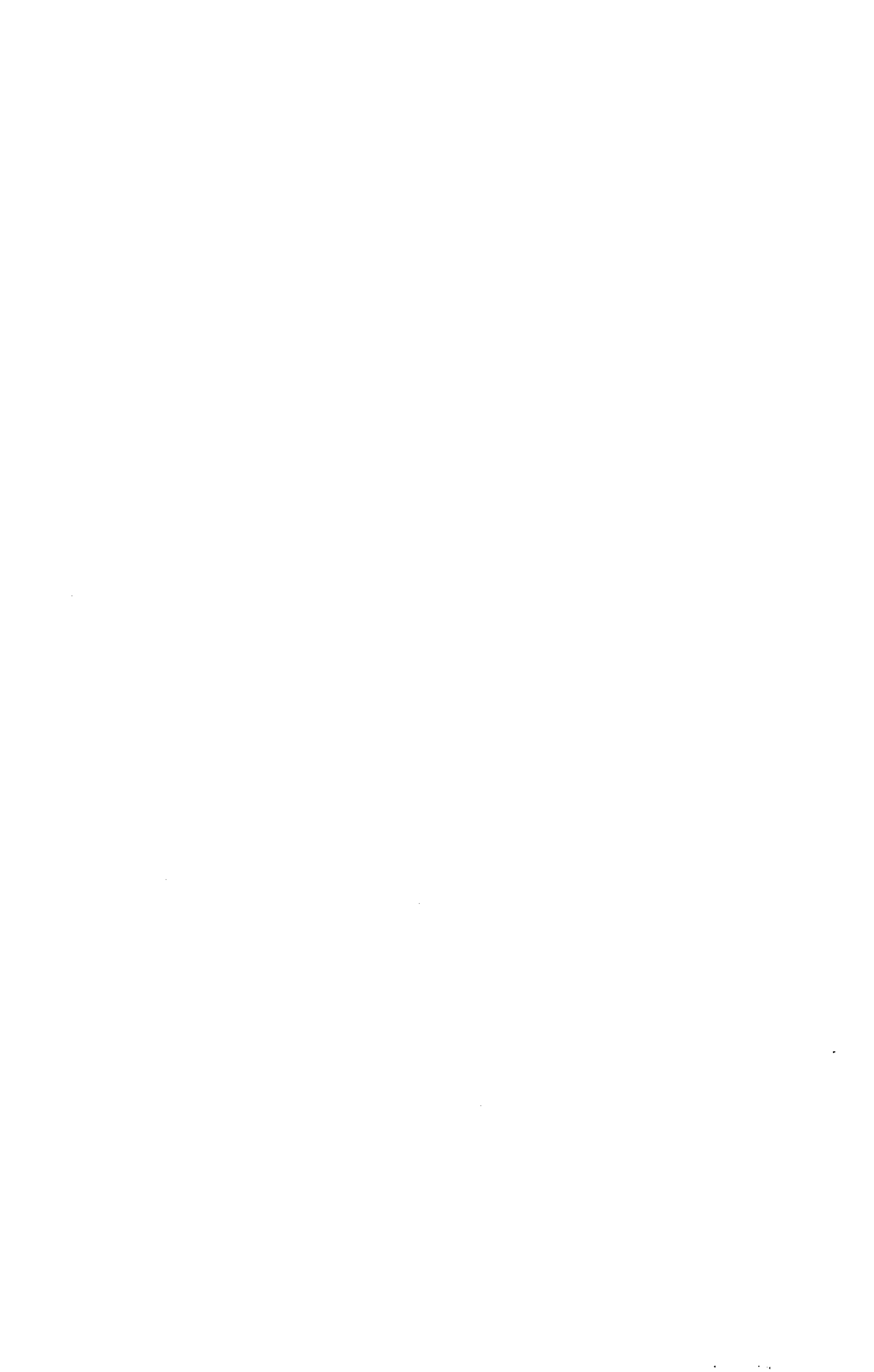
اننا لمستعدون اليومَ لعمل الخير وقبل ان يحبَل قلبُنا من روحك بهذه الفكرة . تركناك في الماضي وسعينا في اثر الشر لكنك ، يا الله ، الصالح الأحد ، لم تنقطع ابداً عن عمل الخير . قد يكون بعض الصلاح في اعمالنا بفضل نعمتك لكن اعمالنا ليست خالدة انما نرجو لأنفسنا بواسطتها الراحة في قداستك اللامتناهية . انها – يا من لا تحتاج الى شيء – ترتـــاح منذ الازل لانك الراحة .

اي انسانٍ يقدر ان يمنح الآخر قوةً على ادراك هذه الحقيقة ؟ او اي ملاك يقدر ان يمنحها لملاكٍ آخر ام لانسان ؟ لا احد. نطلبها منك ونبحث عنها فيك ويجب ان نقرع بابك ؛ اذ ذاك تقبلها ونجدها وينفتح بابُك امام وجهنا !



فهرس

		صفحة
الكتاب الأول	: الحداثة.	٧
الكتاب الثاني	: الفتى المراهق.	٢٩
الكتاب الثالث	: في قرطاجة	٤١
الكتاب الرابع	: عواصف وظلمات	٥٧
الكتاب الخامس	: وميض في الليل	٧٨
الكتاب السادس	: لحاق أمّه به الى ميلانو	٩٧
الكتاب السابع	: صعوبة التحرّر من فكرته الخاطئة عن الله.	١٢١
الكتاب الثامن	: عدوى المثل.	١٤٥
الكتاب التاسع	: صلاة الشكر.	١٦٨
الكتاب العاشر	: امله الوحيد معرفة الله . . .	١٩٣
الكتاب الحادي عشر	: استغاثته بالله في اداء رسالته الجديدة .	٢٣٩
الكتاب الثاني عشر	: شرح مقاطع من كتاب سفر التكوين .	٢٦٦
الكتاب الثالث عشر	: فعل الشكر	٢٩٥



انجزت «المطبعة الكاثوليكية ش م ل» في عاريا – لبنان
طبع هذا الكتاب في الحادي والثلاثين من آب ١٩٩١

٠١٧١٠٤ – ٢ – ٩١/٨/٣١

